فوائد القرآن الزكية

سورة الفاتحة

سورة البقرة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقا

فوائد القرآن الزكية

سورة الفاتحة

سورة البقرة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين. وبعد:

أحمد الله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين على عبده ورسوله نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والذي جعله موعظة وشفاء وهدى ورحمة وبشرى للمؤمنين، وإنذاراً للكافرين الجاحدين، ولم يجعل له عوجا، وحفظه من كل عبث وتحريف، وجعله نوراً وعلماً وحجة وبلاغاً للعالمين.

وإن من فضل الله تعالى على العبد أن يهديه ويسخره لعمل نافع مفيد، يقضي به وقته وعمره في نفع ينتفع به، وينفع به غيره من العالمين. والفضل أولاً وآخراً لله تعالى الذي علَّم القرآن، وعلَّم بالقلم، وعلَّم الإنسان البيان، وعلمه ما لا يعلم مما يفتح الله تعالى به على من يشاء من عباده، وعلم الإنسان القراءة والكتابة، وسخر له القلم، وما يكتب به وما يكتب عليه. قال تعالى (الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان. عَلَّمَهُ البيان) وقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربُك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم.) فالحمد والشكر كله لله سبحانه وتعالى.

وإن من توفيق الله تعالى وفضله وكرمه أن هداني لهذا العمل العظيم، الذي هِبْتُه لجلالة كلام رب العالمين، ومنزلة القرآن المجيد، غير أني وجدت نفسي تندفع له حباً واندفاعاً لمعرفة شيئاً من كنوز القرآن الكريم، ورغبة في ثواب رب العالمين، وتلذذاً وأُنْسَاً بما فيه، من عذوبة وجمال كلام رب العالمين، وعظيم بلاغته وبيانه، وغزارة فوائده التي تتابع فيضاً وعطاءً، فلا تنتهي عند أحد من الناس. ولم أجد إلا الدعاء والاستخارة التي ازدت بها طمعاً وحباً في خوض هذا العمل العظيم الجليل، فتوكلت على الله العزيز العليم الرحيم، وسألته التوفيق والتسديد، وشرعت أقرأ في كُتِب التفسير لكل آية من كتاب الله تعالى المبين، ومُتَنَقلاً بين صفحاتها، لأستفيد من فهم العلماء الراسخين، وأنهل ما فاض به عليهم رَبُّ العالمين، ثم أبني الفوائد واستنبطها وأنظمها مع المعاني والدلالات للآيات من كلام رب العالمين، لتكون سرداً غير مفصولة عنه بأرقام متتابعات، حتى لا يشعر القارئ بالفصل بين المعاني والفوائد والدلالات، ثم التقط من كتب التفسير ما يدخل في الفوائد دون الدخول في الأحكام، التي ليست من مرادي في هذا الكتاب. وإن اقتبست شيئاً أعزوه لصاحبه من العلماء الأفذاذ.

وبالتالي فليست فوائد هذا الكتاب مجموعة ومنقولة مما سطرته صفحات أسفار التفسير، وإن تضمنت شيئاً من ذلك الجهد العظيم، بينته في مكانه أثناء التحرير والتحبير، وبالتالي فهي استنباطات، قد استنتجتها بفضل الله تعالى من دلالات ومعطيات آيات القرآن الكريم، ومما فهمته من أقوال الجهابذة من علماء التفسير، عليهم رحمة الله وبركاته أجمعين، وجمعني بهم مع النبيين والصديقين والشهداء ووالدينا وأهلينا والمسلمين أجمعين.

وقد شرعت في هذا العمل العظيم الجليل المهيب في التاسع عشر من شهر شوال من عام ألف واربعمائة وسبع وثلاثين من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم، والموافق للرابع والعشرين من شهر يوليو لعام الفين وستة عشر من ميلاد المسيح عليه السلام.

فاسأل الله تعالى أن أكون ممن وفقهم العزيز الرحمن في خدمة كتابه الموصوف بالذكر الحكيم المبين المجيد، فأكون ممن وفقه الله تعالى لما يحبه ويرضاه، وأن يجعله عملاً نافعاً وصدقة جارية إلى يوم الدين، وأن يُوفقني لإتمامه وإكماله على الوجه الذي يُرضيه، وأن يُسددني ويلهمني الصواب المبين، وأن يتقبله مني ويرفع به دراجاتي في عليين، ويجعله عملاً نافعاً متقبلاً. إنه كريم رحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

المؤلف:

أ.د. خالد بن حامد بن مبارك الحازمي

فوائد القرآن الزكية

فوائد سورة الفاتحة

فوائد سورة الفاتحة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾

ابتدأت سورة الفاتحة بالبسملة كآية منها، قال تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) لتكون البسملة أول الابتداء لأول وأعظم سورة في كتاب الله تعالى، مشتملة على الْبَدْءِ باسم الله تعالى، مما يفيد أهمية البسملة، ومنزلتها وعِظَم الافتتاح بها لكل أمر ذي بال، وذلك لما اشتملت عليه من ثلاثة أسماء لله تعالى (الله) و(الرحمن) و (الرحيم) وفي دلالتها رحمة الله تعالى الواسعة التي وسعت كل شيء. وعندما يبدأ المسلم أمره بالبسملة، فإنما يبدأ بأسماء الله عَزَّ وجل التي أمر تبارك وتعالى أن يُدْعَى بها، كما جاء في سورة الأعراف (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) فيكون العبد قد دعا الله عَزَّ وجل بما افتتح به كتابه الكريم. فيكون معناها للقارئ: أبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم. وبهذا تضمنت هذه السورة الكريمة العظيمة على تقرير توحيد الأسماء والصفات.

ثم تَلَى البسملةَ تمجيدُ الله تعالى (الحمد لله رب العالمين) وقوله تعالى (الحمد لله) هو الثناء الكامل عليه سبحانه وتعالى، والشكر له تبارك وتعالى، بما هو أهل له عَزَّ وجل. فهو المستحق للثناء كله والشكر كله. وفي افتتاح السورة التي هي افتتاح لكتاب الله تعالى بقول (الحمد لله رب العالمين) ما يُعلِّم المسلمَ أن الله تعالى له المحامد كلها، وأنه هو المستحق للحمد الكامل، والثناء العطر، وأنه يجب على العبد أن يُثني على الله تعالى بما أثنى به على نفسه، وأعلَمَ عبادَه به في كتابه العزيز. واشتملت الآية على ما يبين ويُثْبِتُ للعباد أن الله تعالى رَبَّ كل شيء، ومالكه مُلْكَ إنشاء وتصرف بما شاء، وكيف ما شاء، ومتى شاء سبحانه وتعالى.

وجملة (رب العالمين) تُفيد أنه رَبّ العوالم كلها: عالَم الإنس، وعالَم الملائكة، وعالَم الجن، وعالَم الحيوان، وعالَم النبات، وهو رب السماوات والأرض، وهو رب كل شيء من العوالم، ولا خالق غيره. وبهذا تكون سورة الفاتحة قد تضمنت توحيد الربوبية وتقريره.

مما يفيد أهمية معرفة المسلم لتلك لدلالة، مع استشعار هذه الملكية لله تعالى، وأن ما يملكه الإنسان هو ملك تفويض وعطاء من الله تعالى، وتحت مشيئته، حتى أن المالك من عباده، لا يستطيع التَّصَرّف فيما هو تحت يده إلا بما يشاء الله تبارك وتعالى، فلا يستطيع أن يبيع أو يشتري أو ينقل أو يحقق مطلوباً، أو يدفع أمراً إلا بمشيئة الله تعالى، فالعبد يتصرف بمشيئته التي هي تحت مشيئة الله تعالى، كما وجَّه سبحانه وتعالى عباده في سورة الكهف (ولا تَقُولَنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) وفي إدراك هذا ما يحقق للعبد عبودية الدعاء، بأن يدعوا الله الذي يَمْلِكُهُ وما مَلَك، وأن يعينه ويحقق له ما يريد أن يتصرف فيه، مما هو تحت يديه، ويمتد هذا إلى الدعاء والالتجاء إلى المالك الحقيقي (رب العالمين) في كل شأن وأمر، صغيرٍ وكبير. وهذا يحقق به توحيد الألوهية لله تعالى، فلا تُطلب الرحمة ولا المغفرة ولا الغوث إلا ممن يملك أمرها وإيجادها وتدبيرها.

ثم كانت الآية التالية في وصفه سبحانه وتعالى (الرحمن الرحيم) وهما إسمان من أسماء لله تعالى، متضمنان لمعاني الرحمة الواسعة العظيمة، التي تستثير عند المؤمن جانب الرجاء، والأمل، والمحبة لله الرحمن الرحيم، الذي وصف وسَمَّى نفسه العظيمة الكريمة بذلك، بل وتدفع العبد أن يطمع فيما عنده سبحانه وتعالى، لأن (الرحيم) اسمٌ متضمنٌ لصفة الرحمة، وهذا يُقوي رجاء المؤمن في رحمته سبحانه وتعالى. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: لما كان في اتصافه سبحانه وتعالى بصفة (رب العالمين) ترهيب، قرنه بقوله تعالى (الرحمن الرحيم) لما تضمن من الترغيب. ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع[١] كما في سورة الحجر (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم) وهذا يفيد تربوياً ودعوياً وقيادياً في مجال الإدارة ونحوها، أهمية الجمع بين قوة التطبيق والحزم فيه، وبين الرحمة بالغير. ليتحقق القبول والأداء، وهو التوازن بين الترغيب والترهيب، الذي يحقق التوازن النفسي والتوازن في التفاعل والتعامل.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٩٨)

كما تضمنت السورة العظيمة بيان مُلك الله تعالى لليوم الآخِر (مالك يوم الدين) وفي هذا تمجيد لله تعالى، بأنه مالك يوم القيامة، وتذكير بها، حيث لا تملك نفس لنفس شيئا. كما قال تعالى في سورة الانفطار (يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئا والأمر يومئذٍ لله) وهذا يفيد أهمية أن يتذكر المسلم ذلك اليوم، وهو يتلو هذه الآية عشرات المرات يومياً في صلواته، حتى يكون ذلك حاضراً له، فيهذب سلوكَه وفِكرَه بما يدفعه لكل خير، ويحذره من كل معصية.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى تحقيق إخلاص العبودية لله وحده لا شريك له (إياك نعبد) فلا معبود بحق غير الله تعالى. فيقر العبد لربه أنه يعبده وحده، وبالتالي يتعلم منها لوازمها بأن لا يصرف شيئاً من العبادة لغيره سبحانه وتعالى، بعد أن أقر بالعبودية له عَزَّ وجل، بقوله (إياك نعبد) بل وأقر أيضاً ألا يستعين إلا بالله فيما هو حق لله تعالى (وإياك نستعين) وإن كانت الاستعانة داخلة في العبودية (إياك نعبد) إلا أن في إفرادها تنبيه وتخصيص لمنزلتها العظيمة، وعلاقتها بالدعاء، والرجاء، والخوف، والمحبة، والتي هي لب العبادة، فالرجاء استعانة بمن يرجو، والخوف استعانة بمن يخاف منه ألا يعاقبه، والاستعانة دعاء من يرجوا أن يعينه في جلب ما يُحب أو دفع ما يكره، والاستعانة تكون في الالتجاء لمن يحب في عونه ورجائه. فالاستعانة هي اعتماد على الْمُسْتَعَانُ به، ويجب ألا يكون الاعتماد إلا على الله تبارك وتعالى. وهذا يفيد أهمية معرفة دلالات هذه السورة العظيمة، وما اشتملت عليه من عِلْمٍ تعظيم ربنا وخالقنا تبارك وتعالى. ومن الفوائد أن هذه الآية العظيمة قد تضمنت توحيد الألوهية، بصرف العبادة لله تعالى، إذ أنه هو المعبود، ولا معبود بحق سواه سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى دعاء الهداية، وطلب الاستهداء من الله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وهذا طلب عظيم من العبد لربَّهُ وخالقه عَزَّ وجل، بأن يهديه، وذلك بدلالته على الخير والحق والرشاد، وأن يعينه على ذلك، ويثبته عليه. مما يدل على افتقار العبد لله تعالى في الهداية، فيلزم العبدُ الإلحاح على الله تعالى في طلب الهداية إلى الطريق الصحيح، وأن يثبته عليه، لأن الطُّرُق كثيرة ومتعددة، وهي تتنازعه ليهوي إليها، غير أن هناك طريقاً واحداً صحيحاً فقط، وهو (الصراط المستقيم) وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى بما يحبه ويرضاه، ذلك الطريق الموصل إلى جناته سبحانه وتعالى. وهذا يتطلب لزوم الإسلام الذي هو دين الله تعالى، الموصوف بقوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم من الأنبياء والشهداء والصدِّيقين والصالحين، وليس طريقٌ ولا صراطٌ مستَقيمٌ غيره، حيث نفى تبارك وتعالى ما عداه، ونفى طريق

المغضوب عليهم وطريق الضالين، كما قال تعالى (غير المغضوب عليهم) الذين عرفوا الحق وتركوه وهم اليهود، وكذلك (ولا الضالين) الذين تركوا الحق على جهل وضلال، وهم النصارى ونحوهم.

ومن فوائد هذه السورة العظيمة الكريمة أنها رقية يتعالج بها المريض، كما جاء في الحديث، أن صحابياً رقى بفاتحة الكتاب رجلاً في سفر، فشافاه الله تعالى وعافاه، وبعد أن عادوا، أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام (وما يدريه أنها رقية)[١] وقال عليه الصلاة والسلام للصحابي أبي سعيد بن المعلى (ألا أعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟) ويقول الصحابي رضي الله عنه: فأخذ بيدي. فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله. إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. فقال صلى الله عليه وسلم (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)[٢]

ومن عظيم فوائد هذه السورة المباركة ما تضمنه هذا الحديث القدسي. قال الله عَزَّ وجل (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي شطرين. فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل...يقول العبد (الحمد لله رب العالمين) فيقول الله عَزَّ وجل: حمدني عبدي، ولعبدي ما سأل. فيقول (الرحمن الرحيم) فيقول: أثنى عليَّ عبدي، ولعبدي ما سأل. يقول (مالك يوم الدين) فيقول الله: مجدني عبدي. فهذا لي. وهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين. يقول العبد (إياك نعبدُ وإياك نستعين) يعني: فهذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. وآخر السورة لعبدي. يقول العبد (اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فهذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[٣]

---

(١) البخاري (٣/٣٤٢) برقم (٥٠٠٧)

(٢) البخاري (٣/٣٤٢) برقم (٥٠٠٦)

(٣) ابن ماجه (٢/ ١٢٤٣-١٢٤٤) برقم (٣٧٨٤)

فوائد القرآن الزكية

فوائد سورة

البقرة

فوائد سورة البقرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

{ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥}

ابتدأت ثاني سور القرآن الكريم بثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف من أن يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي. ويدفعه هذا تشوقاً لمتابعة ما بعدها. وأما عِلْمُ معناها ومرادها عند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا (ا لم) و(المص) استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم.[٢]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب معناه عنها، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه لما يُراد تعليمه وإخباره للمُخَاطب، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، ويعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

ثم من فوائد مطلع سورة البقرة أنها بدأت بنفي الريبة والشك عن القرآن الكريم (ذلك الكتاب لا ريب فيه) لِيَعْقُبَهُ وليتلو هذا النفي اثبات ما تضمنه القرآن من العموم (هدى للمتقين) وفي اثبات الهدى بعد نفي الشك والريبة ما يدفع النفس للاستماع إليه. وإذا استمعت له، حتماً سَتُقْبِل عليه، لما فيه من الحقائق ومكارم الأخلاق والخير، وكذلك جمال تراكيب ألفاظه ومعجزات بيانه. إلا من كان في قلبه كِبْرٌ، فلم تُكْتَب له الهداية والتوفيق.

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، وهو اليقين. فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين، المزيل للشك والريب. وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح.[٢]

ومن فوائد ذلك أهمية البَدْء بإزالة الشك والريبة والجهل المركب عمن يُراد تعليمهم وتوجيههم وإرشادهم، لتصفوا عُقُوُلهم وقُلُوُبهم للخير والحقيقة. وكذلك بيان ما يؤكد لهم أن الداعية والمعلم والناصح والموجه والمرشد أعلم فيما يقوم به من تعليم وارشاد وتوجيه. فالسورة بدأت بما يعجزون عن معرفته (ا لم) ليدركوا أن هذا الكتاب ليس من عند البشر، ولا من عند من أُرْسِل به، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو من عند الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

وتضمنت هذه الآية الكريمة معطيات عظيمة، وغاية في الدقة والإعجاز، إذ يقفُ العقل عندها عاجزاً. ففي تعدد أوجه الوقف ما يعطي دلالات متنوعة، وكل وصل فيها يعطي دلالة معينة (ذلك الكتاب) (لا ريب فيه هدى للمتقين) (ذلك الكتاب لا ريب) (فيه هدى للمتقين) (ذلك الكتاب لا ريب فيه) (هدى للمتقين) وكل وقف يعطي دلالة وتفسيراً معيناً، يمكن الوقوف عليها في كتب التفسير. وهذا من المعجزات البيانية للقرآن الكريم، حيث أعطى النص دلالات مترابطة بمجرد تغيير الوقف

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣١)

والابتداء. لتتكامل بها المعاني والمراد. فسبحان من ملك البيان وأنزله، وتحدى به الثقلين، من إنس وجن.

ومن الفوائد أنه لم يخصص الهدى بمجال أو ناحية محددة، أو بخصيصة أو أكثر، بل كانت عامة لجميع المصالح الدنيوية والأخروية.

وقوله تعالى (هدى للمتقين) خص به المتقين، لأن الذي يقبله سيهتدي به، فيكون من المتقين، وبالتالي تحصل التقوى لمن استقبله وقَبِلَهُ، وقَبِلَ ما جاء فيه، ثم استهدى بهديه. فيكون هذا الكتاب هدى للمتقين، الذين يقبلونه ويستهدون بهديه.(١)

ومن الفوائد أيضاً: التفصيل بعد الإجمال. فبعد أن تم ذِكْر المتقين الذين ينتفعون بما أنزل الله تعالى، فَصَّلَ ركائز التقوى، وهي الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى، ويؤمنون بما أُنْزِلَ على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أُنزل من قبل على الأنبياء، ويوقنون بما بعد الموت، وهي (الآخرة) قال تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وهم بالآخرة هم يوقنون)

وللتفصيل بعد الإجمال فوائد جليلة، حيث في الإجمال تشويق لمعرفة مضمون ما أُجْمِل، وليستوعب المُخاطب الأمر جملة، وهو أقصر وأسرع في الفهم والإدراك. ثم يعقبُه التفصيل، وهذا يفيد في أساليب التعليم والتدريس البدء بالإجمال ثم التفصيل، لما لذلك من اثر عظيم في التشويق اثناء تقديم العلم والمعرفة للمتعلم، وكذا في مجال الخطابة والدعوة.

وقد تقدم الإيمان بالغيب على غيره، لما في الإيمان بالغيب من آثار على بقية أجزاء الإيمان، وعلى العمل ببقية الأركان. ففي الإيمان بالغيب استسلام معرفي لما غاب عن النظر والسمع. وهو النعمة التي مَنْ مُنحها من الْخَلْق، فقد مُنح ذروة النعم، فما بعدها تبعاً لها، ولا يستعصي على النفس قبولاً، وإن استعصى عليها كمال العمل بها.

---

(١) وقد تكلم عن هذا الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٨ ــ ١١٣) ابن الجوزي في زاد المسير من علم التفسير (١/١٨- ١٩) وابن سعدي في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣١ - ٣٢)

ومن الفوائد أن الله تعالى نسب الرزق له، فقال تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) ولم يقل ومما اكتسبوا ينفقون. ليدرك المرء أن الرزق فضل من الله تعالى، وأن السعي فيه، هو من باب الأخذ بالأسباب، وكم من متسبب للرزق لم يجن إلا قليلا، وكم من متسبب جنى خيراً عظيما، فاق به قدر تَسَبُّبِه، ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة الذاريات (وفي السماء رزقكم وما توعدون)

وقال العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى: وخص الله تعالى الإيمان بالآخرة بالذكر بعد العموم، لأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل[١] فمن يوقن باليوم الآخر، يتأهب له بما هو مطلوب.

وَرَغَّبَت الآياتُ فيما هو مطلوب من العبد بالمثوبة الجزيلة، وهي الفلاح (وأولئك هم المفلحون) وهو الفوز بما يُحب ويرغب المُخَاطب، وكذا النجاة مما يخاف ويرهب.

ثم بعد أن ذكر الله سُبُل الفلاح والنجاح بما تضمنه الكتاب الكريم، بين صفات الكفار.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠)

بعد أن بين سبحانه وتعالى أوصاف أهل الإيمان والتقوى والعبادة، وفوزهم بالفلاح، ذكر بعدهم حال الكفار الجاحدون المكابرون المعاندون. الذين بلغ بهم العناد والمكابرة أن تَمَنّعُوا عن الإيمان جُحُوداً به واستكباراً، وأصبح الإنذار معهم لا ينفع ولا يُجدي. قال تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرهم لا يؤمنون)

فمن فوائد ذلك أن بعض الناس لا يقبل الحق وهو ظاهر له كالشمس في كبد السماء. فلا ينشغل الداعية به عن غيره، فلا يُشْغِل نفسه بالمتكابر المتعالي عن قبول الحق، بعد أن استبان له الحق وظهر، لأن الله ختم على قلبه وسمعه وبصره، بسبب كبره وإعراضه عن الحق المبين، وهم الكفار

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٤/١)

المعاندين. وهذا دليل على خطورة الكبر والأنفة عن قبول الحق. فهو الذي يحجب عطاء الله تعالى وكرمه عن العبد.

بل قد حجب الله عنهم الانتفاع بمصادر التعلم، وهي: القلوب التي بها يعقل الإنسان، والسمع الذي يسمع به المسموعات، والبصر الذي يُبصر به الْمُبْصَرَات (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)

والكبر قد يكون في الأمور العظيمة كعدم قبول الإسلام والإيمان والحق الذي لا ريب فيه، وقد يكون فيما هو دون ذلك، فمن يأنف أن يقبل الحق من مصادر الحق، فقد يحجب الله عنه ما تكبر عنه. كالذي يتكبر على ضعيف لضعف حاله، فقد يُحْوِجُه الله تعالى إلى ذلك الضعيف، وقد يوليه عليه يوما من الأيام، في شأن من شؤن الحياة. مما يوجب أهمية العلم بقيمة ومنزلة التواضع، الباعث لعمل الصالحات، والْمُحَقق للسكينة، والجالب للخير، وقبول الحق والعمل به.

وكما أن المؤمنين هم المفلحون، فإن الكفار هم الخاسرون، المعذَّبُون، كما قال تعالى (لهم عذاب عظيم) فثواب للمؤمنين، وجزاء للكافرين.

ثم بين الله تعالى صنفاً من الناس، وهم المنافقون، الذين يُظهرون خلاف ما يبطنون (ومن الناس من يقول آمنَّا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) وهم يقصدون بهذا العمل النفاقي المخادعة والمراوغة (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)

والخداع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه.[١] ولا يمكن للمخلوق أن يخدع الله تبارك وتعالى، لأنه لا تخفى عليه خافية، فكل شيء له علانية. وكونهم يُخادعون الله تعالى، فهو مخادعة منهم لدين الله تعالى، بإظهار الإيمان وإخفاء خلافه، وكذلك خداعهم لرسوله صلى الله عليه وسلم. هو خداع في الدين، بإظهار الدين وإبطان الكفر.

فالمنافق مخادع، يظن بغبائه أنه قد خدع غيره، بينما هو خدع نفسه (وما يخدعون إلا أنفسهم) ذكر الإمام القرطبي: أي ما تحل عاقبة الخداع إلا بهم. والخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. وأما من عرف البواطن، فإن من دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه. ودل هذا على أن المنافقين لم

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٢٥)

يعرفوا الله تعالى، إذ لو عرفوه، لعرفوا أنه لا يُخْدَع.[١] لأن الله تعالى مطلع عليهم وعلى سرائرهم، وعلى ما يخفيه العبد في قلبه، وما سيُخفيه في مستقبل حياته من مكر وعمل. ومع هذا فإنهم لا يشعرون أنهم بهذا يخدعون أنفسهم، حيث قال تبارك وتعالى (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) وهي من أقبح المسالك، ومن أشد العقوبات أن يسير المرء بين الناس وهو لا يعلم أن الناس يعلمون ما هو عليه من خسيس الفعال والاعتقاد والسلوك. يظن أنه مكتسي ومتوقي بالنفاق، ليتجنب به معرفة الناس لحقيقته، وهو عُريان السلوك والمنهج، لما يكشفه الله تعالى للناس عنه، ولو بعد حين، أو يُسَرّعُ اللهُ تعالى كشف حقيقته. كما قال سبحانه في سورة فاطر (ولا يحيقُ المكرُ السيء إلا بأهله)

فالناس أصناف في تعاملهم، فمنهم المعاند المكابر (سواء أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ومنهم المخادع. (يُخادعون الله والذين آمنوا) وهذان النوعان قد يكونا على مستوى الإيمان والإسلام، أو على ما هو أقل من ذلك. من خلال ساحة التعامل بين الناس. فهناك المعاند وهناك الْمُلاين الذي يُشعر غيره بالقبول والموافقة، وهو يُبطن خلاف ما أظهر. وكلاهما من مساوئ الأخلاق وأرذلها.

وعقاب الله للمكابر الرافض للحق دنيوي وأخروي، قال تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)

ومن فوائد الآيات الكريمة أن بينت مرض القلب (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً بما كانوا يكذبون) فتكذيبهم الرُسُل، وما أُنْزِل على النبي صلى الله عليه وسلم، وَرَدّ الحق، والتشكيك فيه، أمْرَضَ قلوبَهم المريضة، فازدات مرضاً على مرضها. فكان عقاب الله تعالى لهم أن زاد قلوبهم مرضاً. مما يفيد الحذر من الطُرُق والسُبُل التي تفضي إلى تكذيب الحق، وتجر للشبهات، وذلك بأن يعتصم الإنسان بالله تعالى، وبما أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهما: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فكما يبتعد بجسمه عن أسباب المرض، ويحفظه من ذلك، فأيضاً عليه الابتعاد بدينه عن كل ما يُمْرِض قلبَه من مرض الشبهات، أجارنا الله تعالى منها. وقد حذر الله من ذلك. كما قال تعالى في سورة الصف (فلما زاغوا أزاغ اللهُ قلوبَهم) وكلما اهتدى الإنسان زاده الله هدى. كما قال تعالى في سورة مريم (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٣٧)

وكذلك من الفوائد البعد عن الحِيَل في الدين، لاستباحة ما نهى الله تعالى عنه، أو لتفويت ما أمر الله تعالى به. فإن ذلك من مسلك المنافقين. والله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

ثم يبين الله عَزَّ وجل حال المنافقين في مفاهماتهم وتفهمهم للفساد والحق (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) فيرون فسادهم النفاقي صلاحاً، وذلك زعماً وافتراءً من عند أنفسهم.

فيرد الله تعالى عليهم فهمهم الباطل من فوق سبع سماوات (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) فهم المفسدون الفاسدون بفسادهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك لاستيلاء الكفر والكبر والحقد عليهم، فيرون أن ما يقومون به هو الصواب والصلاح.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن المكابر لا يتأمل ما يُنَاقَش ويُحَاوَر فيه، بل يفكر في كيفية الرد على من يناقشه، فبمجرد أن قيل لهم (لا تفسدوا في الأرض) بسبب ما يحصلُ منهم من العمل النفاقي، كالكفر، والمعاصي، وكشف أسرار المؤمنين للعدو. قالوا (إنما نحن مصلحون) وذلك بإضفاء الصلاح على باطلهم الذي يقومون به.

ومن فوائد ذلك أن المنافق والمكابر لا يعترف بسوء عمله، بل يبرره بما يتوهم أن غيره يقتنع به. وهو لا يشعر أن غيره مُدرك لفساده وإفساده. فهو يتبختر بباطله، ومعتقداً أن غيره غير مُكتشف لنفاقه، في حين أن فساده مكشوف ومتعري للصالحين.

ومن فوائد ذلك أن من صفات المُصلح المحب للصلاح: الاستماع والإنصات، والتأمل والتدبر، حتى يقف على الراجح والأصلح والحق، حتى يعمل به. فالمؤمن لا يكابر على الصلاح، بل ينقاد له. لعلمه أن الفساد منافي للصلاح. وسواء كان هذا الفساد في الإيمان أو العبادات أو الأخلاق، أو في دائرة التعامل الاجتماعي والمهني والأسري. فهو لا ينقاد له، بل يتجنبه من خلال الانقياد للحق، من دون مكابرة في ذلك.

كما أن إفساد الأرض لا ينحصر في إفساد ترابها ومائها وهوائها، بل أيضاً يكون بالمعاصي التي تُوجِب غضب الرب تبارك وتعالى، فإذا تم إفسادها بالمعاصي، أخذهم الله بما كانوا يُفسدون. كما قال تعالى في سورة الأعراف (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض. ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)

وكذلك المكابر والمنافق يرمي ويصف صلاح غيره بالجهل والسفه (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس. قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) فأطلقوا على المؤمنين الصالحين المصلحين صفة السفه، والسفيه هو خفيف العقل، الذي لا يُحسن التصرف والتدبير. بل مِنْ كبرهم أنهم يقولون ذلك بصفة السؤال الاستنكاري. (أنؤمنُ كما آمن السفهاء) فانقلبت الموازين والمقاييس لديهم، حتى ثبت في قلوبهم وعقولهم أنهم صالحون، والمؤمنين سفهاء مفسدون. وهذا يُفيد أن من انطمس قلبه وعقله يرى فساده صلاحاً وتقدماً، بمسوغات خادعة كاذبة. وكذلك يفيد هذا في أهمية التبصر والحلم في المناقشات، لاستيعاب ما يقوله الغير، والبُعد عن مسلك المنافقين والمكابرين في أخلاقهم.

وقد يصف المكابر والمعاند صواب غيره بالسفه والجهل والفساد، وهو لا يشعر بفساد نفسه وفكره، نتيجة استحواذ كبره وكفره عليه. (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)

وقد رد الله تعالى عليهم بأنهم هم السفهاء (ألا إنهم هم السفهاء) ووصفهم أيضاً بأنهم لا يعلمون عن أنفسهم من أنهم سفهاء (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) وأما ما يخص خداعهم وإفسادهم فلم يقل تبارك وتعالى عنهم لا يعلمون، بل وصفهم بعدم شعورهم بما هم عليه، من أنهم يخدعون أنفسهم، وكذلك بعدم شعورهم من أنهم فاسدون (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) وبقوله تعالى (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) وهذه من دقائق الصياغة البلاغية للقرآن الكريم، الدالة دلالة حقيقية عميقة للوصف والموصوف به، وذلك للفارق الدقيق بين عدم الشعور، وعدم العلم، لأن السفه خفة العقل، وعدم القدرة على التدبير والتصرف، وبالتالي فإن أدق وصف لتصرفات صاحبه هو عدم العلم، لفقدانه موجبه وهو التعقل. فتصرفاتهم شبيهة بتصرفات الفاقد لعقل الرشد الذي يمنعه من الإيمان وذلك لسفهه، وهذا لا يعني أنهم فاقدين لعقل الإدراك الموجب للتكليف والمسؤولية، كما في قوله تعالى في سورة الملك (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ففقدانهم متعلقٌ بفقدان عقل الرشد، وليس لعقل الإدراك الموجب للتكليف. وأما الشعور فهو العلم المرتبط بدرجات الإدراك، وهو الإحساس، فلا يحسون ويفطنون لوبال خداعهم وفسادهم، فهم فاقدون

الإحساس بأنهم يخدعون من يعرف خداعهم النفاقي، وهم فاقدون الإحساس بأنهم مفسدون. فيتمادون في الخداع والإفساد، وهم مكشوفون في خداعهم وفسادهم، ولكن لا يشعرون بذلك. وهذا من أفسد حالات المرء والعياذ بالله تعالى من أن يموت لديه الاستشعار والإحساس بفساده وخداعه، فَيُفْسِد ويخادع، وهو معتقد أنه الذكي الفطن، وهو مكشوف لغيره بما هو عليه من خداع وفساد، غير أنه لا يشعر بحالة خداعه وفساده.

وإذا كان المنافقون والمعاندون يصفون المؤمنين بالسفهاء (أنؤمن كما آمن السفهاء) فلا غرابة أن يُوصَفَ الحق والخير والصلاح وأهله بمثل ذلك، عبر العصور والأزمان، وذلك من قِبَلِ المكذبين والحاقدين وغيرهم. وبالتالي فليوطِّن المؤمنُ نفسه على سماع ما يكره من أعداء الدين، ويُحكِمُ التعامل معهم بالحكمة، وكذلك توطين النفس عند سماع أصوات الباطل، وهي تهاجم الفضيلة، وليتعامل معها بالحكمة. لأن هذه طبائع الاختلاف البشري، في الخير والشر. فالله قادر على أن يقابل نفاقهم وكفرهم بالهلاك، ولكن حكمته وحلمه تبارك وتعالى، اقتضت أن تسير سننه في خلقه على نهج حلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾

ثم يبين السياق القرآني العظيم صورة حال نفاق المنافقين، من أنهم إذا التقوا بالمؤمنين زعموا لهم أنهم مؤمنين (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) وإذا كانوا مع رؤسائهم قالوا غير ذلك (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) فهم إذا عادوا إلى شياطينهم وخلوا بهم، تبرؤا من المؤمنين، وأثبتوا ولاءهم لشياطينهم، وهم رؤساؤهم. وقيل شياطين الجن، وقيل الكهان، ولكن لفظ الشيطنة الذي معناه البعد عن الإيمان والخير، يعم جميع من ذُكر. والله أعلم[1] وهذا من دقائق البلاغة القرآنية، أن تستوعب اللفظة الواحدة مجموعة من الدلالات المرادة، فاستوعبت لفظة (شياطينهم) جميع الْشُخُوص الذين يمثلون فعل الشياطين، فسبحان من أبهر وأعجز بكتابه خلقه. ومن الدقة البلاغية في القرآن الكريم أنه وَصَفَ اجتماعهم بالمؤمنين لقاء، وبشياطينهم خلوة. (وإذا لقوا الذين آمنوا) وهناك (وإذا خلوا إلى شياطينهم) مما يدل على وضوح أمر المؤمنين، فليس لديهم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٥/١)

خلوات مكايده، فلقاؤهم بهم علانية. وأما ملاقاتهم لشياطينهم، ففي خلوة من أن يكون معهم أو يراهم أحدٌ من المؤمنين، وهذه صورة واضحة لعملية النفاق، ودقة بلاغية بيانية للقرآن المبين العظيم.

ومن معطيات هذه الآيات الكريمات، أن منهج المنافقين في التعامل مبني على قاعدة كلية لديهم، وهي موافقة المؤمنين في الظاهر، ومخالفتهم ومعاداتهم في الباطن، والوقوف مع أعداء المؤمنين في الخفاء. وهذا يقتضي الحيطة والحذر ممن سلوكهم نفاقي، لأنه مهما بدر من صور الموافقة منهم، فهو لا يخرج عن دائرة الخداع. فمن يخادع الله تعالى فإنه لمخادعة من دونه أقوى وأظهر تحققاً.

وهذا المسلك، مسلك شيطاني، فقد قال الله تعالى عنهم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) فوصفهم الله تعالى بما تخلقوا به، مما يُفيد أن الإنسان يوصف بما يتخلق به وصار طبعاً ومنهجاً له، فقد وصف اللهُ عَزَّ وجل من يلجؤون إليهم بالشياطين، لأن مسلكهم مسلك شيطاني. وهذا البيان من الله تعالى كشفٌ لحقيقتهم، حتى يعرف المؤمنون الحقيقة جلية واضحة، فيحذروا ممن مسلكهم مسلكٌ نفاقي، وكذلك ليبتعد المؤمن عن هذا السلوك الشيطاني، كما جاء التحذير في الحديث، عن ذي الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه، قال صلى الله عليه وسلم (وتجدون من شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه)[١] وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها.

ومن الفوائد أن التبرير والتعليل يظل مع كل انحراف، ليبرر صاحبُ الضلال لنفسه ولغيره ما هو عليه من فساد وضلال (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) فَوَصَفَ وبَرَّرَ المنافقون لشياطينهم، أن تعاملهم مع المؤمنين هو من باب السخرية والاستهزاء، وإنما هم مع شياطينهم في الموالاة والنصرة والتحزب. ولكن الله تعالى يعلم حالهم، ولا يستعجل عليهم بالعذاب والجزاء، لأن الله تبارك وتعالى حليم، فيمدهم في طغيانهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) أي ينتقم منهم، ويعاقبهم ويسخر بهم، ويجازيهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الذنب. وهذا قول الجمهور من العلماء.[٢]

---

(١) البخاري (٥٠٣/٢) برقم (٣٤٩٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٥/١)

وهذا يُعَلِّم المسلم الحذر وعدم الاغترار بإمداد الله تعالى للطاغية في طغيانه، أو أن يستعجل على الله تعالى محقه للطاغين والانتصار عليهم. كما قال تعالى في سورة آل عمران (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وكذا الحذر في باب المعاصي من عذاب الله تعالى، ولا يغتر بإمهال الله تعالى في المعصية، أو يتابع العاصي في معصيته، لما يرى من عدم استعجال الله تعالى له في العقوبة، فإن الله تعالى حليم، ولكن أخذُهُ أَخْذَ عزيز مقتدر. فالمؤمن لا يتأثر بتأخر العقوبة عن الظالم والعاصي. وإمهال الله تعالى للعاصي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان وصفهم وحالهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) فهؤلاء استأثروا بالضلالة على الهدى، ودفعوا الْهُدَى ثمناً للضلالة. ومن جمال دقة الوصف لمسلك المنافقين، أن وصف الله تعالى صنيعهم بشراء لضلالة، وجعلوا ثمن الشراء هو الْهُدَى. فأي غُبْنٍ بعد هذا الغبن؟ وأي سفه بعد هذا السفه؟ والشراء يقتضي دفع الثمن، ودفع الثمن لا يكون إلا فيما يُحب الإنسان. ويكون المدفوع أو المُستَبدل أرخص وأقل قيمة عند المشتري. وفي هذا بيان لمقدار الخسارة الْمُهْلِكَة في دار الدنيا والآخرة. ثم بين الله تعالى نتيجة هذه التجارة (فما ربحت تجارتهم) فهي تجارة خاسرة، لأنهم لم يكونوا في صنيعهم هذا على هداية تمكنهم من شراء الإيمان. وبالمقابلة يكون أهل الإيمان هم الرابحون في تجارتهم مع الله تعالى. وهذا يفيد أهمية الوصف ودقته في البيان الموضح للمقصود، وللحقائق في التعليم والتوجيه والإرشاد، وكذلك أهمية التصوير الدقيق، مع اختيار المعاني المعبرة تعبيراً تصويرياً دقيقاً.

ثم ضرب الله تعالى بحال المنافقين مثلاً (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً. فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) فَضَرَبَ اللهُ تعالى بحال المنافقين مثلاً، ليعتبر كل من يريد الحق والْهُدَى. وذلك أن ضرب المثل من وسائل توصيل العلم والفهم بالتصوير التقريري، الذي

يقرر الشيء والحال بما يوضحه توضيحاً بيناً. قال البيضاوي رحمه الله تعالى: فإنه أوقع للقلب، وأقمع للخصم[١]

فمثل المنافقين الذين كانوا في ظلمة الكفر، كمثل الذي كان في ظلمة شديدة، فاستوقد ناراً يطلبها، ليبدد بنورها ظلمة الليل التي هو فيها. ثم يجد ما يتمناه، وهو دين الله تعالى الذي يتبدد به ظلمة الكفر في المعتقد والعبادة والأخلاق وسائر أمور الحياة. فانتفعوا بدين الله تعالى كما انتفعوا بنور النار، وعرفوا حقيقة هذا الدين بنوره كما عرفوا حقيقة النار بنورها، فاستحوذت عليهم شهواتهم وشُبهاتهم، واستبدلوا الإيمان بالنفاق. فذهب اللهُ بنوره عنهم، كما ينطفئ نور النار التي كانوا يُورُونَها. فَحَلَّ عليهم ظلمة الكفر. فأصبح وصف حالهم هو (صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون) فأصبحوا مع ظلمة المكان والذي يُمَثِّل ظلمت الكفر، لا يبصرون شيئاً، ومع هذا بُكْمٌ لا ينطقون ليسمعهم أحدٌ، وبالتالي لا يستطيعون الرجوع إلى ما كانوا عليه قبل ذلك من مكان ومن إيمان، فهؤلاء المنافقون في استبدالهم الإيمان بالكفر والنفاق، ومحبتهم للكفر ولشياطين الكفر، فإن حالهم كحال هؤلاء المضروب بهم المثل.

واستوقد في قوله تعالى (كمثل الذي استوقد ناراً) بمعنى أوقد. والذي استوقد جاء مفرداً، بينما في ذهاب النور كان بالجمع (فذهب الله بنورهم) والعلة كما ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن المستوقد كان واحداً من جماعة، تولى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعاً.[٢] وهذا أفصح وأبلغ حتى في النظام والتنظيم، فجاء اللفظ القرآني في أدق ما يكون من الإفصاح والبيان المتوافق مع دقة الحال. ومن دقائق دلالات المعاني ما ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل (ذهب الله بنورهم) أي أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور. وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان. (وتركهم في ظلمات) وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق. (لا يبصرون) لا يهتدون إلى سبيل خيرٍ، ولا يعرفونها، وهم مع ذلك (صم) لا يسمعون خيراً (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم (عمي) في ضلالة وعماية البصيرة.[٣]

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣٠/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٨/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦/١)

ويستفاد من ذلك أن المؤمن الذي عرف نور الإيمان يلزمه الإفادة من ضرب هذا المثل، بأن يحفظ نور الإسلام في قلبه وعمله وجوارحه، بالعبادة والطاعة، والبعد عن أسباب ضعف الإيمان وزواله، حتى لا يفقده كما فقده المنافق المكابر، فإن انطفاء نور الإيمان كانطفاء نور النار. فَتَخَطّفُهُ الشياطين، المتعددون الأوصاف، والمتغيرون في أساليب ضلالهم وطرائقهم، وكذلك الحذرُ من العجب بالنفس الذي يقود للكبر، ومن ذلك عدم انتقاص الناس من المؤمنين في إيمانهم وعبادتهم، والتهكم بجهل الجاهل منهم، بل يلزم الحمد على ما هو عليه، والنصح لهم وإرشادهم وتعليمهم دون تنقص وازدراء. وكذلك عدم التعالي على الغير بما أُعْطِيَ من الإيمان والعبادة، أو غيرها مما زوده الله تعالى به. اعتقاداً أنه هو الذي منح نفسه وثبتها على ما هو عليه من الخير. وكذلك الحذر من استبدال النعمة بالمعاصي التي توجب غضب الله تعالى.

ثم يضرب الله تعالى مثلاً عن المنافق الذي يكره سماع صوت الحق وآيات الله تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق. يجعلون أصابعهم في آذانهم. من الصواعق حذر الموت. والله محيط بالكافرين)

فمثلهم في الإعراض عن آيات الله تعالى وسماع صوت الحق، كمثل الذي أصابه مطر فيه ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر، وصوت الرعد، وبريق البرق. فَيَهُولُه ذلك. وكذلك إذا سمع آيات الله تعالى يهوله ذلك. كالذي يضع أصابعه في أذنيه، خائفاً من الموت.[1] والله تعالى محيط بالكافرين. كما قال تعالى (والله محيط بالكافرين) فلا يفوته أحد منهم، فهو جامعهم يوم القيامة، والإحاطة قد تكون بمعنى الإهلاك (وأحيط بثمره)[2] وكذلك بمعنى القدرة في الاستحواذ عليهم من كل جهة، فلا يفلتون منه أبداً. وكذلك الإحاطة بالعلم والعقوبة، وبما يشاء سبحانه وتعالى. ويتبين من هذا دقة وصف حالهم من سماع الحق ونوره، وما فيه من الوعد والوعيد، فيشعرون به كالرعد المخيف، لما عندهم من الكفر الذي يتوعد الله تعالى به الكافرين.

وهذا يفيد أيضاً العلم والاستشعار لنعمة الإيمان ونعمة البصر والسمع، وغيرها من النعم التي تحتاج من يحافظ عليها، حتى لا تُسْلَب، فيفقدها. وذلك باستخدامها فيما خُلِقت من أجله. وليس المقصود

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥/١)

فقدانها حسياً، بل فقدانها بتجاهلها للحق والإعراض عنه، كما قال تعالى (فأصمهم وأعمى أبصارهم) (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ولذلك يجاهد المؤمن نفسه على الاستقامة، ويسأل الله تعالى الثبات، فعن أم سلمة رضي الله عنها تقول: كان أكثر دعائه صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[١]

(١) الترمذي (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥)

ثم ينتقل السياق القرآني العظيم إلى نداء من الله تعالى للناس جميعاً، بأن يعبدوه (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) فتبدأ الآية العظيمة بمخاطبة الله تعالى للناس جميعاً، بصيغة النداء (يا أيها الناس) والتي تحمل في دلالتها لفت الانتباه لأمر عظيم، وهو عبادته سبحانه وتعالى (اعبدوا ربكم)

فيظهر أهمية أسلوب النداء الذي يفيد التنبيه، ويحدد الْمُخَاطب، حيث خاطب الله تعالى الناس جميعاً، وقال البعض أنه خاطب الكفار. ومن قال خاطب الناس جميعاً، فأن الخطاب يكون للمؤمنين باستدامة العبادة وللكافرين بابتدائها.(١) مما يفيد أنه لا يمنع أن يكون الخطاب العام والمهم شامل وعام للمعنيين وغيرهم، ليعرف الغير ما خُوطِب به المعنيين من توجيه وإنذار. ليزدادوا استدامة وطمأنينة ومعرفة وعلماً، واستشعاراً للأهمية، ويكون للمعنيين بياناً وتوجيهاً وإنذاراً.

ومن الأساليب التعليل بعد الأمر. إذ أمر الله تعالى كافة الناس بعبادته (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وبين علة أحقيته في أن يُعْبَد دون سواه، ذلك بأنه الذي رباكم بنعمه، وكذلك الذي خلقكم من العدم. بل اقترن الأمر بالتعليل في الربوبية، حيث قال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) بحيث لو وقف القارئ عند لفظ (اعبدوا) لما اكتمل مفهوم الأمر إلا بلفظ ربكم.

وكذلك تضمنت الآية الكريمة بيان الهدف: بأن الهدف مرتبط بمصلحتكم أيها الناس (لعلكم تتقون) لأن من حصلت له التقوى فاز بالدارين. كما قال تعالى في سورة النبأ (إن للمتقين مفازا) وفي هذا فائدة تربوية وتعليمية ودعوية بأهمية بيان ما يعود على الإنسان من خير ومصلحة فيما يتعلمه أو يُطْلَبُ منه أن يقوم به، حتى يكون ذلك محفزاً له. لأن النفس تواقة للمنافع.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٧)

وتضمنت التعليلات سبع حيثيات، وهي:

الأولى: أنه (ربكم) أي الذي رباكم بنعمه. **والثانية:** أنه (الذي خلقكم) أي أوجدكم من العدم. **والثالثة:** أنه خلق أيضاً الذين من قبلكم، فأوجدهم من العدم (والذين من قبلكم) **والرابعة:** جعل الأرض لكم وطاءً تجلسون عليها، وتنامون وتمشون فوقها (الذي جعل لكم الأرض فراشا) **والخامسة:** وجعل السماء مبنية كقبة فوقكم (والسماء بناءً) **والسادسة:** أنزل الغيث الذي به حياة الأرض، وإنبات الزرع الذي يطعمه الإنسان والحيوان والدواب (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات) **والسابعة:** جعل الثمار رزقاً لكم (فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) وبالرغم من مشاركة الحيوان والدواب للإنسان في أكل ما تُنبتُه الأرض، إلا أنه خص الإنسان، باعتباره هو المعني بذلك، وغيره تبعاً له من المخلوقات التي تأكل من نبات الأرض، لأن الله عناه بالتسخير، كما قال تعالى في سورة لقمان (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض)

فهذه سبع موجبات توجب عليكم عبادة الله وحده لا شريك له. وجميعها نِعَمٌ عظيمة جليلة، ومبهرة في عظمتها، ومذهلة لمن فكر فيها. فمن تأمل في خِلْقَتِه ومكوناته الجسمية أذهلته نفسه، في بصره وسمعه وعقله وإدراكه وحركة أعضائه، وغيرها من عظيم صنعته تبارك وتعالى، وإن تأمل في تتابع السابقين جيلاً بعد جيل، أذهله هذا التتابع العجيب الذي لا ينقطع إلا حينما يشاء الله تعالى. وإن تأمل في بسط الأرض وافتراشها وفِجَاجها وسُبُلِها بين الجبال، وما أودع فيها من ممرات وشعاب لينحدر الماء بينها إلى وجهته تجاه البحار أذهله ذلك. وإن تأمل السماء وما يجري من سحاب، وما ينزل منه من أمطار، أدرك عظيم هذا الخالق الذي لا يستحق العبودية إلا إياه. وإن تأمل العلاقة بين الماء الذي ينزل وبين خروج النبات أعجزه هذا التأمل الذي يؤكد أن الله تعالى هو الخالق، وهو الذي لا يستحق العبادة إلا هو. وإن تأمل تنوع النبات في أطواله وتنوع أحجامه وأشكاله وجماله، واختلاف ثماره في أشكالها وأحجامها ومذاقها. أذهله ذلك، بل لو تأمل أشكال ثمرة واحدة لثار فكره وقلبه للإيمان، ولسانه شكراً وثناء، وجوارحه طاعة لله تعالى.

ثم بعد هذا التعليل الواضح المبهر، الذي يلفت الانتباه إلى عظيم خَلْقِهِ تبارك وتعالى، يأمر اللهُ تعالى الإنسان بأن لا يجعل له نِدّاً مماثلاً، فيصرف له شيئاً من العبادة، التي يجب ألا تصرف إلا له تبارك وتعالى (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

وبعد هذا التعليل الإقناعي الذي قرر به عبوديته، وأزال به كل جهل وعائق له، يتدرج الخطاب الرباني إلى ما أُنْزِل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم. وذلك لإزالة ما يعيق استماعه وقبوله ثم فهمه. فقال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)

ففي الآية الكريمة مخاطبة لمن في قلبه ريب وشك في القرآن الكريم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء في العربية شعراً ونثراً، ولهم أن يستعينوا بمن يشاؤون من أعوانهم وأنصارهم. وليشهدوا لهم. قال تعالى (وادعوا شهداءكم من دون الله)

فإن كانوا صادقين أن الذي يمنعهم هو الشك فليأتوا بسورة من مثله، ليزول الشك والريبة فيؤمنوا. وأما إن كان المانع هو الكبر فذاك أنهم عرفوا الحقيقة وانكشفت لهم، غير أن عناد المكابر هو المانع له من قَبُول الحق. وهذا يفيد أن موانع القبول الاعتقادي والتعبدي والتعليمي والدعوي إما أن يكون عنادَ مكابرٍ، أو لجهل، وما يتعلق به من الريبة في صحة المعلومة، أو الجهل البسيط، أو الجهل المركب. وبالتالي احتاج المربي والداعية أن ينظر في موانعه. هل هو جهلٌ وعجزٌ أو عنادٌ كبر، حتى يتعامل معه بما يناسبه.

ومن فوائد هذا البيان الرباني: أهمية إزالة الشك وهو الريب من ذهن المتلقي، وتوقع احتمال وجوده عند المدعو، ليقوم الداعية بإزالة ما يمكن أن يكون من شك أو ريب. وهذا يؤكد أهمية العلم لمن يتصدر للتعليم والدعوة. وأهمية معرفة حال المدعو.

ومن الفوائد: أن التحدي تضمن زمنين ليس لهما ثالث، وهو الحاضر (فإن لم تفعلوا) والمستقبل (ولن تفعلوا) فهذا التحدي دليلٌ قاطعُ من أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ففيه بيان أنهم لن يستطيعوا حاضراً ولا مستقبلاً. قال ابن كثير: ولن لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه أيضاً معجزة أخرى. وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مُشْفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين.[١]

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٣/١)

وقد تحداهم في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له، وبغضهم لدينه. ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)[1]

ثم بعد التحدي جاء الإنذار بالعاقبة. (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودُها الناس والحجارة أُعدت للكافرين)

وهذا يفيد تربوياً ودعوياً أن يكون الإنذار بعد البيان الشافي الوافي، حتى يرتدع من كان دواعي انصرافه عن الحق جهلاً وكسلاً.

ومن الفوائد ورود التوازن بين الترهيب والترغيب، فبعد أن ذكر الله تعالى عاقبة الكافرين وما أعده لهم، ذكر سبحانه وتعالى ما أعده للمؤمنين. قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. كلما رُزِقوا منها من ثمرة رِزْقًا، قالوا هذا الذي رُزِقْنَا من قبل. وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون)

وابتدأت الآية الكريمة بكلمة (وبشر المؤمنين) مما يؤكد أهمية استخدام لفظة البشارة أو ما يماثلها للترغيب والتهيئة النفسية والفكرية للمتلقي، لأنها تحمل في طياتها الإعلام بخبر سار، فيكون لها أثر مفرح في النفس عظيم.

ومن عظيم الفوائد الاختصار وعدم الإطناب في ذكر تفاصيل الجنة وثمارها وأنهارها، ومراتب الإيمان وأنواع العمل الصالح. غير أن القارئ للآية يستشعر كل التفاصيل، وهذا من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. وكذلك فيه بيان منزلة الإيمان والعمل الصالح اللذان يُدْخِلان المؤمن الجنة برحمة الله تعالى وكرمه وجوده.

ثم اشتمال الآية الكريمة على جانب التشويق، ابتداء من لفظة (وبشر المؤمنين) إلى وصف الجنة وما فيها من الجنان التي تجري من تحتها الأنهار، وما فيها من رزق الثمار الذي كلما رُزِقُوا من ثمارها، قالوا هذا شبيه بما كان في الدنيا، أي ليس هو، ولكن يشبهه في اللون ويختلف مذاقا وطعماً. كما أنهم يأكلون من الثمار، فَيُؤتَونَ بأخرى، فيقولون هذا مثل الذي قبله. فتقول لهم الملائكة: كلوا، فاللون

(١) المرجع السابق (٦٣/١)

واحد والطعم مختلف.[١] ثم لهم في الجنة أزواج مطهرات من كل العيوب. ثم بيان الحقيقة المهمة للإنسان (وهم فيها خالدون) خلوداً لا موت بعده.

ومن الفوائد أهمية اقتران الإيمان والعمل للحصول والوصول إلى جنات الله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار)

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ٢)

قال سعيد عن قتادة: أي أن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً مما قَلّ أو كَثُر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت. قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله هذه الآية [٢] (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها)

وهذا يفيد أهمية ضرب الأمثال، لإيصال المعرفة للمتلقي، وألا يستحي الإنسان من ضرب المثل وإن كان صغيراً أو حقيراً في عين المتعلم، لأن المقصود هو إيصال المعرفة. وكذلك ألا يستحي الإنسان من إيصال الحق للغير، بالأساليب الصحيحة المختلفة، التي تحقق الهدف والغاية.

ومن الفوائد أن المكابر ينتقص من الحق وأساليبه ومضامينه بالاحتقار، والتوصيف الناقص، حتى يُطَمِّنَّ نفسه، ولِيُحْدِثَ التغيير عند غيره من الناس، وذلك بزرع الشك والريبة من خلال التهكم والسخرية بالحق.

وفي هذا ما يبين عناية الله تعالى بعباده في إيصال الحق لهم، بجميع الأساليب التي توصل رسالته إليهم، كإرسال الأنبياء، والمعجزات، والبيان، وتنويع الأساليب التي تحقق الهدف والغاية. وكذلك أهمية التمعن في منهج القرآن التعليمي والدعوي، والأخذ بأساليبه في التوضيح والإقناع.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٦/١)

(٢) المرجع السابق (٦٧/١)

ومن الفوائد أن الناس تجاه الحق فريقان: فريق يقبل الحق، وفريق يكابر ويعاند (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم. وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا)

وهذا يفيد أهمية أن يُوَطِّن الْمُصْلِح والداعية والعالم والمعلم نفسه تجاه هذا التنوع والاختلاف في القبول. وإذا كان هذا الاختلاف في القبول لأمرٍ عظيم من الله تعالى على يد نبي عظيم السيرة صلى الله عليه وسلم، فكيف بما هو دونه من الناس، وما هو دون ذلك من أمور مصالح الناس، وغيرها من قضايا الدنيا المختلفة والمتنوعة.

وهذ يفيد أيضاً أن المؤمن لا يكابر إذا رأى الحق والصواب، بل يتنازل عما كان عليه من فكر أو فهم خاطئ، فيقبل الحق ويأخذ به. لأن رد الحق مسلك الكافرين المعاندين.

ثم إن الحق يقبله ويهتدي به المهتدون، وينكره الفاسقون الذين اتصفوا بنقض عهد الله تعالى، وقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل، وكذلك الإفساد في الأرض، قال تعالى (يُضل به كثيراً ويهدي به كثيرا. وما يُضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل. ويُفسدون في الأرض. أولئك هم الخاسرون)

وهذا يفيد أن الحق ينقسم به الناس قسمين: مهتدين بآيات الله تعالى وبما جاء به أنبياؤه من الحق، وقسم فاسق مكابر. وبالتالي فإن مسالك الفاسقين: هو نقض العهد والمواثيق، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام والقرابات. وقيل هي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل. والرحم جزء من هذا. [1] وأيضاً من مسلكهم الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي واستدعاؤهم الناس للكفر.[2] وهؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون، لأنهم خسروا الآخرة التي هي الحياة الباقية بنعيمها للمؤمن، أو بعذابها للكافر.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩)

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٧١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/٤٤)

ابتدأت هذه الآية الكريمة بسؤال تقريري مسبوق بسؤال استنكاري للكفار، عن كفرهم بالله تعالى، وقد تقرر عند كل أحد منهم أنه لم يكن موجوداً، بل كان عدماً، ثم أوجده الله تعالى، فَوُلِد صغيراً، ثم يعيش ما شاء الله تعالى له أن يعيش، ثم يموت كما مات غيره من الأموات. وهو سؤال استنكاري تقريري لحقيقة لا ينكرها أحد من الناس. ثم بينت الآية بعد تلك الحقيقة التي يعرفها الكافر، ويتنبه لها الجاهل، حقيقة أخرى، هي البعث بعد الموت، والتي يستدعي ويستوجب الإيمان بها معرفة تلك الحقائق الأولى، التي هي العدم ثم الإيجاد ثم الموت، لأن الذي أوجد الإنسان من العدم، فأحياه وأعاشه حيناً من الدهر، ثم يميته، قادر على بعثه مرة أخرى. فليس البعث عسيراً على من خَلَقَ وأوجد مخلوقاته ابتداء من العدم.

وهذا يؤكد عظيم هذا الأسلوب التعليمي التقريري، من خلال رد الْمُخَاطب إلى حقيقة هو يعرفها ولا ينكرها. وأيضاً هو استنطاقٌ حواريٌ للعاقل، حتى يتنبه لما قد يكون غافلاً أو متغافلاً عنه، فكأن لسانُ حال الْمُخَاطب يقول: نعم كنت غير موجود في الحياة، ثم أوجدني الذي خلقني، ثم يُميتُني كما يُميت غيري، وبالتالي فإن الذي خلقني قادر على بعثي مرة أخرى، مما يُوجب الإيمان به وعبادته وحده لا شريك له. قال تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون)

ونوع هذا السؤال الاستنكاري الْمُشْتَمل على أمرٍ تقريري يستثير تفكير الذهن للتأمل، كما يستثير فكر القلب عن كيف يغيب هذا الأمر الواضح بدلالاته عن عقل العاقل. مما يؤكد أهمية هذا الأسلوب في المعالجات الفكرية. بإيقاف الْمُخَاطَب على الحقائق التي يعرفها، ويُقرُ بها، ثم الاشتقاق منها ما هو متعلق ومرتبط بها، في تدرج حتى يصل به إلى المقاصد التي يُريد أن يُوقِفْهُ عليها.

وقد أكدت الآية التي بعدها حقيقةً داعمةً للإيجاد والحياة، والقدرة العظيمة التي لا يَسْتَصْعِب دونها شيء على الله تعالى، بما يؤكد وجوب الإيمان وترك الكفر. قال تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) فكل ما في الأرض خَلَقَهُ وأوجده الذي أوجدكم. وهنا يأتي جانب الاعتبار بالإحياء بعد العدم، ثم الإماتة، وكذلك لفت الانتباه إلى النِّعَم الموجودة على الأرض وفي الأرض، من أنها لكم يا أيها الناس. ليَقْرِنَ الإنسانُ بين وجوده ووجود ما يحتاج إليه في الأرض، حتى يُدرك هذا التجانس، وهذه المعادلة التوافقية، بين احتياجه وما وُجِدَ على الأرض من أجله. فمن الذي أوجد هذه المعادلة، وهذا التجانس بين الموجود على الأرض وحاجة الإنسان لها. حتى حاجات الإنسان الترفيهية

أو الكمالية كتنوع مذاق الطعم الواحد، حيث أوجده تبارك وتعالى بدرجات دقيقة، كثمرة التمور مثلاً، عشرات الأنواع، وبدرجات متدرجة مختلفة في مذاقها ومقدار حلاوتها، وكذلك ألوانها وأحجامها وأشكالها، حتى أن هذا التفاوت يكون في ثمار العرجون الواحد من النخلة الواحدة، فكيف في تعددها.

كما أن في النص إجمال دون تفصيل لما حوته الأرض من أنواع النِّعَم، لأن واقع الحال يتطلب الإجمال لحقائق عظيمة. تغني عن التفاصيل التي ذكرها الله تعالى في آيات أخرى.

ويَظْهَر في العرض القرآني الكريم للآية العظيمة أسلوب جذب الاستماع والانتباه بالاختصار دون التشتيت، من خلال الاقتصار على الكليات دون التفاصيل. مما يُظهر الأسلوب التأثيري بمخاطبة العقل، عن حقائق غاية في العظمة. مع عدم اشغال ذهنه بتفاصيل مكونات الأرض وما عليها، وما يحصل فيها من إنبات معدوم، ثم جفاف وموت، ثم تُحْيَ الأرضُ بعد موتها بالمطر مرة أخرى، بعد أن ماتت بالجفاف. مما يؤكد أهمية اعتماد الإجمال عند الحوار والمناقشة في الكليات، دون الحاجة لتفاصيلها، لكيلا يسترسل الذهن في التفاصيل عن الحقائق الكلية الكبرى.

فبعد أن أدرك الْمُخَاطب الحقيقة بالمشاهدة والفكر، والتفكر فيها. تم نقله إلى حقيقة عظيمة كبرى، قال تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) فبين الحق تبارك وتعالى أنه قَصَدَ وعَمِدَ إلى خلق السماء فسواهن سبع سماوات.

وجاء هنا التدرج في المخاطبة والتنبيه ليصل إلى الإيمان. فبعد أن بين أن الإنسان كان عدماً فأوجده، ثم يميته كما يُميت غيره، وأنه سوف يحي الأموات، ثم إليه يُرجعون، وكذلك تقرر لديه خَلْقُ الأرض وما فيها، وانتفاعه بما عليها، وأنه متجانس مع حاجاته، سوف يُقر بأن الذي خلقه وخلق الأرض وما عليها وما فيها هو الذي خلق السماء، وسوف يؤمن بأن السماوات سبع، كما أخبر الله العليم الخبير بذلك.

ثم اختُتِمَت الآية بقوله تبارك وتعالى (وهو بكل شيء عليم) حيث أخبر سبحانه وتعالى بعد تحقيق أمر الخلق واستحقاقه العبودية الْمُطْلَقَة، أنه واسع العلم، فهو بكل شيء عليم، فلا يغيب عن علمه شيء.

وتفيد هذه الآية الكريمة أن التأمل في وجود الإنسان بعد أن كان عدماً، ثم موته بعد الإيجاد، وكذا ما على الأرض من مخلوقات موجب للإيمان بالخالق تبارك وتعالى.

وتفيد كذلك أهمية الإيمان بالله تعالى وعبادته، وألا تُصرف العبادة إلا له جلَّ جلاله. وكذلك أهمية التفكر، وأهمية الأسلوب في الإقناع، والتدرج، ومعرفة حال المدعو، والتنبيه ولفت النظر لما هو متقرر عنده، من أجل نقله للحقيقة ولما هو أعظم.

ودلت الآية الكريمة على رحمة الله تعالى بخلقه، حيث خاطبهم بأحسن الأساليب وأعظمها أثراً، وخلق من أجلهم الأرض وما عليها وفيها، وسخرها لهم، وأوجد التجانس بين حاجاتهم وما على الأرض من موجودات، فلا يحتاجون شيئاً إلا كان في الأرض موجوداً من نِعَم وآيات دالة على الخالق تبارك وتعالى. فلله الحمد والشكر. اللهم نسألك التوفيق والثبات على الحق.

(وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣)

تبين هذه الآيات بداية ومقدمات خَلْق أبي البشر، آدم عليه السلام. ليتضمن القرآن الكريم أخبار تلك الحقائق الغيبية التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وليبين للإنسان كيف بدأ خلقه، وما حدث في شأنه من إخبار الله تعالى لملائكته عن خلق آدم عليه السلام وذريته. وهذا امتنان من الله تعالى على بني آدم، إذ نوه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وهذا الامتنان ذكره ابن كثير [1] وقال: في معنى (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

ويتبين من هذه الآيات العظيمات أن الملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، حيث قال تبارك وتعالى للملائكة (إني أعلم ما لا تعلمون) وكذلك قول الملائكة عن محدودية علمهم (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)

وتفيد هذه الآيات أن الله تعالى يختص من خلقه ما يشاء وبما يشاء، حيث خص آدم بمعرفة الأسماء التي لم يختص بها الملائكة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسمائي هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم. قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون)

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٧٢)

واختصاص آدم ومن ثَم ذريته بمعرفة الأسماء هو كرمٌ من الله تعالى، وفضلٌ لهذا الأنسان. (وعلم آدم الأسماء كلها) أي أسماء الأشياء، وما هو مسمى لها. فَعَلّمه الله تعالى الاسم والمسمى، أي الألفاظ والمعاني، حتى المصغر من الأسماء والمكبر، كالقصعة والقصيعة.(١)

وهذا يتطلب من الآدمي شكر هذه النعمة: نعمة الوجود ونعمة العلم، وأن الله تعالى هو الذي أنعم عليه بما يعلم، فلا يتعاظم ويتكبر بعلمه، لأن الله تعالى هو الذي منحه هذه الخاصية، من الفهم والحفظ والاشتقاق والاستنباط والاختراع. ولولا هذا الاختصاص الكريم من الله تعالى لما أصبح الإنسان بمثل ما هو عليه من العلم والتطوير والابتكار في المجالات المختلفة.

ومن دلالات هذه الآيات الكريمات، تسبيح وتقديس الملائكة لله تعالى، وأنهم لا يعصونه، ولا يحصل بينهم ما يحصل في البشر من الإفساد، قال الله تعالى عنهم (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون) وهذا وجه مقارنة بحسب ما لديهم من علم. ولكن الله تعالى بين أنه يعلم ويحيط بما لم يحيطوا به علماً (قال إني أعلم ما لا تعلمون)

وتفيد هذه الآيات الكريمات أن الملائكة قد علموا من الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه السلام، أنه يأتي من بني البشر الإفساد، حيث يحصل من بعضهم القتل والنهب والظلم والكفر. ولكن الله يعلم أنه سيكون من البشر الأنبياء والصالحين والصديقين والعابدين والمجاهدين والمحسنين.

وتبين هذه الآيات أدب الملائكة في كلامهم مع الله تعالى، حيث قالوا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) ثم تمجيدهم لله تعالى بعد أن بينوا أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى به، حيث قالوا (إنك أنت العليم الحكيم)

ويوضح هذا أهمية أن يقول الإنسان فيما لا يعلم: الله تعالى أعلم. ولا يتطاول فيما يجهله، حتى يتخلق بأخلاق الملائكة الكرام. وكذلك أهمية تعظيم الله تعالى عند حصول العلم واستشعار الجهل.

وتؤكد هذه الآيات أن ما غاب علمه ومشاهدته عن خلقه في السماوات والأرض، لا يغيب عن علم الله تعالى، بل يعلم ما يُظْهِرُه المخلوق وما يُبْطِنُه ويكتمه. قال تعالى (ألم أقل لكم إني أعلم غيب

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥١/١)

السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون) وتتطلب هذه المعرفة بعلم الله تعالى الخشية والخوف من الله تعالى، والمراقبة للذات، واللجوء إليه في كل صغيرة وكبيرة، لدفع شر أو لجلب خير.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤ وَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ
عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩)

وتبين هذه الآيات مكانة هذا الإنسان عند الله تعالى، إذ أمر الملائكة أن تسجد لأبيهم آدم عليه السلام، إكراماً له وعبودية لله تعالى، لأن طاعة الله تعالى عبادة له جَلّ جلاله. كما تفيد امتثال الملائكة لأمر ربهم دون اعتراض، فهم يفعلون ما يؤمرون، بما يؤكد أهمية الطاعة لله تعالى دون احتجاج عقلي، وبما يفيد تقديم النقل عن الله تعالى على العقل. لكمال النقل عن الله تعالى وقصور العقل. وتبين الآيات الكريمات أن إبليس امتنع عن السجود استكباراً، فكان عاقبته أنه من الكافرين. بينما أطاعت بقية الملائكة ربها فكانت من المكرمين. (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)

فالكبر مانع للخير، حيث يمنعُ الإنسانَ عن مصالحه وفوزه ونجاته، كما امتنع بعض من شاهد الرُّسُل وقامت عليهم الحجة والأدلة، وكذلك مثل من استكبر من كفار قريش وغيرهم بعد أن عرفوا الحق، وشاهدوا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وخَبَرُوه وعرفوا حقيقته وما اتصف به قبل بعثته وبعد بعثته من الأمانة وكريم الصفات والأخلاق والتواضع.

وفي الآيات إثبات الكلام لله تعالى. وأن لله الأمر والنهي، وأنه لا يُسأل عما يفعل تبارك وتعالى، والعباد يُسأَلُون ويُحَاسَبُون. وأن لله الحكمة البالغة فيما يأمر وينهى. وكذلك قصور علم من خلق من المخلوقات.

وتفيد الآيات أن الأصل في سكنى آدم عليه السلام وزوجته الجنة، مما يؤكد الرجوع لها بعد الموت، لمن أطاع الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح. (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا

حيث شئتما) وكذلك اثبات الأكل في الجنة وسعتها، وأن أكلها هنيئاً رغدا، وكذلك حرية التنقل فيها، والتنعم بما فيها (وكلا منها رغدا حيث شئتما)

وفي الآيات بيان أن حكمة الله تعالى اقتضت الابتلاء لعباده، حيث ابتلى آدم بأن لا يأكل من تلك الشجرة التي نهاه عنها (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وفيها بيان عاقبة الابتلاء والجزاء على وجه العموم (فتكونا من الظالمين) مما يدلل على أن معصية العبد لربه ظلم لنفسه، فيلزمه الطاعة واجتناب المعصية. وألا يسأل عن علة النهي إن لم يعرفها. فلله الحكمة البالغة.

وفي الآيات أن الشيطان عدو للإنسان منذ خَلَق الله تعالى أبينا آدم عليه السلام، حيث قال تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) وفي هذا علم لذريته من بعده أن يتخذوا الشيطان عدواً، ويحذروا وسوسته وغوايته، التي ترمي إلى إخراجهم وإبعادهم عن الجنة.

وقال تعالى عن جزاء تلك المعصية (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو) مما يفيد أن الجنة ليست مكاناً للعداوة والبغضاء، بل مستقر نعيم، وأن مكان العداوة هي الأرض. وبهذه الآيات قامت الحجة على الإنسان، من أن عدوه الأول الشيطان الرجيم، وأن من قدراته الشيطانية استزلال الإنس، وتزيين المعصية والإتيان لها بالحجة المغرية لفعلها، مما يستوجب الحذر منه حتى لا يُبْعِدَ الإنسان عن الجنة، كما أخرج منها آدم عليه السلام. قال تعالى (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو. ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)

وفي قوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) دليل على أن مستقر بني آدم والشيطان في الأرض إلى حين، أي إلى أجل محدود. وهي حياة كل فرد إلى موته، وحياة البشرية إلى يوم القيامة، وانتهاء الحياة من الأرض. وبالتالي هي المستقر المؤقت إلى وقت محدود معلوم عند الله تعالى، وجعل الله تعالى في الأرض (متاع إلى حين) وهو كل ما يُستمتع به من أكل ولبس وحياة وغير ذلك [١]

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٢١٩)

ومن فوائد ذلك: العلم بأن الحياة الدنيا متاع إلى حين. وإذا كانت كذلك فيلزم الإنسان الاستمتاع بما فيها لما بعدها، وأن تكون كل متعة فيها موصلة لنعيم الجنة، وأخذها كطريق يصل من خلاله للدار الآخرة. لأن الدنيا دار فناء مؤقته إلى حين.

وكلمة (إلى حين) تستوقف العقل، من أن الدنيا متاع ولكنه إلى حين. وأن الدنيا عمل، ولكنه إلى حين. وأن عدوه الشيطان معه، ولكنه إلى حين، فليتخذه عدواً إلى حين، وليصبر إلى حين. وليصبر على طاعة الله تعالى إلى حين. فليكن قوله تعالى (إلى حين) قوة وأملٌ وطريقٌ يتجاوز به كلَّ عائقٍ لطريق الجنة. (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)

ثم إن رحمة الله تعالى وعنايته تلاحق الإنسان وتُحيط به (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وبالرغم من خطيئة آدم عليه السلام إلا أن الله تعالى رحيم بهذا الإنسان، ولطيف به (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) فتلقن آدم من الله تعالى كلمات هي قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا) فاعترف بذنبه وسأل الله تعالى المغفرة، فتاب على آدم[1] (فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وإن هذه الرحمة وهذه العناية وهذا الفضل وهذا التكريم لهذا الإنسان يستوجب على العبد محبة ربه وخالقه المتفضل عليه بالنعم والعناية الفائقة، والذي أكرمه وأحسن إليه غاية الإحسان.

ثم يبين الله تعالى في تمام نهاية الآية الكريمة صفتين عظيمتين له سبحانه وتعالى (إنه هو التواب الرحيم) يخبر الله تعالى أنه تواب لمن تاب واستغفر وأناب، وأنه رحيم، ومَنْ هذه صفاته استوجبت من العبد التوبة والرجوع إليه، والطمع في رحمته والانقياد له: محبة له وطمعاً في كرمه ورحمته، وخوفاً من عقابه وزوال نعمته.

وتفيد الآيات الكريمات بأمر الهبوط من العلو إلى الأسفل، فمن الجنة إلى الأرض، ليتحقق بهذا الهبوط إلى الأرض حياة الثقلين: الإنس والجن. بسبب استزلال الشيطان لآدم عليه السلام. وما وقع من أكل الشجرة التي أُمِرَ أن لا يأكل منها. (قلنا اهبطوا منها جميعا)

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان (٥٣/١)

وتلاحق رحمة الله تعالى عباده، بوعدهم، ووعده حق. أن يُرسل لهم هداية من الرُسِل والكتب، التي تبين المسلك الصحيح والطريق المستقيم، قال تعالى (فإما يأتينكم مني هدى. فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

ثم من رحمته سبحانه وتعالى أن بين لهم حال ومآل من اتبع هداه، فلا يخاف ولا يحزن. فلا يخاف حالاً ولا مستقبلاً، ولا يحزن على شيء قد مضى وانتهى، حتى لا تتكدر الحياة. لأن الخوف والحزن ألم وهلع وفزع، متعلق بحاضر ومستقبل. فالحزن متعلقٌ بشيء قد مضى، يتحسر ويندم عليه. والخوف متعلق بحاضر ومستقبل يخاف منه.

فَشَرْعُ الله هو الهدى الذي يمنع عن البشرية الشر، ويجلب لهم الخير إن أطاعوا واتبعوا هدى الله تعالى. وأما من كفر وكذب بالهدى وبآيات الله تعالى، فإن مصيره النار خالداً فيها.

فهذا الخالق المالك تبارك وتعالى يبين ويوضح ويرشد عباده إلى هديه وهُدَاه، ويقبل التوبة ويعفو ويصفح لمن تاب وأطاع، ويرحم عباده بفضله ومنِّه، وهو مالكهم وما يملكون، فحري بالعبد المملوك أن يكون رحيما ومرشداً وصفوحاً وعفواً مع من يماثله من عباد الله تعالى، وهو ليس مالكاً لهم، بل عبدٌ مثلهم لله تعالى.

ثم تنتهي الآيات الكريمات بالوعد لمن كفر بعذاب أليم (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وهذا زجرٌ ووعيد ممن لا يخلف وعده، ليحذر الإنسان من الكفر وما يؤل إليه من الخسارة الفادحة التي عاقبتها الخلود المؤبد في النار.

(يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان الله تعالى عن بني إسرائيل ورحمته بهم عَزَّ وجل، وقد جاء الخطاب مباشراً ومذكراً لهم، ومبيناً للمؤمنين وغيرهم جميل إحسانه سبحانه وتعالى بهم، وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام. وقد بين تبارك وتعالى في هذا السياق عموم النعم على بني اسرائيل، ومطالباً لهم بعموم الوفاء، حتى يوف لهم الجزاء غير منقوص (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أُوف بعهدكم وإياي فارهبون) فجاء الخطاب بصيغة (يا) النداء، والذي يحمل في دلالاته الدعوة لهم بالانتباه والإنصات لمن يناديهم، ثم نسبهم إلى نبيهم يعقوب عليه السلام، الذي هو إسرائيل (يا بني إسرائيل) وهذا من لطفه تبارك وتعالى، إذ يخاطبهم بهذا التكريم. مذكراً لهم بما أنعم عليهم من النعم التي يعرفونها تماماً، على ما سيأتي بيانها في آيات قادمة بإذن الله تعالى (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم)

ثم بعد التذكير بما يعرفون من نعيم الله عليهم، يأمرهم سبحانه وتعالى بالوفاء بما عاهدوا الله تعالى عليه (وأوفوا بعهدي) ليجازيهم بما وعدهم تبارك وتعالى (وأوفوا بعهدي أوفي بعهدكم) فيظهر هنا لطف الله تعالى في مخاطبتهم وتذكيرهم، في تدرج خطابي، غاية في البلاغة والتأثير، ابتداء بالنداء، ثم أنسبهم إلى النبي يعقوب عليه الصلاة والسلام، ثم التذكير بما أنعم عليهم من نعمائه، ثم يأمرهم بالوفاء الذي جزاؤه أن يوفيهم الله تعالى ما وعدهم.

ويُفيد هذا أهمية التدرج والترتيب البياني في الخطاب والتعليم والدعوة، وفي التذكير والتصحيح الفكري الذي يوقظ الغافل من غفلته، وكذلك لم يكن في خطاب الله تعالى تهجمٌ عليهم، مما يفيد أهمية ألا يبتدئ الناصح نصيحته بالتعيير والتهجم، بل يستحث ويستثير عنده مكامن الاندفاع نحو الاستماع والاستجابة. وكذلك أهمية الملاطفة في النداء بين الناس، بأحب وأفضل ما يكون. فإذا كان الله تعالى يُخاطب عباده بهذه الصيغة اللطيفة، فذلك ادعى بين العباد فيما بينهم.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أنها تحمل توجيهاً إجمالياً، يأتي بعده تفصيل، لأن في إدراك العام انجذاب السامع والمُخاطَب لمعرفة ما يليه من تفاصيل. وهو أسلوب في غاية الأهمية والجاذبية للتبصر والتأمل والرجوع بالذهن للحقيقة التي يجب أن يعمل بها. كما أن في التذكير بالنعم ما يستثير عند المُخَاطب العاقل جانب الحياء من الْمُنعم، فيدفعه ليتابع الاستماع والانقياد للتوجيه والعمل به، إلا من كان في قلبه مرض وعناد.

وفي ذكر تفاصيل بني إسرائيل، ما يَدل على نبوة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم. لأنه عاش عليه الصلاة والسلام في مكة أُمياً لا يقرأ ولا يكتب، حتى ينفي تبارك وتعالى عنه صلى الله عليه وسلم أي ظن بمعرفة سابقة لهذا البيان التفصيلي عن حقائق تَعْرِفُها بني إسرائيل. وكذلك من الفوائد أن هذا التوجيه الخطابي لأهل الديانة السابقة دليل على أن القرآن الكريم وهذا الدين لكل أحد من الناس، حتى من جاءتهم الرُسُلُ السابقة، كبني إسرائيل.

وتضمنت هذه الآية الكريمة تذكيرُهم بعموم النعم، ومطالبتهم الوفاء بالعهد الذي عهد إليهم به رَبُّنَا تبارك وتعالى: من الإيمان بالله وبرُسُلِهِ وإقامة شرعه. ليأخذوا الجزاء من الله تعالى كاملاً، ثم أمرهم بالرهبة والخشية منه تبارك وتعالى، لأن الرهبة توجب الطاعة (وإِيَّايَ فارهبون)

ثم يقول الله تعالى لهم (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به. ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون) فأمر الله تعالى بني إسرائيل بالإيمان بما نَزّل، وهو القرآن الكريم، الذي هو (مصدقاً لما معكم) أي مؤكداً، غير مناقض لما معكم من الكتب. مما يفيد أن أهل الكتاب بما عندهم من الكتب السماوية السابقة يعرفون صدق القرآن الكريم. وبالتالي فإن هذه علامة لهم بصدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول من الله تعالى.

فبعد بيان حقيقة ما تبين لهم من الحق، وأكده، وتأكد لديهم ذلك، نهاهم عن الكفر به (ولا تكونوا أول كافر به) وهذا من التدرج في البيان والإثبات. ثم يتدرج معهم في الخطاب إلى النهي عن أن يُقدموا منافع الدنيا الوهمية على آيات الله التي تحقق لهم خير الدارين (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون) فينهاهم عن الاستعاضة بالثمن القليل عن آياته تبارك وتعالى، وكل ثمن هو قليل مقابل الإيمان بآيات الله تعالى، لأنها هي الأغلى والأعلى.

ويتبين من ذلك تنويع أسلوب الخطاب، بالتذكير والأمر بوفاء العهد والتقوى، والإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ومتوجَ ذلك بالدليل القاطع، من أنه لا يناقض ما معكم من الكتب، بل مصدقاً لها. ثم النهي عن بخس آيات الله تعالى بعد أن علمتم الحقيقة، وَمَثّلَ لهم: أن تقديم ما يتوهمون على آيات الله تعالى وأدلته كمن يشتري بها شيئاً زهيداً. فتقديم هوى النفس وكل شيء يتوهمونه هو ثمنٌ قليلٌ لآيات الله تعالى وأوامره. وهذا يؤكد أن سلعة الله غالية، وألا يُقدِّم المؤمنُ عليها أمراً مخالفاً لها، معتقداً أنه يجر منفعة له. فإن آيات الله تعالى أعظم من أن يُشْتَرَى بها ثمناً قليلا. وكل ما عداها دونها، فهو قليل وزهيد مقارنة بعظيم آيات الله تعالى ووعده ووعيده وجناته، جنات الخلود.

ثم يأمرهم الله تعالى بأمرٍ في غاية الأهمية (وإياي فاتقون) لأن تقوى الله تعالى تُوجِب الطاعة، وتوجب تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، وأما إذا تم اختيار الثمن القليل فدليل ذهاب التقوى من القلوب.

وفي هذا ما يدل على أن التقوى توجب الطاعة، وأن عدم التقوى تتحقق بها المعصية، وأن المرء يستطيع أن يعرف مدى تقواه بمدى طاعته لله تعالى وخوفه من المعصية، والطمع في رحمته سبحانه وتعالى.

ثم يأتي النهي لبني إسرائيل عن خلط الحق بالباطل، وكذلك النهي عن كتمانه. قال تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل. وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) وتفيد الآية الكريمة أنهم يعرفون الحق ويعلمونه علماً يقينياً. إذ أن التلبيس بين الحق والباطل لا يكون إلا ممن عرف الإثنين معرفة حقيقية، وفي هذا كشف لهم عن حقيقة ما يعرفون، بما يؤكد عندهم صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وأنهم يعرفونه كما يعرفون أنفسهم، لما عندهم من الحق الموافق لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا يفيد أن العالم بالحق يلزمه الحذر والبُعد عن خلطه بالباطل أو كتمانه عن الناس. ليحقق به نفعاً يظنه.

ثم يأتي التدرج في التوجيه والبيان إلى الأمر بأداء العبادات (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) وفي ذكر الصلاة مرة، والإشارة لها بالركوع مرة أخرى، تكرار تأكيدي لبيان أهميتها على وجه العموم، ومشاركة مؤديها على وجه الخصوص، وبأسلوب لفظي بديع، امتنع به تكرار اللفظ، وحقق معناً زائداً بمشاركة مؤديها، كما يبين هذا الأسلوب أن الإشارة للكل بالجزء يتضمنه ويشمله

جميعاً، لأنه لا يتم الواجب إلا بها جميعاً، ولا يُغني الجزء عن الكل، وأن التعبير بالجزء لا يعني ترك الكل الذي لا تتم حقيقته إلا بها جميعاً. وكذلك مثل التعبير عن الصلاة بالسجود، فلا يعني ترك الصلاة والاستعاضة عنها بالسجود، كقوله تعالى في سورة الفرقان (والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياما)

ثم يأتي سياق استنكاري آخر لما يقومون به من الأمر بالمعروف دون أن يأتمروا به، ويدخل في ذلك عدم ائتمارهم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) إذ أنه من البر أن يَدخلوا فيما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وكان يهود المدينة يقولون لمن بينهم وبينه صلة ممن أسلم من أهل المدينة: أُثبُت على ما أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل، فإن أمره حق. ويقصدون بهذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم. فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه.[١]

وهذا يفيد أهمية الانتباه من أن يأمر المرء بالخير، ولا يأتمر به، أو إذا جاءه من يأمُرُه بالخير استنكف أن يفعل ذلك. فوصف الله صنيع ذلك بمن لا يعقل (أفلا تعقلون) فكأنه لم يعقل ولم ينتفع بعقله.

وهذا يفيد أهمية التبصر والتواضع للحق، وكسر هوى النفس، وأن من يعرف الحق والخير ولا يأخذ به، أو يأمر به ولا يعمله كالذي لا يعقل، وهو الذي لم ينتفع بعقله.

ثم أرشد الحق تبارك وتعالى إلى خير مُعِينٍ على الحق وأداء المعروف وهو الصبر وإقامة الصلاة، قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة. وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وهذا يدل على أن الصبر وسيلة عظيمة للاستقامة وقبول الحق والثبات، والاستمرار عليه، لما تحتاجه النفس من الصبر في مغالبتها على هواها. وكذا مغالبة شياطين الإنس والجن بالصبر على الطاعة، والبعد عن المعصية. وكذلك الصلاة التي لها أثر عظيم في عون الله تعالى لمؤديها وإعانته على الخير ودفع الشر. وإنها لصعبة وشاقة على غير الخاشعين. وخفيفة غير شاقة على الخاشعين الخاضعة قلوبُهم لله تعالى. مما يفيد أن غير الخاشعين يشعرون بثقل أدائها، وأنها شاقة عليهم.

والخشوع هو الخوف والسكون والتذلل وخضوع القلب لله تبارك وتعالى. وهذا يفيد أن خير ما يستعين به المسلم بعد الله تعالى، هو الصبر والصلاة، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٨/١)

فزع إلى الصلاة. قال حذيفة رضي الله تعالى عنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلى) [١]

(يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠)

يتكرر في هذه الآيات الكريمات تذكير بني إسرائيل بصيغة النداء، ولفت الانتباه، إلى النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم. ويُفيد هذا أيضاً تعليم المؤمنين بما حصل فيمن كان قبلهم، ومنها تفضيل بني إسرائيل على العالمين (وأني فضلتكم على العالمين) والتي يتبين منها أيضاً حقيقة أخرى، يمكن استنباطها من حقيقة هذا التفضيل. وهي أن هذا القرآن الكريم، لو كان من عند غير الله تعالى، لما قال لهم: إن الله فضلكم على العالمين. فلن يمدحهم ويثني عليهم بهذا الثناء. مما يؤكد أن هذا الكلام، كلام الله تعالى، وأن هذا النبي صادق عليه الصلاة والسلام، ولا ينطق عن الهوى، بل هو وحيٌ يُوحى إليه، ويبلغه كما أُنزِل عليه.

ويفيد هذا السياق القرآني الكريم أهمية تكرار التذكير للوعظ والتخويف والتحذير من مغبة المعصية واستنكاف قبول الحق.

ويذكرهم الله تعالى بمزيد فضله وإنعامه، من أنه فَضَّلَهُم على عالم زمانهم، وقيل على كل العالمين لما جعل فيهم من الأنبياء[٢] ثم يأتي الأمر بالتقوى التي يلزم منها التصديق والإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به. وهذا الأمر جاء من خلال التنويه والتذكير بالرجوع إليه (واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئا) فأشار تبارك وتعالى إلى ما تميز به ذلك اليوم، من العواقب المغنية عن ذكرها، وفي هذا الأسلوب تعريض بشدة ذلك اليوم الذي لا يغني ولا ينفع أحدٌ عن أحدٍ شيئاً إلا بعمله،

(١) أحمد (٣٣٠/٣٨) برقم (٢٣٢٩٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥٦/١)

فلا صديق ولا قريب ولا أقل ولا أكثر يستطيع أن ينتفع بعمل غيره. فكل بعمله إلا ما شاء الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى أمراً آخر في هذا اليوم (ولا يُقبل منها شفاعة) فلا يُقبل من أحد شفاعة لأحد. وهي النفوس الكافرة التي لم تترك لعظم ذنبها الكفري مجالا لعفو الله تعالى وقبول شفاعتهم (ولا يؤخذ منها عدل) أي فداء. (ولا هم يُنصرون) ولا أحد يُقَدِّم لأحدٍ نصراً وعوناً. وهذا الجزاء يدل على كفر من لم يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، حتى من أهل الأديان السماوية السابقة. وفيما يخص الشفاعة، فهناك تفصيل لها ولأنواعها في كتب العقيدة.

وقد جاء هذا التدرج إلى المحك الختامي لما بعد الدنيا، فعبر عن ذلك اليوم بمحتوياته الخاصة بعمل الفرد من الناس، الذي ينتفي فيه الانتصار والنصير بالغير، وفداء النفس بما يمكن، مما يوجب للعبد أمام هذا الموقف الخوف ومحاسبة النفس، ويتذكر أنه يجب عليه أن يقطع تعلقه واعتماده على أحد غير الله تعالى لينجيه ويدفع عنه هول ذلك اليوم، فلا قبيلة ولا نسب ولا حسب، ولا كونه من سلالة أحد من الصالحين، أو من سلالة نبي، أو غير ذلك، فليس أمام الفرد إلا قطع العلائق بكل أحد غير الله تعالى.

وهذا يفيد تربوياً ودعوياً، أهمية البدء بالنعم للتذكير بها، فإنها توجب للسوي من الناس الحياء من الْمُنْعِم المتفضل، ثم التذكير بما يُرَغِّب في الصلاح وقبول الحق والإخلاص، ثم التخويف ليكون ختام الأساليب.

ثم بعد التخويف يعاودهم الله تعالى بتكرار التذكير بالنعم، مما يدل على رحمة الله تعالى، ومحبته لأن يهتدي الإنسان ويتوب إلى الله تعالى، فيجدد لهم الدعوة والتذكير بالأساليب المتنوعة المتعاقبة في غير إطناب ممل، ولا اختصار مُخل، فأي رحمة أعظم من هذه الرحمة الربانية الدالة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا تبارك وتعالى. حيث ينتقل بهم إلى التذكير بنعمة النجاة من فرعون. إذ نجاهم الله من بطشه وإذلاله لهم (وإذ نجيناكم من آل فرعون. يسومونكم سوء العذاب.) فقد كان يسومهم بالإذلال والاستخفاف بهم، فيستخدمهم في أصعب الأعمال، ليعذبهم سوء العذاب.[1] وهذا إجمال لما لحق بهم من فرعون، حتى يدركوا القضية برمتها، ثم ليأتي بعده التفصيل والتفنيد الذي يوجب

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٥/١)

شكر الْمُعِين المنقذ لهم، قال تعالى (يُذبحون أبناءكم) فأي بلاء أشد من هذا البلاء الذي أنقذكم الله تعالى منه. بل (ويستحيون نساءكم) أي فَيُبْقُون بناتهم للخدمة والاستذلال.(١) فَذَكَّرَهُم تبارك وتعالى بنعمة إنقاذهم من فرعون، الذي أذلهم وعذبهم وسفك دماء أبنائهم (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) ففي ذلك الإنجاء إحسان عظيم من الله تعالى.

إن التنقل في الأسلوب والتنويع والتكرار تحفيزٌ للعقل واستثارةٌ للتفكير والتذكير في كل ما يحتويه التوجيه من ترغيب في أمر، وترهيب من أمر، حتى يثوب الإنسان إلى رشده.

وهنا يحتاج الإنسان في توجيه نفسه، وعند توجيه غيره أن يتذكر النعم، ويُذَكِّر بها، ويتذكر كم نجاه الله تعالى من المصائب والأمراض ولابتلاءات، وكم ستر عليه، وكم أغفل عنه عين عدوه، وكم حفظ عليه أمنه، وعِرْضَهُ وماله ودينه. ويتذكر ويُذكر بذلك اليوم الذي لا ينتفع أحدٌ بعمل أحد، ولا مساق لينصره أحد. فكل جوانب التذكير ومجالات النعيم وسيلة لعودة النفس للحق بإذنه تبارك وتعالى.

ثم يَذْكُرُ تبارك وتعالى نِعَمَاً أخرى بآيات مبهرات، قال تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) فالنعمة الأولى: فَرْق البحر، بفلقه وجعله طريقاً، ونعمة قرآنية مُبهرة ثانية: وهي مرورهم بين فرقتي البحر، ونعمة ثالثة: أن أنجاهم من فرعون، ونعمة رابعة: إغراق فرعون، ونعمة خامسة: أنهم شاهدوا هذه النعم من انفراق البحر وإغراق عدوهم أمامهم، ونجاتهم وسلامتهم ونصرهم.

وتفيد هذه الآية العظيمة بيان نعم الله تعالى، وقدرته التي لا يقف أمامها مخلوق أبداً. وأن الله قادر على تدمير المتكبر البطاش الظالم، وأنه له بالمرصاد، وإن أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر، مما يلزم الحذر من مغبة البطر والتجبر أمام قوة الله تعالى التي لا تقاومها قوة أبداً. وتفيد كذلك أن الله قادر على نصر المظلوم، فما عليه إلا الاعتماد على الله تعالى القوي العزيز، وهذا يبين أن من صفاة الله تبارك وتعالى القوة والقدرة والنصرة والرحمة. وأن الله تعالى قادر على أن يجري الأمور على غير قوانينها الكونية، التي قننها القوي العزيز. وكذلك التمكين للمستضعفين بإهلاك عدوهم. وهذا كله

---

(١) المرجع السابق

يوجب محبته سبحانه وتعالى، والخوف منه ورجاءه، وأن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ٥٣)

ثم تأتي نقلة أخرى بيانية لما حصل من بني إسرائيل على الرغم من تلك النعم المتتالية، حيث عبدوا العجل من دون الله تعالى (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة. ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) ففيها بيان لما يحدث من انزلاق المجتمع أو بعض أفراده بسبب عدم الصبر على الطاعة، أو تقليد غيرهم في دينهم، أو اتباع من أغواه الشيطان. حيث وعد الله تعالى موسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة، فلم يصبر القوم حتى يستكمل الميعاد، بل عبدوا العجل من دون الله تعالى، أثناء انتظار نعمة نزول التوراة. وهذا يوجب على المرء الانتباه من الاستعجال ومخاطره في تحقق المراد والمطالب بالطريقة التي تتنافي وتتعارض مع منهج الله تعالى، كاستعجال الرزق بالحرام، والغش والرشوة وغيرها من أمور الحياة، لأنها من ظُلْمِ الإنسان لنفسه، حيث ختم الله تعالى الآية بما يؤكد أن ذلك ظلم منهم على أنفسهم (ثم اتخذتم العجل من بعده وأنت ظالمون) والعجل هو الذي صنعه لهم السامري من الذهب.

ومع ذلك عفا الله تعالى عنهم (ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون) وهذا يدل على عظيم عفو الله تعالى، من أجل أن يشكر الإنسان ربه الذي عفا عنه، وأتاح له باب الاستغفار الذي يُوجب الشكر له تبارك وتعالى، الذي من لوازمه الإتيان بالطاعة اعتقاداً وفعلاً، وأن يلهج اللسان بالثناء والحمد شكراً، من أن الله تعالى هو الذي أعطى ويعطي النعم، وهو الذي يستحق الشكر عليها.

ومن زيادة نعم الله تعالى أن أعطى موسى الكتاب والفرقان ليهتدوا بها، ويعرفوا الطريق الموصل إلى الله تعالى ورضاه (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون)

فالكتب المنزلة من الله تعالى على أنبيائه نعم عظيمة، جليلة القدر، والتي منها التوراة، ليهتدي به أتباع موسى عليه السلام. مما يستوجب على المسلم الاعتبار بالسابقين من الأمم، فيشكر الله تعالى على نعمة القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧)

وفي هذه الآيات يَذْكُرُ اللهُ تعالى التعامل بين موسى عليه السلام وقومه، وما يأمرهم به، وما يَرُدّونَ عليه به، حيث أخبرهم موسى عليه السلام بأنهم ارتكبوا ظلماً عظيماً لأنفسهم. مفسراً لهم هذا الظلم بما فعلوه من عبادتهم للعجل من دون الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قومي إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) ويلمح التالي للآية الكريمة ذِكْر الحال والحكم عليهم (ظلمتم أنفسكم) ثم ذكر العلة والتفسير (باتخاذكم العجل) حيث في ذِكْرِ الحكم أولاً شَدُّ الانتباه لمعرفة العلة، فيتجه القلب لمعرفة علة الحكم. وفي هذا بلاغة بيانية، وبلاغة توجيهية ووعظية وتعليمية، مما يفيد أهمية الأسلوب في استثارة الذهن نحو متابعة التوجيه والنص والعلم والمضمون والمطلوب.

ثم بين تبارك وتعالى لهم العلاج من ذلك الذنب العظيم وهو التوبة إليه عَزَّ وجل، الذي خلقهم وأوجدهم من العدم (فتوبوا إلى بارئكم) وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: في قوله تعالى (إلى بارئكم) أن فيه تنبيه على عِظَمِ جُرْمِهِم، فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.(١) وهذا يدل على عظيم فعل الشرك، حيث أُمِروا أن يقتلوا أنفسهم (فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم). وهذا يفيد أن لله تعالى الحكم بما يريد، ولا معقب لحكمه، فهو الملك الذي يَسْأَل ولا يُسأل، كما قال تعالى في سورة الأنبياء (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) وهذا يفيد ويبين رحمة الله تعالى لهذه الأمة، إذ لم يأمرهم أن يقتلوا أنفسهم تكفيراً للشرك، بل أمرهم بالتوبة والاستغفار والإقلاع عنه. ثم وصف الله تعالى نفسه بما هو أهل له من التوبة والرحمة (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) فالله تعالى تواب رحيم، وهما نعمتان عظيمتان تستوجب الشكر والثناء على الله تعالى بما هو أهل له تبارك وتعالى، ولهذا تاب عليهم مع عظيم جرمهم.

ثم يبين الله تعالى تمادي الإنسان فيما حصل من بني إسرائيل (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فتمادوا في شروطهم وطغيانهم باشتراطهم للإيمان أن يروا الله تعالى جهرة. مما يفيد

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٦/١)

الحذر من الطغيان والتمادي في الباطل، إذ أن هذا التمادي يحصل في بني آدم، مما يستوجب الحذر من ذلك. لأن عذاب الله تعالى إذا نزل بقوم فإنه أليم عظيم، قال تعالى في عقابهم (فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) ثم من قدرة الله تعالى ورحمته أن بعثهم مرة أخرى ليستوفوا آجالهم (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) مما يفيد أن الله تعالى عظيم قدير لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وهذا يستوجب الحذر والخوف منه تبارك وتعالى، وطاعته والتماس رضاه جل جلاله. ثم يوجه الله تعالى بشكره (لعلكم تشكرون) فعسى أن يحصل منكم الشكر لله تعالى على إحيائكم بعد موتكم، حتى تستكملوا آجالكم. كما أن في هذا تنبيه وتنويه إلى موقعة الشكر وأهميته، خاصة حال حصول النعمة مع وجود المعصية والتقصير، إذ أن الله تعالى عامل عبده بحلمه وكرمه لا بما يستحق على معصيته وتقصيره.

ثم يُعلم للهُ تعالى المؤمنين ويُذَكِّرُ بني إسرائيل بما حصل لأسلافهم، وما حصل منهم، وكيف عاملهم الله تعالى برحمته وحكمته، ليدركوا نعمته ويعلموا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق، وما جاء به حق صلى الله عليه وسلم. فيقول تعالى (وَظَلَّلْنَا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى) فيذكرهم بما حصل لأسلافهم من النعم بالرغم من تماديهم وطغيانهم، فيتعامل معهم بمقتضى حكمته ورحمته جل جلاله، بأنه ظللهم بالسحاب وهو الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. والمن: حلوة كالعسل، وقيل كل رزق يحصل بلا تعب. وأما السلوى فهو طائر صغير يُقال له: السمان.[١] وقيل المن هو الترنجين، وقيل الكمأة من المن الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل. وفي هذا دليل لهم ولغيرهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يخبرهم القرآن بما يعرفونه ولا يعرفه عليه الصلاة والسلام إلا بعد نزوله. ومن فوائد ذلك أن الله تعالى هو الرزاق، الذي إذا أراد رزقاً لعبد أعطاه بأبسط الأسباب وأسهلها. وأنه هو المنعم بالغيث، حيث يسوق السحاب بأمره من مكان إلى مكان، وينزله بالقدر الذي تحتاجه خلائقه. ثم بعد أن يَحُطَّ الغيثُ بما كتب الله تعالى له أن يحط دون إغراق وإفساد، يتحرك الغمام إلى حيث يشاء الله تعالى، فسبحان الخلاق الذي قدر وقته ومقداره ومكانه، وتحركه وانتقاله.

ثم يبين الله تعالى أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) مما يبين ويفيد أن ما يصيب الإنسان من بلاء هو بسبب ظلمه لنفسه.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٠/١)

(وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩ ۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١)

لا زال السياق في ذِكْرِ وتذكير الله تعالى لأهل الكتاب بما كان من أسلافهم، ليؤكد عليهم ولهم من خلال هذا القرآن الكريم حقائق ما يعرفون. مما يفيد أهمية البرهان والدليل، وأهمية التذكير في الإرشاد والدلالة على الخير، وذلك لما في التذكير بالحقائق من استثارة العقل والعاطفة معاً، نحو ما يجب أن يكون المرء عليه تجاه النعمة.

فَيُخْبِرُ الله تعالى المؤمنين وغيرهم، مع تذكير اليهودَ بما وقع من أسلافهم، وما كان من الله تعالى من الفضل عليهم، وذلك أنه لما انتهت مدة التيه بعد أن تركوا الجهاد وامتنعوا عنه، أمرهم الله تعالى بدخول القرية التي هي بيت المقدس، كما رجح ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى[1] فقد بين الله تعالى رحمته بهم، بعد عقابهم بالتيه، فأمرهم بدخول القرية ليجدوا فيها الأمن والخير الوافي (قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا) وهذا يفيد تمكينهم من التنعم برغد العيش الواسع الكثير من أي جهة بالقرية. وهذا يدل ويفيد على أنها أرض مباركة برغد العيش، ثم أمرهم بهيئة الدخول (وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) وكلمة (سجدا) تفيد الخضوع والانقياد والطاعة والعبادة، لأن السجود تذلل، وكلمة (حطة) تفيد الطلب من الله تعالى أن يحط عنهم الخطايا. مما يفيد أهمية التذلل لله تعالى بما شرع وأمر، وأن النعمة والرخاء تأتي بالطاعة والشكر مع الاستغفار. وأن عاقبة البطر والعناد والتمرد وخيمة في الدنيا والآخرة. وإن كان الخطاب بهذه الآيات في شأن بني إسرائيل، فهو موعظة للمؤمنين بما حدث من غيرهم، ليتعظوا ويجتنبوا ما انزلق فيه غيرُهم من الأمم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٢/١)

ويؤكد الله تعالى أنهم إذا دخلوا القرية وفق ما أمر، سَيُغْفَرُ لهم، ويزيد المحسن خيرا، قال تعالى (نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين)

ولكن هناك من يعصي ويبدل نعمة الله كفرا، مما يوجب الحذر منهم ومن صنيعهم، قال تعالى (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم) ومع كل هذا هناك من بدل القول واستعاض عن الطاعة بالمعصية، وهي قد تحدث في كل وقت وحين من الموصوفين بالظلم. فهناك من يبدل نعمة المال إسرافاً وبذارا، ومن يبدل نعمة الصحة في المعصية، ومن يبدل نعمة الذرية في الالتهاء بهم عن الطاعة، أو تسخيرها في المعصية، وكذلك تبديل العبادة المقررة شرعاً بالتحريف والاجتهاد المخالف لمراد الله تعالى. فيأتي عقاب الله تعالى للذين بدلوا غير الذي قيل لهم، قال تعالى (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) فعاقبهم الله تعالى بالعذاب، لسبب فسقهم. مما يفيد الحذر من المعصية وتبديل مراد الله تعالى وأوامره، فإن لله جنود السماوات والأرض. فعقابه قد يكون في الصحة وفي الأرزاق، وبالهموم والإذلال، وغيرها من أصناف العذاب العقابي.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من إنعامه على أسلافهم، حيث طلب لهم موسى من الله تعالى ماءً يشربون منه. فأعطاهم الله تعالى الماء بأبسط ما يكون، من غير جهد ولا عناء ولا مشقة، قال تعالى (وإذ استسقى موسى لقومه. فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) مما يفيد أن عطاء الله عظيم، وسهل ويسير لمن أراد أن يعطيه من غير مشقة وعناء، فبمجرد ضرب الحجر بالعصا انفجرت عيون الماء. لتكون معجزة أمامهم.

كما يفيد قوله تعالى (استسقى موسى لقومه) الالتجاء إلى الله تعالى قبل التوجه للأسباب. حيث أن لفظة (استسقى) تفيد الطلب. ولأن الذي يملك الأسباب ويسخرها هو الله الواحد القهار. فلا سهل إلا ما يسره الله تعالى. ومن فضل الله تعالى أن جعل العيون ثنتي عشرة عينا، على عدد قبائل بني إسرائيل، لتشرب كل قبيلة من الماء الذي عرفت أنه لها، بفضل الله تعالى، وبعلمه وحكمته وقدرته (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا. قد علم كل أناس مشربهم) ثم بين الله تعالى منهجية وكيفية التعامل مع هذه النعم، بأن يشربوا من هذا الماء، ويأكلوا مما رزقهم من دون فساد وإفساد (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) وقد نسب الله تعالى الرزق لنفسه جل جلاله (كلوا واشربوا من رزق الله) مما يفيد أن ما عند الخلق من مأكولات ومشروبات هو رزق من الله

تعالى، يلزم أن تنسبه الخلائق لله تعالى. فلا ينسب المطعومات والمشروبات لجهده الذاتي، بل يربطه بالله تعالى وفضله وجوده وكرمه، لأنه هو المنعم والمتفضل به، إيجاداً وتسخيراً.

وفي النهي عن الإفساد كما في الآية الكريمة ما يدل على أن الهدف والمنهج الذي يلزم مَنْ أنعمَ اللهُ تعالى عليه بالنعم ألا يستخدم النعمة في المعصية وإفساد الأرض ومن عليها من خلق الله تعالى.

ثم بعد أن مَلُّوا من المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى أن يُخْرِج لهم من الأرض ما كانوا عليه من المأكولات. قال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد. فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض. من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) وهذا يفيد سرعة ملل الإنسان حتى لو أُعْطِيَ أحلى وأشهى ما في الأرض، وكيف وقد أعطي المن والسلوى. ومع هذا طلبوا مما تنبت الأرض. مما يؤكد أهمية الصبر وتوطين النفس على إدراك واقع الخير والنعمة. وألا يستهويه التنوع ويُشغله عن عظيم النعمة وجلالتها، وأن يزكو بنفسه نحو المعالي. وأن يُدرك الإنسان أن النفس ملولة، ومُشْتَهِيَةٌ لما لا تملك، فإذا ملكته، اشتهت غيره، فلا تَكُف عن ذلك إلا بتوطينها وتربيتها، وتهذيب طباعها.

ولذلك فإنه إذا عرف الإنسان هذه الطبائع البشرية وعدم صبره، مع تشهيه لما غاب عنه أو لا يملكه استلزم منه توطين النفس، وأن لا ينزل بها إلى الطبيعة السفلية التي تطلب وتستعيض بالأدنى على الأعلى، بل يرتقي بها إلى الطبيعة العلوية الزكية، ولا يجري خلف كل جديد، فإنه سَيَمَلُّه بعد أن يشبع منه. وإذا أدرك الإنسان هذه الطبيعة تطلب ذلك منه الإحسان في التعامل. ولكن العاقل الذي وطن الله تعالى له نفسه، كموسى عليه السلام، يرد على طلبهم هذا بالاستغراب (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) فهذا تعجب من هذا الطلب، فهو أمر عجبا أن يطلب الأدنى بعد أن أعطاه الله تعالى الأحسن والأفضل. كما يفيد هذا أن من تولى أمر قوم أن يبين لهم، وأن له أن يسأل، ويستنكر. ثم قال لهم موسى عليه السلام (اهبطوا مصرَ فإن لكم ما سألتم) فوجههم بعد أن رغبوا في الأدنى أن ينزلوا مصر. وقيل المقصود بمصر من الأمصار، لأن الذي طلبتم موجود في كل مصر من أمصار الأرض.[١]

([١]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٠٥ – ١٠٦)

وبعد هذه النعم التي سخرها الله تعالى لهم، وأنقذهم مما كانوا فيه من الهوان والذل، وبعد كل ما رأوا من الآيات، وعدم صبرهم وكثرة عنادهم ومخالفاتهم، ضرب الله تعالى عليهم الذلة، قال تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) فبين الله تعالى أنواع ما أصابهم من الجزاء العقابي، بالإذلال في الأبدان والمسكنة في القلوب(١) وغضب من الله تعالى عليهم. وقيل الذلة: الصغار والفقر، فلا يوجد يهودي وإن كان غنياً إلا عليه زي الفقر وخضوعه ومهانته.(٢) وهذا ظاهر في تصميم ملابسهم بما يوحي أنها ممزقة، وهي جديدة الصناعة. مما يستوجب على المؤمن أن يتنبه من محاكاتهم التي تُظهر فقرهم وهم أغنياء، ومن مسلكهم في مقابلة النعمة والرحمة من الله تعالى بالمعاندة والاستبطار. أو التململ من النعمة، وعدم شكرها، مراعاة للطبيعة السفلية، بل يلزم الاستعلاء والارتقاء بالنفس وطبيعتها إلى طبيعة العابد الشاكر المعترف بنعمة الله تعالى، والمقدر لها. لأن عقاب الله عظيم، فقد (باءوا) أي رجعوا بغضب من الله تعالى.

ثم بين الله تعالى علة إنزال العقوبة عليهم، بحصول الذلة والمسكنة والرجوع بغضب الله تعالى عليهم. (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)

فتلك المعاصي أوجبت غضب الله تعالى عليهم. مما يفيد الحذر من المعاصي، فإنها جالبة لغضب الله تعالى، وأن الله كريم رحيم، يحب المطيع الشاكر، المستغفر التواب، الذي يثوب إلى الله تعالى، ويحافظ على النعم، ولا يزدريها ويتهاون بها، بالإسراف والتبذير أو غير ذلك، وأن يكون مجتهداً وحريصاً في اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢)

بعد أن بين الله تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وما أحل بهم من النكال، بين تبارك وتعالى جزاء المحسنين الذين أطاعوه سبحانه وتعالى من الأمم السالفة من الذين آمنوا بالأنبياء من قبل وكذلك اليهود والنصارى والصابئين، الذين هم طائفة من اليهود أو النصارى (إن الذين آمنوا

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسر كلام المنان (٦٣/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩٢/١)

والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم. ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) بأن لهم جزاء الحسنى. وكذلك الأمر إلى قيام الساعة. فكل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه[١]. مما يفيد عدله تبارك وتعالى، وأنه لا يظلم من كانوا مستهدين بهدى أنبيائهم الذين أُرْسِلُوا لهم. فآمنوا بالله تعالى واليوم الآخر، وعملوا الصالحات.

وبعد بعثت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نسخ الله به كل الأديان، فلا يُقبل من أحدٍ غير الإسلام، كما قال تعالى في سورة آل عمران (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)

(وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ٦٦)

وتعاود الآيات الكريمات لبيان حال بني إسرائيل، مِنْ أن الله تعالى رفع الطور فوقهم، وأخذ عليهم العهد الثقيل الْمُؤكد، بأخذ التوراة وقراءتها والعمل بها، بجد واجتهاد وصبر على أوامر الله تعالى، لعلهم يتقون عذاب الله تعالى، فيكونون من أهل التقوى.[٢] قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون)

وهذا تذكير من الله تعالى لبني إسرائيل، وتعليم غيرهم بما حصل لهم، ليعتبروا بمن سبق، وليُفيد أهمية منهجية التذكير دعوياً وتربوياً، وأهمية بيان الحقائق التي يتعلم بها المرء ما يدفعه ويحثه على الطاعة، ويحذره من المعصية.

وفي أخذ الميثاق ما يدل على أهميته، وخاصة مع الله تعالى الذي خلق وملك كل شيء، كما أن في رفع الطور ما يفيد عظيم قدرة الله تعالى، وأنه من رحمته بالخلق يخوفهم بما يذهل له الإنسان، حيث

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٠٧)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٦٥)

رفع الجبل فوقهم، ولولا رحمته لأهلكهم به. كما يفيد هذا البيان من الله عزّ وجل أهمية أخذ دين الله تعالى بجد واجتهاد، وكذلك أهمية تعلمه وتعليمه للغير، ونشره بين الخلائق، ليتقي المسلم بذلك غضب الله تبارك وتعالى، ولتحصل له التقوى التي تجعله يحصل بها على خير الدارين.

وبالرغم من الميثاق الذي أُخذ عليهم، ورؤيتهم للجبل فوقهم إلا أنهم تولوا، كما قال تعالى (ثم توليتم من بعد ذلك) ولكن مع هذا فإن فضل الله تعالى عظيم (فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وهذا يفيد أن فضل الله تعالى ورحمته بعباده عظيمة، ولولا هذا التفضل وهذه الرحمة الربانية لحصل الخسران. وما أتيحت الفرصة لمذنب أن يتوب. ومن فضله ورحمته أن أرسل الرسل وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحدث الكوني العظيم يفيد أن في أحداث الكون من زلازل وبراكين وفيضانات وكسوف وخسوف وحوادث وحروب آيات للعالمين.

ثم تتناول الآيات الإشارة إلى قصة ما هو متقرر عند بني إسرائيل عن حالة الذين اعتدوا يوم السبت، فغضب الله تعالى عليهم، فجعلهم قردة. قال تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وهم الذين بسط الله قصتهم في سورة الأعراف، وجاءت القصة هنا مُجْمَلَةً. وفي ذكر مجمل القصة تشويق لمعرفة المزيد من تفاصيل أصحاب هذه القصة. مما يفيد أهمية الإجمال ثم التفصيل لحصول الرغبة في متابعة وتتبع الآيات، من أجل معرفة المزيد عن التفاصيل. كما يفيد هذا الحدث خطورة المعصية، وسهولة العقوبة عند الله تعالى، وقد يعاقب بما لا يخطر ببال العاصي، إذ جعلهم قردة بقوله تعالى لهم (كونوا قردة خاسئين) فتحولوا إلى قردة حقيرة ذليلة.

فالمعصية قد تكون سبباً لإذلال العاصي. فليحذر المؤمن من مغبة مخاطر المعصية، ويسأل الله تعالى التوفيق والعون والسداد.

ثم يبين الله تعالى أنه جعل عقوبة أصحاب يوم السبت عبرة لغيرهم (فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) وهذا يفيد أن ما يصيب الغير من عقوبة أو تطبيق حد من حدود الله تعالى أنها عقوبة للمُذنب، وعبرة لغيره، ليدركوا حقيقة الدين، وجزاء العاصي المعاند لله تعالى، وكذا (موعظة للمتقين) ليتعظوا بها، فتزيدهم إيماناً وبعداً عن المعصية، وحذراً منها.

(وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣)

ثم تتناول الآيات موقفاً وقصة لموسى عليه السلام مع قومه، في أمر قتيلٍ من بني إسرائيل قد قُتل، فاختلفوا وتدافعوا في قاتله، حتى تفاقم الأمر وكاد يحدث بينهم شرٌ كبير، لولا أن الله تعالى بين لهم ما اختلفوا فيه. فقال لهم موسى في حق تبيين القاتل اذبحوا بقرة[١] (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمُرُكم أن تذبحوا بقرة)

ثم تكشف تفاصيل الموقف اعتراضهم على نبيهم. وهو يخاطبهم ويكلمهم بما أمر الله عزَّ وجل به (قالوا أتتخذُنا هزوا) والواجب الامتثال لموسى عليه السلام، لأنه نبي ورسول من الله تعالى إليهم، فلن يكذب ولن يستهزئ، فلا يُظن بالنبي ذلك، خاصة وهو يقول لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) ولم يقل: إني آمُرُكُم أن تذبحوا بقرة، بل إن الأمر من الله تعالى. وهذا يؤكد أهمية الظن بالأنبياء خيراً، وأهمية الطاعة، وعدم قياس الأمور بالعقل المجرد، بل إن قبول أوامرُ الله تعالى ليس بالقياس العقلي والهوى، بل بالامتثال والطاعة لله تعالى، وسواء ظهرت الحكمة فيها أو غاب عن العقل إدراكها. فرد عليهم موسى عليه السلام بقوله (أعوذ بالله أن أكُون من الجاهلين) ويفيد جواب موسى عليه السلام، تقرير مبدأ دفع سوء الظن بألْطَف العبارة في الجواب. ويفيد هذا أن العاقل لا يفعل ولا يقول بقول الجاهلين في الرد، بل يقول بما يناسب الحق، ويدفع الباطل. وأن الجاهل هو من يستهزئ في المواقف المهمة والمدلهمة، مما يؤكد أهمية عدم وضع الجهل في موضع الجد في المواقف والأمور التي لا تحتمل ذلك. كما يفيد قول موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكُون من الجاهلين) أهمية الاستعاذة بالله

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٦/١)

تعالى في دفع البغي والظلم عن النفس، أو دفع صفاتها عن النفس إن كان مُتهماً بها وهو بعيد عنها. فالاستعاذة بالله تعالى قوة يتقوى بها العبد.

فلما قال لهم موسى ذلك القول، رَدُّوا عليه بقولهم (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي) فلم يكتفوا بأنها بقرة، بل تشددوا في معرفة الدقائق من وصفها، فقال لهم (إنها بقرة لا فارض ولا بكر. عوان بين ذلك. فافعلوا ما تؤمرون) أي ليست كبيرة ولا صغيرة، بل (عوان) أي متوسطة بين ذلك. ومؤكداً عليهم موسى عليه السلام أن يأتمروا بما قال لهم (فافعلوا ما تؤمرون) ففي هذا الأمر إشارة إلى المبادرة بالفعل وعدم التشدد بالأسئلة التي قد يستصعب معها فعل المطلوب. مما يفيد أن التشدد والمبالغة قد تؤدي إلى التعجيز. ولكنهم لم يلتزموا بما أمرهم نبي الله موسى عليه السلام، (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها. قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) ولكنهم أيضاً تشددوا (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي. إن البقر تشابه علينا. وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث. مسلمة لا شية فيها) فأرشدهم إلى أنها ليست بالحراثة في الأرض وليست بسانية لاستخراج الماء، وأيضاً سالمة من العيوب، وهنا (قالوا الآن جئت بالحق. فذبحوها وما كادوا يفعلون) وفي قولهم (الآن جئت بالحق) كأن الذي قبله ليس بالحق. وهذا يدل على التعنت، والمكابرة. ويستفاد من هذا أهمية التيسير الذي كان منهجه صلى الله عليه وسلم. فما خُيِّرَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما. ليكون نهجاً سلوكياً في حياة المسلم.

ثم أمرهم موسى أن يأخذوا عظماً فيضربوا به القتيل. ففعلوا فرجعت إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان.[1] فأخرج الله تعالى ما كانوا يكتمونه عن القاتل. قال تعالى (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها. والله مخرج ما كنتم تكتمون) وفي هذا دليل لهم ولغيرهم أن الله محي الموتى، وأنه لا يعجزه شيء تبارك وتعالى، وأن الله يفعل ما يشاء، فجعل في ضرب الميت بعظم البقر عودة الروح له. مما يبين أن من سنن الله تعالى الأخذ بالأسباب، وإلا فإن الله تعالى قادر على أن يعيد له روحه بقوله كن، فيكون حياً. فسبحان الله العلي القدير. وهذا يؤكد ويبين لأهل الكتاب أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق، وأن هذا القرآن حق، إذ يبين لهم ما كان منهم. وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٢/١)

ومن الفوائد أيضاً: ما يتعلق بالعلاقة بين اسم سورة البقرة وهذا الحدث العظيم الخارق للعادة، والذي يعتبر آية باهرة من الله تعالى، لبيان قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وإنطاق الميت بعد الإحياء، وأن يعود لعقله، فيتذكر جميع ما حدث وبدر منه. كما تفيد أن الحكم لله تعالى وحده بما شاء وكيف شاء، إذ جعل السبب في إحياء ذلك الميت عظم البقرة. فَيُضْرَب الميتُ بعظم البقرة، فتعود له الروح. فحقاً لهذه السورة العظيمة أن تُسَمَّى بسورة البقرة. فالأمر لله تعالى من قبل ومن بعد.

(ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤)

تبين هذه الآية الكريمة ما حصل لبني إسرائيل من قسوة القلب بعد أن رأوا الآيات الباهرات التي يرتجف لها القلب ويخفق، ويُذعن بها الإنسان لأوامر وتوجيه الله تعالى، وما يوجب محبته مما حصل لهم من كرم الله تعالى بإنزال المن والسلوى وإنقاذهم من فرعون، وإغراق عدوهم أمامهم، ودخولهم الأرض المقدسة. فهذه توجب محبته وطاعته، وفي انفلاق البحر وإغراق فرعون أمامهم، ورفع الطور فوقهم، وإحياء الميت أمامهم ما يوجب الخوف والطاعة والامتثال، ولكن قست قلوبهم بعد ما حصل لهم من الدلائل الموجبة للطاعة. قال تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)

مما يفيد أن هناك عقولاً لا تستجيب للحق، مهما رأت من الأدلة والبراهين، وأن هناك قلوب لا تتأثر بمن يُنْعِم عليها ولا بمن يخيفها. وإن أذعنت فإذعان تَوَقٍّي ثم العودة لما كانت عليه من الانحراف. ومن فضل الله تعالى أنه كلف المؤمن بواجب هداية الدلالة على الخير والإرشاد للغير، ولم يكلف أحداً من خلقه بهداية التوفيق. بأن يجعل غيره مطيع له باختياره. بل جعلها خاصة به، كما قال تعالى في سورة القصص (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)

وتفيد الآية الكريمة أن القلب عندما يقسو وتشتد قساوته فإنه لا يستجيب، بل تصبح شدة قساوته أعظم من شدة قسوة الحجارة، بل إن الحجارة أكثر استجابة من هذا القلب البشري إذا صار قاسياً (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار. وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وإن منها لما يهبط من خشيت الله) فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار والعيون، ومنها ما يتهشم من خشية الله تعالى كجبل الطور عندما تجلى له سبحانه وتعالى، واهتزاز جبل أحد واضطرابه عندما اعتلاه نبينا محمد صلى

الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. فتفيد هذه الآية أن الجمادات تتفاعل مع آيات الله تعالى بالخشية، كما قال تعالى عن الحجارة (وإن منها لما يهبط من خشية الله) وكما قال تعالى في سورة الحشر (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) كما اندك جبل الطور لما تجلى الله تعالى له (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) واهتزاز جبل أحد لما صعد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك حنين الجذع. وبالتالي فإن بعض الحجارة تَفْضُلُ على قلوب بعض البشر، ممن لم يؤمنوا بالله تعالى بعد أن عرفوا الحق.

ثم تُختم الآية الكريمة ببيان وتأكيد علم الله تعالى، من خلال نفي الغفلة التي تكون عند المخلوق (وما الله بغافل عما تعملون) فنفى الله تعالى عن ذاته الغفلة التي هي من طباع البشر، وفي المدح بأسلوب نفي الضد بلاغة بيانية، إذ يستوعب نفي النقص حصول كمال صفة الكمال. وهذا البيان مدحٌ بأسلوب نفي النقص، فهو الكمال وصاحب الكمال تبارك وتعالى، فلا يغيب عن علمه ما يسِرُّوا به البشر من أسرار وما يضمرونه في صدورهم من نوايا، فضلا عما يُظهرونه، فكله عنده علانية سبحانه وتعالى.

(أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦ أَوَ لَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧)

ثم ينتقل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ولأصحابه رضي الله تعالى عنهم، بسؤال استنكاري، يحمل التعجب من طمعهم في إسلام تلك الفرقة من يهود المدينة. (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) وهذا يدل على حرص المؤمنين في إسلامهم، وفي حرصه صلى الله عليه وسلم وأصحابه على إسلامهم ما يفيد أهمية تقديم محبة إنقاذ الكافر من النار على تركه وإهمال دعوته، خاصة المجاورين والمحيطين بالمؤمنين، لأنهم الأولى بالدعوة، وهذا يعني تقديم أولوية محبة الخير للغير بالإسلام عن البقاء في الكفر. كما يفيد هذا التوجيه من الله تعالى على عدم علم المؤمنين بحقيقة ما عليه تلك الفرقة اليهودية، لولا أن الله تعالى بينه لهم، على ما سيأتي بيانه. وفيه كذلك الحرص على هداية الآخرين عموماً. فقد

حرص الأنصار رضي الله عنهم على إسلام اليهود للحِلف والجوار الذي كان بينهم.[١] وهذا يدل على وفاء الأنصار لحق الجوار والحِلف، ولكن الله تعالى يعلم الحقائق التي يجهلها البشر إلا بعلم من الله تعالى،

فأوضحت الآية بقطع الأمل في إسلامهم. قال تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) فبينت هذه الآية وجه الاستبعاد من إيمانهم، من أنه كان فريق من أسلافهم قد وصل بهم الحال، أنهم يسمعون كلام الله تعالى ويحرفونه بعد أن (عقلوه) أي عرفوه وعَلِموه. أي فإن من أسلافهم من عرف الحق وعاند. فكيف تطمعون في إسلام هؤلاء بعد أن عرفوا الحق الذي لا ريب فيه.

وهذا يفيد أن ليس كل من يرفض الحق يجهله، بل إن البعض يرفض الحق وهو يعلمه علماً يقينياً، بل إن البعض يعمد إلى تحريفه بعد علمه ويقينه. وهذا يفيد أهمية الحذر من الهوى والحقد والكبر الذي يصد الإنسان عن قبول الحق. فإذا كان يصد عن الأمر العظيم المتعلق بمآل الإنسان، فكيف لا يصد عما هو أقل منه في أمور الدنيا كالتجارة وبين أرباب المهن، وفي الإدارة العامة، والخاصة التي تجتمع فيها مصالح الناس، وفي غيرها من مناحي الحياة ومجالاتها. مما يستوجب الحذر من مخاطر الكبر والحسد والهوى. فإنها سلاح شياطين الإنس والجن.

ثم يبين الله تعالى حال المنافقين مع المؤمنين، وأيضاً فيما بينهم (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا. وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم. أفلا تعقلون) فيكشف الله حال المنافقين بأنهم يُظهرون الإيمان للمؤمنين، وإذا خلوا إلى بعضهم أنكر بعضهم على بعض ما قالوه للمسلمين من صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دينه، بما عرفوا من الكتب المنزلة، ومعللين هذا الاعتراض بأنه يُقيم الحجة عليهم، فيؤدي إلى احتجاج المسلمين بهذا عند الله تعالى. إذ كيف تكفرون وأنتم تُظهرون الإسلام وتعرفونه. وتقولون بصحة هذا الدين وصدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا يفيد أنهم ليسوا بجهال، ولكنهم يستجهلون، ويستغبون. فيقول الله تعالى فيهم (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرون وما يُعلنون) وهذا سؤال استنكاري على ما تقرر عندهم، مما يفيد التوبيخ والتقريع لهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢)

ويبين هذا عظيم علم الله تعالى واطّلاعه على ما يُعْلِنُهُ أو يُسِرُّهُ المرءُ، فلا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى. كما تفيد الآيات السابقات أن من صفاة المنافقين: إظهار الإسلام وإخفاء الكفر. مما يستلزم من المؤمن الحذر من خداع الكفار، ومن التخلق بمثل أخلاقهم في التعامل، فإنها أساليب نفاقية شيطانية.

(وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢)

يبين الله تعالى أن من أهل الكتاب من هو أمي، لا يعرف الكتابة، فلا يعلم ما في الكتاب الذي أنزله الله تعالى عليهم، ويتمنى هؤلاء على الله تعالى ما ليس لهم، ولا يعلمون إلا ظناً وتخرساً. مما يفيد خطورة أن يتكلم الإنسان في كتاب الله تعالى بغير علم، فيقول هذا لا يمكن، وهذا غير صحيح، وهذا جائز، وهذا حرام، وغير ذلك من الكلام بغير علم، وإنما ظناً منه بأنه يفهم، وأن ما يقوله صواباً.

وهذا الذم يفيد المدح لأضداده، وهو العلم، وكذلك أهمية الكلام بعلم، كما يدل على فضل العلماء، وأهل العلم الربانيين الذين يقولون بعلم ومعرفة، وليس بما يتوهمون ظناً من عند أنفسهم. ويبين هذا أن من الناس من قد يتجرأ على دين الله تعالى، مما يجب الحذر من هذا المسلك، وأن يتعوذ المسلم بالله من أن يقول بغير علم. أو أن يستفتي من ليس له علم، أو يسمع توجيه من ليس له علم في أمر الدين. ويُستفاد من قوله تعالى (إن هم إلا يظنون) أن الظن ليس بعلم، بل هو تخرس وتوهم، وأنه لا يُعَول عليه، حتى يتم التثبت بعلم، والذي هو إدراك الشيء على حقيقته إدراكاً جازماً.

ثم يتوعد الله تعالى الذين يحرفون الكتاب ويكتبون خلاف ما أنزل الله تعالى، ثم ينسبونه زوراً وبهتاناً إلى الله تعالى، ويَدَّعُون أنه من عند الله، وأنه مُرَادُ الله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً) قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله تعالى، وأكل أموال الناس

بالباطل.(١) وإن كان هذا في بني إسرائيل فإن في قصصهم موعظة وتحذيراً من هذا المسلك، لأن في البشر من قد يسلك مسلك هؤلاء.

ثم بين الله تعالى توعده لهم، فقال تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم. وويل لهم مما يكسبون) والويل هو الهلاك والدمار، وقال بعض أهل العلم هو صديد في أصل جهنم، وقيل هو واد في جهنم لو سُيِّرَت فيه الجبال لماعت. وفي الحديث (الويل: واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره)(٢)

وفي تلك الآية بيان مخاطر وعذاب أمرين وقعا منهم، كما فندها تبارك وتعالى، الأولى (فويل لهم مما كتبت أيديهم) والثانية (وويل لهم مما يكسبون) وفي هذا خطورة الكذب على الله تعالى لوحدها، وخطورة أن يتكسب بآيات الله تعالى.

وهذا يفيد ويبين أن العالم يتحمل مسؤولية عظيمة وجسيمة، ولكنه مقابل ذلك رفيع الدرجة عند الله تعالى، فبعظم المسؤولية يعظم الأجر بإذن الله تعالى، وأن الله الغني الكريم لا يضيع أجر ودرجة من تحمل أمانة وشرف العلم بالقرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين الله تعالى سبب وعلة وتبرير أولئك الذين يستخفون بكتاب الله تعالى، فيسلكون بهذا التبرير مسلك المستخف بآيات الله تعالى، فيتكسب بها ثمناً قليلا، إذ يقول الله تعالى عنهم (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) وهذا يفيد أن المرء قد يبرر لنفسه التبرير الذي يشجعه على الإقدام نحو ما يريد، ويكون هذا التبرير كذباً وزورا، ثم حتى لو كان العذاب لأيام معدودة، فهل يستطيع المرء ذلك؟ ولكن الله سبحانه وتعالى يُكَذِّبُ هذا التبرير، فيقول تعالى (قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده. أم تقولون على الله ما لا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢١)

(٢) الترمذي، (٥/ ٢٩٩ – ٣٠٠) برقم (٣١٦٤) وهو ضعيف. ضعيف الجامع، برقم (٦١٤٨) والضعيف يؤخذ به في الترغيب والترهيب.

وهذا يفيد ألا يقول الإنسان إلا بعلم، وألا يُوجِد لنفسه مسوغات وتبريرات يستبيح بها الحرام، ويشتري بآيات الله ثمناً قليلا، لأن سلعة الله غالية، وثمنها الجنة، لمن أخذها كما أمر الله تعالى. حيث يقول الله تعالى بعد بيان عقوبة الْمُكَذِّب على الله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) فهذا جزاء المؤمن الذي يعمل الصالحات المأمور بها، فيحفظ أوامر الله تعالى ولا يشتري بها ثمناً قليلا، وبالتالي لن يَكْذِبَ على الله تعالى، ولن يستهين بعذابه وعقابه. فاللهم أجرنا من عذابك وعقابك. واحفظنا من القول بغير علم في كتابك ودينك.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ٨٣)

تبين الآية الكريمة أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهود المؤكدة بعبادته وحده لا شريك له، والإحسان بالوالدين، وذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس أحسن القول من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرفق بهم والمخاطبة الطيبة، وأن يقيموا الصلاة ويُأدُّوا الزكاة. كما بينته وتضمنته الآية الكريمة. وأيضاً تفيد هذه الآية العظيمة أن شرائع الله تعالى متضمنة لأصول الدين، القائمة على عبادته وتوحيده التوحيد الخالص، ونفي الشرك (لا تعبدون إلا الله) فأوضحت ألا تُصرف العبادة إلا لله وحده لا شريك له. وكذلك متضمنة لمكارم الأخلاق والإحسان للغير (وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنا) وكذلك متضمنة للعبادات التي منها الصلاة والزكاة (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)

ويتبين في هذه الآية الكريمة حق الله تعالى المتضمن للتوحيد الذي لا يتم أصلاً إلا بتقريره وتحقيقه، وصْرَف العبادة له وحده لا شريك له. كما أن الإيمان به جَلَّ في علاه يستوجب الإيمان بمن جاء بالرسالة، وهم الأنبياء، وما أُرسِلُوا به من الكتب، وهذا يتطلب كذلك الإيمان بمن نَزَلَ بهذه الكتب، وهم الملائكة المكرمين، وبالتالي فإن عبادة الله تعالى الخالصة الصحيحة تستوجب تحقيق أركان الإيمان وإن لم يتم ذكرها. لدلالة غيرها عليها، ولزوم العبادة والتوحيد لها. كما تفيد هذه الآية خطورة الشرك الذي هو ضد التوحيد، وألا تُصرف العبادة إلا لله وحده لا شريك له (لا تعبدون إلا الله) وأن من أشرك بالله شيئاً لم يحقق التوحيد الذي أمر الله تعالى به.

ثم تبين وتوضح الآية العظيمة حق الوالدين، وهو الإحسان بعمومه، والمتضمن لكل أجزائه وأوصافه، فأغنت لفظة (إحسانا) عن جميع التفاصيل لمكوناتها، والتي تُوجِب عدم الإتيان بما يضاد الإحسان من قول أو فعل، أو ترك شيء من أجزاء الإحسان. ومن دقائق البيان أن الإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، بل تجاوز ذلك إلى المبالغة في الإكرام. فإن العدل واجب وأما الإحسان فهو تجاوز العدل إلى المبالغة في الإكرام. فأصبح الإحسان في حق الوالدين واجب. حيث انتقل من التفضيل إلى الوجوب بأمر الله تعالى وحكمه، وبما يصل به الأولاد إلى أقصى ما يمكنهم. مما يبين أن حقوق الوالدين تتعالى بالمبالغة في كمال أدائها، دون حدود محددة لكمالها، خاصة وأن الذي أمر بها هو الله

الخالق الكريم. وفي هذا الأمر منه سبحانه وتعالى تكريم للوالدين وعناية خاصة منه عَزَّ وجل بهما. وفي هذا بيان لأخلاق الإسلام وهديه العظيم في بر الوالدين، وهذا من كمال الدين وأخلاقه، ومن رحمة الله تعالى وبركاته وفضله. وفي هذا إعجاز بياني وبلاغي لهذا القرآن المجيد. بل كل ألفاظ هذه الآية معجز في دلالاتها اللفظية، المعبرة عن الكثير العظيم بأقل العبارات والألفاظ. وأفادت الآية الكريمة عظيم حق الوالدين، إذ خصت الوالدين من بين ذوي القربى، بالرغم من دخول الوالدين فيهم، كما قدمت حق الوالدين على ذوي القربى وغيرهم. لِتُفيد الأهمية وترتيب الأولويات.

وبينت الآية الكريمة حق ذوي القربى إجمالاً، والذي لا يخفى على ذوي الألباب من أنهم درجات متتاليات، مما يغني عموم البيان عن التفصيل، ثم تمتد مكارم الأخلاق لليتامى والمساكين، ثم لتكون عامة مع الناس جميعاً (وقولوا للناس حسنا) بما يلزم ويشمل جميع مكارم الأخلاق، وترك منكرات الأخلاق، ويدخل فيها حفظ حقوق الآخرين، لأنها من الإحسان، وتركها أو الاعتداء عليها منافي للإحسان. وتخصيص اليتامى والمساكين من بين الناس، وتقديمهما على العام دليل على أهميتهما، وأهمية العناية بهما، حيث لفتت شريعة الله تعالى الانتباه إليهما بالتخصيص، مما يفيد أن التخصيص للتنبيه بمزيد العناية. والتخصيص لهما، لما يلحقهما من العجز عن تحقيق ما يحتاجونه من لوازم الحياة الكريمة، كالمأكل والمشرب والتوجيه والرعاية. وهذه الآية معجزة في بيانها اللفظي العظيم، ودلالاتها المتضمنة لأنواع التشريع بأقل الألفاظ.

ثم يأمر الله تعالى بإقامة الصلاة التي هي عبادة بين العبد وربه (وأقيموا الصلاة) ثم تتلوها الزكاة التي هي عبادة لله تعالى، إلا أن أداءها بين العباد فيما بينهم (وآتوا الزكاة) وهي التفاعل والتعاطف العملي بين من أغناه الله تعالى بفضله وبين من أحوجه الله تعالى لغيره بحكمته. وهذا التشريع بهذه المعاني والشمولية المتضمنة للإحسان والرحمة دليل على أنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى. بما أحاط به دقائقه لأمره وتشريعه، وفق ترتيب تتجاذبه الفطر السوية، مع بلاغة تراكيب ألفاظه ودلالاتها المستوعبة للمراد بكل شمولية ودقة.

ثم يبين الله تعالى حال بني إسرائيل في تطبيق أصول هذه الشريعة (ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون) حيث أعرضوا عن الوفاء بما التزموا به إلا القليل منهم. وفي هذا بيان وتحذير لمن بعدهم، بأن لا يكونوا مثلهم، كما أن هذا توجيه وعظي غير مباشر، يفهمه ويدركه المرء بمجرد سماعه أو تلاوته.

(وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦)

تبين الآية الكريمة أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهود المؤكدة بأن لا يسفكوا دماء بعضهم بعضا، ولا يُخرجوا بعضهم بعضاً من ديارهم. ثم أقروا بمعرفة هذا الميثاق وقبلوا به، وشهدوا على أنفسهم بذلك. وهذا هو الأصل في دينهم.

فبين الله تبارك وتعالى حال اليهود الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال، منكراً عليهم مخالفتهم للكتاب، وما كانوا عليه من القتال مع الأوس والخزرج، الذين أصبحوا هم الأنصار بعد إسلامهم ونصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم. وذلك أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة. وكانت يهود المدينة ثلاثة قبائل، وهم: بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فإذا نشبت الحرب بينهم، قاتل كل فريق مع حليفه، وبالتالي قد يقتل اليهودي يهودياً آخر من ملته في الفريق الآخر، وذلك حرامٌ عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويُخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها، قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم. ثم أقررتم وأنتم تشهدون) ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسرى عملاً بحكم التوراة.[1] وبهذا يوافقون التوراة في فداء الأسرى، ويخالفونها بالاقتتال وسفك الدماء، وإخراج بعضهم بعضاً من منازلهم. (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجُونَ فريقاً منكم من ديارهم. تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرمٌ عليكم إخراجهم) وفي هذا استنكار توبيخي بافتداء الأسرى بعد أن تضع الحرب أوزارها، والأصل أنه محرم عليهم إخراجهم. وقتل بعضهم بعضا.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٥)

وهذا يفيد عظيم شريعة الله تعالى التي تحفظ الدماء، وتنهى عن سفكها بغير حق، وتنهى عن الإخلال بالمجتمع، وإشاعة الظلم بالاستقواء على الأضعف، وأخذ ماله، وإخراجه وتهجيره من بيته، والعبث به وبأسرته، وربما أدى ذلك لتشتيت شملهم.

كما يفيد ذلك مخاطر وإثم العبث في دين الله تعالى، بتطبيق بعضه والإعراض عن بعضه، فيطبقون ما يشاؤون ويتركون ما يشاؤون، وأن هذا الفعل هو من مسلك الجاهلين من اليهود (أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)

ويعبر القرآن بلفظ (تقتلون أنفسكم) فيستجيش قلب التالي والمستمع لكتاب الله تعالى، فكأنما يقتل الإنسان نفسه، فلم يكن اللفظ: يقتل بعضكم بعضا، بل كان بلفظ (تقتلون أنفسكم) ليستشعر الإنسان أنه عندما يقتل غيره بغير حق فكأنما يقتل نفسه بفواجع إزهاق الأنفس البريئة، والتي حرم الله تعالى قتلها إلا بالحق، الموجب للقتل. قال ابن كثير: وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة،(١) كما قال صلى الله عليه وسلم (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)(٢)

ففي لفظ (تقتلون أنفسكم) ملمحٌ مؤثر، فأهل الملة كالجسد الواحد، وعندما يُقْتَل أحدُهم بغير حق فكأنما قتل القاتل أجزاء جسمه، فكيف يليق ذلك؟ وبالتالي واجب المسلمين أن ينظروا لأنفسهم كجسد واحد، يصعب أن يستقطع الإنسان جسده ويمزقه ليكون أشلاء، أو السعي في تمزيق هذا الجسد ليكون أحزاباً متناحرة، فيعادي بعضهم بعضا إلى درجة الاقتتال واستباحة الدماء والأموال والأعراض.

وهنا يلمح التالي لكتاب الله تعالى ذلك التعبير الدقيق، والوصف القرآني المبين، لعظيم جرم التشريد، بأن قال تبارك وتعالى (وتُخرجون فريقاً منكم) ولفظة منكم تفيد استقطاع الجزء من الكل، فكأنما قطعوا جزءاً منهم، ثم تظاهروا على هذا الجزء الذي هو عضو من الكل بالإثم والعدوان، وهو عملٌ محرمٌ

---

(١) المرجع السابق (١/١٢٥)

(٢) البخاري (٤/٩٣) برقم (٦٠١١)

بهذا العضو. فأي استجاشة للقلب أكثر وأبلغ من هذا الوصف البليغ في دلالته ومعانيه التي تتطاير معانيه للقلب وتتعلق به.

وهذا الإخبار من الله تعالى عما لديهم في التوراة، يدلل ويُثبت لهم ولغيرهم أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وأن الذي جاء به رسولٌ من عند الله تعالى، وبالتالي فإن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ ونبيٌ من عند ربنا تبارك وتعالى. إذ كيف يخبرهم بما عندهم من تفاصيل دقيقة في كتابهم.

ومن الفوائد: أن في مواجهة المخالف بحقائق ما يعرفه، ويمتنع عليه إنكاره قوة في إقامة الحجة عليه. وجاء القرآن الكريم بهذا في سياق تقرير الواقع واستنكار الفعل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ليأتي بعد هذا السياق مباشرة الجزاء الذ سيواجه من ارتكب هذه المخالفات الشنيعة، ولكن هذا الجزاء يأتي بمقدمة استفهامية مثيرة، قال تعالى (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) فجاء البيان للجزاء بصيغة الاستفهام أولاً، ثم الإجابة عليه ثانياً، ليستثير العقل والعاطفة نحو تصحيح المسار (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا. ويوم القيامة يُردّون إلى أشد العذاب) ففي الحياة الدنيا خزي وعار عليهم، وقد عرف الناس بهذا، وأما يومُ القيامة فسيكون هناك عذاب شديد.

وهذا يفيد أن الخزي في الدنيا عذابٌ، لما يحصل للمرء من العار والسمعة الشنيعة السيئة، التي يتأذى بها بين الناس، مما يؤكد أهمية الحذر من عقاب الله تعالى، من وجهين: في الدنيا بالعار، وفي الآخرة بأشد العذاب. ففي الدنيا يُجزى الله تعالى العاصي بالعار الشنيع الذي يلاحقه، ويشوش عليه حياته ويعكر صفوه، فيمنع عليه سعادة الدنيا، ويقرر عليه العذاب في الآخرة. ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية بقوله (وما الله بغافل عما تعملون) فنفى سبحانه وتعالى الغفلة عن ذاته الكريمة، والتي تُصيب المخلوق. والنفي هنا يفيد المدح وكمال الثناء، فنفي الغفلة دليل على الكمال الذي في ضدها، كما قال تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) فما أجمل كتاب الله تعالى.

ثم يصف الله تعالى صفة أصحاب هذا الصنيع (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) فهذه الأفعال صفة من يقدم الدنيا على الآخرة، وصفة من يشتري الدنيا بالآخرة، وكأنه يدفع ثمناً من أجل تقديم الدنيا والاستئثار بها على الآخرة، فيجعل الآخرة الباقية بمثابة الثمن الذي يُدفع من أجل الدنيا الفانية. فأي خسارة أكبر من هذه الخسارة التي يدفع ثمنها من هو عالمٌ وعارفٌ بها، ولا جهالة فيها البتة. وبهذا الوصف تستثير الآية الكريمة عقل أولي الألباب، بأن لا تفعلوا هذا.

وهذا يتطلب من المؤمن التعقل أمام المعاصي، فإنما هي أثمان تدفع من حق الآخرة للدنيا، فأي خسارة أكبر من ذلك، خاصة وأن السياق جاء في صورة بيع وشراء، فهي تجارة للآخرة، فرابح وخاسر. ثم يختم الله تعالى جزاء من كان صنيعه هذا، بقوله تعالى (فلا يُخفف عنهم العذاب ولا هم يُنصرون) وهذا من عظائم الوعيد، (فلا يُخفف عنهم العذاب) ولا ينصرهم ولا ينقذهم أحدٌ من ذلك العذاب المهين (ولا هم يُنصرون)

(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا
تَقۡتُلُونَ ٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ
كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا
وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ٩١ ۞وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣)

يمتن الله تعالى على بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى عليه السلام، ثم تابع بعده بالرُسُل إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى عليه السلام، الذي أيده وقواه بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام(١) (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل. وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)

وهذا من فضل الله تعالى على بني إسرائيل إذ بعث لهم موسى عليه السلام نبياً، ثم تتابعت الرُسُل عليهم. وكان آخرهم عيسى عليه السلام. كما تفيد الآية الكريمة أن الله يعضد من يشاء بتأييده وعنايته، والتي منها أن أيد عيسى بالملك جبريل عليهما السلام.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٧٥)

ثم يبين الله تعالى حال بني إسرائيل مع الرُسُل الكرام (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتُلون)

مما يفيد أن في بني إسرائيل من كذب الرُسُل، بل فيهم من قتل الأنبياء، بسبب استكبار النفس واستعلائها على من جاء بالهدى، الذي لم تهواه أنفسهم. مما يؤكد أن الهوى يجر للكبر والاستعلاء الذي يمنع قبول الحق. وهذا بيان وتحذير للناس من مخاطر الهوى الذي يصد الإنسان عن اتباع رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ثم يتكرر تعليل المعصية والكفر والانحراف، كما في قوله تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) أي قلوبنا مغطاة فلا تعي[١] أي لا نفقه ولا نعي[٢] وهذا يبين مخاطر التبرير الكاذب، عندما يسترسل الإنسان مع هوى النفس. فيقول الله تعالى جزاءً لهم (بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون) أي أن الله تعالى طردهم وأبعدهم عن الخير وعن رحمته بسبب كفرهم، فلا يؤمن منهم إلا القليل.[٣] وقيل: أي إيمانهم قليل جداً.[٤]

وفي هذا البيان القرآني لحال بني إسرائيل ما يحذر ويُرهب النفس عن سلوك هذا المسلك الذي عاقبته الطرد من رحمة الله تعالى. فلا ملاذ لها بعد الله تعالى.

فبعد بيان حال بني إسرائيل مع أنبيائهم، يبين الله تعالى حالهم مع الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) وفي هذا المقطع من الآية الكريمة ما يؤكد أن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مُصَدِّقٌ لما معهم من التوراة، ولا يناقضه، بما يؤكد لهم صدق نبوة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا صدق الكتاب الذي جاء به من ربه تبارك وتعالى، وأنه يبين لهم فيه الحقائق التي يعرفونها مما في التوراة. خاصة وأنهم كانوا يستنصرون على أعدائهم بمجيء هذا النبي قبل بعثته،

---

(١) الجلالين (١٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٨)

(٣) المرجع السابق

(٤) الجلالين (١٣)

فيقولون لمن قاتلهم: سيُبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرَم.[١] وهو معنى قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) ولكن لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فكان جزاؤهم كما قال تعالى (فلعنة الله على الكافرين) وهو الطرد من رحمته جزاء لكفرهم.

ثم يبين الله تعالى تقييم موقفهم بكلمة (بئس) المستوفية للذم كما أن "نعم" مستوفية للمدح.[٢] فقال تعالى (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أُنزل الله) ففيها من الوصف ما يحمل كل ذم للفعل السلوكي الذي سلكوه، فبئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم عن تصديقه ومؤازرته ونصرته.[٣] فامتنعوا عن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بسبب البغي من أن يُنَزِّلَ اللهُ تعالى القرآن الكريم وهذا الدين على غيرهم (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أُنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) مما يفيد في الأمور العامة أهمية الرضا عندما يولي الله تعالى أمر أحدٍ لغيره في مهنة، أو في إدارة، أو في مجلس، أو في ناحية من نواحي الحياة المختلفة. فلا يرى العاقل ذلك الحق والاستحقاق محصوراً في نفسه فقط، وكأنه خصيصة وحق له دون غيره، بل يراه حيث يضعه الله تعالى حتى لا تتهاوى النفس في ظلمة الاحتقار والازدراء والكبر على الغير، فتُصَابُ الأمة والمجتمع بالحنق والتشرذم والتناحر والضياع. فإنها خصلة ذميمة، فإذا كانت قد أثرت في طاعة الله تعالى، فكيف لا تؤثر فيما هو دون ذلك من أمور الحياة. فالحذر من هذه الخصلة المانعة للخير والجالبة للشر في أمور الدين وأمور الدنيا.

ولذلك خسر الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم الآخرة بسبب البغي والكبر من أن الرسالة لم تكن فيهم، متجاهلين إرادة الله تعالى في أن يجعلها فيمن يشاء من عباده. قال تعال في مقدار خسارة هؤلاء (فباءُوا بغضب على غضب. وللكافرين عذاب مُهين) فاستوجبوا غضب الله تعالى بما ضيعوا

---

(١) المرجع السابق (١٢٩/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٩/١)

من التوراة، وغضب آخر بكفرهم بما أنزل الله تعالى على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.[١] وكذلك لهم العذاب والصغار المهين، المشتمل على الذلة والمهانة.

وهذا يؤكد أن الله تعالى يختار من يشاء ويُقدم من يشاء ويؤخر من يشاء بحكمته، مما يتطلب التواضع لله تعالى في كل أمر من أمور الحياة، فلا يحتقر خطيباً ولا إماماً، ولا قائداً ولا رئيساً محقاً، بل يكون عوناً وداعماً للخير وصاداً للشر، مع تواضع لله تعالى، ومدافعاً للحق ببيانه لغيره، ورضاً بحكمة الله تعالى فيما يختار ويولي.

ثم يقول الله تعالى تبياناً لحقائق تعاملهم (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم)

فالمعاندة توجب المراوغة واتباع الحيل، فإذا طُلب من اليهود وأمثالهم الإيمان بما أنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: نكتفي بما أنزل الله تعالى علينا من التوراة والإنجيل، ولا نقر إلا بذلك. (ويكفرون بما وراءه) أي يكفرون بما سواه، أي بما بعده. بالرغم من أنه مصدق لما معهم من الكتاب الذي فيه خبر بنبوة هذا النبي الأمي الكريم.

وهنا يأتي المحك الذي لا مخرج لهم منه (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) فإن كنتم صادقين في دعواكم من الإيمان بما أُنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة.

وهذا يفيد أهمية إقامة الحجة على الْمُنكِر، وأهمية العلم الذي يستطيع به الداعية محاورة الْمُنْكِر وردُّه للصواب. وأهمية معرفة حال المدعو وما عنده من مفاهيم ومغالطات، حتى يستطيع أن يجيبه ويرد بطلان ما عنده.

ثم يتكرر التذكير بما حصل منهم مع موسى عليه السلام، عندما جاءهم بالبينات، فاتخذوا العجل فعبدوه من دون الله تعالى (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)

وفي تكرار ذكر المواقف للمُنْكِر ما يُبْهِتُهُ بالحجة، حتى يُدرك أن الأدلة تلاحقه، وأن الحجة قائمة عليه. فلا مناص له منها، حتى تُغلَق عليه أبواب الحيل، فيرتدع أو يمضي في مسلكه العنادي.

---

(١) المرجع السابق (١/١٢٩)

ثم يتكرر عليهم التذكير بما حصل لهم من تخويف عقابي، برفع الطور فوقهم، ومع ذلك عصوا وأحبوا عبادة العجل. قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة. واسمعوا. قالوا سمعنا وعصينا. وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم. قل بئسما يأمُرُكم به إيمانُكم إن كنتم مؤمنين) فتنتهي الآية بتوبيخهم عن دعواهم الايمان غير الصادق، فبئس هذا الإيمان الذي تَدَّعُونَه فيأمركم بما أنتم عليه من الكذب والمراوغة.

ويبين هذا أن هناك من يدعي الإيمان الكاذب، ويبني عليه بزعمه أكاذيب على أنها حقائق. كما يؤكد هذا أهمية الطاعة وخطورة المعصية والاستخفاف بأوامر الله تعالى، ويفيد هذا أن بعض الناس لا تنفع فيه الآيات والنُّذُر، فمهما بذل الداعية من الجهد فإنه قد لا يتحقق مراده في أخذ الناس أو بعضهم للخير. فيتطلب أن يوطن الداعية والناصح نفسه لكل الاحتمالات التي يمكن أن تكون من الناس، حال الدعوة إلى الله تعالى. فيؤدي مأ أوجبه الله تعالى من القيام بواجب الدعوة، ولا يتوقف بسبب الإعراض، فإن هناك من يقبل كما قَبِلَ من أسلم من الصحابة وممن بعدهم، وهناك من لا يقبل مثل مَنْ أبى واستكبر.

(قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦)

ولا زال سياق الآيات الكريمات في شأن اليهود، بإقامة الحجة عليهم، حتى يتخذ غيرُهُم من هذا الأمر عظة ودروساً في الإيمان، وفي منهجية التعامل الصحيحة مع دين الله تعالى، ونبيه صلى الله عليه وسلم، وليدرك المرءُ رحمة الله تعالى فيما أنزل، وسعة حلمه على العاصي، وترك فرصة التراجع له، فلعله يفوق من هواه ويرجع للحق، فيتمسك بالكتاب والسنة. ففي الآية محك ودحر وبيان على كذب دعواهم الإيمانية (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) فإن كانت لكم الجنة خالصة من دون الناس كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس بعد هذا الإلجاء لهم إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، أو تمني الموت الذي يوصلهم للجنة كما يزعمون. وفي عدم تمنيهم الموت دليل كذبهم، إذ لو كانوا صادقين لتمنوه حتى يُثبتوا صدقهم. ولكن امتنعوا من ذلك، وبالتالي عَلِمَ كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم[1] وقد بين الله تعالى أنهم يعلمون أنهم على باطل لما قدموا من الأعمال والاعتقادات الباطلة، وبالتالي لن يتمنوا الموت، فقال تبارك وتعالى (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم. والله عليم بالظالمين)

مما يفيد أن هناك من يعاند في أمور الدين، وهو يعلم أنه على غير صواب، فكيف لا يكون ذلك أيضاً في أمور الدنيا، التي هي أهون من أمور الدين، فإن ذلك لكثير. فليُتقِن وليُحسِن العالم والداعية التعامل مع المخالف، بإقامة الحجة الدامغة التي لا مفر منها، من أجل أن يعلم الآخرون حقيقة المكابر في أمور الدين أو أمور الدنيا، وحتى لا ينخدع غيره بما هو عليه من زيف. وليعلم كذلك أن هناك من يُنكرُ الحق والصواب تكبراً واستعلاء.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٧٨)

ثم يبين الله تعالى أنهم لا يتمنون الموت فقط، بل هم حريصون على الحياة (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا. يود أحدهم لو يُعمر ألف سنة) فبينت الآية الكريمة شدة كراهيتهم للموت، متمنين أن يُعَمّروا في الدنيا، مثل ما يتمنى المشركون، أو بمعنى أكثر من المشركين. فيتمنى الواحد منهم لو يعيش ألف سنة، لسوء ما قدم ولعلمه بسوء ما سيجد، ولهذا لن يتمنوا الموت أبدا، قال تعالى (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم) فلن يتمنوا الموت لأعمالهم السيئة التي قدموها للآخرة. وبالتالي فإن طيلة العمر لن تمنع العذاب. كما بين الله تعالى (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعَمّر. والله بصير بما يعملون)

وهذا يفيد أن المجرم يخاف الموت ويحرص على الحياة خوفاً من العذاب، كما توضح وتدلل الآية على أنه مهما طال العمر فسينتهي، ولن يندفع الحساب والجزاء بتقادم طيلة العمر، مما يقوي هذا المفهوم عند المؤمن أن يكون حُبَّهُ للحياة من أجل عمل المزيد من الصالحات، والاستعداد للقاء الله تعالى بكثرة الطاعة والاستغفار.

وهذا يؤكد صدق القرآن الكريم الذي بين لهم حقائق عما تكن صدورهم، من الكذب والكبر ومعرفة الحق وتركه وصده. بالحجة العملية البالغة. وبالتالي صِدْقَ نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما معه من هذا الكتاب المعجز.

(قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ٩٨)

ولا زال السياق في اليهود، حيث تبين الآية الكريمة أن هناك من يعادي بعض الملائكة. فجاء في التفسير: قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم.[١] وقيل سبب ذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسئلة، فطلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يُسلموا إن أجابهم، فقالوا: نعم. فلما سألوه وأجابهم، لم يكن أمامهم إلا الإيمان به. فقالوا من وليك من الملائكة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٣/١)

وهو وليه) قالوا: إذاً نفارقك. ولوكان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك.(١) وقالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا(٢) فحتى الملك جبريل عليه السلام لم يَسْلَم من كرههم له. وهذا يفيد شدة التطاول، وقوة الكفر والعناد الذي بلغ مبلغه بعد أن تيقنوا بالحقيقة. كما تكشف هذه الآية الكريمة الأخلاق التي يتصف بها هؤلاء اليهود، فأظهر الله حقيقتهم وحقيقة أخلاقهم وذِمَمهَم الخبيثة السيئة. وهذا يوضح أهمية الإفادة مما كشفه الله تعالى من أخلاقهم، حتى لا يغتر المسلم بهم، أو يثق فيهم.

ثم يبين الله تعالى أمراً عظيماً في إنزال القرآن الكريم، حيث يقول تبارك وتعالى (فإنه نَزَّلَهُ على قلبك بإذن الله) فَتُثْبِتُ وتبين أن جبريل نزل بالقرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على شرف جبريل عليه السلام، ومنزلته، حيث هو الذي نزل بالقرآن الكريم على قلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكون القلب خُص بذلك، فهذا دليل على شرف القلب من بين أعضاء الجسد، فهو الموضع الرفيع في الإنسان الذي إذا صَلُح انصلح الجسد كله، كما جاء في الحديث. ولأنه كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: موضع العقل والعلم وتلقي المعارف.(٣) وكون القرآن الكريم أُنزل مباشرة على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا دليل على مكانة القرآن ومنزلته الرفيعة. ولا شك برفعة منزلة من نزل عليه القرآن الكريم صلى الله عليه وسلم. وفي قوله تعالى (نزل على قلبك بإذن الله تعالى) أنه لا ينزل شيء إلا بإذن الله تعالى، ولا يكون شيء في الكون إلا بإذن الله تعالى، فهو صاحب الملك وحده، لا شريك له في ملكه وأمره وقدرته وتصرفه. مما يدل على حاجة المخلوق للخالق في كل أمر وشأن. فهو المطلوب، ومنه العطاء.

ثم تبين الآية الكريمة شيئاً من خصائص القرآن الكريم، وأولها أنه (مصدقاً لما بين يديه) يعني مصدقاً للتوراة، فلا يناقضها، وثاني تلك الخصائص أنه (هدى) فهو كتاب هداية، يأخذ بمن اهتدى به إلى سعادة الدارين، ليقف به في جنات النعيم. وثالثها: (وبشرى للمؤمنين) فيبشرهم بالجنة. فأي كتاب

---

(١) المرجع السابق (١٣٤/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦/٢)

(٣) المرجع السابق (٢٦/٢)

أعظم من القرآن الكريم الذي يهدي للخير والصلاح، ويُدخل السرور على المؤمن ببشارته بالجنة بإذن الله تعالى.

ويقول الله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورُسُله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين) فذكر الله في الآية الملائكة عامة، ثم ذكر جبريل وميكائيل خاصة، وهذا من باب عطف الخاص على العام، لأن السياق في الانتصار لهما، حيث قالت اليهود: جبريل عدونا، لأنه ينزل بالحرب والقتل، وميكائيل ولينا لأنه موكل بالنبات والقطر. والحقيقة أن جبريل عليه السلام ينزل أيضاً بالهدى، فهو الذي ينزل بالكتب على الأنبياء، ومنها القرآن الكريم. فرد الله عليهم بتلك الآية الكريمة، التي أوضحت أن من كان عدواً لله وملائكته ورُسُله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو له. كما أثبتت الآية العظيمة كفرهم (فإن الله عدو للكافرين) وبالتالي ينطبق هذا على من سلك مسلكهم. وهذا يدل على فضل الملائكة عموماً وفضل جبريل وميكائيل، وفضل الرسل عليهم السلام، وأن معاداتهم كفر، والإيمان بهم واجب. كما يدل هذا على خطورة الأهواء والقول على الله بغير علم، وكذا خطورة الكبر.

(وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩ أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ١٠٣)

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون) فهذه تزكية من الله تعالى لكتابه الكريم، من أنه آيات واضحات جليات، تقوم بها الحجة على كل من سمعها، أو قرأها، أو أُخبر بها. لأن الحق واضح فيها من الأمر والنهي والتشريع والحكمة والجزاء والعقاب، والأدلة الدالة على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وما فيها من القصص الموضح والمبين للأمم السابقة، وأحوالهم مع أنبيائهم، وما حصل منهم، وما حصل بهم، وغير ذلك من الدلالات الباهرات الواضحات، وأنه مصدق لما قبله من الكتاب، لا يتناقض معها. وبالتالي فإن مقتضى ذلك

أن من جاء بهذا الكتاب فهو نبي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن طاعته ومؤازرته ونصرته واتباعه ومحبته واجب. وبالتالي فإن من يكفر بهذا الحق الواضح البين فهو كافر، لفسقه بخروجه عما يجب أن يكون عليه.

وقال تعالى (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وهذا بيانٌ لتكرار نقض المواثيق من اليهود. وكلمة (كلما) تدل على التكرار، من أنه قد حصلت عهود متكررة، ثم نقضها من اليهود. فوصفهم الله تعالى بحقيقتهم من عدم إيمان أكثرهم (بل أكثرهم لا يؤمنون) مما يفيد أن الإيمان يُلزم المؤمن بما عاهد عليه، خوفاً منه تبارك وتعالى، وخوفاً من عقابه. كما أن انتفاء الإيمان يجعل المرء متفلتاً من كل عهد وميثاق، كلما سنحت له الفرصة في ذلك. بينما الإيمان حجاب عن نقض المواثيق، ومُبعدٌ عن المعاصي.

ثم يبين الله تعالى صفة أخرى لليهود، وهي التكذيب بالحق الذي يعرفونه، والتخلي عن كتاب الله تعالى وما فيه من الحق، وكأنهم لم يعلموا شيئاً. قال تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقاً لما معهم. نبذ فريق من الذين أُتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم. كأنهم لا يعلمون)

ومن دلالات هذه الآية الكريمة أن القرآن لا يناقض الكتاب الذي عندهم، بل يُصدقه، ومع هذا ينبذونه ويتركونه لما فيه من البشارة بالنبي الأمي صلى الله عليه وسلم، وكأنهم لا يعلمون ما فيه من الحق، ثم اتبعوا السحرة كما سيتبين من الآية التالية.

وهذا يدل على أن اليهود لا ينقضون الميثاق فقط، بل يكتمون الحق الذي يعرفونه، كما يفيد هذا السياق خطر من يأخذ ما يريد من الكتاب، ويتغافل عما لا يريد، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، تجاهلاً أو إخفاء. ويبين الله تعالى أنهم تركوا ما عندهم واتبعوا السحر والسحرة. فهكذا حال الإنسان إذا ترك الحق فإنه يتبع الباطل، وإذا تخلى عن السُنَّة اتبع البدعة، وإن ترك الصدق أخذ بالكذب. قال تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم. وهم يكذبون في ذلك، بل نزهه ربنا تبارك وتعالى[١] فقال جَلَّ جلاله (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) ويفيد هذا أن الكافر حريص على أن يُعلم غيره الكفر، ووسائله وسُبُله، كما تفعل الشياطين، وتفيد كذلك حرص الشياطين على غواية الإنسان، والكذب. وكذلك أنه لا يسلم أحد

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨١/١)

من أذى غيره له، كأن يفتري عليه الكذب، فحتى نبي الله تعالى سليمان جاءت الفرية عليه، من أن قوة ملكه بسبب استعماله السحر. مما يدل على أن كل ذي نعمة محسود من الحاسدين الكاذبين الذين يؤُلُون النعمة والفضل إلى غير الوجه الصحيح.

ومن الفوائد تنزيه اللهُ تعالى لنبيه سليمان من الكفر واستعمال السحر، وفي قوله تعالى (وما كفر سليمان) دليل على أن السحر كفر. وهذا أبلغ في الثناء على نبي الله تعالى سليمان، إذ نفى عنه الكفر جملة، وبالتالي انتفت عنه كل خصلة من خصال الكفر، فحاشاه الله تعالى أن يكون كافراً، بل نبياً صادقاً مرسلاً. وحتى نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، لم يسلم من التقول عليه بالسحر والشعر والكهانة والعياذ بالله من ذلك، فكيف بمن هو دونه من العلماء والعباد والصالحين.

وأيضاً بينت الآية أن الشياطين يُعَلِّمُون السحر، قال تعالى (ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر) ويذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره لقوله تعالى (وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) أن (ما) نفي. والواو للعطف على (وما كفر سليمان) وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين. هذا أولى ما حُمِّلَت عليه الآية من التأويل. وأصح ما قيل فيها.[1] وروي عن على رضي الله عنه، قال: أي والذي أنزل على الملكين، وأن الملكين يعلمان الناس تعليم إنذار من السحر، لا تعليم دعاءٍ إليه. أي دعوة إليه. قال الزجاج: وهذا القول الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر. ومعناه أنهما يعلمان الناس على النهي، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا، ولا تحتالوا بكذا، لتفرقوا بين المرء وزوجه.[2]

مما يفيد أن الابتلاء مُحاط بالإنسان، ليختبره الله تعالى، أيثبت أمام هذه الابتلاءات وتنوعها، أو ينحرف عن الحق. والله تعالى يمتحن من يشاء بما يشاء، مثل ما امتحن الذين كانوا مع طالوت بالنهر. ومثل أكل لحم الخنزير، فهو الذي خلق وهو الذي نهى، كما قال تعالى عن نفسه في سورة الأنبياء (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون)

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٥/٢)

(٢) المرجع السابق (٣٧/١)

ثم المتأمل في قول الملكين على ما سيأتي، يدل على أن السحر شر عظيم، وأنهما يحذران مِنْ تَعَلُّمِهِ، وبالرغم من التحذير إلا أن هناك من يَقْبَل ويُقْبِل على تعلمه، في إصرار على الكفر، قال تعالى عن الملكين (وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) ومن الفوائد أن السحر من الكفر، وأن السحرة والسحر فتنة، وأن من يتعلمه قد أفتتن في دينه. وهذا يدل على مخاطر الفتن ووجوب الحذر منها، بل وجوب الابتعاد عنها، وأن الفتن ابتلاء واختبار. عفانا الله والمسلمين منها.

وذكر بعض علماء التفسير أن اليهود اتبعوا السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، حيث أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده، فيعلمانهم السحر.[١] والمسلم يؤمن على أي وجه كانت. فيقول البعض كما تم بيانه سابقاً: التقدير هو: أي وما كفر سليمان وما أُنْزِل السحرُ على الملكين، الذين هما جبريل وميكائيل، ولكن الشياطين كفروا، يعلمان السحر ببابل هاروت وماروت[٢]

ويتعلمون منه أي من السحر إيقاع الشر، قال تعالى (فيتعلمون منهما ما يُفرقون به بين المرء وزوجه) وهذا يدل على أن للسحر أثر، ولكن لا يضر إلا بإذن الله تعالى. لقوله الكريم (وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله) مما يوجب الاعتماد والتوكل على الله تعالى، وأنه لن يُصيب الإنسان شيءٌ إلا بإذن الله تعالى، فيتحصن المؤمن بالله العلي العظيم، ويستعين به، فهو الحافظ وهو القوي العزيز. يقول ابن سعدي رحمه الله تعالى: أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر، وليست مستقلة في التأثير.[٣]

ويبين الله تعالى أن هذا السحر الذي يتعلمونه يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) وتفيد الآية علم اليهود بأن الذي اختاروه من السحر تفضيلاً على متابعة النبي صلى الله عليه وسلم أنه في الآخرة ليس له

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨١/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٥/٢) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤١/١)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨٢/١)

نصيب.[١] فرغبتهم في السحر مثل رغبة المشتري، وثمنه هو عدم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم. وعلموا أن ليس لمن أخذه نصيب وحظ خير في الآخرة. وهذا يفيد الجرأة، وأن الإنسان قد يعرف الشر ويأتيه ويعرف الخير ويتركه.

ثم يصف الله تعالى هذا الصنيع وهذا الاختيار بالذم المقيت. فيقول تبارك وتعالى (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) وبئسما عند العرب مستوفية الذم كما سبق بيانه. وهذا تقبيح من الله تعالى لفعلهم، فبئس الشي اشتروا به أنفسهم (لو كانوا يعلمون) وهذا يفيد أنهم في منزلة الجهال بهذا الاختيار، وهم يعلمون أن لا حظ لهم في الآخرة بسبب اختيارهم السحر على الإيمان. وهذا مثل ما يُقال لمن يعرف الخير ويأخذ بضده، فيقال للعاقل في تصرفه الخاطئ: لو كان عاقلاً ما صنع كذا. فكأن صنيعه صنيع غير العاقل، فنفي العقل عنه من سبيل المجاز وليس حقيقياً أنه لا يعقل. لأنه لو كان لا يعقل حقيقة فلا يلام، وبالتالي كأن فعلهم فعل الجاهل وهم يعلمون.

ثم يبين الله تعالى الاختيار الأفضل الذي كان يجب عليهم اختياره (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) وفي هذا بيان ما كان يجب أن يختاروه، وهو الإيمان وتقوى الله تعالى، ولو أنهم اختاروه لوجدوا المثوبة من عند الله تعالى، مما يدلل على منزلة الإيمان والتقوى التي يحصل العبد بها على مثوبة الله تعالى، لأن الإيمان يؤدي إلى التقوى، والتقوى تمنع الإنسان مما حرم الله تعالى، إذ توجب الخشية والخوف من الله تعالى، فمن يتقي الله يخشاه ويخافه (لو كانوا يعلمون) ولكنهم بمنزلة الجاهل في تصرفاتهم، لأنهم يعلمون ويتصرفون بضد ما يعلمون من الحق، لأن الله تعالى قال في الآية السابقة عنهم (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) وهذا بسبب كبرهم ومعاندتهم كما اتضح من وصف الله تعالى لهم في آيات سابقات، مثل (بئسما شروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء) وقوله تعالى (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٤٨/١)

كان المسلمون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم (راعنا) أي راع أحوالنا، فيقصدون معناً صحيحاً. فانتهز اليهود الفرصة، فيخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، وهم يقصدون معناً فاسداً. فنهاهم الله تعالى عن ذلك، سداً لهذا الباب (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا) وفيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وكذلك فيه الأدب، واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة أو التي لها احتمال أمر غير لائق، فأمرهم باللفظ الذي لا يحتمل إلا الحسن، فقال تعالى (وقولوا انظُرنا) فإنها كافية لحصول المقصود (واسمعوا) فأمر بالاستماع ولم يُعَيّن المسموع، ليكون أعم، فيدخل فيه سماع القرآن الكريم، وسماع السنة لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة.(١) ويُستفاد من هذا الحذر من حمل الكلام على غير معناه لإيذاء الآخرين، أو الاستهزاء بهم، فالأدب مطلب ديني.

وهذا يفيد أن منع الفقهاء لبعض المباحات بسبب ما يترتب عليها من المفاسد، أي لما يتعلق بها، وما تجره وتُفضي إليه من فساد، فقد يتم منع أو تحريم وسيلة ليس لذاتها، بل لما ارتبط أو ما سيتعلق بها، وما ينتج عنها وما ستؤول إليه الأمور من مفاسد، ولذلك يقولون: الوسائل لها حكم المقاصد.

ثم توعد الله تعالى الكافرين بالعذاب المؤلم (وللكافرين عذاب أليم) ثم بين تبارك وتعالى شدة بغضاء وحسد اليهود والمشركين للمسلمين (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَل عليكم من خير من ربكم) فهذه العداوة مرتبطة بكره خير الإسلام على المسلمين، وما يتبع ذلك من فضل الله تعالى (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَل عليكم من خير من ربكم) وهذا يفيد أن اليهود والمشركين قد علموا بأن هذا الذي ينزل من الله تعالى على المسلمين هو خير من عند الله تعالى. ولفظة (خير) عامة، تفيد كل ما يُعطي الله تعالى من القرآن والسنة والآداب والعبادات، وتغيير الأحوال من التناحر إلى التعاضد والتآلف والتواد، والنصر والتمكين، وعلو المنزلة والمكانة، وغير ذلك من خيرات الله تعالى، مما يدل على أن خير المسلمين يغيض الكافرين، وإذا عُلِمَ ذلك وجب الحمد والشكر، وأخذ الحيطة والحذر من أعداء الدين. لأنهم لا يحبون الخير للمسلمين، فوجب التعامل معهم من خلال هذا البيان الرباني.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨٣/١)

ويبين الله تعالى أمراً عظيماً، وهو أن الله هو الذي يختص بعطائه ورحمته من يشاء، فقال أرحم الراحمين (والله يختص برحمته من يشاء) وهذا يفيد أن الله تعالى هو الملك، فهو الذي يمنح رحمته ويختص بها من يشاء، ولذلك وجب أن يسأل المسلمُ رَبَّه تبارك وتعالى من رحمته وفضله، ليخصه بمزيد فضل وكريم عطاء، كما يفيد أنه يجب أن ينسب المسلم الفضل الذي يصيبه لله تعالى، فيقول: بفضل الله رُزقت بكذا، وبفضله عملت وحصلت وربحت ونجحت في كذا، ولا ينسب ذلك لعقله وفكره وفهمه، فهو الذي أفهم، وهو الذي سهل طرائق العلم وكتابته وفهمه وحفظه. وهو الذي يسر البيع والربح وغير ذلك من النعم، وهكذا في كل نعمة. ثم يبين الله تعالى سعة فضله (والله ذو الفضل العظيم) فيفيد ذلك أن فضل الله تعالى عظيم لا يحده حد، فليطلب المسلم الخير من الذي فضله عظيم.

(مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨)

يبين الله تعالى حكمته وتدرجه في التعامل مع عباده ليحقق لهم الخير المتدرج والمتعاقب، حيث يقول تبارك وتعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) فتبين هذه الآية أن الله تعالى قد يمحو ويبدل، فينسخ آية بحكم آخر، فينتقل من حكم إلى حكم آخر، وقد يُنسيها، فيزيلها من القلب، وقد ذكر ابن كثير روايات فيما أنساه اللهُ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم،[1] لحكمة يعلمها تبارك وتعالى، ومبيناً مزيد فضله في الحالتين: النسخ أو النسيان، أنه يأتي بخير من ذلك، أو مثله في الخير، مما تحمله من حكم أو غيره، فتتحقق به مصلحة المكلف. فيكون النسخ لمصلحة يعلمها الله تعالى، وكان المنسوخ هو الأصلح ابتداء، ثم الناسخ هو الأفضل للأمة في واقعها وحالها. وهذا من رحمته وحكمته تبارك وتعالى التي تراعي حال المخلوق، فهو العليم الحكيم الرحيم. وهذا من خصوصيات المالك في ملكه، ومع هذا يأتي بخير منها في الخير أو بمثلها، فسبحان الله العظيم. ويفيد هذا بأن العالم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٥٤ ـ ١٥٥)

لا يمكن أن يفتي أو يحرر مسائل العلم إلا بمعرفة الناسخ والمنسوخ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأن من يتجرأ بدون علم فقد خاض فيما يجهل.

ثم ينوه تبارك وتعالى لأمر عظيم. (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فهو سؤال تقريري: ألست تُقر بأن الله على كل شيء قدير؟ فلم تُنكر أو تعترض على النسخ، وهذا في الرد على اليهود الذين يُنكرون تحول القبلة إلى الكعبة، أو غيرها مما يُنكرون (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فيا أيها الشاك ويا أيها المكذب ويا أيها المنافق اعلم بقدرة الله تعالى، فما الذي يحول بين قدرة الله تعالى وبين نسخ ما يريد، فالآيات من عنده والنسخ من عنده، وتقرير الحكم من عنده، وحال لسان المؤمن عندما يسمع قوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) يقول: بلى علمت يا رب.

ثم يتكرر السؤال التقريري مرة أخرى بأمر عظيم آخر (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض) فمن له ملك السماوات والأرض له الحكم بما يشاء، ويُفيض بفضله على من يشاء، سبحانه وتعالى، فله الحكم كله. وهذا يستوجب على من يعلم أن الله على كل شيء قدير وأن له ملك السماوات والأرض، أن يقول سمعت وعلمت وأطعت يا رب. ولا يعترض على تدبير وأحكام الله تعالى. ومن فوائد ذلك أهمية الأسلوب التقريري وأثره النفسي والفكري في التوجيه والدعوة والتربية، لتقرير ما يراد تقريره مما يتناسب مع الموقف.

ثم يقول تبارك وتعالى (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) وتفيد هذه الآية البيانية والتحذيرية لكل من يعترض على حكمة الله تعالى وشرعه في ملكوته، أن عليه أن يتنبه من أن ليس له ولي غير الله تعالى، ولا ناصر ينصره إلا الله سبحانه وتعالى، فلا ولي ولا ناصر حقيقي، يملك حق الولاية والنصر إلا الله تعالى. فاللهم أنت ولينا وأنت ناصرنا، ولا نصر إلا بك، فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت.

ثم يُعَلِّمُ الله تبارك وتعالى الصحابة رضي الله تعالى عنهم أدباً دقيقاً في تعاملهم مع النبي صلى الله عليه وسلم. فينهاهم تبارك وتعالى عن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل) وهذا سؤال استفهام استنكاري، ليعلموا أن هذا منهج اليهود مع موسى، وقد جاء في الحديث (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم

واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[١] وهذا الحديث يفيد علة النهي عن السؤال. مما يبين قصور عقل الإنسان إلا بالتشريع، فإنه يسدده ويهديه للمصلحة. فبين الحديث أن كثرة السؤال تجر للاختلاف، فربما هذا يسأل، والآخر يضع احتمالاً، والثالث قد يزيد في فروع السؤال، فيحدث الخلاف. فالله تعالى مطلع ويعرف ما يحتاجه عباده، وما أرسل لهم الرُسُل والكُتُب إلا وهو يريد بهم خيراً، فلن يترك لهم باباً للخير إلا دلهم عليه، ولا باباً للشر إلا حذرهم منه، وبالتالي فلا داعي للاستعجال بالسؤال. وقد يكون في ترك الأمر خير. كسؤالهم عن الحج. حيث قال الصحابي: كل عام يا رسول الله ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم)[٢]

ومن هذا يتضح أن في نهي الله تعالى وأمره خير عظيم، ولحكمة قد لا يعلمها البشر، ويترتب على ذلك ألا يقول الإنسان في أمر الله تعالى ونهيه: إلا سمعت وأطعت. فإن عرف الحكمة فخير ونعمة، وإن جهلها فلا يقل إلا خيراً.

كما تفيد الآية اثبات أسئلة قوم موسى لموسى، كما تبين مما سبق في هذه السورة المباركة، حتى أنهم سألوا موسى أن يريهم الله تعالى جهرة.

وذكر ابن سعدي رحمه الله تعالى أن المراد بالنهي أسئلة التعنت والاعتراض، وأما سؤال الاسترشاد والتعليم، فهذا محمود.[٣] وأورد بعض أهل التفسير أدلة، مثل قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر) وقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة) وقوله تعالى (سألونك عن اليتامى) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، كلهن في القرآن....ما كانوا يسألونك إلا عما ينفعهم.[٤] وهذا يفيد التزام الصحابة بما نهى الله

---

(١) مسلم (٩٧٥/٢) برقم (١٣٣٧)

(٢) مسلم (٩٧٥/٢) برقم (١٣٣٧)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨٤/١ – ٨٥)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨/٣)

عنه من السؤال، وحصروا اسئلتهم فيما يفقههم في دينهم. فأثنى ابن عباس عليهم بتلك الأسئلة المحدودة المعدودة. ولم يتجاوزوها إلى التعنت والاعتراض. وهذا يفيد أيضاً أهمية التأدب في السؤال، بأن لا يسأل الإنسان إلا فيما ينفعه، أو يدفع به جهلاً وشراً، ولا يتجاوزه إلى ما لا ينفع.

ثم يقول الله تعالى محذراً ومنبهاً (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) فيبين الله تعالى في الآية قيمة ومنزلة الايمان، من أنه حصن حصين والطريق المستقيم، لأن من يستبدله بالكفر فقد ضل الطريق المستقيم. لأن الكفر هو طريق الضلالة والغواية، وأن الإيمان هو الطريق المستقيم المحقق لرضى الله تعالى، والموصل للجنة التي عرضها السماوات والأرض.

ويفيد هذا أن من أعطاه الله تعالى نعمة فلا يستبدلها بالمعصية، كأن يستبدل الرزق بالإسراف، وصرفه في غير طاعة الله تعالى، أو يستبدل النعمة بالتكبر والتعالي، أو بأي وجه يُخرجها عما أُعطِيت له.

(وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣)

يُعَلِّمُ ويبين الله تعالى للمسلمين ما يخفى عليهم من حال الذين معهم من أهل الكتاب (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) فيبين الله تعالى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من حسد للمسلمين، والذي لم يكن ليعرفوه إلا بتنبيه من الله تعالى لهم، فيكشف لهم حقيقتهم، لأن الحسد لا يكون إلا ممن عرف النعمة على المحسود، وقد أثبت الله تعالى ذلك في قوله (من بعد ما تبين لهم الحق) وبالتالي يفيد ذلك أنهم عرفوا ما عليه المسلمين من حق، وأن نبيهم حق، وكتاب الله تعالى حق، فلو لم يكن كذلك لما حسدوهم على نعمة الإيمان. لأن الحسد لا يكون إلا على نعمة. وكذلك بينت الآية الكريمة أنهم يحاولون رد المسلمين للكفر. وهذا يفيد أن أهل الكتاب لن يألوا جهداً في ثني المسلمين عن دينهم، بإثارة الشبه، وإثارة الغرائز والشهوات

التي تفتك بالمسلم وتثنيه عن دينه، وكذلك نشر ما يجعل المسلم يُفرط في دينه، ويتساهل به ويخرج منه. مما يفيد أهمية الحذر من بعد أن بين الله تعالى مقاصدهم في المسلمين.

ثم يأمر الله تعالى بمنهجية التعامل معهم (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) وأورد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى أنها منسوخة بالقتل[١] وهذا يفيد الحكمة في التعامل، بأن الله تعالى أمر بالعفو ولصفح عنهم حتى يحين قتالهم بعد مكرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين في المدينة. فتكون الحجة قد قامت عليهم بعد العفو والصفح والانتظار، لعلهم يرشدون، ولكنهم كانوا برسوله وبالمؤمنين يمكرون. ثم يخبر الله تعالى بما هو ثابت عند المؤمنين (إن الله على كل شيء قدير) فهو قادر على نصرهم، ولكن سنن الله تعالى تقتضي وجود الأسباب والآجال، كأسباب النصر ووقته وكيفيته، ودواعيه (حتى يأتي الله بأمره)

والمتأمل في جملة (حتى يأتي الله بأمره) يجد أنها قوة للمؤمن، فيصبر (حتى يأتي الله بأمره) ويجتهد ولا ييأس (حتى يأتي الله بأمره) ويتداوى إذا مرض (حتى يأتي الله بأمره) ويأخذ بالأسباب في كل أمر (حتى يأتي الله بأمره) إنها قوة يتقوى بها المؤمن على كل أمر من أموره. (حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير)

ثم يوجه الله تعالى بما يجب من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) وهذا أمر من الله تبارك وتعالى بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مبيناً سبحانه وتعالى أن ما يقدمه المسلم من الخير فهو لنفسه، وسيجده عند العزيز الحكيم محفوظاً. مما يفيد أن ما يقدمه المسلم من خير فلن يضيع عند الله تعالى، بل يجده نعيماً مقيماً عند رب العالمين. ويختتم الله تبارك وتعالى الآية بقوله (إن الله بما تعملون بصير) فهو بصير بكل أحد، وبما يقدمه ويعمله، فلا يخفى عليه شيء، ولو كان مثقال ذرة أو أصغر منها. وفي هذا السياق القرآني جانب تشجيعي للمؤمن، من عدم ضياع ما يقوم به من خير في الدنيا، فإنه سيجده وافياً في آخرته. كما أن في لفظة (خير) ما يفيد عموم أصناف الخير، لتستوعب هذه الكلمة جميع أنواع ومجالات الخير. وتفيد لفظة (من) التبعيض، وهي الأجزاء من الخير، أي فما تقدمه من شيء من أجزاء وأنواع الخير (تجدوه عند الله)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٨/١)

ويبين الله تعالى كذب أهل الكتاب وقلبهم للحقائق (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. تلك أمانيهم.) فزعموا لأنفسهم الجنة دون غيرهم، وبمعنى من كان يريد الجنة فليكن يهودياً كما يرى اليهود ذلك، أو نصرانياً كما يرى النصارى ذلك، فكل يرى أن الجنة خاصة بهم. مما يفيد أن المنحرف في عقيدته يرى أن الحق له، وأن مسلكه هو المسلك الذي يؤدي به إلى الجنة، ولا يلتفت للحقيقة، وإن عرفها حاد عنها لاستحوذ الباطل عليه، وخشية ما يلحقه من قومه وأهل مذهبه، إلا من غَلَّب الحق على هواه. وهذا يكشف حال من يخادعون أنفسهم.

ثم يبين الله تعالى أن حال أولئك اليهود والنصارى هو حال المتمني (تلك أمانيهم) مما يبين أن الأمنيات بلا حقيقة لا قيمة لها، إلا بالحجة والدليل والبرهان. قال تعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) فالبرهان هو الذي يعجز عنه الكاذب والمعاند والمتكبر والمتأول بغير حق. لأن الدليل الذي عندهم في كتبهم يُوجِبُ عليهم اتباع النبي الأمي عند بعثته، بدليل تصديق القرآن الكريم لما معهم من التوراة.

وهذا يفيد أن الجنة ليست بالادعاء ولا بالتسميات ولا الانتماءات، بل باتباع الحق كما أمر الله تعالى. ولذلك تُفيد هذه المُحَاجَّة أن هذا الدين قائم على البرهان والدليل في كل أمر. وأن المنحرفين عن الدين لا برهان صحيح لديهم يثبتون به ما هم عليه من الباطل. ولذلك يقابلون غيرهم من أهل الدليل بالنعوت والقذف لا بالدليل والبرهان، لأنه لا دليل عندهم.

ثم يرد الله تعالى عليهم (بلى) ليس كذلك كما تدعون، فليس بأمانيكم وادعاءكم ولكن (من أسلم وجهه لله وهو محسن) فالذين لهم الجنة هم من استسلم وخضع وأخلص لله تعالى بعمله، متوجهاً لربه بقلبه، وهو مُحسن فيما يعمل. قال الإمام القرطبي: وخُص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يُرى من الإنسان.[1] فهؤلاء هم الذين لهم الجنة (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فأجرهم الجنة، ولهم الأمن مما يخافون، ولن يصيبهم الحزن أبدا. لأن ما يكدر الإنسان هو الخوف من القادم والحاضر، والحزن والحسرة على ما فات من فرص تولت وضاعت، ولا يمكن استرجاعها، فكل هذه المخاوف تتبدد في الجنة، فلا خوف ولا حزن يعتري أهلها (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) بل سرور دائم. فاللهم ارزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل.

---

(١) لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٢/٢)

ويُفهم أنه من لم يكن كذلك فهو من أهل النار، فلا نجاة إلا بالإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول الله تعالى عن اليهود والنصارى (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء. وقالت النصارى ليست اليهود على شيء. وهم يتلون الكتاب) فبين الله تبارك وتعالى حال أهل الكتاب، حيث كان بين اليهود والنصارى تباغض وتناقض وتعادي وتعاند، وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، فكل من التوراة والإنجيل قد كانت مشروعة في وقت. ولكنهم تجاهدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة للفاسد بالفاسد [١] وهم يتلون التوراة والإنجيل. فهذا الحال وهم جميعاً من بني إسرائيل. فكيف سيكون حالُهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو من نسل إسماعيل عليه السلام. كما يفيد هذا أن مسلك العناد والتباغض يتناقض مع ما يجب أن يكونوا عليه، لمعرفتهم بالتوراة والإنجيل، والذي أثبت الله تعالى أنهم يتلونه. وهذا يكشف أن الإنسان إذا لم يتق الله تعالى بما لديه من آيات الله تعالى، فقد يُكَذِّب الحقَ، وينتصرُ لنفسه ولأخطائه، نتيجة ميله لحب الانتصار، والتباهي بذاته وما هو عليه. مما يبين حالة بعض النفوس التي يلزم أن يتنبه المرء لها، حتى لا يقع فيما وقع فيه هؤلاء. فالهوى والشيطان قد يجران ويأخذان الإنسان عن الحق إلى الضلال، ثم يتدرج إلى العناد ومحبة الانتصار بالباطل على الحق. ثم الاجتهاد في التأويل لمراده الباطل. فليس هناك ملاذاً للحق عن الباطل إلا بالدعاء والتقوى والاعتصام بالله تعالى وبكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ويُضاف إلى هذين الصنفين: اليهود والنصارى ما أوضحه الله تبارك وتعالى (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) فهذا صنف ثالث كذلك. يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: في قول الجمهور: هم كفار العرب. لأنهم لا كتاب لهم.[٢] فتساوى أهل الكتاب في هذا المنهج مع الجهال الذين هم كفار العرب. وهذا يفيد أن العلم والمعرفة إذا لم يترتب عليها حصول تقوى الله تعالى، وطاعته كما أمر، فسيحتويها الهوى، فيصبح صاحب العلم كالجاهل تماماً، لأنه لم ينتفع بعلمه. بل يدافع ويعادي الحق وأهل الحق، من أجل ما انعقد عليه هواه. (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٦٠)

(٢) لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٥٢)

ويفد هذا البيان من الله تعالى أن يحذر المسلم من هذا المسلك الخطير بالتحزب، ثم التباغض والتكفير، وما يترتب عليه من استباحة دماء المسلمين والمعصومين، بسبب قلة العلم الذي يقود للجهل بالدين، ومن ثم تفسيره وفهمه على غير مراد الله تعالى ومنهجه. وكذلك يستوعب هذا الأمر المعاملات بين الناس، فيستحل لنفسه ظلم الآخرين، والإفساد في المعاملات والتعاملات ومصالح العباد بتأويلات الهوى وتزيين الشيطان لسوء العمل، أو الانتصار للنفس بالظلم والتجاوزات التي تحقق الفساد والتباغض بين العباد. والتي جميعها تتنافى مع الكتاب والسنة.

والْمُتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أسلوب التشويق في العرض، وتفتيح الذهن، والارتقاء به إلى البعد عن الذاتية إلى النظرة العامة، والمصلحة العامة، والجسد الواحد للأمة، والحذر من مساوئ الجهل والهوى، ومخاطر التطاول على الحق. وأن الهوى والكبر يقودان للأخطار الدينية والمجتمعية، ويثير التطاول والتعالي الذي يقود إلى التباغض ثم التناحر والتشتت. بما يؤكد أن جماع مصلحة الأمة في وحدتها، ووحدتها مرهونة بالتجرد عن الذاتية والأنانية، وهذا يتطلب تعزيز تربية التجرد من الهوى والكبر، وتحقيق الإيمان والتقوى، من خلال معرفة مراد الله تعالى حقيقة، والعمل به إخلاصاً له تبارك وتعالى، ومتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

(وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥)

يبين الله تعالى عظمة وحرمة المسجد ومكانته ومنزلته، قال تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) فليس هناك أشد ظلماً من الذي يمنع عباد الله تعالى عن ذكره في المساجد، بإقامة الصلاة أو الاعتكاف أو غيرها من الطاعات، وأيضاً السعي في خرابها، وسواء هذا الخراب بالتحطيم والتهشيم، أو رمي ما لا يليق ولا يجوز رميه فيها. مما يفيد الحذر من وضع العراقيل التي تمنع وتؤدي إلى إخلاء المساجد من الذاكرين لله تعالى. وهذا التحذير دليل على مكانة المسجد، ومنزلة وحظوة الذاكرين لله تعالى في المساجد، وأيضاً منزلة وأهمية ذكر الله تعالى وخاصة في المساجد، فرتب على من يمنعهم بأنه ظالم، قد ارتكب ظلماً يوجب عقابه.

ومن الفوائد كذلك صيغة التوجيه الممثلة بالتعجب إن كان هناك أكثر ظلماً من التعدي على بيت الله تعالى بمنع الناس عن ذكره فيه، أو تخريب المساجد وامتهانها، ففي الصياغة ما يفيد التحذير

والتخويف، وكذا الترغيب بذكر الله تعالى في المساجد، وبالمقابل تكون رفعة ومنزلة عظيمة لمن يعتني بها، ويحافظ عليها ويبنيها ويعمرها، لما رتب المولى تبارك وتعالى على معطليها من صفة الظلم، بل أقصى أنواع الظلم وأقبحه. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن بين أسباب النزول والأقوال في ذلك. قال: والمراد بالمنع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح، لأن اللفظ عام، وورد بصيغة الجمع.(١)

ثم بين عاقبة هذا الجرم (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) فالذي يليق بأولئك هو عدم دخولهم لها، ومنعهم منها، لما هو حاصل منهم من الأذى والمنع. فالجزاء الدنيوي لمن يصنع هذا التعطيل والتخريب هو الخوف والخزي، فإذا استولى المسلمون عليها، وأصبحت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر من دخولها، وإن دخلوها يكونوا خائفين من إخراج المسلمين لهم وتأديبهم على دخولها.(٢) وهذا يفيد خطورة وفداحة أمر من يسعى في خراب المساجد، فإن الله ينتزعها منهم كما انتزع البيت الحرام من المشركين، الذي أدخلوا فيه الخراب بما وضعوا من الأصنام. ففتح الله مكة على نبيه صلى الله عليه وسلم، وأصبح المشركون خائفين. وكذلك بيت المقدس، فتحه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وقد عاقب الله جَلَّ في علاه إبرهةَ ومن معه، عندما أرادوا هدم الكعبة.

وأما جزاء الآخرة فيقول الله تعالى (لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم)

وهذا يفيد خطورة العبث بالمساجد، والسعي في تعطيلها أو إهانتها وابتذالها، والخوف على من يفعل ذلك من غضب الله تعالى. وفي المقابل أهمية العناية بالمساجد وعمارتها بكل وجه، من أوجه البناء، كعمارتها وإصلاح أعطالها وبنائها وإنشائها وترميمها، وإقامة الصلاة والاعتكاف، وذكر الله تعالى فيها بتلاوة القرآن الكريم وحفظه، وكل ما يدخل في عموم ذكر الله تعالى.

وفي شأن القبلة وتحديدها، يقول الله تعالى (ولله المشرق والمغرب) فاستهلت الآيات القرآنية العظيمة ببيان من يملك الاتجاهات، ليستوحي منها الْمُخَاطب أن هذا شأن الله تعالى وحده. وكذلك جاء

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٥٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٥٤)

أول البيان متعلق بتحديد المالك للمشارق والمغارب، وهو الله تعالى، وهذا تدرج تقريري وتعليمي، يتبين من خلاله جمال العرض القرآني للمعرفة، ولمراد الله تعالى بأسلوب بلاغي بديع، بل في غاية الجمال الإبداعي، وفي تخصيص المشرق والمغرب بإضافتهما إليه ما يفيد التشريف، فهو يختار بتشريفه من يشاء. فهو الذي أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أولاً باستقبال بيت المقدس، ثم نسخ ذلك باستقبال بيته الحرام، فكانت الكعبة هي قبلة المسلمين، فكل الكون ملكه، فله حق التوجيه كما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء، ولا معقب لحكمه. ثم يقول الله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) فأينما تتجهون من الجهات التي يأمركم بها الله تعالى فقد توجهتم لوجهه الكريم فيما يأمركم به، مثل الصلاة والذبح على القبلة، وعدم التوجه للقبلة بقضاء الحاجة. (إن الله واسع عليم) فهو واسع في علمه ويوسع على عباده في دينهم، وفيما يحتاجون إليه، فلم يضيق عليهم شيئاً لهم به حاجة.

وهذه الآية فتقت أذهان العلماء والفقهاء، ووسعت عليهم جوانب الفهم المتعدد في تناول أداء الصلاة إلى غير القبلة جهلا بها، أو لظلمة بغمام، وإن كانت الصلاة نفلاً أو واجبة، وإن أدرك المصلي وعلم خطأ تعيينه للقبلة بعد فراغه من الصلاة، ولم ينته وقتها، فهل يُعيد أو لا يعيد (فأينما تولوا فثم وجه الله) فهناك فقه تفتقت عنه العقول حول هذه الآية العظيمة، فاتسعت عقولهم لتستوعب النقاش، وجمع الأدلة. فكم من خير حصل على العقل والعلم بهذه الآية وبغيرها من آيات الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فلينظر من أرد الفقه في هذه المسائل كُتُبِ التفسير والفقه.

(وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨)

ثم يعود البيان القرآني لمشهد حال النصارى ومن شابههم من اليهود، في أكاذيبهم وجرأتهم على صفات خالقهم تبارك وتعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا) حيث قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيرٌ ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله. فأي مشهد افترائي أعظم من أن ينسب العبد لله تعالى الولد. وكيف يفتري على الله الكذب. وهو القائل (لم يلد ولم يولد) مما يفيد أن الإنسان إذا لم يضبط سلوكه وعلمه وفكره فقد ينزلق في مزالق عظيمة، مما يتطلب من المرء أن يدعو الله بما كان يدعو به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[1] وتقول أم سلمة رضي الله تعالى عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم: ما أكثر دعائك (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قال: (يا أم سلمة: إنه ليس آدمي إلا قلبه بين أُصبعين من أصابع الله. فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ)[2]

ثم يقول تبارك وتعالى تنزيها لذاته من ذلك (سبحانه) فتفيد التنزيه والتبرئة والمحاشاة من قولهم (اتخذ الله ولدا) ثم يبين سبحانه وتعالى ملكه العظيم، الذي ينتفي به ما يفترون (بل له ما في السماوات والأرض) فمن له هذا الملك العظيم كله، مع إيجاده من العدم، فلا يحتاج لولد يعينه. بل كل له خاضع تحت قدرته ومشيئته تبارك وتعالى (كل له قانتون) فمن له الملك كله، وخضوع ملكه له، وتحت قدرته وتصرفه، ولا يحدث شيء إلا بعلمه، فهو منزه عن كل نقص، وبالتالي فله الكمال كله سبحانه وتعالى.

ويفيد هذا السياق عظم منهجية الاستدلال في القرآن الكريم، إذ بين أولا قول الكافرين، ثم نزه تبارك وتعالى عن نفسه ما قالوه (سبحانه) ثم بين عظيم خلقه وملكه، ثم عظيم سلطانه وقهره (كل

---

(١) الترمذي (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

(٢) المرجع السابق

له قانتون) بحيث يدرك التالي للآية والسامع لها المراد المقصود، ويحصل له الاقتناع التام الذي لا يدع لديه شبهة أبدا. فسبحان الله العظيم.

ثم تبين الآية التالية مزيداً من بيان ملكه وقدرته جل في علاه (بديع السماوات والأرض) فهو من أبدع خلق السماوات والأرض، فلم يكن لها مثال سابق، وكل خلقه كذلك تبارك وتعالى، بل له من القدرة ما يوضحه قوله تعالى (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فأي قدرة أعظم من هذه القدرة العظيمة الباهرة. مما يوجب تنزيه الله تعالى وتقديسه والمداومة على ذكره، وسؤاله في جلب الخير ودفع الشر، فهو الذي لا يعجزه شيء، وكل شيء يقضيه بـ (كن)

ثم يبين الله تعالى مزيد من تعنت الجهلة من أهل الكتاب، أو مشركي العرب (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) فيقولون: هلا يكلمنا الله بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لنعلم أنه نبي، فنؤمن به، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوته.[١] وهذا من باب التعنت في الطلب، وليس المراد طلب الحق، فيجيب الله تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) فهذا دأب الجاحد المكابر بمماثلة من قبلهم في رد الحق الواضح الظاهر، ممن قالوا لأنبيائهم أرنا الله جهرة، كقوم موسى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة). وهذا يفيد تكرار الحدث، وتكرار المتشابه، فما يحدث بالأمس قد يحدث اليوم، قال تعالى (تشابهت قلوبهم) وهذا يفيد أن هناك قلوب تتشابه في الباطل، وتتكرر قديماً وحديثاً، وبالتالي فإن هناك قلوباً تتشابه في الطاعة واتباع الحق. فما كان صالحاً للهداية في عهده صلى الله عليه وسلم فهو الصالح في كل عهد، ومن يريد الحق يهتدي به في كل حين، ومن كان معانداً مكابراً متعنتاً سيكون كذلك في كل تعاقب للأجيال. ولذلك كما ورد عن الإمام مالك لا يُصلحُ آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ثم يبين الله تعالى أن الآيات التي توجب الإيمان قدتم بيانها (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) قال ابن سعدي رحمه الله تعالى: فكل موقن عرف من آيات الله الباهرات ما حصل به اليقين، واندفع به كل شك وريب.[٢] فكل رسول جاء بالبينات والآيات الواضحات، بما يبين أنه نبي الله ورسوله، وكان خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالبيات الواضحات، وإلا لما أسلم الجمع الغفير، وانتشر الإسلام بين الخلائق. ولكن المعاند والمكابر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٤)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٩٠)

يبحث في باب التعنت الذي لا يحقق له إلا الخسارة. وهذا يفيد أهمية البعد عن أساليب التعنت التي تُبعد الإنسان عن الخير في أمور معاشه ومعاده. كما يفيد هذا أن أساليب التعنت يبتعد بها المتعنت عن الحق، وينجرف بها وراء التقاطع والتدابر مع من يتعامل معهم، وربما تؤدي إلى إقصائه بين من يتعامل معهم، ويكون محل الذم والريبة والحذر. مما يبين أن التعنت بالمطالب والسؤال، لا يحقق لصاحبه خيراً حتى في التفاعل الاجتماعي، مع من يُحيطون به، أو يتعامل معهم.

(إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ
ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ
ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ
١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ
يُنصَرُونَ)

ثم يبين الله تعالى حقائق عن الرسالة المحمدية من خلال مخاطبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية (إنا أرسلناك بالحق. بشيراً ونذيرا. ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم) فهذه الآية تبين حقائق الرسالة المحمدية لكل أحد من الناس.

الحقيقة الأولى: أنه رسول الله تعالى (إنا أرسلناك) وفي هذا تزكية للنبي صلى الله عليه وسلم. لأن الرسول يكون مصطفى من المرسل، وهي رتبة وحظوة كريمة. وفيه أنه قد تحمل مسؤولية تبليغ هذه الرسالة، وأنه مؤيد من الله تعالى. وفي دلالتها ما لا يحصى من الفوائد والأوصاف الكريمة.

والحقيقة الثانية: أن مضمون رسالته الحق (إنا أرسلناك بالحق) فالذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم حق من الله تعالى، لاريب ولا شك فيه، فالقرآن الكريم حق، وسنته صلى الله عليه وسلم حق. ولفظة (بالحق) تدل على كل وصف كامل، وتخلية من كل عيب ونقص. ومن يتأمل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مما في القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أنها شريعة كلها حق، في أهدافها حق، ومنهجها حق، وأساليبها حق، وتيسيرها حق، وموافقتها للفطرة حق، وأنها هداية حق، لا تأمر إلا بخير، ولا تنهى إلا عن شر، ومبينة لمنهج تحقيق الخير، ومنهج دفع الشر والبعد عنه. وأن البشر تعجز أن تأتي بمثل هذا الهدى الثابت والبائن أنه صالح لكل زمان وفي كل مكان. وأن ما اخترعه الناس من تشريعات وضعية تتبدل من جيل إلى جيل، لما يرون فيها من الأخطاء

والنقص، وما فيها من قصور وعيب، وما لا تحققه من الأمن والرخاء والتآخي والتآزر. وغير ذلك من النقائص التي لا تحصى.

والحقيقة الثالثة: أنها رسالة بشارة. فهو عليه الصلاة والسلام (بشيرا) فهو مبشر بالجنة والنعيم المقيم.

والحقيقة الرابعة: أنها رسالة إنذار. فهو عليه الصلاة والسلام (نذيرا) فهو منذر للعاصي من النار.

والحقيقة الخامسة: أنه صلى الله عليه وسلم غير مسؤول عمن كفر (ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم) وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك هداية التوفيق، وإنما مُخَول بهداية الدلالة، أما من أصر على كفره فلا يملك له هداية توفيقية، وبالتالي فهو غير مسؤول عن أعمالهم، وعن دخولهم الجحيم. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لا تُسأل عنهم، فإنهم في أمر عظيم، فيكون ذلك على وجه التعظيم لما هم فيه. والجحيم هي النار، وقيل النار إذا اشتد وقودها.[١]

وقد بينت الآية في جملتها عظيم محتواها مع قلت كلماتها، وتسلسل بيانها التوضيحي، وأجملت ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في كلمة واحدة، أنه جاء (بالحق) وأن الحق يحتوي على أمرين: بشير لمن أطاع بالجنة، وكان هذا في كلمة واحدة (بشيراً) وأن الحق أيضاً يحتوي على الإنذار من النار لمن عصى، وكان هذا في كلمة واحدة (نذيرا) وتحديد مسؤولية النبي صلى الله عليه وسلم من أنه غير مسؤول عمن كفر، وعن أعمالهم، وأن مردهم إلى الجحيم، بما يفيد نوع العقوبة، وكان ذلك كله في قوله تعالى (ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم) وقبل ذلك بينت الآية في أول مطلعها مسؤولية ووظيفة النبي صلى الله عليه وسلم في كلمتين (إنا أرسلناك) فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأي بيان بلاغي أبلغ من هذا.

ثم بين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين موقف اليهود والنصارى، قال تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وفي هذا بيان للنبي صلى الله عليه وسلم من أن هدفهم وقرضهم بما يقترحون ويطلبون ليس أن يؤمنوا.(٢) بل من باب التعنت. كما أن في الآية بيان إعجازي لحال ما هي عليه قلوبهم من عدم رغبتهم في الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم يطمعون

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٢١ ـ ١٢٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٤ ـ ٦٥)

في أن يتابعهم في ملتهم. وهذا لا ينفي أن بعض أفرادهم في المدينة قد دخل في الإسلام. مثل الصحابي الجليل عبد الله بن سلام، ولكن القصد العموم. وقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود)[١] والمقصود لو آمن من كبرائهم، وذلك لما لهم من تأثير. ولكن لله حكمة في كل شأن.

وتبين الآية مقدار استحالة إيمانهم (حتى تتبع ملتهم) واستدل كثير من الفقهاء من قوله تعالى (حتى تتبع ملتهم) على أن الكفر كله ملة واحدة، حيث أفرد الملة[٢] أي ملة اليهود وملة النصارى في قوله تعالى (ملتهم) فجعلها ملة واحدة، لأنه لا ملة مشروعة بعد بعثته صلى الله عليه وسلم إلا الإسلام الذي جاء به عليه الصلاة والسلام.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما يقوله صلى الله عليه وسلم لهم ولغيرهم (قل إن هدى الله هو الهدى) وهذا بيان قطعي، مجمل وحصري، بأن الهدى محصور في هدي الله تعالى، وكذلك أن هدي الله هو الهدى. وبالتالي فما سواه باطل. لأن ما بُعِث به صلى الله عليه وسلم نسخ الله تعالى به ما قبله مما أنزل تبارك وتعالى. وكذلك كل ما اخترعه البشر فهو ضلال. لأن الهدى انحصر فيما جاء من الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. كما قال تعالى في سورة آل عمران (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه)

والمتأمل في جملة (قل إن هدى الله هو الهدى) يجد أنها قوة للمؤمن، إذ يتوقف بها عند كل ضلالة ليقول (إن هدى الله هو الهدى) ويتوقف ويحترز عند كل بدعة ليقول (إن هدى الله هو الهدى) وليتوقف عند كل انحراف سلوكي ليقول (إن هدى الله هو الهدى) وليقف عند كل هوى ليقول (إن هدى الله هو الهدى) فتكون قاعدة ونوراً وسلاحاً يُذَكِّر بها المؤمن نفسه إذا ما الشيطان سول له، سائلاً الله تعالى الهداية والثبات. ثم ليُذَكِّر بها غيره، ويحتج بها لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل ضلالة.

---

(١) البخاري (٣/٨٠) برقم (٣٩٤١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/١٦٨)

ثم يبين الله تعالى أن اليهود والنصارى أهل هوى (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم. مالك من ولي ولا نصير) فهذه الآية تثبت أنهم أصحاب هوى (ولئن اتبعت أهواءهم) وفيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم، فيما يختص بطرائقهم. والخطاب وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم، فإن أمته داخلة في ذلك. لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص الْمُخَاطب. كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[١] ويقول ابن كثير رحمه الله تعالى: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة من اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من الكتاب والسنة. فإن الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، والأمر لأمته.[٢]

وفي كون الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم يفيد عظمة النهي. فعندما يُخاطَبُ كبير من تحمل المسؤولية بأمر أو نهي فإنه يفيد خطورة الأمر، حتى ولو كان يُستبعد عليه ذلك صلى الله عليه وسلم. كما يقول عليه الصلاة والسلام (والذي نفس محمد بيده. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٣] ليدل ويفيد تمسكه صلى الله عليه وسلم بتطبيق دين الله تعالى، حتى وإن مست العقوبة التشريعية أقرب الناس إليه، وحاشاها أن تسرق رضي الله تعالى عنها.

ويقول الله تبارك وتعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. أولئك يؤمنون به) فالذين يقومون بحق الكتاب الذي أنزله الله تعالى حق القيام، سيؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما حصل عندهم من الإيمان بما فيه، ولما يجدونه عندهم فيه من مبعثه صلى الله عليه وسلم، ونعته وصفته، والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، فيقودهم ذلك الحق للإيمان به[٤] وهذا يفيد أن اتباع الحق يقود صاحبه للحق، وأما من كان قائده الهوى سيجره للأهواء. مما يترتب على هذا أهمية الحرص على معرفة الحق والتمسك به، والبعد عن الهوى وأصحابه، فهو يقود إلى البدع، والبدعة تجر إلى بدعة أخرى، حتى تتكاثر الضلالات، فيخرج عن منهج الحق إلى الضلالة. ونعوذ بالله من ذلك. وكذلك الانحراف الأخلاقي يجر لمزيد من الانحراف شيئاً فشيئاً، حتى يصبح الانحراف هو السلوك الراجح.

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩١/١)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٦٨/١)
(٣) البخاري (١٥٣/٣) برقم (٤٣٠٤)
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٦٩/١)

وكذلك التمسك بالفضيلة، يؤدي إلى المزيد من الفضائل، كما قال صلى الله عليه وسلم (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتَب عند الله صديقاً)(١)

ثم بين الله تبارك وتعالى جزاء من يكفر به، فقال تعالى (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) وبالتالي لا دين حقيقي اليوم غير دين الله تعالى الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يعود تكرار الخطاب التذكيري من الله تعالى لبني إسرائيل (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم. وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئا. ولا يُقبل منها عدل، ولا تنفعها شفاعة ولا هم يُنصرون) وقد سبق هذا التذكير لابني اسرائيل في صدر هذه السورة، بما أنعم الله تعالى عليهم، وكُررت هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم، ونعته واسمه وأمره وأمته، فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله تعالى من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم الحسد على مخالفتهم، وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.(٢)

وهذا التكرار في القرآن الكريم يدل على أهمية التذكير، وأن في تكراره فوائد. ولعل من أبرزها إعادة إقامة الحجة، لما تحتاجه النفس البشرية من إعادة التذكير، فلربما يحصل عندها القبول للنصيحة. وأما التذكير للمطيع فللوقاية والمعالجة مما قد يحصل عنده من التفلت والضعف والنسيان، فمهما بلغ الإنسان تظل حاجته للتذكير مستمرة.

والتكرار في لقرآن الكريم يأتي بتكرار بعض التوجيه، مثل هذه الآية، ويأتي كذلك بذكر بيان إضافي غير مسبوق كما في قصص القرآن الكريم، وذلك ليتذكر قارئ القرآن المواقف ويربطها ببعضها، ويُضيف علماً على علم، وفي ذلك تنشيط للذهن بأسلوب لا يمل منه التالي والمستمع.

(وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ

(١) مسلم (٢٠١٣/٤) برقم (٢٦٠٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٦٩/١)

إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦)

يُخبر الله تعالى بشيء عن أمر نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُهُ بكلمات فأتمهن. قال إني جاعلك للناس إماما) فقد ابتدأت الآية الكريمة بذكر ما يفيد أن الرسالة ابتلاء بمسؤولية أدائها، وهذا ابتلاء اللهُ لإبراهيمَ، أي ابتلاه واختبره بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، قال تعالى (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُهُ بكلمات) وهي الشرائع والأوامر والنواهي، وللعلماء أقوال في دلالتها.[١] ويُستفاد من ذلك: أنه إذا كان النبي مبتلى بأداء الرسالة، فإن من أُرْسِلَ إليهم مُبْتَلَونَ بما هم مُطَالَبُون به من الإيمان والعبادة وعموم الشريعة، وبالتالي فإن كل مُكَلِّفٍ بهذه الشريعة فهو مُبْتَلى ومُخْتَبر بها، هل يعمل بها أم يحيد عنها، حتى يُكافأ ويجازى بما يستحق. وكل إنسان مبتلى، وعلى رأس أنواع الابتلاء أخذه لدين الله تعالى والاعتصام به أو تركه والحيدة عنه، ومن أمثلة التكليف: مسؤولية الأب بما ابتلاه الله تعالى بمن هم تحت ولايته من أبناء وزوجه وخدم، وغيرهم، وكذلك الأم، والحاكم مبتلى بالولاية، أيصدق فيها ويكون عليها أميناً، أم يخون ويجور ويضيع. فإن كان عادلاً، كان من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما ورد في الحديث[٢] وكل مُكلف هو كذلك (كلكم راع ومسؤول عن رعيته)[٣] حتى الإنسان في نفسه مكلف بتطبيق أوامر الله تعالى ونواهيه على نفسه. فكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مُتِمٌ ومُوَفٍّ بما كُلِّف به، كما قال تعالى عنه (فأتمهن) ولأهمية منزلة الإتمام جاء الإخبار بها قبل بيان تفصيل التكليف الذي هو (إني جاعلك للناس إماما)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/١٧٠)

(٢) البخاري (١/٢١٩) برقم (٦٦٠)

(٣) البخاري (٢/٢٢٢) برقم (٢٥٥٨)

ومن فوائد ذلك أن أوامر الله تعالى ابتلاء، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه، مع قيام الحجة عليهم. وهم درجات متفاوتة في الطاعة والمعصية، وكذلك يصبح الجزاء والأجر متفاوت، حتى في عبور الصراط. وهذا يفيد أهمية لزوم الاجتهاد في إتمام تكاليف الله تعالى، وسؤاله العون والثبات.

وفي قوله تعالى (إني جاعلك للناس إماماً) أي يقتدون ويتأسون بك في الدين، الذي هو الهدى، أي هدى الله تعالى. وهي منزلة عظيمة كريمة. وكل ما كان الإنسان إماماً للناس في الخير زاد أجره بعدد من اقتدى به، لا ينقص من حسناتهم شيئاً، كما ورد في الحديث (من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء)[1] ولأهمية القدوة أرشدنا الله تعالى إليها كقوله عن صفات عباد الرحمن، من سورة الفرقان (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وهذا يتطلب من المؤمن أن يكون حريصاً على دينه وأخلاقه في التطبيق، ولا يغتر بالمتساهلين في بعض الأوامر والنواهي، وخاصة تقليد غير المسلمين فيما لا يجوز تقليدهم فيه.

ولمنزلة هذا المقام الشريف، وما فيه من الخير، سأل إبراهيمُ ربه ذلك لذريته (قال ومن ذريتي) بما يفيد حرص إبراهيم عليه الصلاة والسلام على مصلحة الدين ومصلحة ذريته. بأن تستمر الطاعة لله تعالى، ويستمر دينه، وأن تستمر القدوة والإمامة في ذريته عليه الصلاة والسلام. ويفيد هذا أهمية التأسي به عليه الصلاة والسلام، بأن يهتم المسلم بدينه، وباستمرار منهج الله تعالى، ليكون عالياً شامخاً، ويحرص كذلك على إصلاح ذريته حتى تكون أسوة وقدوة لغيرهم في الدين. وهذا يتطلب أن يكون المسلم في أقل الأحوال غير مقتدي بغير المسلمين فيما لا يجوز الاقتداء بهم، حتى لا يكون قدوة في الشر ونشره. وقد عَلَّمنا تبارك وتعالى ذلك في سورة الفرقان (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)

وأجاب الله تعالى خليله ونبيه إبراهيم على مطلبه بقوله سبحانه وتعالى (قال لا ينال عهدي الظالمين) فبين له المانع فقط من تحقيق هذا المطلب، وفي بيان المانع بلاغة ورحمة في مراد الله تعالى، وبالتالي كل أحد متمسك بالدين يكون قدوة وأسوة لغيره. ما عدا الظالم لنفسه بالشر ولانحراف عن منهج الله تعالى، فهو الذي ينتفي حصوله على هذا المقام الرفيع، فإنه لا يكون للناس إماماً في الخير. فهذا

---

(1) مسلم (٢/٧٠٤ – ٧٠٥) برقم (١٠١٧)

هو الشرط. ويُستفاد من ذلك أهمية تعاهد الأبناء بالتربية على الْهُدَى، ليكونوا للمتقين إماماً، فَيُقتدى بهم في الدين والخير والسمت والسلوك والمنهج الصحيح، بإذن الله تعالى.

ويقول الله تعالى عن بعض خصائص البيت العتيق (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) فلقد جعل وصَيَّرَ اللهُ تعالى في هذا البيت الحرام خصائص ومقاصد دينية لعباده، فأولها أنه (مثابة) أي يثوبون إليه، قاصدين إليه، ليتحصلوا على منافعهم الدينية والدنيوية، وراجعون إليه مرة بعد أخرى، لتحصيل هذه المنافع التي لا تنقطع. ففيه الحج والعمرة والطواف، وفيه منافع التجارة، التي كانت منها رحلة الشتاء ورحلة الصيف التجاريتين. وثاني هذه الخصائص (وأمنا) فيأمن فيه كل أحدٍ في أمر دينه أو دنياه. ولذلك عَظَّمَهُ الناسُ حتى وهم في شرك، فكان أهل مكة يعظمونه ويحترمونه وهم في شركهم، حتى ليجد الرجل قاتل أبيه فلا يخيفه. وزاد تعظيماً ببعثته صلى الله عليه وسلم، وهذا يفيد أهمية تعظيم هذا لبيت، بقصده وزيارته للعبادة، وبتعظيم حرمته وإجلاله، وحفظ أمنه من كل ما يخل به، وتعظيمه من أن يعصي الله تعالى فيه، مهما صغرت المعصية في عين العاصي، لأن عظمته أرفع من ذلك. وثالث هذه الخصائص أن جعل الله مقام إبراهيم مصلى، فقال تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) والمقام هو موضع القدمين كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، وهو المكان الذي يصلي عنده الطائفون ركعتي الطواف[1] وهذه الخصيصة تُفيد منزلة أبو الأنبياء وإمام الموحدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم يبين الله تعالى أنه أوحى وأمر إبراهيم وابنه إسماعيل بعمل عظيم، فقال تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) والأمر بالتطهير جاءت عامة، مما يفيد: تطهيره من الرجس الحسي والمعنوي كالأصنام والنجاسات والأقذار والشرك والكفر والمعاصي، ليكون نظيفاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وهذه منزلة عظيمة لبيت الله الحرام، وللطائفين بالبيت وللعاكفين، ولمن أراد الصلاة به. وكذلك رفعة منزلة هذه العبادات التي أمر الله تعالى أن يُعتنى بالبيت لأجل أدائها. وقال الشيخ بن سعدي رحمه الله تعالى: قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام.[2] ويفيد الأمر بتطهير المسجد الحرام للعبادات، أنه كذلك يلزم تطهير المساجد للمصلين

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٧٧)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٩٤)

والعاكفين من كل ما يؤذيهم ويشغلهم، أو يمنعهم من الصلاة والاعتكاف. لأن علة التطهير موجودة بعموم مساجد المسلمين. وفي هذا من الفوائد ثواب من قام عليها بذلك، لأنه ائتمار بما أمر اللهُ تعالى به إبراهيمَ عليه السلام. وكذلك لما ورد من أحاديث تأمر بتطهيرها وتطيبها، وعناية النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

ويلاحظ في وقوله تعالى (أن طهرا بيتي) أن الله تبارك وتعالى أضاف البيت إليه (بيتي) فهذا تشريف وشرف عظيم. مما يفيد أن من تعظيم الله تعالى أن يعظم المؤمن ما عَظَّمَهُ اللهُ سبحانه وتعالى، فَيُعَظِّم هذا البيت ويُجِلُّهُ إجلالاً يليق بهذه المكانة الرفيعة. يقول الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى عن فوائد ذلك: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله. فيبذلان جهدهما، ويستغرقان وسعهما في ذلك، ومنها أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عبادة بتعظيمه وتكريمه. ومنها أن هذه الإضافة هي السبب الجالب للقلوب إليه.(١)

ثم تبين هذه الآية حرص أبينا إبراهيم عليه السلام (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) فهذا الطلب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدل على بُعد تفكيره واهتمامه وحرصه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يفكر في نفسه فقط، بل تجاوز حرصه إلى أهل هذا البيت، ولكل من يقصده، بأن يكون آمناً من كل ما يُخاف منه، حتى تحصل الطمأنينة لمن فيه ولمن يزوره، وكذلك أن يرزق أهله من الثمرات، وقيد هذا الدعاء للمؤمنين. وأما الذي يكفر منهم فقد قال الله تعالى فيه (قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) فكان رزق الله تعالى شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، لأنه أمهل في امتاع الكافر (قال ومن كفر فأمتعه قليلاً) فالمسلم يستعين بالنعمة على طاعة الله فيدخل الجنة، وأما الكافر فيتمتع فيها قليلاً ثم يُلجئه الله تعالى إلى عذاب النار وبئس المصير الذي سيؤول إليه الكافر.(٢)

(وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٤/١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٤/١)

وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤)

ثم ينتقل السياق القرآني إلى عملية بناء البيت، والدعاء والالتجاء إلى الله تعالى من إبراهيم وإسماعيل (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ففي الآية الكريمة بيان لحالة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان أساس الكعبة المشرفة، وهما يلهجان بالدعاء، أن يتقبل الله تعالى منهما هذه الطاعة، مما يبين أن الإنسان المؤمن يلزمه اللَّهَجُ بالدعاء أن يتقبل الله تعالى منه عبادته، وجميع أنواع طاعته، لا أن يرى من نفسه أنه قد أتمها بكمالها وتمامها، وأنها قد قُبِلَت. فلا يدري عن خاتمة أداء عمله. يقول العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى: فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما. ويحكي أن وهيب بن الورد أنه قرأ هذه الآية، ثم بكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يُتَقَبَّلَ منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخُلّص في قوله تعالى من سورة المؤمنين (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبُهم وجلة) أي يُعطون ما أَعْطَوا من الصدقات والنفقات والقرابات وقلوبهم خائفة أن لا يتقبل منهم.[1]

ثم يقول إبراهيم وإسماعيل (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أي صيرنا مسلمين منقادين خاضعين مطيعين لك، فيطلبان من الله تعالى التثبيت والدوام على الإيمان والأعمال الصالحة. ومن فوائد ذلك أن المؤمن يسأل الله تعالى التثبيت، ولا يغتر بالطاعة، بل يدعوا بالقبول عند الطاعة، ويسأل الله تعالى أن يثبته على الحق ولا يزق عنه. كما كان يدعوا إبراهيم و كذلك نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام، إذ يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[2] [3] بل ويتجاوز دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/١٨١)

(٢) الترمذي (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

(٣) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٢/٨٧) ملخص

السلام إلى الدعاء لذريتهم (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة) وهذا يعطينا القدوة في الدعاء للذرية، وأن يشارك الولد أباه في عمل الخير، كما شارك إسماعيل أباه، فيأخذ عنه ويقتدي ويتأسى بأبيه. ويستمر الدعاء (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فيطلبان من الله تعالى أن يريهما ويعلمهما مناسك الحج ومعالمها، وقيل جميع العبادات المطلوبة، فالناسك هو العابد، والمناسك الْمُتَعبَّدَات[1] ثم يتوسلان الله تعالى بأسمائه وصفاته أن يتوب عليهم، فهو أهل التوبة والرحمة. (إنك أنت التواب الرحيم) مما يبين أهمية التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته، ولا يتوسل بغير الله من المخلوقين. وبالرغم من أنهما في عمل تعبدي وطاعة، إلا أنهما يسألان الله تعالى التوبة، لأن الإنسان مهما عمل، فإن عمله يعتريه التقصير. وإذا كان هذا شأن خليله الذي اصطفاه ومعه ابنه، وهما يطلبان التوبة، فكيف بغيرهم. مما يفيد ألا يغتر الإنسان بعبادته، بل يدعو الله أن يتقبل منه ويغفر له تقصيره.

ويستمر الدعاء (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. إنك أنت العزيز الحكيم) ويبين هذا الدعاء حرص أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يرسل فيهم رسولاً من ذريته، وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فبعث الله تعالى فيهم نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، كما قال عليه الصلاة والسلام (أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بَشَّرَ بي عيسى ابن مريم)[2] واشتمل الدعاء على بيان مهمة الرسول (يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) فيتلوا الآيات لفظاً وحفظاً وتحفيظاً.[3] (ويعلمهم الكتاب والحكمة) فَهْمَاً وتطبيقاً، لأن التعليم يكون بالتفهيم والتطبيق. و(الكتاب) القرآن الكريم. (والحكمة) السنة. ويزكيهم، بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال الردية.[4] وهذا يبين مهمة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وأن مهام تعليم الدين تنضوي على تَعَلُّم القرآن الكريم تلاوة وفهماً وتطبيقاً، وكذا تَعَلُّم السنة النبوية، بفهمها وتطبيقها والعمل بها، وكذا التربية المقتضية لعملية التزكية والتطهير

---

(١) المرجع السابق

(٢) أحمد (٣٦/٥٩٥٩ _ ٥٩٦) برقم (٢٢٢٦١) والسلسلة الصحيحة للألباني (١٥٤٦)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٩٥)

(٤) المرجع السابق (١/٩٥)

بالطاعة والإخلاص لله تعالى، والتي هي التطبيق والتنشئة على كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وتطهير النفس من كل ما يضاد منهج الله تعالى ومراده.

ويمكن استخلاص أسس التعليم بأنها قائمة على: الممارسة والإيضاح والبيان اللفظي لعملية التعلم وكذلك ما يقتضيه التعليم من الفهم وتنمية القدرة على الاستنباط والاستنتاج، وهو الاجتهاد للوصول للحكم بعد تَعَلُّم جميع أدواته الْمُوصِلَةُ له. وكذلك ما يتعلق بتقوية الإرادة وتنشيطها وتحفيزها للعمل والتطبيق، وليتطهر بها العقل والعمل والسلوك من كل شائبة وعائق.

ثم يقول الله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) فما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من امتهن نفسه وجهلها ورضي لها بالذلة، فغبن نفسه. ويُقال: رغب في الشيء إذا أراده. ورغب عنه إذا تركه. وبالتالي فإن من يرغب عن دين الله تعالى وشريعته بعد معرفتها، ثم يستعيض عنها بغيرها، فإن حاله هو حال السفيه الجاهل الذي يرى النور والخير ويتركه، ثم يستعيض عنه بما هو دونه، وإنها لمن أرذل الصفاة المتعلقة بالعقل الذي يسلك به العاقل خلاف الحق الواضح أمامه، والذي لا لبس فيه.

وفي جملة (إلا من سفه نفسه) ما يفيد أن الإنسان قد يؤذي نفسه بنفسه، فيكون سبباً في تحقيرها وإذلالها، وسبباً في هدرها، وكذا سبباً في إضعافها، وإبعادها عن الحق والخير، لأن السفه عدم التحرز من الشر بالدخول فيه، وترك الخير واجتنابه، وهذا يبين أيضاً تحمل الإنسان مسؤولية نفسه، لأنه هو المسؤول عن نفسه. وبالمقابل هو الذي يرتقي بها بتوفيق الله تعالى نحو الخير والصلاح، وينمي قدراته، ويصبر عن المعصية، ويصبر على الطاعة وعلى المشاق، ويسعى للتغلب على ما يواجهه من الموانع عن الخير والصلاح ودروبها.

ثم يبين الله تعالى منزلة هذا النبي الكريم في الدنيا والآخرة، فيقول تبارك وتعالى (ولقد اصطفيناه في الدنا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) فلقد اختاره الله تعالى من بين خلقه، ووفقه لما يحبه ويرضاه، وأما في الآخرة فهو من الصالحين، والصالح هو الفائز بعظيم ثواب الله تعالى. وكلمة (الاصطفاء) تدل على الاختيار من بين غيره، وتدل على محبة الله تعالى لمن اصطفاه، وتدل على عنايته الخاصة به، وتوجب من بقية العباد توقير من اصطفاه الله تعالى عليهم، ومحبته، وتصديقه. وفيها تزكية لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في كل شأن وأمر، في عقله وخِلْقَتِهِ وأخلاقه ونبوته، وما يلتحق بها.

وأما في قوله تعالى (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ما يثبت منزلة ومكانة خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأنه من الفائزين بعظيم الثواب والمنزلة من الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى سرعة تجاوب إبراهيم لأوامر الله تعالى (إذ قال له ربه أسلم. قال أسلمت لرب العالمين) فامتثل أمر الله تعالى مباشرة. وهذا السياق للآية الكريمة يفيد أن الأمر من الله تعالى بكلمة واحدة (أسلم) لتفيد هذه اللفظة الواحدة معاني ودلالات كثيرة: ففيها: أسلم لله بالطاعة والانقياد والتطبيق والإنابة والتوحيد والعبادة. فاستوعبت كلمة واحدة لجملة من الدلالات المقتضية للمعاني المرادة من إبراهيم عليه السلام، وهذا من الإعجاز البلاغي البياني المبين. وكذلك بينت الآية الكريمة تجاوب إبراهيم واستجابته لربه في كلمة واحدة (أسلمت) دون تردد، ولتحمل كل معاني القبول والطاعة والامتثال بلا تردد، حتى عندما أُمر بقتل ابنه، لم يتردد أو يتأول أو يفكر، بل باشر عملية الذبح، غير أن الله الكريم الرحمن فداه بالذبح العظيم. مما يعطي القدوة والنموذج للمطيع لربه، ليكون المسلم كذلك مع أوامر الله تعالى ونواهيه. فلا يتردد في طاعة الله أو يخضعها للهوى. وفي قوله (أسلمت لرب العالمين) يمثل التوحيد الخالص، فلم يُسلم لغيره، أو ليُشرك معه غيره، بل لرب العالمين، ليتحقق فيها توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. ففي قوله (لرب العالمين) تحقيق توحيد الربوبية، بأن الله رب كل شيء ومليكه، وتوحيد الألوهية في قوله (أسلمت) وتحديد استسلامه (لرب العالمين) ما يحصر خوفه وخشيته ومحبته ورجاؤه وطاعته وحياته ومماته وإيمانه وعبوديته كلها لله تعالى، فلا يصرف شيئاً من العبادة لغيره سبحانه وتعالى، لأن اسلامه كان لله وحده، كما بينته الآية الكريمة. وبالتالي فإن لفظة (أسلمت) استوعبت جميع ما يجب أن يكون من العبد لربه سبحانه وتعالى، فلم تترك شيئاً البتة، وهذا كذلك من البلاغة الإعجازية للقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه، التي استوعبت مراد الله تعالى كما يريد ويحب عَزَّ وجل، فلم تضق به آية أو عظة وموعظة.

ويستمر حرص إبراهيم على ذريته وعلى استمرا دين الله تعالى، إذ يبين الله تعالى حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع ذريته، فيقول تبارك وتعالى (ووصى بها إبراهيمُ بنيه) واستجاب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام، فأخذ بهذا المنهج أبناؤه عليه وعليهم الصلاة والسلام، حتى أن حفيده يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام يوصي بنيه بمثل ما وصى به إبراهيم، قال تعالى (ويعقوبُ يا بني إن الله اصطفى لكم فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ويفيد هذا الأسلوب التوجيهي، ببيان نعمة اصطفاء الله تعالى واختياره للدين واختيارهم له، ومذكراً لهم بالموت الذي يستثير ويستجيش القلب نحو

التمسك بهذا الدين. ولكن كان تذكيره لهم بأسلوب التنبيه للخاتمة التي يطويها الموت، لتكون أكثر وأقوى تأثيراً، ويكون موتهم وخاتمتهم على الإسلام. كما يقول الشيخ بن سعدي رحمه الله تعالى: أن من عاش على شيء مات بإذن الله تعالى عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه.(١)

ثم يقول الله تعالى (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي. قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) يذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن الخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون لإبراهيم ما لم يوص به بنيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية. فرد الله تعالى عليهم قولهم، مكذباً لهم، وقال لهم على سبيل التوبيخ، أشهدتم يعقوب؟ وعَلِمْتُم بما أوصى، فَتَدَّعُونَ عن علم؟ أي لم تشهدوا، بل أنتم تفترون. و(أم) بمعنى بل. وشهداء: جمع شاهد. أي حاضر. ومعنى (حضر يعقوب الموت) أي مقدماته وأسبابه.(٢)

فأجابوه بنوه بما قرت به عينه، أنهم على التوحيد الخالص الذي لا شرك فيه. وقالوا (ونحن له مسلمون) فجمعوا بين التوحيد والاستسلام لكل ما جاء عن الله تعالى: إيماناً وعبادة وأخلاقاً. فكانت إجابة جامعة لكل خير، ومانعة لكل احتمال مضاد. مما يفيد الحرص التربوي على هذا الدين واستمراره، وصلاح الذرية، بتمسكها بدين الله تعالى، حتى في آخر لحظات الحياة، وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كذلك، يوصي في آخر حياته بالصلاة وما ملكة أيمانكم، وينظر لأصحابه يصلون خلف أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويفيد هذا ويبين أهمية عناية الوالد والعالم والداعية بأمر الإسلام، وخاصة في ذريته الذين هم تحت مسؤوليته، فيحمل همهم، وَهَمَّ هذا الدين. ومن الفوائد كذلك افتراء المفترين من اليهود والنصارى حتى على من سبقهم من الأنبياء، ومن الفوائد الأسلوب التقريري في الآية بكذبهم، من أنهم لم يحضروا وصية يعقوب عليه السلام لبنيه، فيفتروا عليه باليهودية والنصرانية، ثم بين الله تعالى أن أبناءه أجابوه بما اتفقت عليه الرُسُل، وهو توحيد الله تعالى والإسلام. ثم يختم الله ذلك بقوله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. ولا تُسألون عما كانوا يعملون) فيبين الله تعالى بأن كلٌ له عمله. ولن تُسألون عن أعمالهم. فالواجب إذاً أن تنظروا في أمركم وما أنتم عليه، وما أنتم مكتسبون.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٧/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/٢)

ويفيد هذا: أن المعاند يُبَيّن له الحق والطريق والحقيقة، والرد على مزاعمه، فإن قبل وإلا فعليه ما اكتسب، وليس لأحد هداية التوفيق، بل يكفي في حقه هداية الدلالة على الخير والصواب.

(وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١)

ويعود السياق في الآية الكريمة لأهل الكتاب، حيث تبين هذه الآية العظيمة استكبار اليهود والنصارى، ورفضهم الحق بعدما تبين لهم، بل ويتمادى بهم الأمر إلى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين إلى اليهودية من قِبَل اليهود، وإلى النصرانية من قِبَل النصارى. وهذا يفيد أن أهل الباطل قد لا يستجيبون للحق الواضح، وقد يَدْعُون ويطلبون من أهل الحق أن يتبعوهم في باطلهم، وهم يعلمون بباطلهم، ويَدَّعون أنه هو الهدى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) وهنا يأتي أهمية الإعلان بالحق وحقيقته، فيقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم (بل ملة إبراهيم حنيفا. وما كان من المشركين) مما يدل على أن هذا الدين هو امتداد لدين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأن دين الله تعالى هو الاستقامة والتوحيد الخالص (حنيفاً) وليس الشرك والبدعة. مما يفيد أن البدعة والشرك تخرج بالدين عن الملة، وأن المشرك يخرج عن الإسلام بشركه المنافي لجوهر التوحيد. وفي قوله تعالى (بل ملة إبراهيم حنيفاً) ما يفيد الثبات أمام الباطل. وقد اشتملت الآية الكريمة على إثبات الملة ونفي الشرك (بل ملة إبراهيم حنيفا. وما كان من المشركين) وفيها أن الشرك منقصة ومذمة للمشرك، لأنه خلاف مراد الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى المزيد من القول الواضح لهم ولغيرهم (قولوا آمنا بالله وما أُنزِل إلينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم. ونحن له مسلمون) فمنطلق هذا الدين الإيمان بالله وبما أُنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن والسنة. لقوله تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) والإيمان بالرُسُل وما أُنْزِل عليهم، وهي الكتب، ولا نفرق بينهم، وأننا إلى الله مستسلمون منقادون لما أنزل الله تبارك

وتعالى. وكذلك يفيد هذا أن هذا الدين امتداد لما جاء يه الرُسُلُ من قبل، فيؤمن المسلم بالله تعالى وبما نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما نزل على النبيين من ربهم، من قبل.

وهذا يفيد وضوح الإسلام، وأنه مُصَدِّقٌ لما أنزل الله تعالى من قبل، وأنه امتداد لما جاء به الأنبياء عن الله تعالى، وأن دين الإسلام يوقر ويحترم جميع الرسل، ولا ينتقص منهم. وأن ذلك من صُلب الإيمان. ومن انتقص من أحدهم فقد نقض إيمانه.

ثم يتبين الشرط الذي يُحْكَمُ به عليهم (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) وهذا يفيد أن الهداية منحصرة في هذا الدين الإسلامي القويم. كما يُفيد أن ليس هناك هدىً خلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين. وهذا يفيد بطلان كل دين غير ما جاء به نبينا محمد صلى الله عيه وسلم. وبالتالي فإن لم يؤمنوا بما أنتم عليه، فإنهم باقون في نزاعهم وجدالهم ومعاداتهم. قال تعالى (وإن تولوا فإنما هم في شقاق) وهذا يفيد أن في توليهم حصول الشقاق وتحققه، وأن توليهم عن هذا الدين جدالاً ومعاندة ومعاداة. ولكن الله تعالى بين لرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، أنه سيكفيهم هؤلاء المعاندين، فهو يسمعهم ويسمع كل شيء، ويعلمهم ويعلم كل شيء (وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) فإن تولوا عن الحق الذي أُرسِلت به، فإنهم في خلاف واختلاف معكم، فسيكفيكهم اللهُ تعالى شقاقهم واختلافهم عليكم ومخالفتهم لكم. فإنه تبارك وتعالى يسمع ويعلم ما أنتم وما هم عليه. فأنجز الله تعالى وعده لرسوله صلى الله عليه وسلم، حيث قُتل من قُتِل منهم، وأُجلي بني النضير.

وهذا يفيد أهمية معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ومنها (السميع العليم) الذي يُوجب للمسلم الخوف والحياء من الله تعالى الذي يسمع ويعلم حال كل أحدٍ من خلقه، وهذا يُعَلِّمَ المسلم أن لا يرجوا ولا يستعين ولا يستنصر ولا يتوكل إلا على الذي يسمعه ويعلم حاله في كل حين (وهو السميع العليم)

ثم يصف الله تعالى دينه بالحُسْن، وأنه لا أحسن منه ديناً (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) فمطلع هذه الآية هو (صبغة الله) وهو تعريف وتقرير بأن هذا هو دين الله تبارك وتعالى، ثم سؤال تعجيزي تقريري، يوجب التصديق والإيمان. (ومن أحسن من الله صبغة) فهل هناك دين أحسن من هذا الدين، توحيداً، وعبادة وتيسيراً وأخلاقاً. إذ تتحقق به السعادة الاجتماعية والأسرية والمهنية بتطبيقه، وكذا سعادة الفرد بما يغرسه فيه من خصال لا يمكن أن تكون إلا بهذا الدين، والذي يتأكد

للمتمعن فيه أنه دين الله تعالى، الذي يجب يصدقه ويؤمن به، ليهديه إلى سعادة الآخرة التي هي مطمع كل مؤمن بها.

ثم إن البيان القرآني جاء بصيغة سؤال استفهامي (ومن أحسن من الله صبغة) ليقررهم بأنه ليس هناك دين خير منه. فهاتوه وبينوه وقارنوه، لتثبتوا أن غيره أحسن منه. فإذا كان واقعه غير موجود، وهي الحقيقة، فليس أمامكم إلا اتباع ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يتقرر في ختام الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عابدون بهذا الدين لله تعالى (ونحن له عابدون) وفي هذا تقرير نتيجة (ومن أحسن من الله صبغة) بأنه ليس هناك أحسن من هذا الدين. ويفهم من ذلك أننا متمسكون بهذا الدين، وأما ما يخصكم أنتم، فأنتم وشأنكم، فمن أراد هذا الدين فله ذلك، ومن امتنع فقد قامت عليه الحجة.

ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لليهود والنصارى (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم. ونحن له مخلصون) والمتأمل في سياق الكثير من آيات القرآن الكريم يجد أنها تقرع الكافر بالحقيقة نحو الحقيقة، وذلك بأسلوب الحجج البالغة، ومناقشتها وتقرير الصواب، بما لا يدع مجالاً للشك والريبة للبيب، إلا من كان في قلبه عناد وكبر.

في هذه الآية الكريمة: يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأهل الكتاب أتجادلوننا (في الله) في دين الله تعالى، بأنكم أولى منا به تعالى، وذلك بِدَعْوَاهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذلك لِقِدَمِ آبائهم وكتبهم. أفتجادلوننا وربنا وربكم واحد؟ وكل مجازى بعمله، فأي تأثير لقدم الدين. ونحن نخلص له العبادة، وبالتالي لن يكون هناك تقرب إلى الله تعالى بأحد من خلقه إلا بطاعته وإخلاصه لله تعالى. وهذا يفيد أهمية الإخلاص لله تعالى، وتجريد العمل التعبدي من كل ما ينحرف به لغير الإخلاص له سبحانه وتعالى، كالشرك والرياء. ويفيد هذا أيضاً أن مجادلة أهل الباطل تكون بالتي هي أحسن، وليست بالعنف والقوة. (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)

ثم يُنكر الله تعالى عليهم دعواهم: بأن الأنبياء كانوا على اليهودية أو النصرانية (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى) فهذه الدعوى لا تكون إلا بعلم. والعلم في هذا لا يكون إلا من عند الله تعالى (قل أأنتم أعلم أم الله) فهذا سؤال تقريري واستنكاري لهم، إذ أن هذا البيان حَصَر الادعاء في أمرين: إما أن تقولوا: اللهُ أعلم. وبالتالي كذبتم أنفسكم، فعليكم

إذاً الرجوع عن ذلك. وإما أن تقولوا: أنكم أعلم من الله تعالى، وهذا لا يمكن. فإذاً ليس أمامكم إلا أن تتبعوا ما يقوله الله تعالى. وقد نفى الله تبارك وتعالى عن خليله إبراهيم اليهودية والنصرانية في سورة آل عمران (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما) ويُستفاد من ذلك أهمية معرفة حال المدعو، ومعرفة ما لديه من شبهة، ومعرفة كيفية إقامة الحجة عليه.

ثم تأتي مرحلة أخرى تفيد وتبين منهجية إقامة الدعوى وإبطال باطل أهل الباطل (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) فهل يوجد أكثر ظلماً ممن يكتم الشهادة التي جاءته من عند الله تعالى، وهو سؤال تقريري واستنكاري لهم، لما يعرفونه عن أنفسهم من كتمان ما عندهم من العلم في كتبهم، قال الحسن البصري: كانوا يقرأون في كتاب الله تعالى الذي أتاهم أن الدين الإسلام، وأن محمداً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية. فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله تعالى، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.[١] وهذا يعطي بياناً لمسلك أهل الكتاب في دينهم، وليكون المسلم على بينة من أمرهم وطباعهم. وكذلك لإقامة الحجة عليهم، وأيضاً ليعرف أهل العلم بمنهجية إقامة الحجة على المكابر والمعاند، ولمن عنده شبهة.

ثم بعد هذا البيان الرباني من الله تعالى، تأتي خاتمت الآية بالوعيد والتهديد، من أن علم الله تعالى محيط بعملكم (وما الله بغافل عما تعملون) وهذا يفيد المدح لمقام الله تعالى بأسلوب نفي النقص، وإثبات علم الله تعالى بعلم وعمل المخلوق. ويفيد بأن الذي لا يغفل عن عمل المخلوق يلزم أن يخافه المخلوق، لإحاطة علمه به، وليرجوه ويدعوه لإحاطة علمه وقدرته بطلب وحاجة المخلوق. ثم يؤكد الله تعالى حقيقة العلاقة مع من سبق من الأمم (تلك أمة قد خلت. لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. ولا تُسألون عَمَّا كانوا يعملون) وهذه الآية قد وردت سابقاً. فيتأكد بها أن الإنسان لا يغنيه دعوى الانتساب، بل العمل هو الذي يُثبت حقيقته وما هو عليه، وبالتالي يُجْزَى به، ولكل أحد ما اكتسب من خير وشر. ومن طاعة ومعصية.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤)

(سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣)

ينتقل سياق الآيات القرآنية الكريمة إلى ما يقول السفهاء عن تغيير اتجاه القبلة، وبيان ما رَدَّ الله تعالى عليهم به، حيث كان اتجاه القبلة هو استقبال بيت المقدس، ثم انتقلت بأمر الله تعالى إلى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، بلد الله الحرام. فقال الله تعالى عنهم (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فلقد وصف الله تعالى المعترضين على تغيير القبلة بالسفهاء، وهي صفة ضُعَفَاء وخِفاف العقول، وهم يهود المدينة، وكل من يقول بذلك. والسفهاء: هم من خف وضعف عقله، ووهن تفكيره، وغلب هواه على المنقول والمعقول. وهم كل من استنكر تحول اتجاه القبلة، سواء من أهل الكتاب أو من غيرهم من العرب والمنافقين والمشركين. وبالرغم من أنهم يملكون عقل الإدراك، فَيُدْرِكُون الأشياء والحقائق، إلا أن تفكيرهم سيطر عليه الهوى أو الكبر والتعنت، فكان تفكيرهم بمنزلة الذي نقص عقله وخف، فأصبح حاله كحال غير الراشد من الناس، ويماثل تفكيرهم تفكير السفهاء.

وهذا يفيد أن هناك من الناس، من يستغل الأحداث من أجل أن يثير الفتنة، سواء على مستوى الأمة أو على مستوى دوائرها الاجتماعية المختلفة، فيتحدث إلى الناس كما تحدث أولئك الذين أشار إليهم ربنا تبارك وتعالى وهم يقولون (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فيثيرون بهذا السؤال الذي طرحوه الشك، ويثيرون التفكير نحو زعزعة اليقين، وإحداث الفتنة في صفوف المسلمين. ويبين هذا خطورة السؤال الذي يحمل فتنة وشراً، وأن إحداث الشر قد يكون بطرح سؤال الفتنة. وأن السؤال قد يكون شراً وفتنة، مما يجب الانتباه إلى مالات السؤال، وما سَيُحْدِثُهُ من خير أو شر. ولكن رد عليهم رَبُّ السماوات والأرض رداً ملجماً، فيأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (قل لله المشرق والمغرب) فالعاقل يعلم ويفهم أن مَنْ له ملك المشارق والمغارب، فإن له ما يشاء من التغيير والتبديل في اتجاه ما يريد، فأين المشكلة إذاً؟ فهو يتحكم في ملكه وفي عباده بما يشاء.

ويفيد هذا خطورة إثارة سؤال الفتنة والريبة عموماً، وخاصة أثناء الأحداث، من خلال التشكيك في الثوابت، فيتم نقل الأمر الطبيعي عن حقيقته إلى غير حقيقته، وعلى أنه غير مقبول، وغير طبيعي، فيفتتن السفهاء به، ويستغله الأعداء للوقيعة. ومن الفوائد أن الله تعالى يُعَلِّم المؤمنين منهجية الرد العلمية التي تُلجم السفيه، وترد الغافل، وتزيد إيمان المؤمن، ومن الفوائد كذلك، أهمية الرد على من يثير الفتنة بالحكمة، والإجابة المنصفة الملجمة، ليثوب الناس إلى رشدهم. وينكفئ السفيه الذي اثار الفتنة. ومن الفوائد ما قاله الإمام القرطبي: فيه دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى ناسخ ومنسوخ، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذ. وفيه أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبد بالحكم الأول حتى يبلغه، وفيه دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء.[1] وفيه أن القرآن عالج أمور الأمة، فكان ينزل رحمة ورأفة بما يدفع الشر، ويجلب الخير والنفع. (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أحسن)

ثم يلفت الباري جل جلاله إلى أمر التوفيق والتسديد (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) ويفيد هذا أن الله تعالى هو الذي هدى هذه الأمة إلى هذه القبلة. وفيه أن شريعة الله تعالى هي الطريق الحق والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه. وأن الهداية بيد الله تعالى، فليطلبها الإنسان منه تبارك وتعالى بالدعاء واتباع مرضاته، والإذعان لها.

ثم يبين الله تعالى شيئاً من مميزات هذا الدين الذي ميز به الأمة عن غيرها من الأمم. قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) فبهذا الدين القويم أصبحت هذه الأمة موصوفة بالوسطية. ويفهم منه المدح والثناء على هذه الأمة، بهذا الدين، الذي حقق لهم هذا الوصف من الله تعالى، وهو العدل والخيار والأجود. والوصف لهذه الأمة بالوسط: مدح وثناء، فكانت قريش أوسط العرب نسباً، وكان صلى الله عليه وسلم وسطٌ في قومه[2] والكعبة وسط الأرض، وفي الحديث (خير الأمور أوسطها)[3] ومنه قوله تعالى (قال

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٦/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٨/١)

أوسطهم) أي أعدلهم وخيرهم.[١] ويفيد هذا أن يَحْمَد المؤمنُ خالقه تبارك وتعالى أن جعله من هذه الأمة الموصوفة بهذا الوصف، وأن يلتزم بهذه الشريعة فلا يحيد عنها، ليتمثل بها في وسطيتها، ولا ينحرف بها عن هذا الوصف العظيم. لأنها الأكمل في كل شيء، فانتفى عنها الحرج، وكانت موافقة للفطرة، وكذلك اتصفت بالسماحة في مضمونها وأهدافها وغاياتها، والتي تَحُثُ على مكارم الأخلاق، وتنهى عن مساوئها، وجعلت التدرج سمة في منهجها، والعدل ركيزة فيها، وحرمت الظلم، وأمرت بالرفق.

وبهذا التفضيل يكون أهل الإسلام شهداء على الناس، فقد مرت جنازة وأثنى عليها الصحابة رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام وجبت. ومرت أخرى، وقال بعضهم بئس الرجل، فقال صلى الله عليه وسلم: وجبت.[٢] وذكر العلامة ابن الجوزي[٣]: أن معناه: لتشهدوا للأنبياء على أممهم، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال (يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك، فيقال لهم: أَبَلَّغَكُم هذا؟ فيقولون: لا. فَيُقال للنبي: أبلغتهم؟ فيول: نعم. فَيُقال: من يشهد لك؟ قال: محمد وأمته. فيشهدون أن الرُسُل قد بلغوا. فَيُقال: ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرُسُل قد بلغوا. فصدقناه. فذلك قوله (لتكونوا شهداء على الناس)

ويكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم بأعمالكم. وهذا يفيد أهمية الشهادة، وأهمية الاتصاف بالخيرية، وتبليغهم الرسالة. ومن الفوائد: أن الشاهد ممدوح، ومن قُبِلَت شهادته فإنه دليل على أنه عَدْلٌ مُزَكًّى، فكيف وأن الله تعالى هو الذي جعل هذه الآمة شاهدة على غيرها من الأمم، بشهادة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم. فإنها منقبة عظيمة جليلة.

ثم يبين الله تعالى الحكمة من تغيير القبلة (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه. وإن كانت لكبيرةٌ إلا على الذين هدى الله) فيبين الله تعالى الاختبار والابتلاء بتغيير القبلة، حتى تكون التصفية بين من يطيع ويقبل ويُذعن لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه

---

(١) المرجع السابق (١٣٨/١)

(٢) مسلم (٦٥٥/٢) برقم (٩٤٩) الترمذي (٥٠٣/٥) برقم (٣٥٢٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٨/١)

وسلم، ومن ينكص ويرتد عن دينه. وأن هذا الأمر تمحيص عظيم بتحول القبلة، إلا على نوع من الناس، وهم أولئك الذين وفقهم الله للهداية، وأيقنوا بصدق وبتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، واطمأنت قُلُوبُهُم بكل ما يأمر به أو ينهى عنه، أو يتم نسخه بغيره.

وهذا يفيد أن الابتلاء هو محك للإيمان، فمن يثبت ومن ينكص، وأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم يُمَحَصون في مواقف متعددة، وأن من بعدهم أيضاً يُمحصون كما قال تعالى في هذه السورة المباركة (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) وبالتالي تظهر حاجة وفقر المؤمن لله تعالى ليثبته، كما قال تعالى في الآية الخاصة بالقبلة (إلا على الذين هدى الله) وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[1] ومن الفوائد أن تمييز هؤلاء ليس متعذراً على الله تعالى العليم بقلوب عباده، وبما سيعملون قبل أن يعملوا، ولكن لتقوم عليهم الحجة، وأن الله تعالى يتعامل ويسير بهذا الكون وفق السنن التي جعلها تبارك وتعالى في نظامه الْمُحْكَم البديع.

ومن الفوائد أن تغيير القبلة يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم، إذ لو لم يكن نبياً لتحاشى وتفادى تغيير القبلة، حتى لا يواجه اعتراض من يعترض، واحترازاً من مغبته، ولكنه صلى الله عليه وسلم عبدٌ لله تعالى ينفذ أوامره، حتى ولو كانت شاقة على بعض النفوس. ومن الفوائد أنه لا مكان للمعقول وغير المعقول أمام النص الشرعي، (وإنها لكبيرة) شاقة على النفوس التي تريد أن تتعامل وفق العقل الناقص أمام الحكم الشرعي الكامل، وأما من قدم النص الشرعي على الهوى والتفكير الناقص فليس كذلك، حيث استثناهم اللهُ تبارك وتعالى من الحكم (وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله) فهؤلاء امتثلوا ولم يجدوا في نفوسهم حرجٌ، لأنهم عرفوا أن الحكم لله تعالى، وأنه لا يعترض عليه أحدٌ تبارك وتعالى، كما قال جَلَّ جلاله في سورة الأنبياء (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) فلا يعترض ولا يَسألُ المستسلمُ لِمَا فعل الله كذا، ولماذا قدم هذا، ولماذا أخر هذا، ولماذا حصل هذا على هذا، ولماذا أعطى هذا ورفع مقام هذا، ونزع هذا من هذا؟ وأن غيره أحق به منه. فهذه جالبة للشر، ومناقضة للاستسلام. فلا يُقدَّمُ العقلُ على النقل أبدا. ولا يُعْتَرَضُ على أمر الله تعالى وأفعاله وقضائه وقَدَرهُ سبحانه جَلَّ شأنُه.

---

(١) البخاري برقم (٤٤٨٧) صحيح ابن ماجه برقم (٣٤٧٦) واللفظ له

ثم يبين الله تعالى عدله مع عباده، فيقول الحكيم الرحيم (وما كان الله ليضيع إيمانكم) فلن يضيع ثواب من صلى تجاه بيت المقدس، ومات قبل أن تتحول القبلة إلى مكة المكرمة. فعن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس. فقال الناس: ما حالهم في ذلك. فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وسؤال الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، في هذه المسألة يدل على شدة اهتمامهم، ودقة متابعتهم لدينهم، ومحبتهم لمن سبقهم من إخوانهم المسلمين. مما يجسد لمن بعدهم أهمية محبة المسلم لإخوانه، حتى وإن لم يعيش معهم ويراهم، فيدعو لهم بالرحمة. وقد علمنا الله تعالى ذلك في سورة الحشر، بقوله عزّ وجل (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم)

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان رحمته ورأفته الكريمة، حيث قال عَزَّ وجل (إن الله بالناس لرؤف رحيم) فهذه صفة من صفات الله تعالى، أنه رؤف رحيم. وصفة: الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[1] فكيف وقد اجتمعت مع بعضها البعض (إن الله بالناس لرؤف رحيم) فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم، فكيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم، وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم، وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم، وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم، وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم، وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم، وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم، وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم. وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم. فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. إنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد، (إن الله بالناس لرؤف رحيم) وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تحلب ثديها تسقي (أي تُرضع) إذ وجدة صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٤٠)

عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[١]

(قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥)

ثم يقول الله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فقد كان صلى الله عليه وسلم يقلب ناظريه بوجهه إلى السماء، يترقب أمراً من الله تعالى بتغيير اتجاه القبلة التي كان عليها تجاه بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً [٢] فيحمل هم الاستقلال بتفرد القبلة عن اليهود، لتكون تجاه مكة المكرمة التي كان عليها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، مما يؤكد، أهمية الاعتزاز بخصوصيات هذا الدين والابتعاد به عن تقليد الكفار في شيء من دينهم، وفي عاداتهم وتقاليدهم، وخاصة التي لا نفع فيها، أو تُقوي شوكتهم ومعنوياتهم، ولا مصلحة للمسلمين فيها. وقد كانت رؤية الله تعالى وعلمه وإحاطته لعبده وتحركاته، ومعرفة ما يدور في خلجاته، وأمنياته ورغباته، تحيط بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (قد نرى تقلب وجهك في السماء) فالله يرى كل أحد من خلقه، ولكنه التنويه بالتكريم والاستجابة لما يدور في خلجاته صلى الله عليه وسلم، ثم تلبية مطلبه عليه الصلاة والسلام (فلنولينك قبلة ترضاها) فهذه مكانة ومنزلة رفيعةٌ وعظيمة، كما أن مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى تعمق مكانته في قلوب المسلمين، وفي هذا الانفراد في القبلة تكريم من الله تعالى للمؤمنين ولهذا الدين. وفيه دليل على مكانة هذا البيت العتيق الذي جعله الله قبلة للمسلمين، واستأثر به هذه الأمة. (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فأين كان موقع المسلم فإنه يتوجه بصلاته ونسكه تجاه المسجد الحرام، وأما في داخل المسجد الحرام فيولي وجهه تجاه الكعبة. فنعمة عظيمة كريمة من الله تعالى. وأما عن استقبال القبلة في النافلة

---

(١) البخاري (٩١/٤) برقم (٥٩٩٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/٢)

للمسافر، والجاهل، ولمن كان في مانع من معرفتها، فقد تناولتها كتب الفقه والتفسير، فتنظر في مظانَّها.

ثم يبين الله تعالى حال أهل الكتاب في تغيير اتجاه القبلة (وإن الذين أُتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) فهذا بيان قطعي من الله تعالى، العالم بما يخفونه من علم، بأنهم يعرفون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً من الله تعالى، وبالتالي يعلمون أنه لا يأمر بشيء ولا يغير شيئاً إلا بأمر الله تعالى. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كُتُبِهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.(١)

ثم يبين الله تعالى حقيقة من حقائق ذاته الكريمة، والتي هي ركيزة في عقيدة المؤمنين، قال تعالى (وما الله بغافل عما يعملون) أن الله تعالى غير غافل بعمل أهل الكتاب وما يعملون، وبالتالي سوف يجازيهم على ما يقترفون، وعلى ما هم عليه من العناد والاستكبار. والنفي هنا يفيد إثبات الضد، فنفى الله تعالى عن ذاته ما يصيب الإنسان من الغفلة والنسيان، ليزيل بذلك كل نقص، فيثبت العلم والإحاطة التامة والدقيقة بكل شيء، كما قال تعالى في سورة يونس (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين)

ثم يبين الله تعالى تجذر عناد أهل الكتاب (ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) فلوا أتيت بكل دليل قطعي فلن يؤمنوا لك، وقد كانت قبائل من أهل الكتاب يسكنون المدينة، ونجران. وهذا دليل إعجازي للقرآن الكريم. فكانوا كما أثبت القرآن هذه الحقيقة. ويقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (وما أنت بتابع قبلتهم) فبين الحقيقة التي عليها النبي صلى الله عليه وسلم من أنه لن يتابع قبلتهم، وكذلك هم لن يتبعوا قبلتك. فالأمر منتهي بينك وبينهم في المحاولة معهم. بل حتى اليهود والنصارى فيما بينهم كذلك، فكل من الفريقين لا يُذعن للآخر في قبلته (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فاليهود قبلتهم تجاه بيت المقدس. والنصارى تجاه المشرق، مخالفين لنبيهم عيسى عليه السلام الذي كانت قبلته تجاه بيت المقدس. وبالتالي فإن هم لم يُذعنوا لبعضهم البعض في القبلة. فلن يُذعنوا لقبلة نبي من العرب.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٩٩)

ثم يبين الله تعالى أنهم أصحاب هوى، وأن من يتبع أهواءهم فقد تحقق له ظلم نفسه (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين) وفي هذا تحذير عن مخالفة الحق الذي بيَّنَّهُ الله تعالى، وأن من خالفه فهو ظالم من الظالمين، وهذا دليل على الحذر من مخالفة الله تعالى، وتزداد خطورة المخالفة وشدة التحذير من كون الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالماً، لكنه محمول على التحذير لأمته صلى الله عليه وسلم. ثم جاء هذا التحذير بعد إعلام الله تعالى (من بعد ما جاءك من العلم) مما يفيد أن ترتيب النهي والتحذير يكون بعد الإعلام. كما يفيد أن هذا الدين علم وحق عظيم. لما فيه من التشريع والعبادات والإيمان والأخلاق والشفاء والعافية من كل بلاء، والحصن الحصين والقوة والحبل المتين، والذي كشف الله تعالى به خلجات الأنفس، وما غاب من أحوال الأمم، وما فيه من الإعجاز والبيان الواضح لطريق الحق والخير. وأوصاف ونِعَمٌ تعجز الأفكار عن حصرها، والأقلام عن تدوينها. فله الحمد تبارك وتعالى.

وفي قوله تعالى (لمن الظالمين) دليل على أن الذي هم فيه باطل وظلم عظيم، يقابل ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من هدى وحق وعلم وبيان، ودين عظيم، وأنهم في ظلالة، وظلم عظيم، وأن من دخل فيهم اندرج في جملتهم. وفي هذا توجيه وقائي لكل مسلم من دين اليهودية والنصرانية، وكل دين غير ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلا يقبله الله تعالى بعد مبعثه (من بعد ما جاءك من العلم)

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨)

ثم يبين الله تعالى حقائق لا يمكن معرفتها إلا بالوحي (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) فأهل الكتاب يعرفون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيٌّ، لما عندهم عنك من الأوصاف التي يزول بها الجهل عنهم زوالاً حقيقياً، حتى بلغت معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم مماثلة لمعرفتهم بأبنائهم. وهذه دقة الوصف القرآني لما لا يمكن أن يعرفه بشر إلا بالوحي، وبالتالي فمعرفتهم بصحة القبلة أنها وحيٌ من الله تعالى هي معرفة تامة، لا ينقضها شيءٌ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا بوحي من الله تعالى. ثم إن فريقاً منهم يكتمون هذا الحق

الذي يعلمونه علماً يقينياً. مما يفيد أن الحقد والكبر قد يدفع بالمرء إلى المعاندة والمكابرة، وإخفاء الحقائق التي يعرفها. وهذا يستلزم من المسلم أن يدرك خطورة هذا الداء العضال، فإذا كان مفعوله في الدين بهذه الصورة البغيضة، فكيف بما هو دونه من أمور التفاعل الاجتماعي، وأداء الحقوق. فقد يدفع المرء إلى السكوت عن الحقيقة، وربما غيبها، لأنه يرى أنها لا تتوافق مع ما يريد، أو تضعه في موضع لا يرغبه. فالحذر من هذا الداء العضال، وذلك بأمرين: سؤال الله تعالى العافية من ذلك، وتعويد النفس على التواضع وقبول الحق، وإذعانها للحق، وأن لا يجاريها في طغيانها. فذلك الحقد المركب من الكبر والحسد، دفع أهل الكتاب إلى إخفاء الحق الذي يعلمونه من الله تعالى (الحق من ربك) وسواء كان المقصود بها نبوة النبي صلى الله عليه وسلم أو صحة استقبال بيت الله الحرام.

ثم يؤكد الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين صحة ما هو عليه، بالنهي عن ضده (فلا تكن من الممترين) فكن على يقين. ولتعلم الأمة علم اليقين بما هُم عليه من الحق، وطرد كل شك شيطاني قد يطرأ على قلب المسلم بسبب شياطين الإنس والجن، الذين هم أعداء الدين. فالنهي عن ضد الحق هو أمر بالحق والاستمرار عليه. وهذا يفيد أهمية الوقاية بالتحذير من المخاطر، ليحصل التثبيت أمام مخاطر المخالطة والتعامل. فقد كان أهل الكتاب في المدينة يختلطون بالناس في أمور حياتهم كالأسواق.

ثم يبين تبارك وتعالى الفصل في أمر أهل الكتاب، وما ينبغي للمسلمين أن يشتغلوا به (ولكل وجهة هو موليها) فلكل منكم قبلة هو متوجه لها، بما يفيد عدم الاشتغال بهم، فهم معاندون لكم، وعليكم بالمبادرة والمسابقة في فعل الخيرات (فاستبقوا الخيرات) وجمع الخيرات يفيد التنوع من الخيرات التي جاء بها الإسلام، والتي يتسابق إليها من يعرف قيمتها وثمنها الحقيقي. وتسمية أفعال الدين وأقواله واعتقاداته القلبية بلفظ الخيرات، يفيد أن شرائع هذا الدين كلها خيرات، تحتاج أن يتسابق المسلم في تحصيلها.

وتفيد جملة (فاستبقوا الخيرات) أنها قوة يتقوى بها المؤمن في كل حال، فإذا جاءه الشح والطمع استقوى على شحه بقوله (فاستبقوا الخيرات) وإذا تكاسل عن عبادة تقوى بقوله (فاستبقوا الخيرات) وإن داهمه الامتناع عن قول الحق، قال (فاستبقوا الخيرات) وإن جاءه الحسد لأخيه المسلم، طَرَدَه بقوله (فاستبقوا الخيرات) وإن تردد بين الخير والتقصير فيه، تذكر (فاستبقوا الخيرات) فأنها قاعدة قوية يُصَدُّ بها كل شر، ويندفع بها في كل خير.

ثم يقول الله تعالى في تمام الآية العظيمة مبيناً قدرته (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً) فيعيد الله تبارك وتعالى للأذهان التذكير باليوم الآخر، الذي سيجمعكم فيه جميعاً، مسلمين وكفار. حتى يكون هذا التوجيه الرباني تحذيرٌ للمنكرين الجاحدين، وأيضاً تحفيزٌ للمؤمنين نحو العمل لليوم الآخر الذي سيجمع الله فيه الخلائق. ومن الفوائد: أن في قوله تعالى (يأت بكم الله جميعاً) دليل القدرة الربانية، وفيها نفي الاختيار للبشر في المجيء، وتنتفي الحيلة في الغياب والتواري، ويفيد هذا اثبات البعث والحساب بعد الموت، فليعلم المرء أنه قادم لربه تبارك وتعالى. وهذا فيه تخويف من المعصية، وترغيب في الطاعة، فاجتمع في هذا البيان (يأت بكم الله جميعاً) الترهيب والترغيب. ثم يقول الله تبارك وتعالى (إن الله على كل شيء قدير) وفي هذا بيان وتذكير بقدرة الله تعالى على الجمع وإعادة الخلق، والبعث والنشور، والحساب والجزاء.

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠)

ولا زال السياق في شأن القبلة إذ قال تبارك الله وتعالى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) فهذا أمر ثالث باستقبال المسجد الحرام، **فالأول:** قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء. فلنولينك قبلة ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام) وهو متعلق باستجابة رغبت الرسول صلى الله عليه وسلم. **والثاني:** قوله تعالى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام. وإنه للحق من ربك) فيه تأكيد وبيان أن هذه القبلة حق، وأن هذه الرغبة النبوية حق، وموافقة للحق الذي أراده الله تعالى، فالله تعالى يُحبه ويرضاه. **والثالث:** قوله تعالى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة) ففيه بيان عام للمسلمين أنه حيث ما كنتم فاتجهوا تجاه المسجد الحرام، حيث قبلتكم (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ثم تبين الآية الكريمة فائدة ومحصلة عظيمة وهي (لئلا يكون للناس عليكم حجة) فقطع الله تعالى بهذه القبلة حُجْة الْمُخَالِف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، من أنه يتبعهم. وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سَيُصْرَف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام التي هي الكعبة، وكذلك انقطعت حُجَّة مشركو العرب لَمَّا انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، التي هي قبلة إبراهيم

عليه السلام. وقد كانوا يعظمون الكعبة. وأعجبهم استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة[١] فتحقق بها خير كثير، حيث انقطعت حجت العرب، وقامت الحجة على اليهود بما يعرفون أن قبلة هذا النبي صلى الله عليه وسلم هي قبلة إبراهيم عليه السلام، تجاه مكة. وأنه ليس بتابع قبلتهم. فكانت قوة دينية للمؤمنين. وتمحيص لمن كان في قلبه مرض. ولله الحكمة البالغة في الأمر والنهي والنسخ بعد الأمر. وبهذا انقطعت الحجة على اليهود ومشركي العرب إلا من في قلبه مرض، فظلموا أنفسهم بالعدول عن الحق (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) فهؤلاء لا تخشوهم (فلا تخشوهم واخشوني) فلا تصرفوا شيئاً من الخشية إلا لله تعالى. وفي هذا اطمئنان وتطمين للمؤمنين، فلا فزع ولا خوف منهم، لحقارة تصرفاتهم وتعنتهم، وأنها لن تبلغ بهم ما يريدون، فاصرفوا الخشية للخالق تبارك وتعالى. ففي حصر خشية المؤمنين من أن لا تكون إلا من الله تعالى ما يُذِيب كل خشية من مخلوق ظلوم غير محق في حجته. فالخوف من الناس عندما يكونوا أصحاب حق، فينصرهم الله تعالى على من ظلمهم، فيخشى الظالم رَبَّه سبحانه وتعالى من ظُلْمِه لهم. وأما والحجة مع المؤمن فلا يخشى إلا الله تعالى. وفيها تثبيت وتقوية للمؤمنين. وفيها إشارة إلى نُصرتهم على اليهود، لأن من لا تخشاه لا تخاف قوته، وأنك منصور عليه.

ومن الفوائد كذلك التدرج في التوجيه، ومعالجة الجوانب النفسية، من خلال التأكيد والتكرار الذي يحمل فائدة في كل توجيه، فقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها، لأن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً.[٢] ومن الفوائد ما استنبطه واستفاده أهل العلم من فوائد عديدة، ومنها ما ذكر ابن كثير وغيره[٣] وهي: أن الآية الأولى لمن هو مُشَاهِدٌ للكعبة. والثاني: لمن هو في مكة غائباً عن الكعبة فلا يشاهدها بعينها. والثالث: لمن هم في بقية البلدان. فمن كان مُشَاهِداً للكعبة استقبلها بعينها. ولمن في مكة خارج المسجد، يتجه تجاه المسجد الحرام، والثالثة لمن كان في بقية البلدان فيتجه صوب مكة حرسها الله تعالى.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٠١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/١١٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٠٠)

ثم بهذه القبلة تحققت نعمة عظيمة جليلة كما قال تعالى (ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) فكان تعيين قبلة المسلمين نعمة عظيمة أتمها الله تعالى برحمته وتوفيقه، ليحصل للمؤمنين مزيد من الهداية والتوفيق بهذا التشريع العظيم، الذي توالت وتكاثرت به النعم. فالحمد لله رب العالمين. كما أن هذا يستدعي استشعار نعمة القبلة إلى البيت الحرام، وتوجه المسلمين لأول بيت وضع للناس، وكذلك ما خصه الله تعالى من البركات، وذلك بمضاعفة ثواب الصلوات، وما فيه من الاستشفاء بشرب ماء زمزم. وغيرها من خصوصيات هذا البيت العظيم.

(كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢)

يُذَكِّر ويمتن اللهُ تعالى على عباده المؤمنين بنعمة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول سبحانه وتعالى (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) فكما أرسلت فيكم رسولاً منكم بنعمة هذا الدين، وتعليمكم إياه من بعد جهلكم بما جاء به، فاذكروني بعبادتي وحدي كما أمرتكم وشرعت لكم. واشكروا لي بما أنعمت عليكم من هذه النعم العظيمة، ولا تسترون النعمة بعدم الشكر، (واشكروا لي ولا تكفرون) وهذا يفيد أن من أنواع معاني الكفر هو عدم الشكر. لأن في عدم الشكر ما يفيد الجهل بفضل النعمة، وعدم الإحساس بقيمتها، بينما الشكر يوقظ عند المؤمن حاسة استشعار الخير والفضل، فيحمد الله تعالى عليها، وكلما استشعر النعمة ازداد طمأنينة وراحة وسعادة، فإذا تذكر نعمة الإسلام وأنه مسلم، أزهقت عنه ما يعاني من صلف الحياة وما فيها من ابتلاء، وإذا تذكر نعمة الأولاد، أنْسَتّهُ شيئاً من حاجة المال أو غيرها، وأما إذا غَفَلَ عن النعمة تعس وازداد تعاسة، فإذا غَفَلَ عن نعمة الصحة، استدعته الغفلة عن غيرها من النعم، فتتراكم عليه هموم الأطماع التي لا تنتهي. فلا علاج لذلك إلا باستشعار النعمة التي تؤدي إلى الشكر الذي به تدوم النعم.

ومن الفوائد كذلك أن الله يُحب الشاكرين، ويُحب أن تُرى أثر نعمته على عبده، تعبداً لا أشراً ولا بطراً ولا كبراً، بل من باب الاعتراف بالنعمة. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: يُذَكِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلوا عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب: وهو القرآن، والحكمة: وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

فانْتَقَلُوا ببركة هذه الرسالة إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة.[١]

وهذا يفيد أن مَنْ ذَكَرَ الله تعالى فإن الله يذكره. وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى (وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملإٍ خيرٍ منه)[٢] ومنافع وفوائد ذكر الله تعالى بالقلب واللسان والفعل عظيمة كثيرة جليلة، تناولتها كتب الحديث، بل خصّها بعض العلماء بأبواب وكتب.

ومن الفوائد تقرير التوحيد في النفس والقلب وباللسان والعمل (فاذكروني) (واشكروا لي) فَذِكْرُ اللهِ تعالى يؤدي إلى تَذَكُّر النعمة، وتذكر النعمة يؤدي إلى ذكر الله تعالى، ويؤدي بالْمُتَذَكِّر إلى الشكر، وأما نسيان النعمة فيؤدي إلى الغفلة عن الشكر. وأما في ربط الذكر به سبحانه وتعالى (فاذكروني) فهو تقرير لتوحيد الله تعالى. بأن يذكر العبد ربه سبحانه وتعالى بِنِعَمِه، وأن لا تُنسي الأسبابُ الظاهرة مُسبب أسباب النعم، بل يقول العبد ربحت بفضل الله تعالى، وسخر الله لي فلاناً فأعانني وفقه الله تعالى، وهيأ الله تعالى بفضله ذلك الأمر، ومثل ذلك مما يُجْرِيهِ العَبْدُ على لسانه اعترافاً بأن الأسباب بفضل الله تعالى، وفي هذا شكر للمنعم بأنه هيأ له الأسباب، وثناءٌ على من جعله الله تعالى سبباً في ذلك من البشر. وكذلك تقرير التوحيد في الشكر (واشكروا لي)

وفي قوله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) قوة يتقوى بها المؤمن في رؤية ما هو فيه من نعم الله تعالى، التي قد يغفل عنها الجاحدون بها. فإذا تذكر إسلامه استعظم هذه النعمة، من أنه ليس من الكافرين. فاستصغر بها كل حاجة وفاقة أمام هذه النعمة العظيمة الجليلة، وبالتالي تدخل عليه السعادة من كل باب. وإذا رأى الصحة والعافية استعظمها لأنه ليس من المرضى، فاستصغر بها كل حاجة أو فاقة أو مصيبة لديه. فاستحوذت عليه الطمأنينة والسكينة والسعادة من كل وجه. وهكذا يكون حال المؤمن في كل نعمة.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠١/١)

(٢) البخاري (٣٨٤/٤) برقم (٧٤٠٥)

وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧)

يوجه الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين إلى القوة التي يستعينون بها على ما يواجهونه من مصاعب الحياة المختلفة، فيقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) فيوجه الله تعالى المؤمنين إلى ما ينفعهم من خلال نداداته ومخاطبته لهم بالإيمان (يا أيها الذين آمنوا) وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان رتبة عظيمة من الله تعالى لهم، وتقرير إيمانهم به منه تبارك وتعالى، فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذا كله ليلفت انتباههم وليعلمهم ما ينفعهم. ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله. ومن الفوائد كذلك مخاطبتهم بأسلوب النداء (يا) حتى يلفت انتباههم، ويسترعي وتسترعي أسماعهم. لأن في النداء ما يفيد لفت الانتباه لأمر مهم، يوجب الانتباه له باهتمام بالغ. وهذا أسلوب توجيه دعوي وتربوي مؤثرٌ على انتباه الْمُخَاطَب.

وينادي اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين ليعلمهم ما يفيدهم، بأن يستعينوا بأمرين مهمين في كل شيء يواجهونه (استعينوا بالصبر والصلاة) ولم يُحدد تبارك وتعالى مجال ومحل ما يُستعان عليه، لتكون في كل شيء، وليفهم المؤمن بهذا التوجيه أن عليه الاستعانة بهما في دفع كل شر وجلب كل خير، لأن حاجات الإنسان قائمة بين جلب ودفع، جلب خير ودفع مكروه، بحسب درجاتها. فالاستعانة (بالصبر) تكون على أداء الطاعة، وطلب الخير أو دفع الشر، أو حبس النفس عن معصية، أو حملها على فعل أو قول خير، أو الصبر على ما يمكن أن يحل بالنفس مما تكره، أو غيرهما مما يحتاج صبراً. وذلك أن في الصبر تقوية للإرادة والتحمل. بل وباعث على كل نشاط، ومعينٌ على طمأنينة النفس، ومُبعدٌ عن اليأس وما يتبعه من كسل وعجز مدمر لحياة الإنسان، كما أن الصبر يرتبط به عظيم الأجر والثواب، كما سيتبين بإذن الله تعالى فيما هو قادم من الفوائد الزكية، وأقربها معية الله تعالى للصابر، كما في هذه الآية الكريمة (إن الله مع الصابرين) ولو لم يكن للصبر من نعمة إلا أن الله تعالى مع الصابر، لكفى بها منزلة ورفعة وقوة وتأييداً ونصراً.

والاستعانة الثانية (والصلاة) فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه وأهمه أمرٌ استعان بالصلاة. قال حذيفة رضي الله تعالى عنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلى) [١] ففي الصلاة صِلَةٌ بين العبد وربه، ففيها المناجاة والانكسار بالركوع والتذلل بالسجود، والتلاوة بالفاتحة وغيرها من كلام رب العالمين، وفيها التسبيح والتحميد والتكبير لله تعالى، وفيها الوقوف بين يدي الله تعالى، وفيها الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا الصلاة على أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفيها الدعاء، وأقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد. فحقاً إنها عون يستعين بها المؤمن على أموره كلها، فأداء الصلاة في وقتها والاجتهاد بأداء السنن والفزع بالتنفل إذا حزب المسلمَ أمرٌ.

ثم تنتقل الآيات لبيان حال الشهيد الذي استشهد في سبيل الله تعالى (ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون) وهذا البيان القرآني من الله تعالى يُعَرِّف الشهيد بأنه من قُتِل في سبيل الله تعالى. ويفيد كذلك بأن الشهيد في سبيل الله تعالى حي حياة لا نشعر بها، مما يفيد ويبين فضل الجهاد في سبيل الله تعالى، وفضل الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيله تبارك وتعالى، ولم يقدموها طمعاً في دنيا، أو دفاعاً عن باطل، أو رياء وسمعة، بل في سبيل الله تعالى كشرط ليكون شهيداً. وبالتالي لا نعتقد بأنهم أمواتٌ، بل نعتقد ونجزم بأن من مات شهيداً في سبيل الله تعالى فهو حي. وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة أو شجر الجنة)[٢] وفي ذلك دليل على نعيم القبر، وبالتالي دليل على عذاب القبر. ولكن لا نشعر في الدنيا بما هم فيه من حال. فسبحان الله العلي العظيم الحكيم الذي له الأمر كله.

ويلاحظ في سياقات القرآن الكريم التنقلات المبهرة في التوجيه والأمر والنهي، والبيان، والرد، وفي تنوع قرآني كريم عظيم جميل ومبهر في تنقلاته التي تستعذبها الآذان، ويخشع لها القلب، ويتدبرها ويستعقلها العقل، فيجد القارئ للآيات حلاوة في سياقها وألفاظها وتراكيب كلماتها، فيستنير بها العقل ويستجيش بها القلب، ويتحرك بها الوجدان. فسبحان من أبهر بالقرآن العقول، وأعجز ببيانه ومكنونه الثقلين، وتحدى به كل متحدي من الإنس والجان، حتى ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ففي

---

(١) أحمد (٣٨/٣٣٠) برقم (٢٣٢٩٩)

(٢) الترمذي برقم (٤/١٥١) برقم (١٦٤١)

الآية السابقة كانت عن حال من قُتِل في سبيل الله تعالى، وقبلها عما يستعين به المسلم من الصبر والصلاة، ثم ينتقل السياق هنا إلى الابتلاء الذي يُستعان عليه بالصبر والصلاة، فتراه تنقلاً في غاية الجمال والتشويق. فسبحان من أعجز عباده بكتابه.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عباده بما يحصل لهم في الدنيا (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) وفي هذا الحال التي يتعرض لها المؤمن من الابتلاء، ما يفيد ويوضح العلاقة بين آية الاستعانة بالصبر والصلاة وهذه الآية، وكذلك آية الجهاد في سبيله تعالى، لما يتطلبه المجاهد من الصبر في مواطن الجهاد وقبله.

وفي هذا الإخبار بالابتلاء ما يُبَصِّرُ ويفيد عباده المؤمنين أن الابتلاء مقصود من الله تعالى، بما يجعلهم يعرفون ما قد يصيبهم في هذه الدنيا من تمحيص واختبار، ليدركوا أنها دار فتنة لما بعدها، فما من اختبار إلا لهدف وغاية، وما من نتيجة بعد تمحيص إلا ليصل بها الفائزون للدرجات العلا. فيقابل المؤمن هذا الابتلاء بالعلم والمفهوم الذي بينه الحق تبارك وتعالى. حتى يتعامل مع ما يصيبه من الابتلاء بالذي يتوافق ويليق بمن يعرف ربه تبارك وتعالى. والأصل في الابتلاء أنه يكون في الخير ويكون في الشر، كما قال تعالى في آية أخرى من سورة الأنبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)

فبينت الآية الكريمة أن هناك تنوع في الابتلاء: درجة ونوعاً، ظاهراً للغير وخفياً عن الغير، ومن تلك الأنواع: الخوف كما قال تعالى (بشيء من الخوف) فهو بشيء من الخوف وليس بكله، فالحمد لله تعالى على ذلك. والخوف هو ما يصيب الإنسان من عدم الطمأنينة بحدوث الانزعاج والاضطراب، كما يحدث في الحروب من الفزع والخوف بسبب القتل والنهب والتشريد، وقد يكون الخوف في السلم من عدو أو أمرٍ من أمور الدنيا، كالخوف من فوت محبوب، أو مجيء مكروه، أو غير ذلك من الأسباب المانعة للشعور بالأمن. وفي هذا تذكرة لنعمة الأمن الذي هو ضد الخوف، أو الذي ينعدم به الخوف بحسب درجاته، والتي توجب الشكر والثناء لله تعالى. كما قال صلى الله عليه وسلم (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[١]

ومن تلك الأنواع التي ذكرتها الآية الكريمة (والجوع) الذي يفقد به المرء ما يقيم به جوعه، من الطعام بسبب قلته، أو عدم قدرته على جلبه، أو لجائحة أصابت المحاصيل الزراعية، أو تعطل وسائل نقله،

---

(١) الترمذي (٤/٤٩٦) برقم (٢٣٤٦)

أو لأي سبب من الأسباب. وقد أشار الحديث النبوي السابق لذلك بقوله (عنده قوت يومه) والنوع الآخر (ونقص من الأموال) لما في نقصه من إضعاف القدرة على تحقيق المراد من الحاجيات أو الكماليات، والنوع الآخر النقص في الأنفس (ونقص من الأموال والأنفس) بموت العزيز والقريب، فتتأذى النفس بذلك النقص بالموت. والنوع الآخر (الثمرات) قيل المراد بهم الأولاد، لأنهم ثمرة القلب، وقيل قلة النبات وانقطاع البركات، وعلى كلا الوجهين هو ابتلاء. فإذا علم المؤمن بهذا البيان الرباني من الله تعالى، كان أكثر تقبلاً من غيره، وأحسن حالاً وحكمة في التعامل معها، وأفضل طمأنينة نفسية من غيره.

فالعلم بهذا البيان من الله تعالى يغرس قدراً من الطمأنينة عند الابتلاء، فكيف إذا زاد عليها بما وجه تبارك وتعالى عباده أثناء الابتلاء، فسيكون حاله أحسن وأفضل في الدنيا والآخرة. قال تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) فهذه بشارة من الله تعالى للمسلم الذي يقابل ذلك الابتلاء (مصيبة) بأمرين: الأول: الصبر. والثاني: قول: إنا لله وإنا إليه راجعون. والصبر حبس النفس عن الجزع من المصاب. وهو سكون القلب بما ورد على النفس. وهذه البشارة غير مقدرة بما يدل على أنها عظيمة المكاسب. وقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ملجأً وملاذاً لكل من أصيب بمصيبة، لأن قول من أصابته مصيبة (إنا لله) اعتراف بأنه مُلْكٌ لله تعالى، فأقر بالربوبية والألوهية، والتوحيد الخالص، وأن المملوك عبد لله تعالى المالك له، غير معترض على قضائه وقدره. كما في الحديث (عدل فيَّ قضاؤك) وقوله (وإنا إليه راجعون) إقرار بالرجوع إلى الله تعالى، فيكون إقرار بالبعث بعد الموت، والجزاء والحساب، فإقرار بالجنة والنار. فهي سند عظيم، أرشد الله عباده المؤمنين لهذه القوة العظيمة، التي يستعين بها على كل مصيبة تصيبه.

ثم يبين الله تعالى الثواب العظيم لمن سلك هذا المسلك الرباني (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فهؤلاء الصابرين المسترجعين لهم من الله تعالى ثلاث خصال. الأولى (عليهم صلوات من ربهم) وهي عفوه وبركاته وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة. والثانية: (ورحمة) والرحمة الإنعام، بإعطائه ما يَسُرُّهُ ويدفع عنه ما يضره، ودخول الجنة. والثالثة (وأولئك هم المهتدون) إي السائرون بهدي الله تعالى، والموفقون للسعادة والكمال، لإيمانهم بالابتلاء وصبرهم على ذلك. وهذا يفيد أهمية الصبر والاسترجاع حال وقوع المصيبة، والعلم بأن الله تعالى قد يبتلي المؤمن، وأن

الابتلاء قد يكون لرفع درجات المؤمن. وقد يكون عقاباً وسبيلاً لمغفرة الذنوب. فالأمر كله لله تعالى، في أي وجه، وعلى أي وجه كان أمره وتدبيره.

(إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨)

وينتقل السياق إلى بيان شعيرة السعي بين الصفا والمروة، لِيُزِيل تَوَهُّم مَنْ تخوف من المسلمين من السعي، بسبب ما كان يُفعل في الجاهلية من الطواف وعليهما صنمان. فقال تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) فعالجت وبينت هذه الآية الكريمة شعيرة السعي بين جبلي الصفا والمروة، وهما العلمان المعروفان. فبين السياق القرآني الكريم فائدتين: الأولى: أنهما من شعائر الله (إن الصفا والمروة من شعائر الله) وفي هذا السياق التنبيه أولاً بأن الصفا والمروة من أعلام دينه الظاهرة، والفائدة الثانية: ليزول كل خوف متعلق بما كان من أمر الجاهلية. ثم بين ارتباط شعيرة السعي بالعمرة والحج. وهذا يفيد تربوياً أهمية إزالة الجهل المركب أولاً، ليستقبل الْمُخَاطب المعرفة على حقيقتها. والجهل المركب هو أن يفهم الشخص الشيء أو العلم أو المعلوم على غير المراد الصحيح.

ثم بين الله تعالى بعد إزالة ما علق في ذهن البعض من أمر الجاهلية، أن السعي مرتبط بشعيرة الحج والعمرة (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما) فجاء الحكم هنا بأنه لا إثم عليه، ولا حرج في ذلك لمن تحرج مما كان يُفعل في الجاهلية بقصد الأصنام التي كانت في ذلك المكان.(١) وهو من واجبات الحج والعمرة. وهذا يفيد أهمية معرفة أسباب النزول، لفهم المراد، وما كان مرتبط بالأمر والنهي إن كان له سبب. ويفيد هذا أن الله تبارك وتعالى له الحكم وحده فيما يتخذه ويقرره على عباده. وأن ما ينحرف به أهل الأهواء والبدع والكفر من الشعائر لا يوجب تركها من أجل ما حصل فيها، بسبب انحراف المنحرفين، بل يجب اتخاذها كما أمر الحق جَلَّ جلاله. ليعرف الناس الحقائق في هذا الدين.

---

(١) وقد استوفت كتب التفسير كل ما يتعلق بأسباب النزول في هذه الآية وغيرها، مثل الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وغيرها. للرجوع إليها لمن أراد.

ثم يقول الله تبارك وتعالى في حق من تطوع بالحج والعمرة (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم) وهذا يفيد أن التطوع بالحج والعمرة (خيرا) فيه خير كثير لصاحبه، والتطوع هو ما زاد عن الفرض، ففيه خير عظيم، يجده المؤمن عند الله تعالى، الذي يشكر له عمله بالجزاء العظيم. لأن شكر الله تعالى للعبد إثابته على الطاعة. وفيه الترغيب في عدم الاقتصار على الواجبات، بل يتزود بكثرة النوافل من العبادات، لأنها خير لصاحبها بما يلقاه من الله تعالى الذي نوه عن ثواب ذلك بأجمل عبارة (فإن الله شاكرٌ عليم) فهو يعلم ما تتزودون به من الطاعة، فلن يذهب سُدى، بل لكم الإثابة العظيمة. كما يمكن الاستفادة من ذلك، أنه إذا كان الله سبحانه وتعالى يشكر لعبده ما زاد من النوافل، فإن من غاية مكارم الأخلاق أن يشكر العبدُ من أسدل له من الناس معروفاً لا يجب عليه. وتأمل لطف الله تعالى بعباده، وكيف يخاطبهم بأطيب الكلام وأحسن الجزاء. فَلُطْف الله بعباده أعظم من لطف الناس ببعضهم البعض، بل أعظم من لطف الأم بولدها كما ورد في الحديث.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم لبيان مزيدٍ من تصرفات وسلوك أهل الكتاب، ليكون عليهم حجة، ولعلهم يهتدون. وليتعلم المسلمون مما حصل من غيرهم (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) قال المفسرون: وإن كان السياق في أهل الكتاب، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله تعالى. فيبين الله عَزَّ وجل أن من يكتم ما أنزله في الكتاب (من البينات والهدى) التي هي العلم الذي يحصل به إقامة الدين، وتحصل به الهداية التي تُوصِلُ الإنسان إلى مراد الله تعالى، فإن هؤلاء الكاتمون لما أنزل اللهُ تعالى لهم اللعنة من الله عَزَّ وجل ، وذلك بطردهم وإبعادِهِم عن قربه ورحمته. وكذلك يلعنهم اللاعنون من الملائكة والناس، أو كذلك من غيرهم من خلق الله تعالى، بسبب ما يُخْفُونَه عن الناس من البينات والهدى التي ينتفع بها البشر، ويتوصلون بها لعبادة الله تعالى وطاعته بما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر. وذكر الإمام القرطبي أن المقصود بالكتاب في قوله تعالى (من بعد ما بيناه للناس في الكتاب) جميع الكتب، لأنه اسم جنس[١]

وهذا يُفيد خطورة كتم العلم ابتداء، ويزداد عندما يحتاج الناس إليه، ويتضاعف عندما يسأل الناس عنه. مما يوجب إظهار العلم وبيانه للناس، وتفنيد ما يُرضي الله تعالى وما لا يرضيه، وألا يجامل به أحداً، أو يسترضي أحداً بإخفاء شيء منه ً، أو يلوي عُنُقَ المراد من النص وتطويعه ليقضي به مراده، أو مراد أحدٍ من دون الله تعالى. أو ليجلب به مصلحة، فيتقرب به لأحد من الناس، أو غير ذلك مما لا يُرضي الله تعالى. وهذا يدل على المسؤولية العظيمة التي يتحملها العلماء، أعانهم الله تعالى، وهذا يوجب مؤازرة الربانيين منهم، ومناصرتهم على الحق، وإكرامهم لما يحملونه من مسؤولية دينية عظيمة.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٥/٢)

ولكن رحمة الله تعالى تتواصل على التائب من ذنبه وفعله، فيقول الله تعالى في حق أولئك (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) فهي ثلاثة شروط: الأول: التوبة بالرجوع عما كانوا يعملون، وهذا يتطلب التوقف عن ذلك، والعزم على أن لا يعودوا إليه، والثاني: إصلاح ما أفسدوه، وقد يتطلب ذلك أن يعلن ما كان عليه من الخطأ، وبيان الحقيقة للناس، ببذل كل ما يستطيع في إزالة ما أفسد، ويُصلح فيما هو حال وقادم. والثالث: البيان الواضح الذي لا لبس فيه. (فأولئك أتوب عليهم) وهذا يفيد أن الله تعالى رحيم بعباده، إذ يَقْبل التوبة من المسيء إذا رجع وأقلع عن الإثم واستغفر وتاب. فأي خير أعظم من هذا الخير للعاصي الذي يتوب اللهُ تعالى عليه.

وهذا يدل ويفيد على أهمية القبول الاجتماعي لمن ترك ما كان عليه من الانحراف، واحتوائه وكأنه لم يفعل شيئاً من ذلك. وأن لا يُعَيَّر بما كان منه، لأن الله تاب عليه. ويفيد هذا في باب التعامل الاجتماعي قبول المعتذر ولا يُعَنّف عليه. ويفيد كذلك أن من عمل خطأً ولو لم يعلم به أحدٌ أن يتوب إلى الله تعالى، وأن يُصلح ما كان منه. ثم تنتهي الآية الكريمة المملوءة بعظيم التوجيه وكمال الرحمة (وأنا التواب الرحيم) ففيه بيان من الله تعالى أنه تواب وأيضاً رحيم، فيجتمع عفوه ورحمته لمن تاب، والرحمة زيادة في الفضل على التائب. فتبارك الله الكريم أرحم الراحمين.

ثم يبين الله تعالى حال من اختار الكفر ومات كافراً (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ. أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها. لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنْظَرُون) ففي هذه الآية بيان لحال من اختار الكفر على الإسلام، ومات على كفره ـ والعياذ بالله تعالى من الكفر ـ قال العلامة بن سعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا يزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.[1] ثم وصف الله عذابهم بالخلود الدائم، وأنه لا يُخفف عنهم العذاب ولا يُمهَلُون. مما يفيد أن الدنيا هي دار الإمهال للتوبة والرجوع إلى الله تعالى، وأما الآخرة فهي دار جزاء.

وهذا بيان وتنبيه وإنذار من الله تعالى لعباده بأن مآل الكافر هو النار، مما يفيد التحذير بالبيان والوصف، وقطع ما يمكن أن يدور في ذهن الإنسان من أنه ربما يُنظر ويُمْهَلُ ويعود يوم الفصل والجزاء. فالأمر قطعي واضح (ولا هم يُنْظَرُون)

---

(١) بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٢٣)

ثم ينتقل السياق إلى بيان أوجب ما يجب على العبد أن يعرفه عن خالقه تبارك وتعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فتُبين الآية العظيمة صفة الله تعالى التي يجب على العبد أن يعرفها ويعتقدها ويعمل بما تقتضيه من دلالات كثيرة وعظيمة. فهو (إلهكم) فهو معبودكم، الذي تتوجهون له بالعبادة، فينقطع بذلك كل معبود غير الله تعالى. فينتفي معه غيره (وإلهكم إله واحد) وهذا إثبات وحدانيته سبحانه وتعالى. وأما جملة (لا إله إلا هو) فقد اشتملت على نفي وإثبات، بأنه لا يوجد إله يَعْبُدُهُ خَلْقُه بحق غيره تبارك وتعالى. فنفى كلَّ معبود سواه، وكلَّ إله سواه، وإثبات أنه تبارك وتعالى هو الإله الواحد الأحد. مما يفيد أنه يجب أن لا يُوَجِّه العبدُ شيئاً من العبادة إلا له وحده لا شريك له، وبالتالي هو الرب وهو الخالق وهو المتصرف، وكل صفة توجب ما يترتب عليها من الخشية والخشوع والاستعانة والاستغاثة. ثم يبين الله تبارك وتعالى أنه (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فهذا ما يتصف به ربنا تبارك وتعالى من الرحمة التي شملت الكون كله، إذ من رحمته بعباده أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وسخر لهم ما في السماوات والأرض برحمته، ويقبل التوبة من عباده لرحمته بهم، ولو لم يكن كذلك لَما قَبِل توبة الكافر إذا ترك الكفر، وتوبة من ادَّعى له الولد، سبحانه وتعالى عما يقولون ويصفون، وكذلك توبة عباده في غيرها من المعاصي. فالحمد لله تعالى على رحمته التي وسعت كل شيء.

وفي قوله تعالى (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) نفي أن يكون هناك إله رحمن رحيم غيره، يتصف بهذه الأسماء وهذه الصفات. وبالتالي كل ما يُعْبَد من دون الله تعالى فهو لا يملك ما يملكه الله تعالى من الرحمة، ولا يمكن أن يتصف بما اتصف به الرحمن من أسماء وصفات. وبالتالي لا يستطيع غيره أن يعطي ما يعطي الرحمن الرحيم. وكذلك اشتملت على اثبات الوحدانية لله تعالى. وتقرير اسم الرحمن والرحيم لله تعالى. فاشتملت الآية الكريمة على تقرير التوحيد بأقسامه الثلاثة، توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

(إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤)

يلفت الله تعالى انتباه عباده إلى ملكوته العظيم، وما فيه من الآيات الباهرات، الدالة على ربوبيته وألوهيته، وأنه خالق كل شيء ومالكه والمتصرف فيه بحكمته، وينبه ويوجه تبارك وتعالى عباده إلى الالتفات والتأمل فيما يُحيط بهم من ارتفاع سقف السماء ولطافتها واتساعها، وما فيها من كواكب سيارة وثابتة، مبثوثة لا يحصيها العادُّون، فمن أبدع هذا في أدق ما يكون؟ أليس هو خالق هذا الكون؟ أليس هو رب الكون؟ وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها الشامخة، وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها، وما فيها من المنافع، فمن سخر هذه الأرض بهذه الكيفية، وشق فيها الطرق ومسارات السيول؟ أليس هو مالك الكون وخالقه؟ ثم النظر في اختلاف الليل والنهار، فهذا يجيء وهذا يغيب، فيخلف بعضها بعضاً في نسق دقيق، لا يتخلف أحدهما ولا يتقدم عليه الآخر لحظة. وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان. أليس هو المبدع في خلقه؟ أليس هو المسخر والمتحكم؟ أليس هو الله تبارك وتعالى أحسن الخالقين؟ وكذلك لفت النظر والعقل والحواس إلى البحار كيف سخرها لحمل السفن، والتنقل بها من مكان لآخر، تحمل المتاع والأرزاق، فيتناقلون بها ما تنوع من عطاء الرحمن تبارك وتعالى. فمن أوصل البحار ببعضها؟ ومن قدر مسافاتها؟ ومن أنزلها عن اليابسة بمقدار؟ حتى لا يفيض الماء على اليابسة فيغرقها. أليس هو الله اللطيف الرحمن الرحيم؟

ثم يوجه الله تعالى الفكر لما يراه العبد ويحسه بحواسه، ويعرف نفعه وضرره من تسخير السحاب بين السماء والأرض، فينزل بقدر ما تحتاجه الأرض والناس، وبقدر ما يحقق لهم الخير، ثم ينقبض شيئاً فشيئاً لتتجه به الرياح لأماكن أخرى، ولو زاد هطول ما أمطر عن القدر المقدر من الله تعالى لهلك الناس والزرع والبهائم. فمن قدر هذا؟ أليس هو خالق الكون بقدرته؟ ثم يُحيي الأرض بهذا الماء بعد موتها، فينبت العشب وتخضر الأرض، ويفرح الناس بهذا العطاء. وقد خلق وبث ونشر فيها الدواب للركوب والجمال والأكل.

ثم يلفت الله تبارك وتعالى إلى تأمل الرياح التي يُرى أثرها بحمل السحاب والانتقال به من مكان لآخر. وكذلك حمل أتربة الأرض دون أن يرى الإنسان هذه الرياح للطافتها، غير أنه يحسها عندما تهب على وجهه وبشرته، فيشعر بلطافتها، أو يرى ما تحمله أو تُحركه أو تعطبه وتقتلعه، فيرى أثرها ولا يراها، ويصرفها الحق تبارك وتعالى كيف شاء، فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه. ثم تارة تأتي من

الشمال وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا، وهي الشرقية، وتارة دبوراً وهي الغربية[١]. فمن سخر هذه؟ ومن أجراها بتلك الكيفيات والاتجاهات؟ أليس هو مدبر هذا الكون وخالقه؟ اليس هو المعبود بحق؟ أليس هو الرحمن الرحيم؟ فكل شيء من مخلوقاته يدل على أنه الله تبارك وتعالى خالق ومدبر كل شيء. وتختم الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى (لآيات لقوم يعقلون) فما سبق ذكره في الآية الكريمة علامات ودلائل تدل عليه تبارك وتعالى لمن يتأمل ويتفكر، ثم يتعقل فيعقل. وهذا دليل على أهمية التفكير فيما يحيط بالإنسان، ليحصل له الإيمان والطاعة لله تعالى.

وهذا يفيد أهمية اشتمال المناهج التعليمية، والدروس، وطرائق الدعوة على عملية التأمل والتفكر في إبداع الله تعالى لمخلوقاته، التي هي الكون كله بما حواه، وما فيها من العبر والدلائل الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه هو الخالق، وهو رب كل شيء ومليكه.

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧)

فبعد أن بين الله تعالى في المقطع السابق لهذه الآيات العظيمة ما اشتمل عليه ملكوته العظيم من الآيات والعلامات الباهرات الدالة على ربوبيته وألوهيته، وأنه خالق كل شيء ومالكه والمتصرف فيه بحكمته، فإن من الناس من يكفر ويشرك به سبحانه وتعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) فمن البشر مع كل ما يرى ويشاهد ويحس من دلائل وحدانية الله تعالى وربوبيته وألوهيته يتخذ من دون لله شريكاً، فيصرف له العبادة: كالرجاء والخوف والخشية والدعاء والاستغاثة وغيرها، كأنه مثيل ونظير لله تعالى، فيعبدونها من دون الله تعالى، بل ويحبون تلك المعبودات، ويساوون بين محبتهم لله تعالى ومحبتهم لتلك المعبودات من دون الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وهذا يبين خلل التفكير عند البعض، وخلل التحليل، وخلل الاستنتاج. نتيجة التقليد الأعمى لما عليه غيره، أو للتنشئة التي نشأ وتربى عليها، أو تعطيله لهذه القوة العاقلة التي زود اللهُ تعالى بها عباده، من عقل يفكر ويستنتج به ما يدل على الله تبارك وتعالى. ثم يتدرج

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/٢٠٧) بتصرف

به الأمر إلى أن يخاف تلك المعبودات من شجر وحجر وأضرحة وغيرها، ويبدأ يحبها حباً شديداً، يضاهي حبه لله تعالى. وهذا يفيد أهمية مناقشة الفكر في عملية الإقناع التربوي والدعوي، بالحيثيات التي تبين خطأ ما هو عليه المنحرف من انحراف.

ويفيد هذا أن كل مخلوق هو عبد لله تعالى، فكيف يجعل المخلوق مخلوقاً مثله شريكاً أو معبوداً له من دون خالقه الذي لفت انتباهه للكون وما فيه من آيات باهرات، دالة على وحدانية الله تعالى. ولما أن كل مخلوقٍ ناقصُ الإرادة، فكيف يطلب المخلوق من مخلوق ناقص الإرادة أن يدفع عنه شراً أو يجلب له خيراً، حتى الأنبياء عبيدٌ لله تعالى، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في سورة الأعراف (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف يملك ممن هو دونه من المخلوقات لنفسه أو لغيره.

ثم يبين الله تعالى الفرق بين محبة هؤلاء وبين محبة المؤمنين لله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) وكلمة (أشد) توحي وتبين أن المؤمنين لا يحبون شيئاً أكثر من حبهم لله تعالى، فكل ما هو دونه هو دونه أيضاً في المحبة. وهذا يفيد أن محبة الله تعالى ومحبة شريعته ومحبة الانقياد له هي من طاعته ومن علامات الإيمان، فيكره أن يعصيه، ويكره أن يأتي بالعبادة ناقصة، ويشتاق للعبادة، لأن من أحب شيئاً اشتاق إليه. ومن يحب الله تعالى يُحب طاعته ويستحي من التقصير والمعصية، لأنه يستحي أن يراه على غير ما يحب أن يكون عليه.

فأوجب حب المؤمنين لله تعالى تنزيهه تبارك وتعالى عن الشرك والنقص، فيعظمونه ويتوكلون عليه، ويدعونه رغباً ورهباً، فاستولى حُبَّهُ على قلوبهم، فلا يحبون شيئاً أشد حباً منه تبارك وتعالى، ولا يستغيثون إلا به، ولا يلجؤون إلا إليه، فيعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

وقوله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) قوة يُقَوّي بها المسلم إرادته أمام كل ناقض لها، فإن كان أمام خيارين، اختار الذي يحقق قوله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) وإن كان أمام إغراء تَقَوّى عليه بقوله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) وإن وهنت نفسه عن العبادة، استنهضها بقوله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) وإن جذبته شهواته إلى ما يُغضب الله تعالى، استقوى واستعصى عليها بقول العزيز الكريم (والذين آمنوا أشد حباً لله) وإن أُفْتُتِنَ بفتنة استعداها بقوله تعالى (والذين آمنوا أشد

حباً لله) وإن زاغ البصر، حجبه بقول الرحمن الرحيم (والذين آمنوا أشد حباً لله) وإن شَطَّ الفكر أعاده لصوابه بقوله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) فكل قوة انحرافية يستقوي عليها بالله تعالى، وبتقديم محبته لله تعالى على كل ميل وهوى وشطط، لتكون محبته لله تعالى كالجبال يَصُدُّ ويحارب بها فِتَنَ الحياة.

ثم بين العليم الحكيم أن الشرك ظلم (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب) فصور تبارك وتعالى الشرك بالظلم، فيكون المشرك قد ظلم نفسه بشركه، وكذلك لأن الشرك ظلام حالك، يحجب المشرك عن النور. فلو يرى الذين ظلموا أنفسهم بهذا التصرف الذي دخلوا به ظلام الشرك، لما دخلوه عندما يرون العذاب. مما يفيد أن الشرك ظلم وظلام على صاحبه، يمنعه من نور التوحيد والعبادة التي يستنير بها القلب، ويطمئن بها الفؤاد.

أما الشرك فيجعله ظالم يستحق العقوبة والجزاء الذي ذكره الله تعالى بعد بيان حال الناس في محبته، قال تعالى (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا. وأن الله شديد العذاب) وهذا تهديدٌ ووعيدٌ عظيم الدلالة، ترتجف له القلوب، فحين يرون العذاب سيعلمون ذلك الوقت أن القوة لله تعالى، وجاء لفظ (جميعا) في قوله تعالى (أن القوة لله جميعا) ليبين أن القوة جميعاً لله تعالى. فالقوة البشرية ضعيفة، لأنها قوة ناقصة ليست (جميعاً) وأن قوة معبوداتهم من البشر ضعيفة هزيلة، لأنها ليست (جميعاً) فباحيلة يستطيع أن يهرب ويتعذر المشرك من معبوداته، ولكن لا يستطيع ذلك أمام من له القوة جميعاً، فلا يستطيع أن ينفك من تلك القوة (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا)

فبعد أن وصف الله القوي العزيز حال المشرك والمؤمن بالمقارنة التي توضح حقيقة المحبة، جاء الوعيد ليكون إنذاراً وتوجيها، فإما أن يعود المُخَاطب للصواب، أو سيلقى الجزاء الموعود به في قوله تعالى (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا. وأن الله شديد العذاب) فقد علموا بهذا الوعيد الرباني، أن عذاباً شديداً مهولاً لا يقدرون عليه من شدته ينتظرهم، إن لم يتركوا ما هم عليه من الشرك.

ثم ينتقل السياق إلى بيان حال التابع والمتبوع (إذ تبرأ الذين اُتُّبِعُوا من الذين اتبعوا) فتتبرأ الملائكة منهم، لمن كان يَعبُدُها، وسوف يتبرأ الرُسُل والصالحون الذين عُبِدَت قبورهم، كما قال الله تعالى عن

عيسى ابن مريم عليه السلام في سورة المائدة (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم. أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق)

فلم يطلب الذين عُبِدُوا من دون الله تعالى أن يتخذونهم آلهة. وفي هذا عدل الله عَزّ وجل، إذ يتبرأ مَنْ عُبِد من غير الله تعالى بغير رغبته، فتقوم الحجة عليهم بفعلهم الذي كانوا يفعلونه (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) فعاينوا عذاب الله تعالى، وانقطعت عنهم الحيل والحجج وأسباب الخلاص، ولم يجدوا مفراً عن النار. فيقول الذين اتبعوا وهم المشركون (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا) فهنا يطلبون العودة للحياة الدنيا، ليوحدوا الله تعالى، لَمَّا عاينوا العذاب. فتأتي الحسرة والندامة على ذلك الشرك والعبادة الظالمة (كذلك يُريهم الله أعمالهم حسرات عليهم. وما هم بخارجين من النار) فتنهي الآيات الكريمات بتوضيح المصير، لتكون إنذاراً لكل مشرك، وحجة لعذاب الله تعالى عليهم، لمن مات على كفره. ولا شك أنه أعظم حسرة تمر بالإنسان الكافر. فإنها موعظة قرآنية ربانية عظيمة، فمن لم يتعظ بالقرآن الكريم وما فيه من الوعظ فبأي حديث بعده يتعظ، فنسأل الله تعالى العصمة والهداية والتوفيق والثبات على ما يُحبه ويرضاه.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩)

يذكر ويبين اللهُ تعالى للناس جميعاً نعمة ما يخرج من الأرض بإذنه ورحمته (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) فيبين ويُفيد هذا المقطع من هذه الآية الكريمة، أن رزق الله تعالى هو للناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم (يا أيها الناس) وهذا دليل كرمه تبارك وتعالى، وأنه هو الرزاق الذي برحمته وقدرته وحكمته جعل الأرض تُنبِت وتُخْرِج ما يحتاجه الإنسان من أنواع الطعام. وجاء لفت الانتباه هنا من خلال التوجيه بالأَكل مما في الأرض، الذي يتوافق كماً ونوعاً مع حاجة الإنسان. مما يثير تساؤلات تقود للإيمان.

فمن قَدَّرَ هذا التوافُق الكمي والنوعي بين الحاجة والعطاء؟ حاجة الإنسان وعطاء الله تعالى من الأرض وما عليها؟ ومن قَدَّرَ وجعل هذه الأرض الجرداء تُخْرِج أشجاراً وحشائش متنوعة في الشكل والحجم، وتنوعاً واختلافاً في الأوراق والثمار؟ وتنوعاً في المذاق، فمنها ما كان حامضاً، ومنها ما كان حلو المذاق، ثم تتفاوت درجات كل مذاق، بالرغم من أنها خرجت جميعاً من أرض واحدة وبماء

واحدٍ. وهذا يستدعي تفكير الإنسان للتساؤل، من أخرج وقَدَّر هذا؟ فلا بد أن هناك خالق ذو قوة وقدرة وحكمة ورحمة، إذ سخر لهم هذه الأطعمة المتنوعة من أرض واحدة، مما يستوجب الإيمان به وعبادته وتوحيده وحده لا شريك له.

وقد وصف الله تعالى حكم أكلها بالحلال (حلالاً) وهو حكمٌ مضاد للتحريم، ولا يصدر الحكم إلا ممن له حق إصدار الحكم، وبالتالي يفيد التنويه من الخالق الكريم أنه هو الْمُنْبِت والْمُخْرِج لهذا الرزق، الذي أمدكم به (حلالاً) وأيضاً (طيباً) مستطاباً لا شر فيه. وهذا بلا شك ولا ريب، يستوجب شكره على إحسانه وتفضله بهذه النعم. فنحمد الله تعالى على هذه النعم الجليلة العظيمة. وكونه حلالاً على الأصل، استوجب عدم أكله بالطرق المحرمة كالسرقة، واغتصابه من صاحبه، أو أكله بمعاملة محرمة. وكونه طيباً يستوجب أكله على الأصل وليس بتغييره من حلال طيب إلى خبيث مُحَرَّم. كأن يكون مسكراً، بعد إحالته من الحلال الطيب إلى لخبيث المحرم، أو أن يوضع فيه ما يجعله مضراً على أي وجه من الأوجه.

ثم بعد بيان هذه النعمة، يأتي التنبيه لنعمة عظيمة أخرى، وهي نعمة التعريف والبيان بالعدو، للناس جميعاً (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) فهو عدو واضح في عداوته للناس جميعاً. لما يأمر به ويزينه من الشهوات والشبهات. فهو عدو للمؤمن بتزيينه للشر وبوسوسته، كتسويف الطاعة وتأخيرها، ليفوت أو يخرج وقتها، وكذلك عدو للكافر بإثارة الشبهات التي تصده عن اتباع الحق، وتزيين الشهوات التي تجعله ينغمس فيها، فلا يلتفت للحق بشكوكه وريبه. فنهى عن اتباع خطواته، التي هي طرائقه. ولفظ (خطوات) يفيد أن الشيطان يعمل بخطوات متتابعة متدرجة، فكلما تابعه الإنسان في خطوة جره إلى خطوة أخرى، حتى يُبعده عن مصالحه وفلاحه ونجاته، فيقع فيما يَسُوؤهُ (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) أي سوء عواقب ما يأمركم به، في مصالح المعاش والمعاد، وأنه يأمر بالفحشاء، التي هي كل ما نهت عنه الشريعة من المعاصي.

وفي قوله تعالى (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) من باب عطف الخاص (الفحشاء) على العام (السوء) لأن السوء يشمل كل ما يسوء الإنسان، وأما الفحشاء ما تناهى قبحه كالقتل وشرب الخمر والزنا والقذف. وفي هذا ما يفيد أن من أساليب الإيضاح عطف الخاص على العام، للبيان والتنبيه، ولفت الذهن للخاص، أو لنفي احتمال متوقع عند الْمُخَاطب، من أن العام قد لا يشمل الخاص. وفي ذكر الخاص بيان الحرص والاهتمام.

ومن أشد خطوات الشيطان أمره وتزيينه التَّقوّل والكذب على الله تعالى (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وهو القول على الله بلا علم، مما يفيد أن من يقول على الله بلا علم ومعرفة فإنه قد سلك مسلك الشيطان، وأنه قد صَادهُ وأوقعه فيما نهى الله تعالى عنه، وحذره منه. مما يفيد الحذر من أن يقول الإنسان على الله تعالى بلا علم، فيُحَرِّم ويحلل ويبتدع في العبادات والأحكام، ويعضده الشيطان بتزيين السوء له، وهذا يفيد خطورة التعالم وتقديم العقل على النقل، والأوهام والظنون والتجرؤ على الله تعالى. فإن الشيطان كما بين الله تعالى قد توعد بغواية الإنسان كما جاء في سورة الأعراف (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) فأي نعمة أجل من نعمة بيان العدو الخفي، الذي لولا بيان الله تعالى لنا به، لما عرفناه، لما يتخفى به من خصائص. فإنها نعمة توجب الشكر، وتوجب الحذر.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١)

وبعد أن بين الله تعالى مسلك الشيطان وخطواته وحذر منه، بَيَّنَ حال الكافرين الذين يُصِرُّونَ على الكفر بعد أن جاءتهم البينات والنذر الواضحة، ومع ذلك يتحججون بما كان عليه الآباء، ليقتدوا بهم. قال تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله. قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا) فيقدم المتحجج ما كان عليه الآباء من الجهل والضلال على البينات الواضحات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم. مما يفيد خطورة المتابعة في الدين بدون علم. كما يفيد أن عقل الإدراك لا يغني عن عقل الرشد. فعقل الإدراك هو ضد الجنون، وهو الذي يدرك به الإنسان الأحجام والألوان والأطوال، وهو عند كل أحد من الناس: مسلمهم وكافرهم. وأما عقل الرشد فهو العقل الذي يُعْرَفُ به الخير من الشر، والحق من الباطل. وكون الإنسان يعطل عقل الرشد عن التماس ومعرفة الحق فإنه يُهلك نفسه، ويؤدي بها إلى التهلكة. ولذلك نلمح في الآية قوله تعالى (أو لو كان أبآؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) فجاء بصيغة الاستفهام والاستنكار والتعجب من اختيار متابعة الآباء حتى ولو لم يعقل أولئك الآباء شيئاً من الحق. لأن دليل الرشد هو اختيار الحق واتباعه وتقليد بعلم، وأما تقليد الباطل فهو دليل سفه وعدم رُشد. خاصة إذا جاء الحق واضحاً أبلجاً، فبان به الصواب من الضلال، فما يكون تقليد الباطل إلا سفه.

والتقليد والمتابعة للجاهل والجهال مع وضوح الحق، يحرم الإنسان من الخير في دار معاشه ومعاده. فنسأل الله تعالى التوفيق والسداد. ولذلك أنزل الله تعالى القرآن يخاطب الإنسان بالآيات والدلالات الواضحات، التي تنقله من الجهل إلى العلم والمعرفة، ومن الباطل إلى الحق، فيلفت الله تعالى انتباه الإنسان لكل ما يحيط به، ليدرك الحق فيتبعه، حتى إنبات الأرض وما عليها مما يأكله ويتغذى به في يومه قد لفت انتباهه إليه.

وتُعطي معطياتُ الآية الكريمة الداعيةَ خبرةً وعلماً، لما قد يواجهه في طريق الدعوة. كما يفيد هذا أهمية الوعي وحُسن استخدام العقل بالتفكر والتأمل في كل أمر ديني ودنيوي، وأن لا يكون الإنسانُ إمعةً، يُحسنُ إن أحسنَ الناسَ، ويُسيءُ إن أساء الناسُ، كما ورد في الحديث. بل يُوَطِّنُ الإنسان نفسه. فإن الذي منع بعض الكفار من الدخول في الإسلام هو تقليدهم لمن سبقهم، واحتجوا بما كانوا عليه، فمنعهم ذلك من التفكير الناقد الفاحص الذي يوصلهم إلى لحق. وبالتالي فإن التقليد إما عن جهل، وإما عن علم ومعرفة، فالتقليد عن جهل تهلكة للإنسان الْمُقَلِّدِ، وأما التقليد عن وعي وعلم في الخير، ولأهل الخير فهو مطلوب، وعلى رأسهم الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى تفصيلاً لأقوال العلماء في التقليد وأنواعه وأحكامه، فلينظره لمن أراد المزيد[١] وكذلك فَصَّلَ فيه الإمام الشوكاني من خلال كتابه: أدب الطلب ومنتهى الأرب.

ثم ضرب الله تعالى لمسلكهم مثلاً، وذلك لزيادة الإيضاح والتعليم، لعلهم يرشدون، وليتعظ غيرهم بهم، وليكون علماً وبياناً (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء. صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون) وفي هذا بيان لخطورة تعطيل أدوات التعلم والفهم، فيعطل الإنسان أذنيه عن سماع الحق، ولسانه عن الاستفسار والنطق بالخير الذي ينفعه، ويغمض عينه عما يحيط به من علامات ودلالات واضحات، وما يراه من الرسول صلى الله عليه وسلم، ويسمعه من القرآن. فمثل الذين كفروا كمثل البهائم التي يصيح لها الراعي وليس لها فهم ولا علم بما يقول الراعي من كلمات ودلالات، فهي تسمع الصوت فقط، ولا تعرف مضمونه، وهم كذلك يسمعون صوت نداء الحق، ويعطلون آذانهم وألسنتهم وأبصارهم عنه، كأنهم لم يسمعوا ولم يروا شيئاً، إلا صوتاً تقوم به الحجة عليهم دون أن ينتفعوا به. فهؤلاء لا يعقلون، وهو عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يُرْفَعُ به

---

(١) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٢/٢_١٤٤)

القلم عنهم. وكذلك يصدق المثل على أنهم يعبدون ما لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم من الأصنام، فيدعونها ويطلبون منها، وهي لا تفقه شيئاً مما يقولون. وهذا يفيد أن ضرب المثل أحد أساليب التعليم التي يُوصِلُ بها الداعية والمربي مراده بدقة، وبتقريب المراد من عقل الْمُخَاطَب، ولْيَسْتَيْقِظُ به العقل وينتعش به الفكر، من خلال محتويات ومضامين المثل. وهذا يدل على أهمية أسلوب ضرب الأمثال تربوياً ودعوياً.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ
وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ
وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ
فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ
لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦)

ففي الآية ما قبل السابقة كان النداء للناس جميعاً (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) وفي هذه الآية نداء خاص بالمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) كما أن في الآية ما قبل السابقة تحذير للناس من متابعة الشيطان الذي يصدهم عن خالقهم ورازقهم. بينما في هذه الآية يأتي بما يتناسب مع حال المؤمن خاصة، فيأمره بالشكر، بينما في الآية ما قبل السابقة لم يأمرهم بالشكر، لأنه خطاب عام لكل أحد من الناس، من آمن ومن لم يؤمن، فغير المؤمن لم يأت بما يقتضي أن يأمره بالشكر، فجاء الأمر بما يتناسب مع حالهم جميعاً من التحذير من اتباع عدوهم، الذي يأمر بالسوء والفحشاء، والقول على الله بغير علم. وفي هذه الآية يوجه الله تعالى المؤمنين بصيغة النداء الذي يلفت الانتباه أن ينعموا بالأكل من طيبات رزق الله تعالى. ويدل هذا الترتيب والتناسق في التوجيه ودلالاته على دقة الخطاب والتوجيه في القرآن الكريم، وإعجازه البياني العظيم. كما تفيد تلك الدلالات أهمية مراعاة المقام في الخطاب، فلا يكون هناك أمراً دعوياً ولا تربوياً ولا إدارياً إذا لم يأت الْمُخَاطَب بما يقتضي هذا الأمر، فلا بُدَّ من النظر فيما هو مرتبط به من موجباته، وبمعنى أهمية ترتيب الأولويات، فمثلاً إذا أُقيمت الصلاة فلا يُؤمر الكافر بأدائها وهو لم يأتي بمقتضاها وهو الشهادتين.

ويفهم من الآية الكريمة بالمخالفة: لا تأكلوا من ضد الطيبات التي سيأتي بيانها في الآية التالية، ليكون التوجيه مرتبط بما بعده، فيكون هنا عاماً كقاعدة ضابطة في أكل المطعومات، ثم بيان تفصيلها في الآية التالية، فيكون تناسقاً في التوجيه وجمالاً في الْكَلِمِ، ويفيد تعليمياً وتربوياً: التدرج في إعطاء المعلومة، بأن تُقَدَّم مختصرة كقاعدة أولاً، ثم تُقَدَّم مفصلة، ليستوعبها الذهن كلياً ثم تفصيلاً.

وفي الآية مدار الحديث إثبات أن الرزق من الله تعالى، إذ نُسِبَ الرزقُ للهُ تبارك وتعالى (من طيبات ما رزقناكم) ثم يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بعموم الشكر (واشكروا الله) فيكون الشكر لله تعالى الذي رزقكم هذه المطعومات الطيبات، والشكر يكون بالقلب اعتقاداً، وباللسان نطقاً، وبالعمل تطبيقاً، وذلك بالقيام بما يحقق شكر لله تعالى، من صرف الرزق فيما يرضي الله تعالى كالصدقات مثلاً. والبُعد بهذه الأطعمة عن كل ما يغضب الله تعالى، كالإسراف والتباهي.

ثم هناك ربط وتلازم بين العبادة والشكر، أوضحته الآية الكريمة (واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) ففي الآية دليل على أن الشكر عبادة، لأنه يُفهم منها: فإن كنتم تعبدون الله فاشكروه على هذه النعم، ففي الشكر إثبات ودليل على أن العبد المؤمن يعبد الله تعالى، لأن في الشكر لله تعالى إقرار بأن هذه الطيبات رزقٌ من الله تعالى، بالإيجاد العام لها، وبالتخصيص للعبد، ولا يَنْسِب الحصول عليها لجهده وسقيه لها أو شرائها، كما قال تعالى في سورة الواقعة (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون) على ما سيأتي بيان فوائدها في مكانها بإذن الله تعالى. مما يفيد أن الشكر عبادة عظيمة، يلزم المؤمن القيام بها وبلوازمها.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما حَرَّمَ أكله من الأنعام (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) والمتأمل يجد أن علة التحريم كونها تحمل الضرر الذي تأباه النفس الزكية، فالميتة من ماتت حتم أنفها، ففارقتها الروح من غير ذكاة. وقد بينت الآية الكريمة طريقة الموت دون تحديد وسيلة موتها، وفي عدم التحديد فائدة جليلة، فقد استجدت أسباب لم تكن معروفة مثل الصعق الكهربائي. وهذه من معجزات التوجيه الرباني في القرآن الكريم، فهذا النوع المحرم يحتبس الدم في لحم الميتة، لأنها لم تُذَكّ. ويستثنى من ذلك الحوت والجراد كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (أحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال) [1] ومعنى الدم: أي المسفوح

---

(١) أحمد، المسند (١٠/١٥-١٦) برقم (٥٧٢٣) وصحيح ابن ماجه برقم (٢٦٩٥)

السائل، وكذلك لحم الخنزير لِخُبْثِهِ، وكذلك ما ذُبِحَ لغير الله تعالى، كالتي تُذبح للآلهة. فهذه محرمة، وقد تناولتها الأحكام الفقهية بالتفصيل في كتب الفقه ولله الحمد. ولكن من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده أن أباح لهم في حالة الاضطرار الأكل من تلك المحرمة بما يرفع عنهم ضرر الحاجة، فإذا خاف على نفسه الموت من الجوع، فيأكل بقدر حاجته. فقيد ذلك بأنه (غير باغ ولا عاد) أي فأكله لهذه المحرمة، غير طالبٍ ومُبْتَغِي ما حرم الله تعالى، ولا متعدي بمجاوزة الحد، فما الدافع لها إلا الاضطرار، وهو الخوف من هلاك الجوع. فإن الله تعالى غفور رحيم تجاه هذا الاضطرار (إن الله غفور رحيم) يغفر ما حصل، ورحيم بهم في إباحة ما حرم عليهم عند الاضطرار. فهذا من رحمة الله تبارك وتعالى. كما أن من فوائد الآية الكريمة: عناية الشريعة بحياة الإنسان، منعاً وإباحة، إذ حرم الله تبارك وتعالى عليه ما يضره، وأباح له عند الاضطرار ما يمنع عنه الهلاك. وهذا يفيد منزلة ومكانة النفس في الإسلام، والعناية بحفظها وعلاجها، وسد الذرائع المؤدية لهلاكها.

ويفيد هذا في باب الأنظمة واللوائح، أهمية الاستدراك وبُعد النظر، ووضع الاحتمالات المتوقعة عند التوجيه وعند صياغة الأنظمة واللوائح العامة. وفيه دليل قاطع على أن هذا التشريع رباني من الله تعالى إذ استوعب ما لم يفطن إليه الإنسان من احترازات ودقة البيان والتوجيه، وما لا يقدر أن يستوعب دقائقه الإنس والجن جميعاً. وكذلك يلاحظ قلة الألفاظ، وسعة المفاهيم والدلالات والمعطيات المتنوعة، مع قوة التأثير العقلي والنفسي للقرآن العظيم.

ثم يعود السياق القرآني الكريم إلى بيان حال أهل الكتاب، فيقول الله تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمناً قليلاً) لقد اشتمل هذا البيان القرآني الكريم على عمليتين يقوم بها أهل الكتاب. هما: الكتمان والشراء. فيبين ويندد الله تعالى في هذه الآية الكريمة بصنيع علماء أهل الكتاب، من كتمانهم الحق وإخفاء نبوة وأوصاف النبي محمد صلى الله عليه وسلم، التي بينها الله تبارك وتعالى في كتبهم. ويشترون بما يكتمونه الثمن القليل الذي تنقطع مدته، وينتهي ويزول بالتناقص من المال المدفوع لهم. وأيضاً هو ثمن قليل وحقير مع ثواب الآخرة الدائم الذي لا يتناقص ولا ينقطع. وفي هذا ما يفيد الحذر من كتمان أو تحوير دلالات الشريعة ومعطياتها عن مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم من أجل حطام الدنيا. والتزلف للكبراء ولزعماء الباطل بالتحريف الذي يتوافق مع ما يطلبون ويهوون، ويتعارض مع مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن الفوائد البيانية: التوضيح القرآني الكريم من خلال لفظتين عميقتين، هما (يكتمون) والثانية (يشترون) لما تحمله اللفظتين من شر النفس، وخُبث الطوية، والاستخفاف بأوامر الله تعالى، والجرأة على الله عَزَّ وجل، وكذلك الحسد، والتعمد بما يُضاد مراد الله تعالى، مما يفيد أن بعض النفوس قد تحمل من الخبث والجرأة الشيء العظيم. وكذلك من الفوائد الإيضاح بعملية الاستبدال والاستعاضة التي تحملها لفظة (يشترون) بما يبين للمُخَاطب عُمْق الخسارة التي يراها ويحس بها في عملية ما يحصل من البيع والشراء، فيكون لها أكبر الأثر في استيعاب المقصود والدلالة، وعمق خسارة الآخرة التي يتعمدون تحقيقها لأنفسهم، مع الاستعجال الخاسر. بما ينبه ويحذر من مثل هذا المسلك الذي حدث من أولئك، فيكون المأمور به أن يتعظ من غيره بما سمع وعَلِمَ.

ثم يبين الله جَلَّ في علاه جزاءهم (أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) فأكلهم لتلك الأموال في الدنيا نارٌ في بطونهم يوم القيامة. مما يفيد الحذر من وعيد الله تعالى. ثم الجزاء الثاني هو حرمانهم من كلام الله تعالى لهم (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) فلا يجدون رضا الله تعالى عنهم، بل يجدون الغضب من الله تعالى. وأي عقوبة يوم القيامة أشد على النفس من ألا يَشْرُفَ الإنسانُ برضا الله تعالى وتكليمه له. والجزاء الثالث (ولا يزكيهم) فلا يطهرهم من ذنوبهم لغضبه تبارك وتعالى عليهم، وعدم رضاه عنهم. والجزاء الرابع (ولهم عذاب أليم) وكلمة (أليم) تدل على شدة العقوبة.

وصفة هؤلاء أنهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) فهؤلاء استعاضوا عن الهدى بالضلالة الواضحة، فقدموا فيها الثمن. مما يدل على معرفتهم بما يقومون به. وهذا فيه بيان وكشف لحال علماء أهل الكتاب، ومن وجه آخر يفيد الحذر من الطمع الدنيوي الذي قد يجعل المرء يبيع آخرته بدنياه، مما يوجب الحذر من الغفلة أجارنا اللهُ والمسلمينَ منها. وبالتالي كأنهم اشتروا العذاب ودفعوا فيه الأثمان، وباعوا مغفرة الله تعالى التي توصل إلى الجنة بعرض من الدنيا (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة. فما أصبرهم على النار) وهذا يفيد أن المقاييس والمكاييل قد ينحرف بها الإنسان فكرياً، ثم ينجرف بها عملياً، ولا سيما مقاييس منافع الدنيا ومنافع الآخرة، وتقديم القليل الفاني على الكثير الباقي الدائم. مما يستوجب التفكير العميق في التصرفات، ومحاسبة النفس والرجوع بها إلى الحق. اللهم نسألك الهداية والتوفيق.

ثم يبين الله تعالى أنه نَزَّلَ هذا القرآنَ بالصدق والحجة، وهو الحق (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) مما يفيد أنه يلزم ويجب عدم صرفه عن مقصده، بل هو كتاب حق لا عوج فيه. ثم يأتي السياق عن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم من اليهود والنصارى، ليكون عظة وتوجيهاً للمؤمنين. فيقول الله تبارك وتعالى (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) فأهل الكتاب من اليهود والنصارى في شقاق واختلاف، بسبب اختلافهم في الكتاب. فالاختلاف قادهم لهذا الشقاق. مما يفيد الحذر من شر الاختلاف. فالحق يجب ألا يختلف عليه أهله، ولكن دخول الأهواء يُوجِد موجبات الاختلاف في الحق بالتأويل الفاسد، والفهم القاصر، والهوى الهالك، وذلك بصرف بعضه عن مراد الله تعالى إلى ما تُمْلِيهُ الأهواء. مما يفيد ويبين أنه يجب إخضاع الأهواء للحق، وليس الحق للأهواء، وأن من أخضع الحق للهوى ضل وصار في شقاق مع غيره، كما يفيد أن الحق يجمع وتجتمع عليه الأمة، وأما من خالف الحق فسيكون في شقاق مع الحق وأهله. ويفيد هذا أهمية العناية بالدعوة الْمُوصِلَةُ للحق. واتباعه بالدليل.

(لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧)

ابتدأت الآية الكريمة ببيان بطلان وإبطال الفهم القاصر عن حقيقة البر، من أنه التوجه للقبلة لأداء الصلاة، وذلك لإزالة الجهل عن الذهن حول هذا المفهوم، حتى يتفرغ لمعرفة صحيح الحقيقة، وليشتد الانتباه لمعرفة تلك الحقيقة. (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) وكأن حال المُخاطب يقول، فما هو البر إذاً.

لتأتي الإجابة تباعاً (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين الباس) فالبر هو إيمان وعبادة وأخلاق ومجاهدة النفس على طاعة الله تعالى، ومراعاة حقوق الآخرين التي أوجبها الله تعالى. فكان المضمون عِلْماً وتشريعاً في آية واحدة، ومتضمنة لما يحقق سعادة الفرد والمجتمع.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: البر، اسم جامع للخير[1] فهو جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وقال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار والملائكة والكُتُب المنزلة، وأنها حق من عند الله تعالى، والنبيين والإنفاق للمال، والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر على الشدائد[2]

فبينت هذه الآية العظيمة الكريمة شمولية البر، وعدم حصره في أداء الصلاة تجاه القبلة، بل هو أعم وأرحب، بل هو انشغال القلب والجوارح باعتقادات وأداء واجبات لله تعالى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/٢)

(٢) المرجع السابق (١٦٢/٢)

فذكرت الآية الكريمة أركان الإيمان: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب، أي الكُتُب[١] والنبيين. وأما الركن السادس فهو (القضاء والقدر) فلم يرد نصاً، ولكن الله نوه عن ذلك في الآية بقوله تعال (والصابرين في البأساء والضراء) وهذا الصبر متعلق بالقضاء والقدر. والله تعالى أعلم.

وتضمنت الآية الكريمة جانب التعاضد الاجتماعي، بالتفقد لأحوال الغير وإعطائهم من المال الذي تعب المُقْتَدِرُ في كسبه، حتى صار حُبّه متعلقٌ في قلبِه، وهنا لم يجرده الله تعالى من هذه الخصيصة التي هي حب المال، ولم يزهده فيه، بل عالج هذه الخصيصة بما يدفعه إلى الانتصار عليها، من خلال ترغيبه في تقديم مراد الله تعالى على ما تعلق بقلبه، فقال تعالى (وآتى المال على حبه) فَرَغَّبَهُ في تقديم ما يحبه الله تعالى من الإنفاق على شدة حبه للمال.

ومن فوائد هذا النهج الرباني في التربية أن لا تُزَهِّدَ المتربي في أمرٍ هو حقيقة من الحقائق، أو تُغَلِطَهُ بما يخالف الحقيقة، من أجل أن تدفعه لأمر خير آخر، أو لترك أمرٍ لما هو أفضل. بل أكد له الحقيقة المتوافقة مع الفطرة والعقل، لينسجم ذهنه مع التوجيه والإرشاد. ثم تبين له حقيقة ما تريد أن تصل به إليه من أمر أو نهي، أو تفضيل فاضلٍ على مفضول.

وتضمنت الآية الكريمة العظيمة تنويع قاعدة الإنفاق، وعدم حصره في ذوي القربى، ليمتد نفعه للغير، وليتعاضد المجتمع برمته، وليمتد التعاون والتعاضد وشد الأزر للمحتاجين من عموم مكونات المجتمع. خاصة وأن هذا الأمر من الله تعالى، الذي أعطى فأمر، وأحوج غيرك إليك، وأن الذي أحوج إليك غيرك هو الذي دفعك وأعطاك وأمرك ببرهم وتفقدهم والبحث عنهم.

وفي نفس الوقت أن الذي أفقر وأحوج هو الذي أمر غيره من الميسورين بالبحث عنه وإعطائه، فضلا من الله تعالى، لا كرماً من العاطي، وهذا التوجيه لا يُقْصَدُ به الزكاة، بل هو خارج عنها، لأن

---

(١) السيوطي، تفسير الجلالين (٢٧) وقال ابن كثير: الكتاب: اسم جنس، يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى خُتِمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب. تفسير القرآن العظيم (٢١٣/١)

في المال حقاً سوى الزكاة. لأن الله تعالى نص على الزكاة في هذه الآية نصاً باسمها. وقد حرر ذلك أهل العلم كالقرطبي مثلاً [١]

كما أن هذا التنوع في قاعدة المستحقين اشتمل على التدرج في ترتيب أولويات العطاء: ابتداءً بذوي القربى، لما لهم من حق متقدم على غيرهم، ثم اليتيم الذي لا يَعْرِفُ كيفية التكسب والوصول للمال، لصغر سنه وجهله. ثم المسكين الذي قد يعقل سُبُل الوصول للمال غير أنه عاجز عن ذلك، فكان ترتيب اليتيم أولى منه ومُقَدَّمٌ عليه، ثم ابن السبيل الذي تقطعت به السُبُل من الغرباء والمسافرين. ثم السائلين الذين يَمُدُّون أيديَهم لطلب ما يحتاجونه، ثم ما يتعلق بعتق الرقاب.

ولو تأمل الإنسان في تدرج ترتيبهم، بحسب عجزهم وقدرتهم، لأذهل المتأملَ هذا الترتيب العظيم من الله العزيز الحكيم العليم.

وتضمنت الآية الكريمة من العبادات الصلاة والزكاة، فالصلاة عبادة بين العبد وربه، والزكاة عبادة لله تعالى بين العبد ومجتمعه، وكأن فيهما إشارة إلى هذين الجانبين من مضامين العبادة، باعتبار أنهما يمثلان بقية العبادات من حيث مقاصد الدين، فالصيام والحج مثل الصلاة بين العبد وربه تبارك وتعالى. والزكاة عبادة لله تعالى قوامها وركيزتها التفاعل بالعطاء بين أفراد المجتمع، فكأنها تمثل ما يماثلها كشعيرة الصدقة والكفارات.

وتضمنت الآية الكريمة مجموعة من الأخلاق العظيمة التي تحقق تماسك المجتمع، وتزيل عنه دوافع الشر البشري، وهي: الوفاء بالعهود: التي هي أمان وضمان بين أطراف المعاهدات، إذ في نقضها وخيانتها العداوة والبغضاء على مستوى الأفراد والمجتمعات، أو الدول والبلدان. ففي حفظها والوفاء بها أمن اجتماعي عظيم.

ثم ذكرت الآية الكريمة الصبر في ثلاثة مواقف، وهي من أشد المواقف، إذا تَمَثَّلَ الإنسان واحدة منها، استطاع بتوفيق الله تعالى أن يتمثل بها في غيرها، وهي في حالة: (البأساء) الفقر الشديد جداً (والضراء) المرض. و(وحين البأس) شدة القتال في سبيل الله تعالى. فكل واحدة من تلك المواقف جهاد بحد ذاته، ومن استشعر رقابة الله تعالى عليه يَنَالُ التحلي بهذه الصفات، لأن أمله في الله

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٦٢/٢)

عظيم بأن يعوضه عن بؤسه خيراً، وعن مرضه عافية وأجرا، وعن صبره أمام قتل العدو انتصاراً، أو شهادة ينال بها حياة سعيدة أبدية.

وفي هذا بيان من الله تعالى من أن الإنسان قد يبتلى بشيء من ذلك، فإن أصابه شيءٌ منها، فليعرف عاقبة هذا الأمر الذي أتم الله تعالى به هذه الآية العظيمة الكريمة، فقال سبحانه وتعالى (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فاللهم اجعلنا من الصادقين المتقين برحمتك يا رب العالمين يا أرحم الراحمين.

ولصادقون المتقون هم خيرة الْخَلْقِ، لما اتصفوا به من خيرة الأخلاق، فاستحقوا كمال الثناء. وقد ذكر الله تعالى ما أعده للمتقين من الأجر والمثوبة في آيات كثيرة عظيمة من كتابه الكريم.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم بعد أن بين حقيقة البر إلى ما يضبط حياة الناس، ويغرس فيهم الأمن والاستقرار، حتى يستطيعوا أن يعيشوا حياة كريمة آمنة مطمئنة، فيؤدون فيها ما يجب عليهم في الدنيا والآخرة، فيقول تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى) فبدأت الآية بالنداء، ونداء خاص بالمؤمنين، لأنهم هم المعنيون بتطبيق شرائع هذا الدين العظيم. ثم جاء البيان بأنه قد (كُتب) أي فُرِض وأُثبِتَ عليكم تطبيقه عدلاً ومساواة فيمن قتل. وصياغة هذا التوجيه تُفيد الالتزام به وتحقيقه. ليكون هناك العدل والقسط بين العباد فيما يقترفون من القتل. ويفيد هذا أنه يجب على جميع الأطراف حماية ما فرض الله تعالى من عدم المجاملة وإخفاء الحقائق، بل يجب على الحاكم التطبيق وعلى المحكوم الامتثال، بل وحتى على أهل القاتل تمكين الحاكم من تطبيق ما كتب الله تعالى. وأن لا يأوي أحدٌ قاتلاً بالتستر عليه، لأنه يتستر ويستر ويمنع قضاء الله تعالى عمن كتب اللهُ عليه القصاص.

ثم بين الله تعالى مزيداً من التفصيل (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) قال الإمام القرطبي: قالت طائفة: جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قُتل نوعه، فبينت حكم الحر إذا قتل حراً، والعبد إذا

قتل عبداً، والأنثى إذا قتلت أنثى(١) وذَكَر أهل التفسير ما يفيد أنها نزلت بسبب وجود من كان يُجحف في القصاص، فإذا قُتل عبد طلبوا أن يُقْتَل مقابله حراً، تعنتاً وتعدياً(٢) مما يفيد أن مما عالج القرآن في نزوله قضايا وواقعاً سائداً، كان سيمتد إلى ما بعده، فنظم الله تعالى بشريعته حياة المسلمين في مستقبلهم. كما يفيد هذا أهمية معرفة أسباب النزول لإنزال كلام الله تعالى على مراده، وكذا أهمية معرفة الناسخ والمنسوخ، وأهمية جمع الآيات المرتبطة ببعضها، وذلك لمعرفة مراد الله تعالى، لأن هناك قوله تعالى في سورة المائدة (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) وأن من الأخطاء الشنيعة جداً، اجتزاء الآية دون ربطها بغيرها، أو بما يبينها فهماً وتطبيقاً من السنة المباركة. وفي هذا كله ما يبين أن منهج الإسلام فتق العقول وارتقى بالفكر، مما جعل علماء الشريعة من خيرة الناس عقلاً وفكراً، ولذلك فَصَّلَ العلماء في كُتب التفسير والفقه تلك الأحكام الفقهية من جميع الأوجه، حتى فيما يتعلق بمن قتل ذمي أو سرق ماله. مما يفيد أن هذه الشريعة أنارت الحياة للناس بالحدود، وأنارت عقول العلماء بالتبحر في تفصيل الأحكام، وتمحيص دلالات الأدلة، والربط بينها في كتاب الله تعالى وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حتى جعلت الفقه الإسلامي مدرسة جليلة القدر والمكانة. وأغنت المسلمين عن ابتكار قوانين لا يتفق عليها الناس. فالحمد والشكر لله تعالى.

ثم تبين الآية القرآنية الكريمة جانب العفو، وهو أحد مطالب الشريعة فيما بين المسلمين (فمن عُفى له من أخيه شيء) وهنا تم إثبات الأخوة حتى والقضية قضية قتل، فيسمي الله تعالى العلاقة بالأخوة (فمن عُفي له من أخيه شيء) فما حصل لا يُسقط أخوة الإسلام، فمن تنازل عن القاتل بدية، أو عفواً بِلَا مقابل، عليه أن يتعامل مع أطراف لموقف بمعروف (فاتباع بمعروف وأداء إليه بإحسان) فليتبع ولي المقتول أخاه القاتل (بالمعروف) من غير مشقة، فلا يحمله ما لا يطيق، بل يُحسن في التقاضي والاقتضاء والطلب، ولا يدفعه إلى ما يعجز عنه إن طلب الدية. وفي المقابل على القاتل الأداء، ولكنه أداء بإحسان (وأداء إليه بإحسان) من غير مماطله أو أي إساءة قولية أو فعلية. فهو توجيه كريم عظيم من رب رحيم كريم، بأن دَفَعَ للعفو من خلال الحث والإشارة إليه، ثم بين أدب

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢١٥/١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (١٦٣/١) وغيرها من كتب التفسير.

التعامل من الطرفين، وأركزهما إلى الأخوة (فمن عُفي له من أخيه شيء) ثم يبين الله تعالى رحمته في هذا الحكم، بقوله تعالى (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) فكون الله تعالى كتب القصاص، وأتاح فرصة العفو، فإن ذلك من تخفيف الله تعالى عليكم، ومن رحمته بكم. فالشكر والحمد لله تعالى. وهذا يستوجب الشكر والحمد لله على هذه الشريعة في أحكامها العظيمة، المشتملة على الرحمة الظاهرة والباطنة، فيما يأمر الله تعالى به ويقضيه، وفيما يمنعه وينهى عنه. وهذا دليل على رحمة الله تعالى، وأنه ما أراد عسراً بعباده في هذا الدين.

ثم يبين الله تعالى ما يمكن أن يحصل من تعدي بعد تطبيق القصاص، أو أخذ الدية أو العفو التام بين طرفي القضية، ليبين عقوبته مباشرة (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) ليمنع ويحترز من التطاول، أو أن يمتد الشر بين الطرفين، فيقطعه بالوعيد الشديد (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) وهذا من دقة الشريعة واستباقيتها لما قد يحدث من الشر بعد الشر من البشر، لأنها شريعة جاءت من عليم حكيم، لتعالج أيضاً كل احتمال وارد في قضايا مؤلمة للنفوس. ليقطع دابر الشر بين العباد. ثم يبين الله تعالى نعمة هذا الحكم الرباني في القصاص (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) فبهذا القصاص الذي هو تطبيق الحد في القاتل، أو قبول الدية، أو العفو، ففيه حياة الناس. وأن حياتهم فيما بينهم من خلال تطبيق هذا الحكم، إذ به تنزجر النفوس عن غيها وعنفوانها وتماديها، ويحرك خوف القصاص قلب الإنسان، من أن مصيره هو تطبيق القصاص بحقه، فإذا قُتِلَت نفسٌ فسوف يُقتل القاتل شرعاً، فمن له حق عند أخيه فليطلبه شرعاً لا تعدي عليه بالقتل. وهنا تأتي أهمية الحاكم ووجوده وقيام الدولة، وبسط نفوذها وقوتها ليتحقق بها تطبيق شريعة الله تعالى. وكذا أهمية معاضدة الحاكم في تطبيق شريعة الله تعالى.

ثم اكتملت الآية بقوله تعالى (لعلكم تتقون) فبتطبيق شريعة الله تعالى تحصل التقوى، ويحصل اتقاء قتل الأنفس، وفي الانقياد لأحكام الله تعالى تقوى الله تعالى، وفي تقوى الله تعالى ما يوجب البُعْد عن إثم القتل. فبالتقوى يتحقق ذلك كله. وإذا تحقق ذلك فدليل على التقوى.

(كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢)

ثم ينتقل السياق القرآني إلى تعليم المسلمين حال وجود أسباب الموت أن يبادروا إلى الوصية، قال تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) وفي قوله تعالى (كُتِب) أي فُرض عليكم أيها المؤمنون إذا حصلت أسباب وعلامات الموت، كالمرض الذي لا يُرجى بُرؤه، أو مصائب يظهر فيها القتل وما شابه ذلك، أن يقوم من رزقه الله تعالى المال الوفير، وهو معنى (ترك خيراً) أن يقوم بما أمر الله تعالى به (إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين) فإذا ترك خيراً كثيراً من الأموال ونحوها، فعليه أن يوصي لوالديه منها، وأن يوصي لأقاربه، ولا شك أن يرتب الأقارب بحسب الحاجة والفاقة، فإن تلك الوصية من موجبات التقوى، فهي حق على من اتصف بالتقوى. وبالتالي هي دليل على تقوى الموصي. وللعلماء تفصيل في ذلك، هل هو في الثلث، وهل الثلث في المال الكثير دون القليل. وهل هذا متعلق بالوالدين اللذين لا يرثان؟ فينظرها من أراد أحكامها الفقهية في كُتب التفسير، وفي كتب الفقه المتعلقة بالمواريث. ولكن يُستفاد من ذلك عناية الله تعالى بالإنسان وبماله وبأقاربه، حفظاً وتوزيعاً وتآلفاً. وكذلك دقة التوجيهات بما يتفتق به الذهن علماً وفكراً ورؤية وهدفاً ومآلاً، وفي نفس الوقت تغرس في القلب محبة له سبحانه جَلَّ جلاله. فيدرك الإنسان أن هذا التشريع لا يمكن أن يكون إلا من عند ربنا تبارك وتعالى. فكله إعجاز في دقته وبيانه وأحكامه فنحمد الله تعالى ونشكره.

ثم ينوه ويبين الله تعالى حال من شهد الوصية وعرفها من الشهود أو من ورثته، ثم يبدلها عما أوصى به الموصي (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه) فالموصي وقع أجره على الله تعالى بما أوصى به، ويبقى الإثم على من عَقِلَ الوصية بعد السماع، فبدل وغير، فإن الإثم يقع على من بدل وغير. (إن الله سميع عليم) فإن الله تعالى سمع وصية الموصي، وعَلِمَ بسماعكم ومعرفتكم للوصية، وعَلِمَ بما حصل من بعد الوصية من تطبيق لها أو تغيير وتبديل. فمن كان سمعه وعلمه أحاط بكم، فلا ينبغي عليكم أن تكونوا إلا كما يكون المؤمن العالم الموقن بأن الله سميع عليم. فمن كان موقناً بذلك أوجب له هذا العلم مخافة من أحاط به سمعاً وعلماً وقدرة. فكان هذا التوجيه الرباني توجيهاً بليغاً ومؤثراً على سامعه العارف لمعناه.

ولما أن الموصي قد يحيف ويجحف ويحصل منه الجور في الوصية جهلاً، أو ميلاً لأحد من الورثة، أو بحيلة من الحيل، أو لأي سبب من الأسباب، وبأي وجه من أوجه الإضرار، فإن الله تعالى وجه بتوجيهه الكريم العظيم بما يحقق المصلحة (فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه.

إن الله غفور رحيم) وهنا يلاحظ عناية الله تعالى بالعباد، فلأنه قد يحصل منهم الخطأ غير المقصود، والخطأ المتعمد، فقد فَصَّلَ ذلك (فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً) والجنف هو الميل عن الصواب والحق من غير تعمدٍ (أو إثماً) وهو التعمد في الخروج عن الحق. فاحتاج الموصي في كلا الحالتين إلى النصح من الناصح الذي حضر الوصية، لتنصلح به الوصية، وينصلح به شأن الموصي والموصى لهم. فكان واجب من حضر الوصية أن يقوم بهذا الأمر من النصح، ولا إثم عليه في ذلك (فلا إثم عليه) وفي هذا التوجيه الكريم من رب العالمين نزع وإزالة لما قد يحدث في قلب الحاضر للوصية من أن هذا شأن الموصي، فلا يلزم أن يمنعه أو يمنع الحيف في الوصية. فأزالت الشريعة الغراء كل ما يمكن أن يكون من احتمالات، وهذا والله من دقة شريعة الله تعالى. إذ فَصَّلَ في دقائق لا يتنبه لها بشرٌ ابتداء. فكيف لا يكون كذلك وهو العليم الخبير.

وذكر الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى في هذه الآية[١]: أنه يجب على من حضر وصية الموصي أن ينصح بالإحسان والعدل، وينهى عن الجور، فإن تعمد الموصي ذلك، ولم يفعل بما نُصح به، فينبغي لمن حضر الوصية أن يُصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم. فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليهم. كما على مبدل الوصية الجائرة.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله (إن الله غفور رحيم) وهذه المغفرة من الله تعالى لمن أخطأ غير متعمد. كما يمكن أن يُستفاد من هذا أن الإنسان عرضة للخطأ، وأيضاً قد يتعمد ذلك حتى وهو مُدبر عن الدنيا ومُقْبِلٌ على الآخرة، وأن الآثار النفسية من المحبة والميل أو الكراهية والبغض قد تبقى مع الإنسان حتى مفارقته للحياة، مما يتطلب أن يتنبه المرء لهذه الحالة النفسية ويجتهد في التغلب عليها، وأن يغلب ما عند الله تعالى على كل حال، وألا يدفعه حبه ولا كراهيته إلى الشطط والحيف.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣
أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤
شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ

[١] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٤٢ ــ١٤٣)

فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥)

يبين الله تبارك وتعالى حكم فريضة الصوم في قوله عَزَّ وجل (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) فابتدأت الآية العظيمة بمخاطبة المؤمنين بصيغة النداء، الذي يدل على أهمية ما نُودِيَ له، وفيها المخاطبة من الله تعالى للمسلمين بخصيصة الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) وهي الرتبة العظيمة، فكأنه يا من آمنتم بما جاءكم.

وكم هو عظيم أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان العالية. ثم يأتي بعد النداء البيان بما كُتِبَ وفُرِض وأُثبِتَ عليهم من الصيام. وجاء البيان بنفس الصياغ في آية القصاص وفي آية الوصية، قال تعالى (كُتِب عليكم القصاص) وقال تعالى (كُتِبَ إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) وكذلك آية فريضة الصوم (يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام) أي فُرِض وأُثبِتَ عليكم. وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية الكريمة. وهذا دليل على أهمية ما أمر، وما أوصى به الله تعالى. إذ أن في لفظة (كُتِب) ما يفيد صيغة الوجوب، وأنه فُرِض وأُثبِتَ.

ويبين الله تعالى أن فريضة الصوم، أيضاً فُرِضت على من كان قبلكم (كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم) وفي هذا الإخبار والإعلام ما يُحفز المسلم على مسابقة من قبله بالتطبيق، وكذلك أنه لم يكن خاصاً بكم، بل هو فريضة تعبدية عليكم وعلى من كان قبلكم. ولينقطع ما قد يُظَن أنه عقوبة، ولينتفي من النفوس ثقل وتعب الصوم، فهو يزيد التقوى، ويقويها، بل ويحصل به رفيع الدرجات (لعلكم تتقون) وهذا من لطف الله تعالى بعباده، أن بين لهم سنته في خلقه من هذه الفريضة، وما تُحققه من فائدة عظيمة، وهي حصول التقوى. مما يفيد أن الصوم يبني في المسلم تقوى الله تعالى، لأن الصائم يترك طعامه وشرابه لله تعالى، فيجزيه تبارك وتعالى بما يحقق له التقوى، بهذه العبادة العظيمة. ولا شك أن الصوم وجاء ووقاية لمسالك الشيطان الرجيم، وفيه من الفوائد النفسية والأخلاقية والصحية الشيء الكبير والكثير، وفيه من الأجر الشيء العظيم الذي توافرت فيه الأحاديث النبوية الكثيرة.

ومن التخفيف الرباني على النفوس أن بين مدته، في صيغة تفيد القلة (أياماً معدودات) فليس بأيام كثيرة، بل قليلة معدودة، فهذه من رحمة اللطيف الرحمن في تلطفه بعباده المؤمنين لمضمون بيان فريضة الصوم. مما يفيد أهمية الرحمة واللطف والتلطف عند توجيه العباد بعضهم لبعض، أثناء التربية

والدعوة والنصح، وكذا أثناء التعامل مع الغير في كل جوانب الحياة، كمجال العمل والمهنة، ومجالات التعاون بين أفراد المجتمع، وفي كل حال ما لم يقتضي الأمر خلافه، لعلة توجب الزجر.

ثم تتوالى رحمة الله تعالى برفع الحرج عن المريض والمسافر (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر) وهذا من دقة فرضية العبادات في الإسلام، أنها راعت ما يمكن أن يمنع أداء الفريضة، فبينت ما يرفع الحرج، فقد تَفَوّق فيها الجانب الاحترازي الذي لا يدع مجالاً للشك من أن هذا لا يمكن أن يصدر بهذه الدقة من عند غير الله تعالى، الحكيم العليم الرحيم. ثم تتناول الآية الكريمة نوعاً آخر من أحوال الصائمين، قال تعالى (وعلى الذين يُطيقونه فدية طعام مسكين) وهم الذين يُطِيقونه ويقدرون على صيامه، ولكن يَشُق عليهم الصيام، لأي سبب من الأسباب، فلهم أن يفطروا ويطعمون عن كل يوم مسكيناً. وهذا في ابتداء فريضة الصوم، ثم نُسخت هذه الإباحة على ما سيأتي بإذن الله تعالى. ثم رجح الله تبارك وتعالى لهم أفضلية الصوم على الإفطار، ليندفعوا للصيام أكثر من اندفاعهم للفطر والإطعام. (فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) وفي قوله تعالى (فمن تطوع خيراً فهو خير له) أي: إن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل وغيرهم من السلف[1] وهذا يفيد مراعات هذه الشريعة للطبيعة البشرية في التوجيه، وأخذها بالتدرج، مع التحفيز والتشجيع للأفضل والأكمل، مما يفيد أهمية مراعاة أحوال الناس عند التوجيه في الجانب التربوي والأداء المهني، والأخذ في الاعتبار اختلاف القدرات بين الناس، والاحتياط لها، مع عدم إهمال من قدرته أقل من الآخرين، بل يتم العناية بهم، ووضع ما يتناسب معهم، ثم تحفيزهم وترغيبهم في الارتقاء بأنفسهم نحو الأكمل والأحسن. فإذا كان هذا الاحتراز من الله تعالى فيما يخص العبادات، والتعامل مع عباده بالرفق والتشجيع والترغيب نحو الكمال، فمن باب أولى أن يكون ذلك بين العباد فيما بينهم.

وفي قوله تعالى (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) فيه لفت انتباه العباد إلى ما حصل عندهم من العلم بالإذن لمن يطيقه ولكن يشق عليه، وما يلزم أن يقوم به من إطعام مسكين أو أكثر، ومشجعاً له على الصيام، لأنه الأخير والأفضل (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) فجعل العلم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٢٠)

مرتكزاً للأخذ بالأفضل بعد أن علمتم بالمفاضلة (إن كنتم تعلمون) مما يفيد التخيير مع التشجيع والتحفيز نحو الأكمل، وهذا أسلوب غاية في الإبداع التوجيهي. فنحمد الله تعالى أن علمنا في طريقة تشريعه ما يمكن أن نستفيد منه في حياتنا بالقياس عليه. فيأتي هنا دور المسلم في الإفادة من طرائق التوجيه الرباني في القرآن الكريم دعوياً وتربوياً وأسرياً ومهنياً واجتماعياً وإدارياً.

ثم يأتي تمام الآية في فرضية الصيام بأسلوب المدح، حيث وقد استهلت بالمدح والثناء على شهر رمضان (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن. هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وفي هذا ما يبين للمؤمن منزلة هذا الشهر ومكانته عند الله تعالى، مما يوجب للمؤمن العناية بهذا الشهر واستشعار مكانته ومنزلته، وفي هذا ما يشجع المؤمنين على ما سيأتي من نسخ إباحة الإفطار لغير المسافر والمريض. ويتعلم المسلم من هذا السياق القرآني الكريم أسلوب بيان أهمية الشيء وفضله من خلال الاستهلال به في بادئ الأمر، ليكون محفزاً للأخذ به، وإدراك أهميته، والاشتغال به عن قناعة. وتفيد وتبين الآية الكريمة فضل القرآن ومنزلته إذ كان هو وسيلة المدح لشهر رمضان، الذي هو شهر الصوم. كما أن فيه بيان من أن القرآن نزل إلى السماء الدنيا في شهر رمضان، وتحديداً في ليلة القدر، كما قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما روي من غير وجه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[١]

وكذلك امتدح الله تبارك وتعالى القرآن في هذه الآية بأن وصفه بالهُدَى (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن. هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) فهو هدى للناس جميعاً، للكافر وللمسلم، فللكافر حتى يهتدي به لدين الله تعالى، لما فيه من البينات الدالة والهادية إلى لله تعالى. وهدى للمسلم لأن فيه بيان لِمَا يُرِيدُه الله تعالى منه، وما نهاه عنه، فبين له ما يحبه الله تعالى وما يبغضه ولا يرضاه، ففيه الأمر والنهي. وكذلك امتدح الله تعالى القرآن بما اتصف به من البينات، فقال تعالى (وبينات من الهدى والفرقان) فتضمن دلائل وحجج بَيِّنِةٍ واضحةٍ جليةٍ لمن قرأها وتدبرها. فهي دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.[٢] وهذا يفيد أن من أراد الهدى فعليه بالقرآن الكريم، ومن أراد أن يتعلم أو يعرف

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٢/١)

(٢) المرجع السابق.

الحجج والبراهين فعليه بالقرآن الكريم، ومن أراد أن يبين الحق للناس فعليه بالقرآن العظيم، ومن أراد العلم وأصوله فعليه بتعلم القرآن الكريم، ومن أراد الفقه والتوحيد فعليه بالقرآن، ومن أراد معرفة الفوارق والأضداد بين الحق والباطل فعليه بالقرآن الكريم. فهو الخير والنور الذي يستنير به السائر إلى مراد الله تعالى. وكذلك تفيد هذه الخصوصية بين شهر رمضان ونزول القرآن الكريم فيه، فضيلة قراءة القرآن في شهر رمضان.

وبعد بيان ميزة شهر رمضان ونزول القرآن الكريم فيه، يقول الله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فأمر من شهد استهلال الشهر فليصمه، لتنسخ هذه الآية الإباحة المتقدمة، لمن كان صحيحاً مقيماً من أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم في الآية السابقة[١] ثم استثنى تبارك وتعالى المسافر والمريض (ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدة من أيام أُخر) وهذا من كرمه ولطفه سبحانه وتعالى كما تم بيانه في الآية السابقة، وتكراره هنا يدل على تثبيته بعد النسخ، حتى لا يتوهم أنه منسوخ مع غيره ممن يستطيع الصوم بمشقة، وله الخيار بين الصوم أو الإفطار والإطعام. كما سبق بيانه. ثم يبين الله تعالى علة إعفاء المريض والمسافر من الصوم، وتأجيله لأيام أخرى، حيث يقول تبارك وتعالى (يُريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فهذا من رحمته وعنايته، إذ مَكَّن المريض والمسافر من التأجيل، بما يفيد ويبين أن الله تعالى ما أراد بهذه الفريضة الكريمة ولا بغيرها التشديد والعسر بالمسلمين، بل يَسَّرَ لهم الأمر الذي يوصلهم لتحقيق طاعة الله تعالى، وأراد بهذا الصوم أن تحصل لهم التقوى التي فاز من تَحَصَّلَ عليها، حيث بين ذلك تبارك وتعالى في الآية السابقة بقوله (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وهناك تفصيل فقهي في القضاء وأحوال المريض والمسافر، ومدة السفر ومسافته، وعلى من يجب الصيام وغيرها من مسائل الفقه، يراجعها من أرادها في مضانها من كتب التفسير والفقه.

ثم قال تعالى في حق المريض والمسافر (ولتكملوا العدة) فبين الله تعالى أنه أراد منهم قضاء ما أفطروا حتى يكملوا عدة أيام الشهر (ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدة من أيام أُخر يُريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة) ثم أرشدهم تبارك وتعالى إلى التكبير الذي يعبر عن الشكر والامتنان لله تعالى أن هداهم لهذه العبادة ووفقهم لأدائها. (ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم

(١) المرجع السابق

تشكرون) وفي هذا حثٌ وحضٌ على التكبير في آخر رمضان، في قول جمهور أهل التفسير. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حقٌ على المسلمين إذا رأوا هلال شوال أن يُكبروا. وروي عنه كذلك: يُكبر المرء من رؤية الهلال إلى انقضاء الخطبة.(١) فدل هذا على أن الصوم نعمة تستحق الشكر من العبد لله تعالى، بل كل عبادة نعمة جليلة عظيمة من نعم الله تعالى، تستحق الشكر الْمُستهل بالتكبير، الذي يعتبر أيضاً شعيرة من شعائر الذكر والشكر لله تعالى.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ١٨٦)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الإجابة على سؤال من سأل عن قُرْبِ الله تعالى وبُعْدِه، وقد سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) إنها آية عظيمةٌ، وسؤال صادقٌ، قد التمس صاحبه العلمَ والمعرفة بِقُرْبِ وبُعْدِ ربه تبارك وتعالى، فكان التوقف من النبي الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، وجواب عظيم من رب رحيم. فالله تعالى قريب من عباده يسمعهم، بل يسمع سرهم ونجواهم، ويعلم حالهم وتقلبهم، فلا يغيب عنه تبارك وتعالى شيء من أمر خلقه. فَقُرْبُ الله تعالى من خلقه قُرْبٌ يليق بعظمته وجلاله، ليس كقرب مخلوقاته فيما بينها، وليست قدرته تبارك وتعالى كقدرتهم، بل هو خالق قدرتهم. وهذه الآية تُفيد العلم بأن الله تعالى قريب بمعرفته وعلمه وقدرته، قال تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقال صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس اربعوا على نفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إنما تدعون سميعاً بصيراً. إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)(٢) وقد كان هذ البيان من النبي صلى الله عليه وسلم لمن كان معه في غزوة من الغزوات، حيث كانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير. فبين لهم أنه أقرب للعبد من نفسه بنفسه. فلو فكر العبد في أمر ليتخذ فيه قراراً لنفسه، لربما أخذ منه وقتاً، وإذا أراد الله أن يوفق العبد فيما فكر فيه ألهمه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٠٤)

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٥/١٧)

الصواب قبل أن يمحص العبدُ فيه بفكره، فتنشرح نفسه وتنجذب إليه رغبته، فيتخذ القرار. فكان الله جَلَّ جلاله بقدرته أقرب من قدرة العبد لنفسه.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة العظيمة أهمية الأدب مع الله تعالى في الطلب والمناجاة والدعاء والاستغاثة، وغيرها فيما يتعلق بمخاطبة العبد لربه، وأن تكون من مُوقِنٍ بأن الله قريب يسمع نجواه وشكواه، وحاجته ومطالبه. فلا يرفع بها صوته. ومن الفوائد أن الله تعالى يُجيب الدعاء، كما قال سبحانه وتعالى (أُجيب دعوة الداع إذا دعان) فليدعو المسلم وهو موقن بالإجابة. ويعلم أن الله تبارك وتعالى أعلم به وبأنسب الأوقات لإعطائه مسألته. ليدفع عنه بها شراً، ويجلب له بها خيراً. فليستجيب المسلم لأوامر الله تعالى بالتطبيق، ويستجيب للنواهي بالترك والبعد عنها، وليستجيب للمستحبات بالاجتهاد فيها. وليؤمن الإيمان الذي يجعله من الراشدين (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) والرشد ضد الغي، والرشد وضع الشيء موضعه، والرشد تقديم الآخرة على الدنيا، والرشد هو معرفة الطريق الصحيح والسير فيه، ومعرفة الطريق الخاطئ والبعد عنه. ويستفاد من هذا التوجيه الرباني (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) أن كمال الرشد يتحقق بالاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بالله وبما أمر أن يؤمن به المؤمن.

(أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧

ثم يعود السياق القرآني الكريم لشعيرة الصوم بعد فاصل الإجابة عن سؤال من سأل عن قُرْب الله تعالى من عباده. ومن فوائد هذا الفاصل بين آيات الصيام، ليشتد الانتباه إليه، وحدوث التشويق لما بعده من الآيات الكريمات المتضمنة لرحمة الله الرحمن الرحيم بعباده الصائمين، بتمديد زمن مباشرة الرجل لأهله والأكل والشرب في رمضان. بعد أن كانت الرخصة في أول فريضة الصوم من الإفطار إلى صلاة العشاء، أو حصول النوم قبل العشاء، فمتى نام أو صلى العشاء أمسك وحَرُم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، أي التي بعدها. فوجدوا مشقة كبيرة[١] فمدد الله لهم، كما قال تعالى (أُحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهو الجماع. وبالتالي كل ما هو دونه مباح، لأن بيان إباحة الأعلى دليل على أنه يشمل الأدنى، ثم يبين الله تعالى ميزة العلاقة بين الزوج وزوجته (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) فهن سكن لكم وأنتم سكن لهن. فالذي وضع هذه الخاصية بين الزوجين هو الله تبارك وتعالى. وهذا يفيد أن نعمة السكون النفسي نعمة متبادلة بين الطرفين. ليس لأحد فضل على أحد فيها، بل هما متساويان في تقديمها للآخر. ولفظة (لباس) تفيد الستر والتغطية والقرب والمباشرة، لأن اللباس هو الذي يباشر الجسم، فهذه المعاني إذا نظر إليها الإنسان واتعظ بها، فإن الزواجان يكونان لبعضها بمثابة تلك المعاني، تحقيقاً وتلمساً، لتكون واقعاً في الحياة.

ثم يكشف الله تعالى عن علمه بتلك المشقة التي أخذت المسلمين من قصر زمن الإفطار، وأنهم كانوا يخونون أنفسهم، لما قد يحصل من المباشرة أو الأكل. فلذلك رفع عنهم الحرج، كما قال تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) وهذا من رحمته وجوده تبارك وتعالى. وفي قوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) ما يفيد علم الله تعالى بما يحصل من الإنسان، وفي كونه في صيغة الجمع، ما يرفع الحرج عمن جاء يشكو للنبي صلى الله عليه وسلم من أكله أو شربه أو وطئه، فيظن بهذا السياق أنه قد حصل من غيره مثل ما حصل منه. مما يُفيد أهمية الستر عند

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٦/١)

التوجيه والتصحيح للأخطاء. كما كان منهجه صلى الله عليه وسلم حين يوجه فيعمم، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟)[١]

ثم يتبين لطف الله تعالى في عفوه (فتاب عليكم وعفا عنكم) فلم يتب عليكم فقط، بل عفا عما حصل، وكأنه لم يحصل شيء. فسبحان الله التواب الرحيم. ثم يأتي الإذن المباشر (فالآن باشروهن) ثم يُلحق هذه المباشرة بالهدف من تلك المباشرة (وابتغوا ما كتب الله لكم) وهو الولد، اطلبوا الذرية بهذه المباشرة. وهو تنبيه على الهدف مما يبتغيه الزوجان من المتعة. فالحمد لله المتفضل على عباده بهذه النعم، من تسخير وتيسير وتسهيل وتعليم. وللفائدة: فإن الولد يُطلق على الذكور والإناث.

ثم يأتي المزيد من البيان وإزالة كل الاحتمالات، من أن الرخصة شاملة حتى للطعام والشراب (وكلوا واشربوا) ثم بين المدة التي تنتهي بها الرخصة (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) أي حتى يتبين بياض النهار من سواد الليل من وقت الفجر. وهذا من دقة بيان القرآن الكريم في تعيين بداية الصوم ليبقى ثابتاً لا يتغير، وهو الفجر، والفجر يُعرف باستبانة بياض النهار من سواد الليل. ثم يبدأ الصيام إلى دخول الليل وهو غروب الشمس (ثم أتموا الصيام إلى الليل)

ثم يليه التنبيه فيما هو محظور على المعتكف من الجماع، إذ أنه تلبس بعبادة جليلة عظيمة اختيارية، وهي الاعتكاف (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) وهذا من باب استثناء المعتكفين من المباشرة من بين الصائمين ليلاً. فليس للمعتكف الوطء نهارا ولا ليلاً. فالمنع ليلاً باعتبار الاعتكاف، ونهاراً باعتبار الصيام، ثم الاعتكاف.

ولاعتكاف هو لزوم المسجد طاعة لله تعالى. ثم يقول تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها) فهذه الأحكام حدودٌ حدَّها الله تعالى فلا تخالفوها. وكلمة (تلك) إشارة لهذه الأوامر والنواهي. و(الحدود) الحواجز، وسميت حدود الله تعالى لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو فيها، ومنها سُميت الحدود في المعاصي، لأنها تمنع أصحابها من العودة إلى أمثالها.[٢] ويُستفاد من ذلك أهمية

---

(١) أبو داود (١٤٣/٥) برقم (٤٧٨٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٥/٢)

تعظيم حدود الله في الأنفس، وأهمية تربية النشأ على ذلك، حتى يعتادوا التعظيم لها. وأهمية انقياد النفس على لوقوف عند حدود الله تعالى، وعدم مجاوزتها.

ولفظة (لا تقربوها) توحي وتُفيد بأن لا تصلوا إليها، فتتعدوها وتقتحموها، وإن كان المعنى لا تتخطوها، ولكن في النهي عنها بلفظة الاقتراب دليل البعد عن كل ما يوصل لتخطيها بالمخالفة.

ويُستفاد من ذلك أن يعتبر المسلم هذه الآية قوة يتصدى بها لكل هوى وكل زيغ، فإذا داهمته معصية، قال لنفسه (تلك حدود الله فلا تقربوها) وإذا استهوته النفس لمخالفة أمر، تصدى لها بقوله (تلك حدود الله فلا تقربوها) وإذا زين له الشيطان اقتراف حد من حدود الله تعالى، استقوى بقوله تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها) فإنها قوة للمؤمن إذا استحضر دلالتها في حياته.

ثم تُختم الآية بقوله تعالى (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) فكما بين الله تعالى هذه الحدود، كذلك بين جميع الأحكام المتعلقة بها، حتى لا يتجاوزوها الْمُخَاطَبُون بها، وحتى يعرفوا كيف يهتدون، وكيف يُطيعون ولا يتجاوزون حدود الله تبارك وتعالى. فلعلهم بالتزام أوامر الله وتعالى ونواهيه تحصل لهم التقوى. وهذا يُفيد أن من يتقي الله تعالى في حدوده يرزقه الله التقوى، ولا شك أنه سيزداد بها خيراً عظيماً.

(وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨)

يبدأ السياق في هذه الآية بالنهي (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) فيأتي النهي عن أخذ الأموال وتبادلها وتناقلها بالباطل، الذي هو خلاف الحق، فجاء التعبير عن صيغة تداول الأموال بهذه الحالة الفاسدة بالأَكل (ولا تأكلوا أموالكم) فأَخْذُهَا قد يُصْرَف في الأَكل أو في غير الأَكل، ولكن جعل الله تعالى أخذها بهذه الحالة الفاسدة، بمثابة الاستطعام أو الأَكل المحرم الذي يُدخله الإنسان في جوفه، وهي أَكثر شناعة في الوصف، فأخذها وصرفها على أي وجه كان، هو أَكل لها بالباطل، وتصويرها بالأَكل، هو تشنيعٌ لها، ودليل على رفض النفس المحترمة لأساليب الباطل. ولفظة (بينكم) تفيد عملية التداول للأموال بأي صورة فاسدة. ولفظة (بالباطل) تفيد جميع الأنواع المحرمة، لأنها باطل. كالخداع والقمار والرشاوي والربا، وأخذ الأجرة بدون استيفاء العمل، أو منع كامل الأجرة لمن استوفى العمل. فالأوجه لأعمال الباطل لا حصر لها. ولكن لفظة واحدة استوعبت أنواع الباطل، وهي نهيه تعالى

عن أكل الأموال (بالباطل) فاستوعبت هذه اللفظة جميع أنواع المعاملات التي تحمل ما حرم الله تعالى من البيوع والتداولات والمعاملات المحرمة. وهذا من عظيم البيان والبلاغة القرآنية الكريمة.

وفي هذا تقعيد قاعدة جامعة مانعة، دون تحديد وتعيين لمسميات أنواع الباطل، أو لطريقة تداول المال المحرم، حتى تستوعب ما كان من أنواع، وما قد يستجد من الأنواع أو الطرق. ولا شك أن في ذلك قيمة أخلاقية وفقهية عالية في مساحة استيعابها لمستجدات الباطل، ولطرائقه. مما يدل على الإعجاز الفقهي والإعجاز الفكري، والإعجاز الأخلاقي في هذه الشريعة الغراء، وإثبات الإعجاز القرآني في أوجه متعددة، والتي منها الاستيعاب لجميع الأنواع، ولما قد يستجد من الصور والأنواع. فهي قاعدة توجيهية عظيمة جليلة من الله جَلَّ جلاله. كما أن في هذا النهي الذي يفيد التحريم بيانٌ من أن مقاصد الدين قاطعة لشر الفساد الاجتماعي، وما يؤدي إلى التباغض، أو استغلال الحاجات.

ثم يقول الله تعالى (وتُدْلُوا بها إلى الحكام) وهذا بيان نوع من أكل الأموال بالباطل، عن طريق الدفع بالأموال للحكام، بالرشوة والحيلة من أجل الحصول على مال الغير بالباطل (وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) وفي هذا تنويه وبيان لما قد يحصل من الإنسان ظلماً وزوراً في حق الغير، من أجل أكل ماله بالباطل، وهو يعلم أنه غير محق، فيأكله إثماً. مما يفيد أن الشريعة لم تَعْمُد في ضبط تداول المال أو أخذه بناء على حكم الحاكم، الذي ربما غُيِّبَت عنه بعض الأدلة، فيحكم للظالم على المظلوم، بل عمدت إلى أعظم من ذلك، وهو محاسبة النفس، من خلال تخويفها من الإثم والعقوبة من الله تعالى.

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الإجابة عن سؤال تم طرحه على النبي صلى الله عليه وسلم، حول الأهلة، وهو ظهور الهلال صغيراً ثم يَكْبُر شيئاً فشيئاً حتى يكتمل، فيصبح بدراً، ثم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى، ثم تتكرر هذه الحالة على رأس ثلاثين أو تسع وعشرين يوماً. فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن الأهلة) مما يبين أن من فوائد نزول القرآن منجماً، أن فيه إجابات عن الكثير من الأسئلة التي يتم طرحها على النبي صلى الله عليه وسلم، فتأتي الإجابة عليها.

وفي الإجابة يقول الله تعالى (قل هي مواقيت للناس والحج) ولفظة (مواقيت) تحمل منافع عديدة كثيرة، وللناس جميعاً، مسلمهم وكافرهم، لأنهم يشتركون في الانتفاع بمواقيت الأهلة، ويزيد عليهم أهل الإسلام بمواقيت العبادات. فهي مواقيت للعبادة كالصوم، والزكاة، وللعقود، وللديون، وللمواعيد، ولِمَا يتفق عليه الناس من زمن ووقت في شؤنهم، ومما لا يُحْصَى من أغراضهم. وهذه فائدة عظيمة في جملة واحدة. كما أن لفظة (مواقيت) استوعبت الآجال والازمان، واستوعبت ما يتفق عليه الناس فيما بينهم، من حلول سداد الديون، والمواعيد المتنوعة في أغراضها، وكذلك مواقيت العبادات. واستوعبت لفظة (الناس) جميع العباد، مسلمهم وكافرهم. وهذه من منافع الله تعالى العامة. فليتأمل الإنسان هذه الصياغة القرآنية الكريمة، وما فيها من الدقة اللفظية، والغزارة البيانية والبلاغية العظيمة.

ثم خص الله تعالى من بين منافع المواقيت وقت (الحج) وفي هذا إبراز وإظهار له كمثال للعبادات المرتبطة بالأهلة. وكذلك لارتباط الحج بما بعده من توجيه، حيث صحح الله تبارك وتعالى اعتقاداً تعبدياً خاطئاً، عند من أحرم بالحج في الجاهلية، فنبه الله تبارك وتعالى له بصيغة النفي ابتداء، قال تعالى (وليس البرُ بأن تأتوا البُيُوت من ظهورها) وقد كان الأنصار إذا أحرم أحدهم بالحج أو العمرة في الجاهلية، وخرج من بيته، ثم أراد أن يعود للبيت في حاجة، فلا يدخله من الباب، بل يتسور الجدار، فيدخل من ظهر البيت، لألا يحول بينهم وبين السماء حائل[1] لأن للباب عارضة يمر من تحتها الداخل للمنزل. ويرون في عدم المرور من تحت عارضة الباب براً وطاعة لله تعالى. فأبطل الرحمن الرحيم هذه العادة، أو الاعتقاد بأسلوب نفي البر عن هذا المسلك، فبدأ بإزالة الجهل المركب، ليحل محله العلم الْمُشَرَّع (ولكن البر من اتقى) فبين سبحانه وتعالى أن البر هو تقوى الله تعالى. وفي هذا بيان بطلان البدع، وإن كانت بنية تعبدية، وإثبات أن البدعة ليست من الطاعة ولا من البر، وأن البر في تقوى الله تعالى، بالتزام ما أمر، ووفق ما شرع، بلا زيادة ولا إنقاص، وعدم الحيدة عنها. ثم قال تعالى آمراً بالصواب (وأتوا البُيُوت من أبوابها) وهذا يفيد أيضاً أن منهج الإسلام منهج أخلاقي رفيع، وكذلك ليس مبني على العسر ولتعنت، بل سمحاً بلا تعنت ولا تشدد.

وبالتالي تظهر هنا علة وسبب ذكر الحج من بين العبادات في هذه الآية، حيث ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أنه اتصل هذا بذكر مواقيت الحج، أي دخول البُيُوت من ظهورها. لاتفاق وقوع

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣٠)

القضيتين في وقت السؤال عن الأهلة، وعن دخول البُيُوت من ظهورها.[١] ثم يأمر الله تعالى في تمام الآية الكريمة بالتقوى المؤدية للفلاح (واتقوا الله لعلكم تُفلحون) مما يفيد أن تقوى الله تعالى تسير بصاحبها للفلاح والنجاح والنجاة. مما يدفع بالمسلم إلى تربية النفس والغير على التقوى، فإنها ضابطة للسلوك في السر والعلن.

ويستفاد من منهجية الترتيب في الآية الكريمة أهمية التدرج في المعالجة، حيث بدأت الآية الكريمة بإزالة الجهل المركب أولاً (وليس البرُ بأن تأتوا البُيُوت من ظهورها) ثم الإعلام بالعلم الصحيح، الموجب للاتباع والأخذ به (ولكن البر من اتقى) ثم يأتي تصحيح السلوك بعد أن تم تصحيح الفكر والفهم للبر (وأتوا البُيُوت من أبوابها) ثم تأتي بعد ذلك الموعظة الدافعة للتغيير والعمل بمقتضى الأمر (واتقوا الله لعلكم تُفلحون) وبهذا قد أعطت الآية الكريمة منهجية علمية تربوية دقيقة في المعالجة والتصحيح والتعليم.

(وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥)

يتوجه الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، حيث جاء بصيغة الجمع والأمر (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) فيوجه الله تعالى في أول آية نزلت في الإذن بالقتال بالتزام أمرين: أولهما: مقاتلة من يقاتلون المسلمين. والثاني عدم الاعتداء. ومن فوائد دلالة هذه الآية، تحديد هدف القتال، بأن يكون في سبيل الله تعالى، فينتفي بذلك كل قتال ليس في سبيل الله تعالى، وبالتالي فإن المجاهد هو من جاهد في سبيل الله تعالى، وأن الشهيد هو من قُتِل في سبيل الله تعالى. ثم اشتملت الآية الكريمة على مقاتلة من يقاتل المسلمين، ثم بينت أخلاق القتال في كلمة واحدة (ولا تعتدوا) وذكر العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه يدخل في

(١) المرجع السابق

ذلك الْمُثلَة، والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة[١] وهذا يبين أن الإسلام دين أخلاق وسلام ورحمة، لا دين انتقام وقتل وإيذاء. فيحفظ للناس أمنهم وقوتهم. وأن من مقاصده القتالية دفع الشر وتحقيق النفع، وعدم الاعتداء بمجاوزة الحد حتى في الحرب. بل تُخْتم الآية الكريمة بقوله تعالى (إن الله لا يُحب المعتدين) فلا يُحب الله تعالى الاعتداء ومجاوزة الحد، وبالتالي لا يُحب الذين يفعلون ما لا يُحب من الاعتداء. مما يُفيد الحذر من الاعتداء، وضبط النفس، وأنه يجب أن يعمل المسلم وفق مراد الله تعالى ليتحقق الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى.

وبعد أن أذن الله تعالى بقتال الذين يُقاتِلون المؤمنين، أَذِنَ أيضاً بقتال مشركي مكة بصيغة الأمر، بل ويأذن بقتالهم حيث تمكن المسلمون منهم (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) وكذلك (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي فأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه، وهي مكة المكرمة، حيث أُخْرِجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين منها، وتركوا أموالهم ومتاعهم فراراً بدينهم من بطش وأذى المشركين. فكان التوجيه الرباني عدلاً مع العدو، فكما آذوكم واضطهدوكم وأخرجوكم، فاقتلوهم وأخرجوهم من مكة. مما يفيد عدل الإسلام في تعامله. ثم يبين تبارك وتعالى حقيقة دينية، فيقول تبارك وتعالى (والفتنة أشد من القتل) ففتنة الدين أشد خطراً وجرماً من قتلهم. وبالتالي فإن فتنتهم للمؤمنين لإرغامهم على الكفر أشد من قتل المؤمنين لهم، وذلك لما كان منهم من التعذيب والاضطهاد، والحرب الحسية والمعنوية والنفسية بالنعوت الخسيسة، كرمي النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر والكهانة والشعر، وكذلك بالأذى الحسي. مما يفيد أن الفتنة في الدين من أعظم المصائب والجرائم، وكذلك عِظَم وخطورة من يُفْتِن الناس عن دين الله تعالى، مما يُوجب الحذر من فتنة الدين ومن أساليبها وصورها وأشكالها، أو نقلها لبلاد المسلمين من خلال الكلمة والصورة، أو غير ذلك من الأساليب.

ويأتي البيان القرآني من خلال المقارنة بين خطورة وضرر القتل، وخطورة وضرر فتنة المؤمن عن دينه (والفتنة أشد من القتل) مما يفيد أهمية كشف وإزالة ما يمكن أن يكون من فكر ومفاهيم، قد تعوق عملية الجهاد، أو تعوق تحقيق الهدف. وبالتالي أهمية تهيئة النفس لصولة الحق. وأهمية نُصرة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٣٣)

المؤمن الذي يُفتن في دينه. كما يفيد هذا في عموم المجالات الدعوية والتربوية والإدارية وغيرها، بإزالة العوائق الفكرية، من خلال المقارنة بين المصالح والمفاسد، وتحرير المسار الصحيح والاختيار الحكيم.

ثم يُبين الله تعالى حُرمة مكة المكرمة (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يُقاتلوكم فيه. فإن قاتلوكم فاقتلوهم) وهذا دليل على قدسية بيت الله الحرام، مما يوجب إجلال البيت وتعظيمه في النفوس وفي الأفعال، والتحلي بكل أصناف الأدب والاحترام والإجلال. بل جاء النهي القاطعُ إلا إذا بدأوكم فاقتلوهم. وهكذا كان فتح مكة إذ لم يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم القتال، فحقق الله له فتح مكة دون قتال. وهذا هو جزاء الكافرين، كما قال تعالى (كذلك جزاء الكافرين) ثم يبين الله تعالى ما قد يمكن أن يحصل، وما يلزم اتخاذه (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) فإن انتهوا عن الشرك ودخلوا في الإسلام، فإن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم. وهذا يفيد أن الله تبارك وتعالى يَجُبُّ بالإسلام ما قبله، وأن الهدف ليس هو الانتصار بالقهر والتشفي منهم، بل بتحقيق الهدف، وهو دخولهم في الإسلام.

ويبين الله تعالى علة قتالهم (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة. ويكونَ الدين لله) فالهدف من قتالهم، حتى لا يَفْتِنُوا الناس عن دينهم، ولا يبقى في مكة مُضطهد، فَيُفْتَنَ في دينه، وليكون الدين في مكة لله وحده لا شريك له. فَيُجْتَثَ الشرك من أساسه، ولا يبقى إلا دين الله تبارك وتعالى. وإن انتهوا عن شركهم وكفرهم وأسلموا، فإن القاعدة هي (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)

ويظهر من سياق ما سبق العدل وعدم الظلم، وتحقيق الهدف، والمعاملة بالمثل، وأن الإسلام يُغَلِّب الإيمان على جميع الضغائن والعداوة، ويمنع به كل أسباب العداوة، ويحقن به الدماء، مهما كان منها قبل الإسلام. فلم يأمر المسلمين بالاقتصاص والتنكيل بهم إذا أسلموا، بل قال تعالى (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم)

ويقول الله تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام. والحرمات قصاص.) وتفيد هذه الآية المعاملة بالمثل، لصد كل اعتداء، فمن اعتدى وقاتل في الأشهر الحرم: شهر ذو القعدة وشهر الحج وشهر الله المحرم ورجب فقاتلوهم. فمن تجرء على ما حرم الله فإنه يُقْتَص منه، أي المعاملة بالمثل (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وهذا يفيد عناية واحترام الإسلام لما حرم الله تعالى، ولكن لا بد من المدافعة التي تمنع شر المعتدي، حتى ولو كان اعتداؤهم في شهر حرام، وبالتالي حتى ولو كان في مكان له حرمة، أو متلبس بإحرام. وفي هذا من الفوائد ما يحقق الحق والأمن، وحتى لا يَسْتَغِلُ

الكافرُ ما جعل الإسلامُ له حرمة، فيعتدي ويبغي، أو على مستوى الفرد ممن تلبس بإحرام في حج أو عمرة، فَيَبْغِي بِشَرٍ أو ظُلْمٍ، مما يستوجب عقابه وردعه. وهذه نزلت في عام الحديبية ولها تفاصيل ذكرها أهل التفسير(١)

ولما أن النفوس قد لا تقف على حدها إذا رُخِّصَ لها في المعاقبة، لتطلب التشفي، أمر تعالى بلزوم التقوى التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزه(٢) قال تعالى (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) فأمر بالتقوى، وأخبر أنه مع من يتقيه، وهذا يفيد أن من أراد أن يكون الله تعالى معه فيلزم التقوى. ليكون له عوناً ونصيرا ومؤيداً وظهيراً. ومعنى هذا بالمقابلة أن من لم يتقي الله تعالى فإن الله تعالى يتخلى عنه، وبالتالي يكون الخذلان معه في كل وقت وحين، وعلى كل حال من أحواله.

ويأمر الله تعالى عباده بالنفقة في سبيله (وأنفقوا في سبيل الله) فتصدقوا يا أهل الْيُسْرِ في طاعة الله تعالى. أي في أوجه الخير المتنوعة، إذ لم يحصرها تبارك وتعالى في جانب محدد، بل جعل التوجيه عاماً في جميع أوجه الخير (في سبيل الله) لتكون قاعدة في الإنفاق في سبيل الله تعالى، ولما أنها في سياق الجهاد، فإنها تحث على النفقة خاصة في الجهاد في سبيل الله تعالى. ونهى عن الإمساك الذي يؤدي لهلكة الْمُمْسِك (ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وتصوير هذا المعنى بهذه الصورة ما يفيد أن إمساك الإنسان للمال عن النفقة في سبيل الله تعالى يؤدي إلى الهلاك، فكأنه قاد نفسه وطرحها في الهلاك بهذا الإمساك. وبالمقابلة فإن الهلاك يُدفع بالإنفاق، بمعنى أن الإنفاق يدفع الهلاك، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع عن ميتة السوء)(٣) لما في النفقة من تقوية الميسور للمعسور، والقوي للضعيف، والغني للفقير، ولما للنفقة كذلك في الجهاد من المصلحة التي تدفع ما يُهلك الميسور وغيره. ولما فيها من رفعة الإسلام ودفع شر البغاة. ثم يأمر تبارك وتعالى بالإحسان (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وهذا التوجيه يتضمن أوجه الإحسان جميعها، بالمال والجاه والكلمة وغيرها من أوجه الإحسان، كما أن المحسن يحصل على

---

(١) انظر، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣٦ _ ٣٧)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٥٣)

(٣) ابن ماجه (٣/٥٢) برقم (٦٦٤)

محبة الله تعالى. وهي مكافأة عظيمة جليلة، أن يحصل الإنسان على محبة الله تعالى، التي تتضمن عنايته وتوفيقه وتسديده لمن أحبه الله تعالى، بل ويُنْزِلُ له محبة في قلوب الخلق.

وقوله تعالى (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) قوة يدفع بها المرء شح النفس، ويندفع بها للخير، فإن تردد في إحسان، عزم على نفسه بقوله (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وإن رامه الشح استقوى عليه بقوله تعالى (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وإن استكثر ما ينفق استقوى بقوله تعالى (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وإن تكاسل عن معروف، استنشط بقوله تعالى (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وإن استأثر بنفسه عاتبها بقوله تعالى (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) فهي قوة للمؤمن يتقوى بها كلما تذكرها في مواطن الإحسان، وفي أوجهه المتعددة. ونسأل الله تعالى التوفيق والعون والسداد، وأن يجعلني وإخواني المسلمين من المحسنين.

(وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ١٩٦)

يبين الله العليم الحكيم للمؤمنين فريضة الحج والعمرة (وأتموا الحج والعمرة لله) فتستهل الآية بالأمر الذي يقتضي وجوب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيها (وأتموا الحج والعمرة لله) مما يؤكد أهمية الأداء والإتمام، ويقتضي الإتمام إتقان الأداء بأحسن ما يكون في أركانه وواجباته ومستحباته، وكذلك يقتضي الإتمام قطع التردد وتقديم العزيمة في الأمر، مما يُكسب المسلم العزيمة والتوكل على الله تعالى في كل خير يُقدم عليه، وأن يقطع دابر التردد الذي يؤدي بالإنسان إلى الفشل، وكذلك إتقان العمل الذي يقوم به، وإتمامه على أحسن ما يكون من جميع الأوجه. وقد قال صلى الله عليه وسلم (إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه)[1] كما تُؤكد الآية الكريمة أمراً مهماً، وهو الإخلاص لله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) فلا تكن لرياء ولا سمعة، ولا لأي هدف آخر، غير الإخلاص لله تعالى وحده لا شريك له. وهذا يفيد أن الإسلام دين الإخلاص، وليس للتباهي والرياء بالعمل. وإذا اعتاد الإنسان على هذا، فإنه يُعَوِّدُهُ ويربي فيه عدم الالتفات إلى دواعي التباهي، بما يقوم به من أعمال دينية ودنيوية، وهذا

---

(١) الألباني السلسلة الضعيفة برقم (٢٦٤٧)

يصرفه عن الكبر الذي يُوَلِّدُ البغضاء والشحناء بين أفراد المجتمع. فالأداء العبادي ينعكس على الأداء العام، وعلى الأخلاق والسلوك الذي يظهر في بقية نشاط وأعمال المسلم.

وتقرر الشريعة الإسلامية ما يمكن أن يحصل للمُحْرِمِ من موانع استكمال النسك في قوله تعالى (فإن أُحصرتم) فتستبق وتستحوط شريعة الله تعالى لمن دخل في النسك، ثم أصابه ما يحبسه عن إتمامه، حيث استثنت له ما يرفع عنه الحرج، من أي مانع وحابس يحبسه، حيث جاء لفظ الحصر هنا عاماً، ليستوعب كل سبب يمنع من إتمام الحج أو العمرة، فبين الله تعالى ما يقع فيه من الحصر دون أن يُفَنِّد نوعه، لتكون المساحة واسعة، لكثرة تنوعه وأسبابه، وهذه من دقة هذا التشريع الرباني. لأن الله عَلِيمٌ خبيرٌ بما قد يطرأ على عباده. وهذا من الإعجازي التشريعي في استيعاب أحكامه لكل ما يمكن أن يدخل في الْحُكم. كما أن في ذلك إعجاز بلاغي، إذ استوعبت لفظة واحدة (أُحْصِرْتُمْ) جميع أنواع الموانع. كما يفيد ذلك تعليمياً: اكتساب منهجية بناء صياغة الأنظمة والتعليمات الْمُنَظِّمة لشؤن أبواب الحياة المختلفة، فيما يتعلق بالمصالح المرسلة.

فعالج سبحانه وتعالى قضية الإحصار بأحسن وأسهل ما يكون، قال تعالى (فإن أُحصرتم فما استيسر من الهدي) بأن يذبح شاة، أو سُبع بدنه، أو سُبع بقرة. ولم يشترط فيها شروطاً، وذلك تيسيراً من الحكيم الرحيم الذي يراعي فيه موقف الحال (فما استيسر من الهدي) فجعل مساحة التيسير هي التي تتحكم في الاختيار، ليرفع الحرج عن صاحب النسك. وهذا يفيد في التنظيم والتوجيه والتخطيط أهمية وضع الاحتمالات، وأخذها في الاعتبار، وأهمية وضع الحلول المناسبة، التي يمكن أن تكون بدائل ممكنة، يراعى فيها واقع الحال المحتملة.

ثم ينبه ويبين تبارك وتعالى الترتيب في التَّحَلُّل من الإحرام، بأن يكون بعد القيام بأداء عملية الهدي (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله) وهذا يدل على أن العبادة في الشريعة الإسلامية وفق منهج منظم من الحكيم العزيز، ويلزم الأخذ بها وفق ما شرع تبارك وتعالى، وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم يبين تبارك وتعالى موانع أخرى، وطوارئ قد تطرأ على من تلبس بالحج أو العمرة (فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) ولأن الله تبارك وتعالى عالم بما يمكن أن يطرأ على عباده من أسباب، قد توجب للعبد مخالفة منهج النسك، فعَلَّمه تبارك وتعالى ماذا يعمل تجاه ذلك. مما يفيد دقة منهج هذه الشريعة التي لا يمكن أن تكون إلا من عليم حكيم سبحانه وتعالى، ولا تزيد المؤمن إلا إيماناً وتصديقاً. فإذا استوجب من به مرض أن يحلق

شعر رأسه، أباح له فعل ذلك، مع الكفارة التي خُيِّر في أنواعها، من صيام أو إطعام أو ذبح. وقد فصلت السنة المباركة ذلك، وبين الفقهاء مزيداً في تفاصيلها الفقهية. ومن فوائد هذه المنهجية التشريعية الربانية: أن أخرجت علماء أفذاذ، قد تفتقت عن عقولهم بفضل الله تعالى من علوم عظيمة، فَحَرّرُوا وحَبَّروا علوماً مبتكرة ما سبق لأمة أن أتت بمثلها، كالقواعد الفقهية، وأصول الفقه، ومصطلح الحديث، وغيرها من المعارف والعلوم التي تولدت لديهم بفضل الله تعالى ثم بفضل منهجية التشريع الرباني.

ثم يبين تبارك وتعالى نسك التمتع، إذا حصل الأمن من العدو وغيره (فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي) وذلك إذا أحرم في أشهر الحج بالعمرة، ثم يتحلل منها، ويتمتع بما يتمتع به المقيم، ثم يُهِلُّ بالحج في وقت الحج، فهذا يلزمه الهدي. وأيضاً راعت الشريعة حال الإنسان والواقع الذي قد يواجهه (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم. تلك عشرة كاملة) فراعت الشريعة واقع الحال الذي يمكن أن يواجه الحاج، فلا يجد ما يذبح أو لا يجد الثمن، فأوجدت له البديل بالصيام على جزئين، حتى لا تُثْقِل عليه ذلك البديل، فثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى بلاده. وهنا يظهر الإعجاز في توخي الاحتمالات، ومراعاة واقع الحال بما يدفع كل عُسر. ولا يمكن أن يكون هذا إلا من رحيم بعباده في تشريعه، وحكيم في المعالجة والمواءمة بين المطلوب والواقع الذي يمكن أن يواجه مَنْ أُمِر بهذا التشريع.

مما يُعَلِّمُ الإنسان المسلم منهجية التنظيم والتخطيط، ويرتقي بفكره، ويفتح ذهنه ويوسع مداركه، ليستوعب الحياة برمتها، ويعرف كيف يُدير ويعالج قضاياه وقضايا الأمة، وكيف يراعي الأحوال والمفاجآت التي قد تُفاجئ الفرد، أو المجتمع، أو البعض، أو الأمة في أمر من الأمور. فمنهج الإسلام يعلم المؤمنين الكثير والكثير من الخير العميم. ثم يبين تبارك وتعالى أن هذا الْحُكْمُ لمن ليس من أهل الحرم (ذلك لمن لم يكن أهله حاضر المسجد الحرام) وذكر العلامة ابن سعدي: أن من كان من أهل المسجد الحرام فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.[1] وللفقهاء تفصيل في ذلك.

ثم يأمر الله تعالى بالتقوى (واتقوا الله) وهذه الجملة المتضمنة للأمر بالتقوى، تفيد أنه يجب على الحاج والمعتمر أن يتقي الله تعالى في هذا النسك، لأنه ليس عليهم رقيب ولا محاسب إلا الله تعالى،

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٥٦/١)

فَيَلْزَم، بل يجب أن يؤدوا الفريضة كما أمر الله تعالى بها. وهذا يفيد أيضاً أهمية التذكير في المجال الدعوي والتعليمي والتربوي بتقوى الله تعالى في كل أمر. وأن تكرار الوصية بالخير أمر مهم، وله أثره وفوائده، حتى في أعمال المهنة، وفي العلاقات بين الناس، وتعاملاتهم، أن تكون التوصية والوصية بالخير حاضرة عند الجميع. ثم ينبه الله تعالى بالمقابل لمن لم يتقه، ويتلاعب، ويتهاون في النسك بالعقاب (واعلموا أن الله شديد العقاب) فَيُفْهَم من هذا، أنه في حال عدم لزوم التقوى، فإن لله تعالى عقاب شديد لمن يتهاون فيما أمر. وبالتالي على المسلم أن يأخذ أمر الله تعالى بجد، ولا يتهاون فيه. وفي هذا الوعيد تحذيرٌ وتخويفٌ من الله تعالى. لأن الخوف من الله تعالى يحقق التقوى بتوفيقه. كما أن التذكير والإعلام بأن الله شديد العقاب يوجب للعبد التقوى، وذلك لما جُبِلَت عليه النفوس من الخوف ومحبة الأمن والسلامة. وهذا يفيد تربوياً أهمية الجمع بين الإرشاد وبيان العواقب لمن لم يأخذ بما أُرْشِد به. كما أن في هذا تربية للفرد بأن يُربي نفسه على تقوى الله تعالى، إذ ليس هناك أحدٌ من فئة البشر يُحاسب الحاج على التقصير في عبادته، بل إن الرقيب والحسيب والْمُعَاقِبُ هو الله تعالى وحده لا شريك له.

(ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ
وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ١٩٧
لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ
ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ
حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ
ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢ ۞وَٱذۡكُرُواْ
ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣)

ثم يبين الله تعالى المزيد عن هذه الشعيرة العظيمة، التي هي ركن من أركان الإسلام، فيقول تعالى (الحج أشهر معلومات) فيبين أن أشهر الحج معلومة عند الْمُخَاطَب. فهي معلومة منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي شهر شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. ويفيد هذا أن ما كان واضحاً معلوماً فلا يلزم إعادة ذكره بالتفنيد. وقد ذكر الإمام القرطبي(١) أن الله تبارك وتعالى لم يذكر العمرة هنا، باعتبار أنها طوال العام، أما الحج فلا يقع إلا في السنة مرة واحدة (الحج أشهر معلومات)

ثم يبين تبارك وتعالى أخلاقيات من دخل في هذا النسك (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) فمن دخل في النسك فقد فرض على نفسه الحج، وألزم نفسه استكمال جميع متعلقاته. فَمَثَلُه كمن دخل في عقد من العقود، فألزم نفسه بجميع بنوده. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي ألزم نفسه بالشروع فيه بالنية باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتلبية نطقاً مسموعاً.

فمن دخل في نسك الحج استوجب عليه أن يلتزم بلوازمه التي منها (فلا رفث) أي الجماع وما دونه. (ولا فسوق) أي جميع المعاصي. (ولا جدال) وهو المماراة التي تحصل بين الناس في أمر من الأمور.(٢)

وهذه المنهيات عنها في الحج تُرَبّي في الحاج القدرة على ضبط النفس، بالامتناع عما نَهَى عنه الشرع، وتُقَوِّي إرادته وعزيمته، وتكشف له قدرته على الامتناع والصبر، وتزيل عنه كل تعليل سابق من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٦٩)

(٢) المرجع السابق (٢/٢٧٢)

أنه لا يقدر على ترك شيء من ذلك، فيكتشف قدراته وتزول أوهامه المحبطة له عما يجب أن يكون عليه، وهي من أهم مراحل تطوير النفس والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق. والتفصيل في فضائل ذلك وعوائده وارتباطه بالفرد والحياة الاجتماعية والأسرية والمهنية لا تكاد تنتهي. ثم ينبه تبارك وتعالى ويُذكّر عباده المؤمنين بما يعرفون عنه من علمه بهم (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) وفي هذا الأسلوب التذكيري المرتبط بما نهى الله تعالى عنه، محفزٌ للمسلم بفعل الخير وعدم التقصير فيه. وأن ما تتركه وتعمل بما يضاده من الخير، فإن الله تعالى يعلمه، ويعلم سيرك فيه، ويعلم ضبطك لنفسك عما نهى، وتحليك بما أمر، فإنه سيكافئك عليه. لأن الله عليم كريم. وكذلك يُستفاد من ذلك أن الله تعالى لم يُحدد نوعاً، أو أنواعاً من الخير، بل أطلقه ليشمل كل خير (وما تفعلوا من خير) حتى يسعى الإنسان في الخير بما يستطيع من أنواعه، وبحسب مقدوره. وهذه من دقائق القرآن الكريم وإعجازاته التوجيهية. فهناك المقتدر بماله، والمقتدر بجسمه، والمقتدر بعلمه، والمقتدر بالذكر، وأنواع لا تُحصى من مجالات الخير التي تتلاءم مع كل حال من أحوال الإنسان.

ثم ينبه الله تعالى عباده من الحجيج بصيغة الأمر، أن يتزودوا مما يحتاجونه من الزاد في سفرهم، (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ذلك أنه كان يأتي بعض الحجيج للحج، وليس معهم شيء من الزاد، على أنه من التوكل على الله تعالى، فأمرهم الله تعالى بالتزود بما يَكُفُّ وجوههم عن الناس.[١] لأنه اشترط للحج الاستطاعة على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وهذا دليل على أن منهج الإسلام منهج عملي، يأمر المسلم أن يأخذ بالأسباب، لأن الله تعالى هو الذي خلق الأسباب ويسرها لخلقه. فيدلهم ويرشدهم تبارك وتعالى إلى أدق ما يحتاجه المسافر في سفره، وهو الزاد، وينبه على النوع الآخر من الزاد وهو (التقوى) ذلك زاد الآخرة الذي يتزود به المسلم لدار معاده. فبعد أن نبه للزاد الحسي، نبه تبارك وتعالى للزاد المعنوي القلبي (التقوى) المتضمن للخوف والخشوع والرغبة والرهبة والمحبة، وغيرها مما يدفع الحاج إلى التطبيق العملي لدين الله تعالى. وفيه بيان وتنبيه لزاد سفر الدنيا وزاد سفر الآخرة. وقد فهم الرعيل الأول للزاد وأهميته في حفظ الأبدان، ولمقاومة مشقة السفر،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٤٦)

حتى أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول: إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر، وأنه كان يشترط على من صحبه الجودة.[١]

فبعد أن بين الله تبارك وتعالى الزاد، وأفضل وخَيْرَ نوعيه (فإن خير الزاد التقوى) أمر بأن تُصْرَف التقوى له وحده لا شريك له (واتقونِ يا أولي الألباب) ثم كان الخطاب موجه لأولي الألباب، وهم أولي الفهم والعقل. ولا شك أن من أسلم وآمن بالله تعالى فهو لبيب. لاختياره الحق على الباطل. وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والألباب جمع لُبّ. ولُبُّ كل شيء خالصه. ولذلك قيل للعقل لُبّ[٢] وَوَصّفِهِم من قِبَل خالقهم بأولي الألباب مدحٌ في حقهم، إذ أمرهم وهو مادحٌ لهم، بصفة أولي الألباب (واتقونِ يا أولي الألباب) ويفيد هذا تربوياً ودعوياً أهمية وصف المدعو والمتربي بما هو من صفاته وخصائصه في الخير، لأنه أدعى وأشجع له على بذل المزيد من الخير.

ثم ينبه الله تعالى عن مسألة التجارة في الحج، ذلك أنه كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً للعرب في الجاهلية، فتأثموا أن يَتْجُرُوا في الموسم، فنزلت[٣] (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) فبدأت الآية بنفي استشعار الإثم (ليس عليكم جناح) ليس عليكم إثم في ابتغاء فضل الله تعالى بالتجارة في الحج، ليكون بالمقابل الإباحة التامة في ابتغاء فضل الله تعالى في التجارة بالحج، ليزول كل هم وتحسس من هذا الأمر. بل ربط الله تعالى ما يبتغونه به تبارك وتعالى (أن تبتغوا فضلاً من ربكم) ليدرك المؤمن أن ما يبتغيه من رزق، هو طلب وبحث وابتغاء من فضل الله تعالى، وأن الرزق هو فضل من الله تعالى للناس، وبالتالي فمن ابتغى الفضل فليطلبه من الله تعالى بأمرين: الأول: ابتغاؤه بالطلب والسعي إليه (أن تبتغوا) والثاني: الدعاء: لأن الله نسب هذا الفضل له تبارك وتعالى (فضلاً من ربكم) فجمعت هذه أموراً وفوائدَ جمة، منها ما تقدم، ومنها الدعاء وأهميته وفضله، وكذلك السعي وأهميته في طلب الرزق، ومنها التوكل على من عنده الفضل سبحانه وتعالى، ومنها

(١) المرجع السابق (٢٤٦/١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧٤/٢)
(٣) ا ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٧/١)

أن هذا الدين هو دين عمل، وكذلك أهمية تحقيق المنافع بين الناس بالتجارة، وإباحتها على الأصل، ما لم يكن فيها محرم في العين، أو في طريقة تداولها.

ثم يبين الله تعالى ما يلزم الحجيج من الذكر، قال تعالى (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) فعرفة موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج[١] وقد جاء في الحديث (الحج عرفة)[٢] وكلمة (أفضتم) بمعنى اندفعتم من عرفات. وهي من فاض الإناء بعد أن امتلأ، حتى يتصبب من نواحيه، وكلمة (أفضتم) تصور عرفة وقد امتلأت بالناس من كثرة الحجيج، فبدأ الحجيج يخرجون منها، فكأنهم فاضوا منها امتلاءً، ليندفعوا إلى المشعر الحرام، وهو المزدلفة. حيث يأمرهم الله تعالى بذكره في هذا المشعر الحرام. ليكون ذكر الله تعالى متواصلاً مع الحجيج. بل يتكرر الأمر بالذكر مع بيان العلة الموجبة لذلك (واذكروه كما هداكم) وهذا تذكير بنعمة الهداية والتوفيق لهذا الدين وشرائعه العظيمة. وفي نسبة الهداية إليه تبارك وتعالى (كما هداكم) ليعلم العبد أن الله تعالى هو الذي هدى قلبه لهذا الدين، وأرسل له الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأنزل معه الكتاب والسنة. فما كان للعبد المهتدي أن يهتدي لو لا أن الله تعالى هداه ووفقه. وإذا أدرك العبد هذه النعمة العظيمة وجب عليه أن يحمد ويشكر الله تعالى على أعظم النعم، وهي الهداية لهذا الدين العظيم، الذي هو الطريق الوحيد الموصل لنعيم الآخرة. فوجب الذكر له تبارك وتعالى. فالحمد والشكر لله تبارك وتعالى. بل وينوه الله تبارك وتعالى لحال الْمُهتدي قبل الهداية وبعدها، ليقارن العبد بين ما كان عليه من الضلال، وما هو عليه الآن من الهدى (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) وهذا يفيد أهمية المقارنة للفرد، بين وضعه قبل كل نعمة وبعدها، حتى يعرف فضل الله تعالى عليه. ويُستفاد من هذا المنهج الرباني، استصحابه ليكون أسلوباً من أساليب الدعوة والتربية، حتى يعرف المدعو والمتربي كيف كان من قبل ومن بعد. ويمتد هذا الأسلوب في جميع عمليات الإصلاح والإدارة والمهنة، لأنه بالمقارنة تظهر النعم والفضل، والتنقل من حال إلى حال. ولكن لا يكون ذلك من باب التفضل والتقريع، بل من باب التذكير بنعم الله تعالى، وأن الله تعالى هو المتفضل.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٤٨)

(٢) النسائي (٥/٢٥٦) برقم (٣٠١٦)

ثم يأمر الله تعالى عباده من الحجيج بالمرحلة التالية من مناسك الحج (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) وهو الانتقال إلى مشعر منى، لاستكمال المبيت، ورمي الجمرات، وذبح الهدي، والطواف والسعي. وكذلك يأمر الله تعالى الحجيج بالاستغفار (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) فمهما بلغت الطاعة لله تعالى فإنه يحصل النقص والخطأ، وبالتالي لا ينفك عنه الاستغفار، فيجب ألا يرى العابد في نفسه وفي عبادته الكمال، فالنقص والسهو والخطأ من المتعلقات بطبيعة الإنسان، فاحتاج للاستغفار في كل الأحوال. ويُستفاد من ذلك: أنَّ هذا الحاج في عبادة جليلة وشاقة، ومع هذا يأمره الله تبارك وتعالى بالاستغفار، فكيف حال الإنسان طوَالَ يومه وأسبوعه وشهره وعمره كله، فما أحوج العبد وأفقره للاستغفار. مما يفيد: أهمية لزوم الاستغفار، لِمَا يعترض الإنسان من الوقوع في النقص والسهو والخطأ والمعاصي، والاجتهاد الخاطئ، وما قد يدخله من الرياء والسمعة، وغير ذلك من مفسدات الأعمال الإخلاص.

وقد نوه تبارك وتعالى لصفة من صفاته العظيمة (إن الله غفور رحيم) وفي هذا تنويه وتنبيه بأن يستغفر المسلم وهو مُدْرِكٌ أن الله غفور رحيم، يغفر الذنب ويرحم المستغفر. فليطلب المستغفر المغفرة من الغفور الرحيم. ومن فوائد هذا أيضاً، توحيد الله تعالى، بأن يُطلب الاستغفار منه سبحانه وتعالى (واستغفروا الله) فلا يوجه الاستغفار لغيره عَزَّ وجل.

ثم يأمر الله تعالى عباده من الحجيج بذكره بعد أداء مناسكهم (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم أباءكم أو أشد ذكرا) فيأمر الله عَزَّ وجل الحجيج بدوام ذكره بعد انقضاء حجهم، وفراغهم منه، كما يذكر الصبي أباه وأمه، فلا ينفك لسانه عن ذكرهما طوال يومه[1] وإن قُصِد به الكبار فهم كذلك، جاء أبي وجاءت أمي، أين أبي، وأين أمي، وقال أبي، وقالت أمي، إلا أن الصبي أكثر ذكراً للأبوين. وفي هذا التشبيه ما يدل على أهمية الذكر، وأن يشتغل الإنسان بذكر الله تعالى، فالصبي منذ أن يستيقظ من نومه، يلهج لسانه بأمه وأبيه، وكلما احتاج طعاماً بكى وهو يلهج بأمه وأبيه، وكلما كان في شبع ولعب كان كذلك. فهكذا يكون المسلم قبل طعامه وشرابه يذكر الله عَزَّ وجل بالبسملة، فيكون في ذكر، وبعد فراغه من طعامه وشرابه يذكر الله تعالى بالحمد، فيكون في ذكر، وهكذا عند فراشه في ذكر، وعند استيقاظه في ذكر، وقبل وبعد صلاته في ذكر. وفي كل شأنه ذاكراً لله تعالى،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٠)

قال صلى الله عليه وسلم (لا يزال لسانك رطب من ذكر الله)(١) بل يلزم أن يكون المرء أشد ذكراً لله تعالى من ذكر ذلك الصبي لأبويه، لأن الله تعالى يقول (كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) فنسأل الله تعالى أن يجعل أوقاتنا في ذكره وشكره تبارك وتعالى.

ومن وجه آخر يفيد هذا تعليمياً وتربوياً ودعوياً، وحتى مهنياً وإدارياً، أهمية استخدام التوضيح في البيان، كما هو التشبيه في هذه اللفتة القرآنية الكريمة، وأن التشبيه وسيلة جاذبة ومُقَربِة للمعنى، كما تُعَمِّقُ درجة الفهم عند الإنسان. كما يفيد هذا أن التشبيه لا يعني المماثلة في المقام، وإنما في الحالة التي تُقَرِّب المعنى والصورة، فمقام ذكر ربنا أعظم وأكرم.

ثم يبين الله تعالى حال الناس في طلب الدنيا والآخرة، وأنهم على صنفين. فالأول في قوله تعالى (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) فهذا نوعٌ وصِنْفٌ من الناس، تأخذه الحياة الدنيا بزخرفها ومتطلباتها، وآمالها التي لا تنتهي، فَيُكْثِرُ من الدعاء والرجاء لأمور الدنيا، ويترك ما يخصه في الآخرة، التي هي أبقى وأكمل، فليس للآخرة في الدعاء من نصيب. وفي هذا البيان الرباني لهذا النوع من الناس ما ينبه إلى أهمية التوازن والاعتدال، والاهتمام بأمور الآخرة، فَيُكثر من الدعاء والمسألة لله تعالى في أمور الآخرة، كونها خيرٌ وأبقى. كما بين تبارك وتعالى عن حال النوع الثاني من الناس (ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فهذا النوع من الناس اهتم في دعائه بأمور الدنيا والآخرة، واستشعر عذاب النار فاستعاذ بالله منها. أجارني الله تعالى والمسلمين منها. وفي هذا ما يدل على أن البعض هِمَّتُهُ قصيرةٌ، قد اقتصرت على الدنيا فأنسته طلب الآخرة، وهناك من هِمْتُه عالية، فلم يقتصر على طلب الدنيا، بل ارتقت همته للآخرة، فيطلبها من الله تعالى بالدعاء والتوفيق لها، وهذا يفيد أن الله تعالى يُحب من يطلب الدنيا والآخرة، وكذلك يفيد أن الدنيا والآخرة مُلْكٌ لله تعالى، وأن العبد لن يحصل عليها إلا مِنْ مالكها تبارك وتعالى، فليطلبها منه عَزَّ وجل. وفي هذا الدعاء من الفوائد أنه جامع لكل أنواع الخير، لأن الحسنة جامعة لكل خير، ويقتضي طلبها صرف كل شر، فإذا طلبها المؤمن من الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقد طلب خير الدنيا والآخرة. واستعاذ من كل شر يوصله إلى النار. فما أعظمه من دعاء.

---

(١) الترمذي (٥/٤٢٧ – ٤٢٨) برقم (٣٣٧٥)

وقد كان هذا من أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أنس رضي الله تعالى عنه (كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[١]

ثم يقول تبارك وتعالى (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) جاء في التفسير: أن هذا يرجع للفريق الثاني، فريق الإسلام، أي لهم ثواب الحج وثواب الدعاء، فإن دعاء المؤمن عبادة. وقيل يرجع (أولئك) إلى الفريقين، فللمؤمن ثواب عمله ودعائه. وللكافر عقاب شركه، وقصر نظره على الدنيا[٢] وفي ذكر القولين ما يبين استيعاب بعض دلالات القرآن الكريم لأوجه متعددة، لتكثر الفائدة والنفع بدلالة النص. ثم بينت خاتمة الآية الكريمة سرعة حساب ربنا تبارك وتعالى لعباده (والله سريع الحساب) ليدرك المؤمن أن حساب الله تعالى لا يقاس بحساب الناس، ولا بمقاييسهم. فإن الله عليم قدير.

ثم يؤكد ويُكرر الله تعالى أهمية ذكره عَزَّ وجل (واذكروا الله في أيام معدودات) يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبة. وهي أيام منى، التي هي الثلاثة الأيام التي بعد يوم العيد، وتخصيصها بالذكر دليل على فضلها، مما يفيد أهمية أن يحرص المسلم على استثمار الذكر فيها. ومن وجه آخر يفيد هذا أهمية بيان التخصيص، وما يتطلبه أثناء التعليم والتوجيه والإرشاد. ثم يظهر سماحة هذا الدين في الإذن لمن تعجل (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه) فرفع تبارك وتعالى الإثم عن المتعجل في استعجاله. وقال تعالى فيمن تأخر حتى يستكمل الثلاثة الأيام (ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) وفي هذا تشجيع للبقاء حتى اليوم الثالث (لمن اتقى) ثم يأمر الله تعالى بالتقوى (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تُحشرون) وفي هذا أمر وتذكير بأمرين: الأول الأمر بالتقوى، والثاني التذكير بالرجوع إليه، لأن في الرجوع إليه تبارك وتعالى ما يوجب للمؤمن التقوى الدافعة لفعل الخير، واجتناب الشر. وهذا يفيد تعليمياً ودعوياً وتربوياً، أهمية البيان بالمآل والنتيجة الحتمية للشيء، مع التذكير بما يدفع إلى الإفادة والالتزام. لأن النفوس تحتاج إلى ذلك، بسبب ما قد يصيبها من الانفلات والتساهل والنسيان. واسأل الله تعالى التوفيق والسداد والثبات لي ولإخواني لمسلمين.

(١) البخاري (١٦٩/٤) برقم (٦٣٨٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٧/٢)

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ
٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ
٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧)

لقد تبين من الآية التي قبل هذه، حال الناس في طلب الدنيا والآخرة. وفي هذه الآيات يبين تبارك وتعالى حال بعض الناس فيما يُخْفي من الكفر ويُعلن من الإسلام. فقال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهدُ الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) فيُخبر اللهُ تعالى رسولَه بحقيقة المنافقين. وهو عام في كل منافق، وإن نزلت في بعض المنافقين بعينهم. وهم صنفٌ ونوعٌ من الناس، يُظهر خلاف ما يُبطن، فَيُظهِر الجميل من الكلام، وأحسن ما يقول، ويُظهر التوافق في الدين والملة، وهو مخادع لمن يخاطبه، حيث يدعي الصدق وهو كذوب، ويؤكد ما يقول بأنه يُشهد ويستشهد بالله على ما في قلبه من صحة القول، وهو كاذب منافق، بل هو أشد المخاصمين خصومة، فهو مجادل فاجر، فظاهر كلامه طلاوة، وباطنه سوءٌ وباطلٌ.

وهذا يفيد كشف حال المنافق، الذي يسلك في سلوكه هذا المسلك الخبيث، فَيُظهر الإسلام والمعية والنصرة بلسانه، وهو يحمل في قلبه البغضاء والكره للإسلام والمسلمين. مما يفيد عدم الاغترار بالأقوال دون الأفعال، فالتطبيق هو المحك الحقيقي، وهو الفصل والفيصل بين المسلم والمنافق. وأن الأفعال قرائن للأحوال والأقوال. وهذا الكشف من الله تعالى، يفيد المؤمنين بحقيقة هؤلاء، بما يُوجِبُ الحذر منهم.

ومن صفات المنافق كذلك (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل) فكما هو أعوج في المقال، فهو سيء في الفعال، لأنه إذا أدبر متولياً، كان سعيه وجهده فساد في الأرض (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها) ففساده عام ومتنوع، قولاً وفعلاً، ومن ذلك (ويهلك الحرث) وهو محل نماء الزرع والثمار (والنسل) نتاج الحيوان، فقوام الناس متعلق بهذين السببين، فهو يعمد متعمداً بإهلاك موارد الناس. وهذا مخالف لمراد الله تعالى، ولما يُحبه جَلَّ جلاله (والله لا يحب الفساد) وفي قوله تعالى (والله لا يحب الفساد) بيان وإعلام، بأن هذا الدين لا يرضى بالفساد، ولا يقره، ولا يأمر به، بل ينهى عنه ويعاقب من يفعله. فأي دين أكرم من هذا الدين العظيم.

ومن صفاته كذلك الانتصار بالإثم على الحق (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) فهو لا يقبل التوجيه الذي ينهاه عن فعله الخبيث، وسلوكه المشين، فإذا وُعِظَ، وقيل له: اتق الله تعالى فيما تعمل من أفعال قبيحة، وأقوال فاسده، وارجع إلى الصواب والحق والإيمان، امتنع، وأبى، وأخذته الحمية والانتصار بالإثم على الحق، مما يفيد خطورة المنافقين على الأمة، وخطورة الكبر على المنصوح والنصيحة، وأهمية التواضع للناصح وللنصيحة، فهذا المنافق توعده الله تعالى بجهنم (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) فهي كافيته عقوبة ومآلاً. وبئس المسكن والمآل والمستقر.

فقد كشف الله تعالى حقائق نفسية وفعلية لهذا الصنف من الناس، وكشف منهجية باطنية سيئة لهم، بحلاوة الكلام، وإبطان الشر والحقد، والكراهية للإسلام والمسلمين. وكذلك بين الله تعالى مسلكهم التطبيقي، من محبتهم للفساد العملي في الأرض عموماً، وفي مصادر أقوات الناس من الأرض خصوصاً، فهم يحملون الحقد الذي يدفعهم إلى هذا المسلك، الذي لا يصدر إلا من فاسد حاسد، خبيث الطوية، فكشف الله تبارك وتعالى ما يبين حقيقتهم، من أنهم لا يُذْعنون للحق، مهما بلغت الموعظة، فليس بعد الأمر بتقوى الله تعالى موعظة (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) فينتصر للإثم، وهو يعلم من نفسه ما هو عليه من خُبث الطوية، فهو عامد متعمد، فلذلك عاقبه الله تعالى بأن مصيره إلى النار. وفي هذا بيان للمؤمنين عن أحوال وصفات المنافقين، ليحذروا منهم، ويبتعدوا عن هذا المسلك، حتى يكون التواضع صفة المؤمنين وسمتهم.

ثم يبين الله تعالى صفات النوع الثاني من الناس (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) فهذا النوع من الناس، يدفع أثمن وأغلى ما عنده من أجل مرضات الله تعالى، فيشتري نفسه من الكفر، ويشتري نفسه من النفاق، حتى ولو خسر المال والجاه، مقابل مرضات الله تعالى، فكل ثمن يرخص مقابل مرضات الله تعالى، بينما النوع الأول، يبيع نفسه بأبخس الأثمان، من أجل أبخس الأنواع، فَيُهْلِك نفسه بالنفاق.

فهذه الآية مدرسة عظيمة، تعلم الإنسان بمنهجها، أن يدفع الثمن إذا تطلب الأمر أن يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويُقدم صهيب الرومي الأنموذج في ذلك، وهي أن هذه الآية نزلت في صهيب رضي الله تعالى عنه: ذلك أنه لما أسلم صهيب بن سنان الرومي، رضي الله عنه، وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه، ويهاجر كان له ذلك. فأعطاهم ماله

وتخلص منهم. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال (ربح صهيب ربح صهيب)[١] فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا له: ربح البيع.[٢]

وتنتهي الآية ببيان صفة من صفات الله تعالى (والله رؤف بالعباد) فمن رأفته تبارك وتعالى بالعباد هدايته وتوفيقه لهم، وحلمه على الكافر والمنافق والعاصي، ولولا ذلك لهلك الكافر والعاصي، وكثير من الناس، فالحمد لله تعالى على رأفته بنا، وبالناس أجمعين.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠)

ثم يخاطب الله تعالى المؤمنين بقوله (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) فبدأت الآية الكريمة بمخاطبة المؤمنين بصيغة النداء، وكذلك خاطبهم بصفة الإيمان، وهذا كرم من الله تعالى أن ينادي عباده المؤمنين بهذه المنزلة الرفيعة. وفي هذا النداء بهذه الصيغة، ما يحفز المؤمن للانتباه والاستماع. فيوجههم بصيغة الأمر (ادخلوا في السلم كافة) أي ادخلوا في طاعته سبحانه وتعالى، وقوموا بتطبيق شُعَبِ الإيمان وشرائع الإسلام من دون استثناء، فاعملوا بجميع الأعمال، ووجوه البر. وفي هذا ما يدل على أن الإسلام كُلٌ لا يتجزأ، ووجوب العمل بجميع شُعب الإيمان وبالشريعة الغراء، وأنها ليست بالخيار والتوزيع، المبني على الهوى، فيأخذ هذا ويترك هذا، أو يأخذ بهذا أحياناً، ويتوارى ويتغافل عنه أحياناً. بل الإسلام كل لا يتجزأ. ولفظة (كافة) تدل أيضاً على جميعكم، أي اعملوا جميعكم بشعب الإيمان وشرائع الإسلام، فلا يتأخر عن شيء منها أحد. وهو الإسلام[٣]

وسواء كانت لفظة (كافة) متعلقة بالمؤمنين أو متعلقة بالسلم، فإنها في كلا الوجهين ذات دلالات وجيهة، ومطلب مهم. وهذا من عظيم كلام ربنا تبارك وتعالى وإعجازه البياني.

(١) صحيح ابن حبان، برقم (٧٠٨٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٤)

(٣) وقد ذكر ابن كثير تفاصيل الأقوال (١/٢٥٥). وكذلك ابن الجوزي في كتاب: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/٢٠٥)

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بعدم اتباع الشيطان (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وفي لفظة (خطوات) ما يدل على أن الشيطان يجر الإنسان خطوة خطوة للمعصية، فتقوده الخطوة إلى خطوة أخرى، فجاء تحذير المؤمنين من عدوهم، لأنه يحملهم للمعاصي، وعلى المعاصي بطريقة متدرجة.

ثم يتوعد الله تعالى الْعُصَاة من عباده (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات) فالحذر من الزلل، بعد أن تم لكم العلم، واتضح وبان المطلوب والمنهي عنه. وكلمة (زللتم) تفيد التنحي عن الاستقامة، والزلل عادة يكون بعد الثبوت، وذلك لما يحدث عند المخلوق من الزلل عن المطلوب، فينبهه الحكيم العليم تنبيهاً يتناسب مع عموم أنواع الزلل، من خلال لفة الانتباه إلى الزلل عن طاعته وأمره، بعد أن جاءت البينات الواضحات (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) فهذا بيان لمقامه الكريم تبارك وتعالى، بأنه عزيز حكيم، والعلم بأنه عزيز حكيم يوجب عدم الزلل عن طاعته وإتيان معصيته، فالعزيز كل شيء ذليل له، والعزيز يَقْهَرُ ولا يُقهر، والعزيز قوي في انتقامه، والعزيز مقام كريم رفيع، يحمل الرفعة والقوة والعلو والقدرة المطلقة، وأنه حكيم في تشريعه، وأمره، ونهيه، وتدبيره. فلا عزيز إلا الله تعالى، ولا حكيم إلا الله تعالى. فهذا يوجب الحذر من الزلل في حق العزيز الكريم، الذي هذه صفته. وهذا أسلوب يستثير الحياء والخوف في وقت واحد، ويَشدّ عوامل الانتباه، والحيطة والحذر من الزلل. فما أعظم وأطيب وأجمل أساليبه تبارك وتعالى في كتابه الكريم العزيز. خاصة وأن الله تعالى بدأ الخطاب في الآية السابقة لها (يا أيها الذين آمنوا) مما يفيد أن دلالة الخطاب فيه استثارة لمكامن الإيمان عند المؤمن، فأنتم المؤمنون الذين لا يليق بكم الزلل من بعد أن وردتكم البينات الواضحات.

ثم يقول الله تعالى بصيغة الاستفهام الاستنكاري للمتأخرين عن الدخول في الإسلام (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله تُرجع الأمور) فهؤلاء الذين قامت عليهم الحجة، وهم مستمرون في معصيتهم، وكفرهم ومتابعتهم لخطوات الشيطان، فيصدون عن الحق، فهل ينتظرون حتى فصل القضاء يوم القيامة، فَيُجْزَى كل عامل بعمله. (وقضي الأمر وإلى الله تُرْجَعُ الأمور) أعِنْد ذلك يؤمنون، حين لا ينفع ذلك الإيمان، حيث ينقضي الأمر، ويتم الفصل بين الخلائق. فهل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله تعالى بما وعدهم من الحساب.

وفي هذا الأسلوب الخطابي من الله تعالى للمتقاعسين عن الدخول في الإسلام ما يستثير التأمل والتفكر والتدبر، إذ أن الله تبارك وتعالى استهل الخطاب بصيغة الاستفهام الاستنكاري، لتلك العقول الصادة والمنشغلة بالدنيا عن الآخرة، بما يستوجب ويحقق هذا الأسلوب الاستثارة الذهنية،

للتأمل والتفكر والرجوع للحقيقة، التي تحث على المسارعة بالدخول في الإسلام، حيث وصف الله تبارك وتعالى شيئاً مما يكون في يوم فصل القضاء والحساب والجزاء، بصورة تستثير العقل والعاطفة بالخوف المهيب للموقف العظيم، وقد اختتمت الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى (وإلى الله تُرجع الأمور) فمرجع الأمور إلى الله تعالى، وكذلك رجوع الخلق إليه سبحانه وتعالى، فيحصل الحساب والجزاء. فسبحان الله الذي امتلأ كتابه العزيز بما يستثير العقول والنفوس نحو مصالح العباد، بالأمر والنهي والتوجيه والبيان، وتعليماً وتذكيراً، وبأساليب تنوعت فيها الاستثارات العقلية والعاطفية.

(سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢)

ويعود الخطاب البياني، والسياق القرآني، إلى بني إسرائيل، فيبين الله تعالى نعمته على بني إسرائيل، الذين استبدلوا النعمة بالمعصية (سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة. ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) فقد بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى (سل بني إسرائيل) والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، وسؤال بني إسرائيل على جهة التقريع والتوبيخ لهم.[١] وفيه التسلية عن صدود بني إسرائيل عن الإيمان به عليه الصلاة والسلام، من خلال بيان حالهم وخصالهم من التعنت والتبديل لنعمة الدين، بالرغم من الآيات البينات العظيمات التي جاءتهم. ولفظة (كم) تفيد الكثرة للآيات البينة (كم آتيناهم من آية بينة) فبالرغم من البراهين والآيات العظيمات، مثل: عصى موسى وبياض اليد، وفلق البحر، والمن والسلوى، إلا أنهم بدلوا ما في كتبهم، وبالتالي بدلوا دينهم. وفي هذا التنويه ما يبين أن بني إسرائيل مع ما حصل لهم من الآيات إلا أنهم لم ينتفعوا بها، فكذلك أَمْرُهُم من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وإن كان عددٌ معدود منهم، دخل في الإسلام، ولكن الحكم على الغالب.

وفي هذا ما يفيد التنبيه والتحذير لكل من يبدّل نِعَمَ الله تعالى، ومنها نعمة الدين، فإن عذاب الله تعالى شديد. ومن الفوائد أن الدين نعمة عظيمة جليلة، تستوجب القيام بحقها، اعتقاداً وعملاً وشكراً

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٠)

لله تعالى عليها. كما أن في شدة العقاب لمن بدلها دليل على عظمتها، وخطورة تبديلها. مما يوجب المحافظة عليها، لأنها سبيل النجاة من عذاب الله تعالى.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) لفظ عام لجميع العامة، وإن كان المشار إليه بني إسرائيل، لكونهم بدلوا ما في كتبهم، وجحدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم. فاللفظ منسحب على كل مُبدِّل نعمة الله تعالى. وقال الطبري: النعمة هنا الإسلام. وهذا قريب من الأول. ويدخل في اللفظ أيضاً، كفار قريش، فإن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفراً.(١) ومفهوم العلماء لمراد هذه الآية يدل على ما قَعَّدَهُ العلماء من أن القاعدة هي: عموم اللفظ لا خصوص السبب، وأن الله تعالى أراد بما جاء في كتابه العمل بالعلم لا للاطلاع ومعرفة الخبر. وهذا يفيد أن الخير في كتاب الله تعالى للعظة والعمل بالعلم.

ثم يقول تبارك وتعالى (زُيِّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا) يخبر الله تعالى أن الذين كفروا ورفضوا شَرّعَه زُيِّنَت الحياة الدنيا لهم، فتزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم.(٢) وهذا يفيد أن من أنواع عقوبته تبارك وتعالى للكافر الجاحد للدين، بعد ما استبانت له شريعة الله تعالى، أن الدنيا تتزين في أعينهم وقلوبهم إلى درجة السخرية من عباد الله المؤمنين (ويسخرون من الذين آمنوا) وهذا يفيد الحذر من فتنة الدنيا بزينتها، وكذلك تفيد الآية الكريمة، أن من استحسن الدنيا على الآخرة، فإنه يسخر من الذين استحسنوا الآخرة على الدنيا. وهذا يبين أن الاستهزاء منهجية الكافرين في كل وقت وحين، وقد نبه الله تعالى عليها، وبالتالي يلزم المسلم ألا يلتفت إلى استهزاء الكافرين، أو يجاملهم من أجل استنقاص ما يستهزؤون منه. وكذلك يفيد هذا أن أساليب الاستهزاء أحد وسائل الكافرين للصد عن سبيل الله تعالى، فليحذر المؤمن من ذلك. حتى يكون في المنزلة التي قال الله تعالى فيها (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) فالمتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بالنعيم المقيم، والكفار في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والشقاء. وهذا يُعزز صبر المؤمنين تجاه ما يُلاقونه من الكفار في دينهم، مما

(١) المرجع السابق (٣/٢٠ ـ ٢١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٦٧)

يفيد أن المآل خير ما يشجع المؤمن على التزام التقوى، التي تمنحه بتوفيق الله تعالى ورحمته أحسن الدرجات وأعلاها.

ثم يبين الله تعالى أمراً مهماً، وهو مصدر الرزق (والله يرزق من يشاء بغير حساب) ففي هذا بيان لحقيقة الرزق ومصدره الأصلي، وفيه كذلك تشجيع وحث للمؤمن على طلب الرزق ممن يملكه ملكاً حقيقياً، فالرزق الدنيوي والأخروي بيد الله تعالى، مما يتطلب أن يسأل المؤمن ربه تبارك وتعالى الرزق الدنيوي والأخروي، والثبات على الدين، فإنه هو المعطي. كما تفيد الآية الكريمة أن الله تعالى يرزق من يشاء بغير حساب، وبغير مماثلة لعمل العبد، فهو كريم إذا أعطى، فعطاؤه كثير عظيم بلا حساب. فمهما عمل العبد من طاعة فهي قليلة في حق الله تعالى، وما أعطا الله تعالى العبد من خير فهو أكثر مما عبد العبد ربه وأطاعه، ولا وجه للمقارنة. فعطاء الله تعالى كثير في الدنيا والآخرة. فنسأل الله تعالى من فضله وكرمه ورحمته.

(كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣)

يبين الله تعالى حال الناس من بعد آدم عليه السلام حتى بعثه الرُسُل سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) هذا يفيد أن الأصل في حال الناس، أنهم جميعاً أمة واحدة، على ملة آدم عليه السلام، فتكاثروا، فكثر الخلاف والاختلاف، وحصل الانحراف وعبادة الأصنام، فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله تعالى للناس.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى بين حال الناس في كلمتين (أمة واحدة) ثم يتضح حالهم من دواعي وأسباب بعث الرسل (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) فبين الله تعالى مضمون رسالة الرُسُل في كلمتين، تحمل مهمتين (مبشرين ومنذرين) وهذا من الإعجاز البلاغي والبياني العظيم للقرآن الكريم، في بيانه وتفصيله. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.[١].

وهذا يدل على حاجة الناس إلى من يجدد لهم دينهم، لما يحصل منهم وبينهم من الاختلاف، وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[٢] وإذا كان هذا الاختلاف في دين الله تعالى، فإنه من باب أولى أن يختلفوا فيما هو دونه من أمور الحياة والعلاقات الاجتماعية، وفي المهنة والمصالح، وغيرها مما يختلف فيه الناس، وبالتالي يفيد هذا أهمية التعامل مع هذه الحقائق بما يدفع ويعيد المجموعة والجماعة إلى وحدتها، وأن الناس يحتاجون إلى ذلك بين الفينة والأخرى، وسواء على مستوى الأمة، أو مستوى المجتمع، أو الأسرة، وفي المهنة، والمصالح العامة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/١)

(٢) أبو داود (٤٨٠/٤) برقم (٤٢٩١)

ومن معطيات الآية الكريمة في قوله تعالى عن النبيين (مبشرين ومنذرين) ليتبين أن ما يقوم به الأنبياء هو بشارة المطيع بالجنة، وتحذير العاصي من النار، وما يتبع ذلك من بيان منهج الله تعالى. وهذا يبين أن مهمة العلماء والدعاة هي نفس مهمة الأنبياء من تعليم الناس، وأنهم لا يملكون الهداية التوفيقية للخلق، وإنما يقومون بهداية دلالة الناس على الحق، من خلال ما أنزل الله تعالى على أنبيائه من الكتب، حيث قال تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق) وهي الكتب الإلهية التي أنزلها الله تعالى على رُسُلَه، وهذا يبين أن الأنبياء لا يجتهدون في الدين من عندهم، بل من خلال ما أُنْزِل عليهم، وكذلك العلماء الربانيون يلزمهم الاجتهاد من خلال ما أنزل الله تعالى. وهذا يفيد أن دين الله تعالى منضبط بما أنزل الله تعالى من الحق. قال تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق)

ثم بين الله تعالى مهمة الأنبياء في الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، حتى يعودوا للوحدة التي كانوا عليها (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) ويفيد هذا أيضاً أن الناس لا يمكن أن يتوحدوا إلا بالرجوع لما يوحدهم، وهو كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهو رمز ومنهج وحدتهم. فالكتاب كله حق، وأنزله الله تعالى (بالحق) ثم يبين الله تعالى أن الذين اختلفوا في الحق من بعد ما جاءتهم الكتب هو بسبب البغي (وما اختلف فيه إلا الذين أُتُوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) فالبغي دفع البعض للاختلاف على بعض، مما يدل على أن البغي هو من أخطر أسباب الاختلاف بين أفراد وجماعات الأمة، وأنه هو المُفتت والممزق لها. إذ أن البغي يحمل معاني الفجور ومجاوزة الحد، والظلم والتطاول.

ثم يبين الله تعالى امتنانه على هذه الأمة بهدايتهم لما اختلف فيه الذين من قبلهم من الأمم (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فأولاً: أن الهداية فضل من الله تعالى (فهدى الله الذين آمنوا) وثانياً: هدايته تكون بعلمه وإرادته (بإذنه) بعلمه بهم، وبما هداهم له، وبتوفيقه وإرادته، فالحمد والشكر لله تعالى. وأن اختلاف من اختلف من الأمم كان في محور الحق (لما اختلفوا فيه من الحق) وهذا يدل على أن البغي يدفع الأنسان للاختلاف في الحق الواضح الْمُنَزّل من الله تعالى بسبب الحسد والظلم الكبر وحب الرفعة والتطاول على الغير، فكيف بالتنازع في الحقوق التي بين الناس. مما يفيد أهمية التربية على الحق والتواضع، وتطهير النفس من البغي لما يحمله من الظلم والأشر والبطر.

ومن صور الاختلاف: أنهم اختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للقبلة. واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً. وجعله اللهُ حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك.[١] وكل اختلاف يحدث في هذه الأمة فهو استنان بسنة المغضوب عليهم والضالين.

ثم ختم الله تعالى هذا البيان بأنه هو الهادي والموفق (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فالله يهدي من يشاء من خلقه إلى الحق. مما يفيد عِظَمِ نعمة الهداية، وأن يَنْسِبَ الْمُهْتَدِي هدايته إلى الله تعالى، بل ويَنْسِبَ كُلَ نعمة لله تعالى، لا لقدرته وفهمه وذكائه وفطنته وجهده، بل لله تعالى، وأن يطلب الإنسان الهداية من الله تعالى، بل وكل حاجة ومطلوب يطلبه من الله تعالى، ويستجير به من كل مكروه. ولذلك في الدعاء يقول المسلم (اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت. إنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت. تباركت ربنا وتعاليت)[٢]

(أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٧ _ ١٥٨)

(٢) أبو داود (٢/١٣٣/١٣٤) برقم (١٤٢٥)

يبين الله تعالى سنته في الابتلاء والتمحيص (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله. ألا إن نصر الله قريب) ابتدأت هذه الآية الكريمة بسؤال تقريري، ليتقرر من خلالها ما يمكن أن يجهله المؤمن من الابتلاء والتمحيص. أفتظنون أن دخول الجنة بدون ابتلاء. ليدرك المؤمن حقيقة من سنن الله تعالى في عباده، حتى يعرفها ويتقبلها، بل ومن لطفه تبارك وتعالى ورحمته أن بين ما يُسَلّي المؤمنين عن هذا الابتلاء، من أن هذا ليس خاص بكم أيها المؤمنون، بل هي سنة الله تعالى حتى في الذين من قبلكم (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم. مستهم البأساء والضراء وزُلْزِلُوا) ليطمئن القلب ويصبر ويرضى بما يصيبه من الابتلاء بالفقر، وهو (البأساء) والأسقام والأمراض (والضراء) والخوف من الأعداء (وزلزلوا) وأن هذا الابتلاء تمحيص للمؤمن وزيادة في درجاته لدخول الجنة. مما يفيد أن الطريق إلى الجنة محفوف بالابتلاء، وبهذا العلم يستفيد المؤمن بأن عليه أن يصبر ويرضى، ويسأل الله تعالى العافية والنجاة من كل ابتلاء، وأن يجعل عاقبته خيراً. وإن أصابه شيء من الابتلاء فقد عَلِمَ هذا من كتاب ربه تبارك وتعالى.

وفي ذكر الابتلاء لمن كان من قبل، تسلية للمؤمنين، حتى لا يظنوا أنهم فقط هم الذين يتولاهم الله بالابتلاء، بل حتى الرُسُل عليهم الصلاة والسلام. (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فيستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج من شدة ما يجدون. وفي لفظة (وزلزلوا) ما يفيد الحركة الشديدة المخيفة، التي ترتجف وتتحرك بها القلوب من شدة الخوف والهلع، فيفزع الرسول ومن معه من المؤمنين إلى الدعاء بالخروج من الكرب، كما حصل للرسول صلى الله عليه وسلم وللصحابة رضي الله تعالى عنهم يوم الأحزاب، كما قال تعالى في سورة الأحزاب (إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم. وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ثم يختتم الله تعالى الآية الكريمة (ألا إن نصر الله قريب) مما يفيد أن الابتلاء يعقبه فرج، فما على المؤمن إلا أن يصبر. ولذلك قال الصحابة لما رأوا كثرة الأحزاب، وبلغت القلوب الحناجر (هذا ما وعدنا الله ورسوله. وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) فأرسل الله الرياح وجنوداً لم يروها، وانهزم الأحزاب. فكان نصر الله قريب منهم.

(يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الإجابة على سؤال المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم عن نفقة صدقة التطوع وأبوابها، فيقول تبارك وتعال (يسألونك ماذا ينفقون) وفي هذا ما يفيد اهتمام الصحابة في معرفة ما يقربهم إلى الله تعالى من أبواب الصدقة. ومن بلاغة القرآن الكريم أنه ذكر النوع العام (قل ما أنفقتم من خير) وهو عموم الخير، وإن كان الخير غالباً ما يُراد به المال، إلا كونه بهذا اللفظ، فإنه يدل على العموم، بل وجعله مفتوحاً لكل أحدٍ بما يستطيع نوعاً ومقداراً، مما أمده الله تعالى به من مال أو طعام، أو كسوة، وقليل أو كثير. ثم يبين الله تعالى ترتيب المستحقين لإنفاق الخير (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) فأولى الناس بالنفقة وأحقهم بالتقديم هم أعظمهم حقاً، وهم الوالدان، ومن بعدهم الأقربون، ويُفهم من ذلك أن الأقربين بالترتيب، لما تضمنته الآية من الترتيب، ويدخل في هذا رُتْبَة درجة القرابة والحاجة، فالقريب المحتاج ليس كالأقرب غير المحتاج، وكذلك نوع الاحتياج، ودرجة القريب التي تختلف من قريب إلى قريب. فاستوعبت ألفاظ القرآن الكريم الجميع، ثم يأتي (واليتامى) الذين لا كسب لهم، ولا قدرة لهم في القيام بمصالحهم وتدبيرها على ما يجب، فكانت الوصية بهم، لأنهم مظنة الحاجة والعوز. ثم يأتي في الترتيب (والمساكين) وهم أهل الحاجات الذين لا يستطيعون سد حاجتهم مما يحتاجون. ثم (وابن السبيل) وهو من انقطعت به السُبُل من المسافرين، فاحتاج إلى من يعينه. وهذا كله يدل على عناية الله تعالى في منهجه بعباده ولطفه بهم، إذ أمرهم أن يُسخروا نِعَمَهُ في سد حاجات الناس، وكذلك يفيد هذا أن الإسلام قائم على النظام والتنظيم، إذ رتب مصارف نفقة التطوع ترتيباً لا يمكن أن يصدر إلا من حكيم عليم لطيف، بل واتسعت دائرة النفقة لتتجاوز القريب إلى البعيد مهما كان بُعده، من اليتامى والمساكين وابن السبيل.

ومن الفوائد أن يدرك المنفق أن الذي أعطاه هو الذي أمره أن ينفق مما أعطاه، وأن الذي أحوج غيره له، هو الذي أغناه عن غيره، وهو القادر على أن يحوجه لغيره، ويغني غيره عنه. فسبحان من بيده ملكوت كل شيء. ثم يبين الله تعالى ثواب المنفق (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) فنوه عن أمرين: الأول: فعل العبد (وما تفعلوا من خير) والثاني: فعل الله تعالى (فإن الله به عليم) ويفهم من هذا التنويه البياني أن الله أحاط علماً واطلاعاً بفعل العبد، فعلم بما أنفق العبد من الخير، مما يفيد أنه تبارك وتعالى عَلِمَ به وبما أنفق، وبالتالي سوف يحفظه ويجازيه ويكافئه على هذا العمل. وقد حصل وتقرر هذا العلم عند المؤمنين. ومما تضمنته الآية من بلاغة البيان، أن الله تعالى ذكر في مطلع الآية (ما أنفقتم من خير) وفي ختامها (وما تفعلوا من خير) ففي الأولى تنويه عن استجابة

العبد في إنفاق الخير، وفي الثانية العلم والإحاطة بفعل الخير، دون ذكر الإثابة التي تقررت عند المؤمن. وإنما جاء الاكتفاء بالتنويه عن علم الله تعالى بما فعله المؤمن من خبر (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) بإعجاز بياني في كل لفظة من كتابه الكريم.

(كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦)

يخبر الله تعالى بفرضية الجهاد في سبيله (كُتب عليكم القتال) أي فُرِض عليكم الجهاد. فابتدأت الآية الكريمة ببيان فرضية الجهاد في سبيل الله تعالى. ولم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم في القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أُذن له في قتال من يقاتله من المشركين. فقال تعالى (أُذن للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا) ثم أُذن في قتال المشركين عامة، واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية. فقيل: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، فكان القتال مع النبي صلى الله عليه وسلم فرض عين عليهم، فلما استقر الشرع صار على الكفاية، قاله عطاء والأوزاعي.[1] ويبين منهج التدرج في فرض القتال، الحكمة الربانية في مراعاة الأحوال، إذ أن الله تعالى وضع سُنَناً دعوية واجتماعية ودفاعية يلزم الأخذ بها، ليؤتي كل شيء ثمرته بإذن الله تعالى، إذ لم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ومن معه ممن أسلم من الصحابة بالقتال في مكة، وذلك مراعاة لِسُنَّة القلة والكثرة، والقوة والضعف، فلم يأمرهم بالمخاطرة وهو قادر سبحانه وتعالى على نُصْرَتِهِم على قلتهم وكثرة عدوهم. ولكن اقتضت أوامره تبارك وتعالى أن تتوافق مع سنته الكونية في الكثرة والقلة والقوة والضعف. ولا يمنع هذا من حدوث المعجزات، كما في غزوة بدر. مما يفيد أن على الأمة أن تستفيد من هذه المنهجية الربانية، فتراعي سُنَن الله تعالى بدقة في كل أمر من أمور الجهاد ومقتضياته ومتطلباته، حتى تكون أمة حكيمة بما أوتيت من القرآن والحكمة.

ثم بين تبارك وتعالى حقيقة النفس البشرية وطبيعتها النفسية (كُتِب عليكم القتال وهو كُره لكم) فأعطى القرآن الكريم الحقائق العملية التي يلزم فهمها والأخذ بها، إذ بين الحقائق دون تجاهلٍ لها، في أمر يتعلق بمخالفة الطبيعة الإنسانية، بل يقررها بوضوح، مما يبين تربوياً ونفسيا ودعوياً أن المعالجة التوجيهية والإصلاحية، أو التنموية للفرد، لا تنطلق من التغافل عن الحقائق النفسية،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٧)

والطبيعة الإنسانية عند البناء أو التصحيح. بل يجب تقرير الطبيعة النفسية والجبلية التي جَبَلَ اللهُ تعالى عليها الإنسان، ثم بيان المطلوب، حتى وإن كان يقتضي هذا المطلوب مخالفة الطبيعة أو الجبلة. لأن هذا أدعى لصحيح المعالجة والقبول، وكذلك البُعد عن مخادعة النفس التي تأباها، أو ترفضها بعد اكتشافها، أو لا تصبر عليها، بسبب عدم المعالجة بالطريقة الصحيحة القويمة التي تتناسب وتتفاعل مع الحقائق.

والكره هنا ليس لما فرضه الله تعالى من الجهاد، بل يقع على ما يحدث للنفس، لأن في الخروج للجهاد مفارقة للأهل والوطن والمال، وتعريض الجسد لكل ما يمكن أن يحدث من الآلام أو الموت. فجاءت المعالجة الربانية للطبيعة النفسية والجبلية، بل وحتى للفكرية، من خلال إيراد الحقائق المقنعة للمؤمن بنعمة ما يفرضه ويقضيه سبحانه تعالى على عباده (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) فهذه معادلة إيمانية إذا فهمها وأدركها المؤمن جعلته يعيش سعيداً بفرائض الله تعالى، وسعيداً بأقدار الله تعالى، وشاكراً لكل وجه من أوجه القضاء والقدر، ومستسلماً لله تعالى في كل أمر وحال، وراضياً بتقلب الأحوال، وصابراً وعاملاً بكل سبب يحقق الخير ويقي من الشر، ومرتقياً في ذلك بالتوكل على الله تعالى، الذي يُحب المتوكلين، كما قال سبحانه في آية أخرى(إن الله يحب المتوكلين) وتفيد الآية العظيمة أن كره الشيء قد يكون هو الخير، وحب الشيء قد يكون هو الشر بعينه، مما يدل ويُثبت عجز الإنسان عن إدراك مغبة ما يكره أو يُحب، مما يستوجب عليه حتمية الاعتصام بمن يملك الغيب الذي يحوي تفاصيل علم مغبة الأمور والأشياء (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، فاستوجب له ذلك تفويض الأمر له سبحانه وتعالى، والاستجابة والرضا بقضائه وقدره وحكمه. خاصة وأن الآية الكريمة أثبتت علم الله تعالى وإحاطته، ونفت علم العبد وإحاطته بمغبة وخبايا ما يحب العبد ويكره. والأمثلة في حياة العباد لا تنقطع في ذلك، لكثرتها وتنوعها.

وقد جاء مزيد من المعالجة القلبية والعملية للجهاد في سبيل الله تعالى، في آيات أُخَر، كقوله عَزَّ وجل في نفس السورة (ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون) وقوله تعالى في سورة آل عمران (ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) فقد عالج الله تعالى هذا الأمر بما يتناسب مع ما فُطِرَ عليه الإنسان من محبة

مُستقبل الخير، فوعد المجاهد في سبيله بعظيم الأجر الذي يسترخص المجاهد نفسه في سبيل الله تعالى. وبهذه الحقيقة والمعالجة الربانية ينتصر المجاهد على ذلك الكره الطبيعي والجبلي بالرغبة والمحبة للجهاد في سبيل الله تعالى. مع كرهه لما يحدث من الإصابات والإعاقات، فجمع الجهاد للمجاهد في سبيل الله تعالى بين مشقته ومحبة طاعة الله تعالى، فتتغلب محبة الطاعة على المشقة، فيندفع له المجاهد اندفاع الْمُحِب لربه عَزَّ وجل.

وقد ذكر ابن قيم الجوزية كلاماً نفيساً في فوائد قوله عَزَّ وجل (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم)، حيث قال: في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، فأوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هوته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرَّته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حُسْن الاختيار له، وأن يُرْضِيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوّض أمره إلى ربه ورضي بما يختاره له، أمدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.(١)

---

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد (١٤٦ ـ ١٤٧)

(يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨)

في هذه الآية العظيمة ما يدل على أنه حصل سؤال، أو أسئلة للنبي صلى الله عليه وسلم عن القتال في الأشهر الحرم، والتي هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. يقول تبارك وتعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه)

فقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بطن نخلة، بقيادة عبد الله بن جحش ومن معه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لمعرفة أحوال الأعداء. وقد شاء الله تعالى أن يلقوا عيراً لقريش، فتقاتلوا، فقتلوا منهم رجلاً، يُدعى عمروا بن الحضرمي، وأسروا اثنين وأخذوا عيرهم، ورجعوا للمدينة. وكان هذا في آخر يوم من جماد الثانية، وأول ليلة من رجب. فقال المشركون: قتلتم في الشهر الحرام، وقالت قريش استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم. وعنفهم إخوانهم المسلمين. فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل أخطأوا أم أصابوا فيما حصل من قتلهم عمروا بن الحضرمي في هذه السرية. فلم يدروا أذلك اليوم من رجب أو من جماد الآخرة، فقال المشركون: قتلتم في الشهر الحرام. فنزلت الآية[١] وهذا يدل على اهتمام الصحابة رضي الله تعالى عنهم بكل ما يحقق رضا الله تعالى، من أجل الْبُعْد عما يُسخطه جَلَّ وعلا. فلما عاد المسلمون من سريتهم أحزنهم وظنوا أنهم قد هُلِكُوا، مع تعنيف إخوانهم المسلمين لحرصهم على الطاعة، وكذلك قول قريش استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم.[٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ما سألوه إلا عن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢١٤/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦١/١)

ثلاث عشرة مسألة، كُلُهنّ في القرآن ... ما كانوا يسألونك إلا عما ينفعهم.[١] وهذا دليل على حرص الصحابة على الخير والصلاح ورضا الرحمن، فرضي الله تعالى عنهم.

والآيات التي ابتدأت بالسؤال في كتاب الله تعالى هي (يسألونك عن الأهلة) (يسألونك ماذا ينفقون) (يسألونك عن الشهر الحرام) (يسألونك عن الخمر والميسر) (ويسألونك عن اليتامى) (ويسألونك عن المحيض) (يسألونك ماذا أُحل لهم) (يسألونك عن الساعة) (يسألونك عن الأنفال) (ويسألونك عن الروح) (ويسألونك عن ذي القرنين) (ويسألونك عن الجبال) (يسألك الناس عن الساعة)

وفي كلا الأمرين أكان النزول بسبب تساؤل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو بسبب استنكار المشركين. ففيه: أن من فوائد نزول القرآن منجماً، معالجة ما يحدث، وبيان الحق فيه، وكذا إجابات للسائلين، وتوجيه لما يجب أن يقوم به المسلمون في شؤن الدين والدنيا، وفيه التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، والتربية بالتدرج لهم. وغيرها من الفوائد التي تحتاج إلى دراسة مستفيضة مستقلة.

ويقول الله تعالى في الإجابة على السؤال عن القتال في الشهر الحرام (قل قتال فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) فتبين الآية الكريمة حقيقة، يتغافل عنها المشركون، أو أنهم في غفلة عنها، ولكن الله تعالى عالم بها، وبحقيقتهم. فالقتال في الشهر الحرام إثم عظيم وذنب كبير (قل فتال فيه كبير) ولكن الصد عن دين الله تعالى والكفر به تبارك وتعالى، وإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من البلد الحرام أعظم وزراً وإثماً من القتال في الشهر الحرام. وهذا تقبيح لهم ولحكمهم، إذ كيف تستنكرون القتل في الشهر الحرام وقد ارتكبتم ما هو أكبر إثماً وأعظم جُرْماً، بصد الناس عن الإيمان، والكفر بالله تعالى وما جاءكم من الحق، وإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذا المؤمنين من بلادهم المسجد الحرام. وفي هذا الأسلوب القرآني ما يستثير الذهن والفكر والتفكير في حقيقة الأمر، والمقارنة بين ما تستنكرون عليه المؤمنين وبين ما تفعلون من قُبْحِ الكفر وصد المؤمنين عن دينهم، بل وإخراجهم من بلادهم. كما ينبه هذا الأسلوب القرآني إلى جسامة الجرم بالمقارنة بين الأمرين. وهذا من الأساليب التربوية والدعوية التي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨/٣)

يحتاجها الداعية والمربي والمدافع عن الحقوق، بأن يكون نقض الفكر الخاطئ بالفكر والحجة الدامغة الفاعلة التي لا يستطيع أن ينكرها العقل الحصيف.

فَتُبيُّن الآية أسلوب التعليم عن طريق استثارة الفكر والتفكير في الواقع الذي غالباً لا يرى الإنسان فيه إلا وجه الحقيقة التي تُقَوِّي حجته، ويتقوى بها، متغافلاً أو غافلاً عن الوجه الذي تقوم فيه الحجة عليه. فيأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم بتلك الحقيقة (قل قتال فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله)

وفي الأسلوب القرآني الكريم تقرير وإثبات الحقائق وعدم التغافل عنها، أو الانحراف بها عن واقعها الصحيح بأي وجه كان. فقد أثبت الله تعالى حرمة الشُهُور الحُرُم، ولم ينفيها تبارك وتعالى دفاعاً عن الذي حصل، وإنما أثبت ذلك (قل قتال فيه كبير) وبين ما هو أعظم جرماً منه، وهو إخراج أهله منه. وهذا يفيد أهمية فهم مغالطات الخصم، لإثبات الحق، وفيه كذلك اسلوب إقامة الحجة بما يغفل عنه الخصم. وفيه كذلك أن الإنسان قد يرى الحق من الوجه الذي يتقوى به، ويتغافل أو يغفل عن الوجه الآخر الذي لا ينتفع به، والذي يجب أن يُبَيَّن له عند إقامة الحجة.

ثم تزداد الحجة عليهم في فتنتهم (والفتنة أكبر من القتل) وسواء كانت هذه الفتنة هي الكفر أو فتنتهم للمسلمين عن دينهم، فذلك أشد جُرْماً من القتل في الشهر الحرام. وهذا تصحيح أو تعزيز لفهم المفارقة والمفاضلة بين قتل الْمُفْتِن للمؤمن وبين فَتْنِ المؤمن عن دينه، فَفَتْنُ المشركِ للمؤمن عن دينه أعظم جُرماً من قتل المؤمن للمشرك الفاتن. مما يدل على أن الإثم يتفاوت عَظَمَةً وجُرْماً، فبعضها أكبر من بعض، ويُستفاد من ذلك ألا ينظر الإنسان للجرم ويتغافل عما هو أكثر جُرماً وحرمةً، فيتورع عن الصغائر وينسى ما يقع فيه من الكبائر. وهذا يفيد كذلك في تقييم المسلم لسلوكه اليومي، فيتورع عن صغير الزلات ويغفل عن الكبائر. بل يلزم أن يتفقد نفسه ويُحاسبها، لأن التمحيص مهم جداً ليسلك الإنسان المسلك المستقيم.

ويُستَفَادُ من فتنة المشركين للمسلمين، بمحاولة ثنيهم عن دينهم، وإرجاعهم للشرك، أن الكفار في كل وقت وحين مجتهدون ويجتهدون في صد المسلمين عن دينهم (ولا يزالون يُقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) فهم يحاولون ولا يتوقفون من أجل فتنة المسلمين عن دينهم بجميع وسائل الفتن، ما استطاعوا لذلك سبيلا. مما يستوجب على المسلم الانتباه والحذر من جميع أنواع وأساليب

الفتن، بالصورة والصوت والفكر، والشبهات والشهوات. وقد جاء التحذير من الله تعالى للمؤمنين في هذه الآية الكريمة (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمُت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالُهم في الدنيا والآخرة) مما يفيد أن الكفر يُحبط العمل الصالح. فنسأل الله تعالى السلامة والثبات. وبالتالي سيكون الجزاء هو (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فالنتيجة والمحصلة النهائية هي الخلود في النار لمن ارتد عن دينه ومات كافراً. وهذا تحذير للمؤمنين في كل وقت وحين من الارتداد عن دين الله تبارك وتعالى.

يقول ابن سعدي رحمه الله تعالى: قال بعض المفسرين إنه لم يُنسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً، ولأن جملة مزية الأشهر الحرم بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذه إنما هو في قتال الابتداء. وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام.[١] وقد نتج من الآية الكريمة ومن غيرها توجيه الفكر للتفكر والتأمل في أوجه متعددة، وأبرزها ما تَوَجَّه له العلماء والفقهاء والمفسرون من الجمع بين الآيات، لمعرفة ما فيها من فقه، والتي منها: مدى نسخ الأشهر الحُرُم من عدمه، وإمعان الذهن في كيفية الجمع بين المطلق والمقيد، والعام والخاص، فنتج بهذا المنهج الإسلامي مدارس علمية في أبواب الفقه والتفسير.

ولما نزل الإيضاح من الله تعالى في القرآن الكريم من أنه لا إثم على أصحاب السرية فيما وقع من قتل، طمع عبد الله بن جحش وأصحابه في الأجر. فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين. فأنزل الله عَزَّ وجل[٢] (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله. والله غفور رحيم) فهذا كرم من الله تعالى، بأن أنزل هذا التطمين لأهل تلك السرية، من أنهم غير آثمين، ولهم المغفرة والرحمة من الله تبارك وتعالى.

فبينت الآية العظيمة منزلة الإيمان، ومكانة الهجرة والمهاجرين، وفضل الجهاد في سبيل الله تعالى، والتي وصف الله بها في هذه الآية عبد الله بن جحش وأصحابه. ومن الفوائد كذلك بيان الله تعالى لمنزلة الإخلاص له عَزَّ وجل، إذ ربط العلي العظيم الجهاد بأن يكون في سبيله سبحانه وتعالى (وجاهدوا في سبيل الله) ثم بين تبارك وتعالى مزيداً من إيضاح الإخلاص (أولئك يرجون رحمت

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٧٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٦٢)

الله) فلم يكن الجهاد لغنيمة ولا لسمعة ولا لشيء غير رحمة الله تعالى. ثم أُخْتُتِمَت الآية الكريمة بتحقيق المراد لهم من الله تعالى، وذلك ببيان أن الله غفور للذنوب رحيم بهم وبالعباد (والله غفور رحيم)

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۗ)

تبين هذه الآية الكريمة عناية الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأمر دينهم، بالسؤال عن أمر الخمر والميسر.

والخمر: هو الْمُسْكِر. والميسر هو القمار. وجاء في كُتُب التفسير أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر) فَدُعي عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة المائدة[١] (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)

وهذا يفيد فطنة الصحابة لهذين الأمرين: الخمر والميسر من أنهما ليستا من الصالحات، لما في الخمر من غياب العقل، ولما في الميسر من أكل مال الآخر بالظلم. ويفيد التدرج في نزول تحريم الخمر، على رحمة الله تعالى بالمؤمنين، لما اعتادوا عليه في الجاهلية من الخمر والميسر، فكان عادة من عاداتهم، حتى أصبح الانفكاك منهما ليس بالأمر اليسير على البعض، فجاء التحريم في تدرج. مما يفيد أيضاً مراعاة الله تبارك وتعالى للطبيعة الإنسانية وأحوالها، فيتعامل معها الملك القيوم وفق الْسُنَن التي جَبَلَ عليها النفس البشرية. فتبارك الله في كل حال. وهذا يُفيد أهمية مراعاة الخصائص والطبائع البشرية، وخاصة الجبلية عند التوجيه والإرشاد والدعوة والتعليم، والتعامل معها من خلال مقتضيات ذلك، وعدم التغافل عن تلك الطبائع حتى يؤتي التوجيه ثماره. ومن تلك الطبائع: النسيان، والغفلة، وضعف النفس البشرية، فظهرت حاجتها للتذكير المستمر، وخاصة أن النفس

---

(١) المرجع السابق (٢٦٢/١)

البشرية إذا ألفت شيئاً احتاجت للبديل أحياناً، واحتاجت إلى المجاهدة، التي تتطلب المغالبة على الشهوات. وكذلك يسري هذا في اكتساب الفضائل، فقد تحتاج لمثل ذلك من التدرج، وقد أشارت السنة النبوية إلى ذلك، مثل قوله صلى الله عليه وسلم (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم)[١] ومثل (لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقا)[٢]

وقد اشتملت الآية الكريمة على منهجية التعليم المتدرج، من خلال بيان حقيقة الخمر والميسر أولاً، ثم ما يرتبط بهما من الإثم، مع عدم إغفال ما يحصلون عليه من المنافع، ثم عملية المقارنة بين المنفعة وإثمها (قل فيهما إثم كبير) فأثبت تبارك وتعالى أنهما متضمنان للإثم الذي ليس سهلاً، بل إثمٌ كبيرٌ، لما يصدر من المخمور من الفحش القولي والفعلي، فيرتكب به الآثام العظيمة، وكذلك تغييب العقل عن فعل الواجبات، كالصلوات وغيرها، وفي الميسر كسب غير مبرر، مع ما يحصل من الضغائن والشحناء، وذهاب المال بغير وجه حق. وهذه المضار داعية لتجنبها، بسبب ما فيهما من الإثم، ثم أثبت تبارك وتعالى أن فيهما منافع للناس (ومنافع للناس) سواء لما يحصل للمخمور من متعة، ومكاسب البيع والشراء، أو لما يحصل لصاحب الميسر من الحصول على المال والمتاع من غير مشقة. ولكن بالمفاضلة يحصل كمال العلم والتعليم، ثم الاقتناع، فيبين الله تعالى التفاضل بين إثمهما ومنافعهما (وإثمهما أكبر من نفعهما) فهذا بيان من الرحمن الرحيم لحكم الخمر والميسر، بأسلوب ينير العقل، وتستطيب له النفس، مع قدرته تبارك وتعالى أن يحرمهما دون هذا التفصيل الكريم، ولكن حكمته اقتضت تعليم المسلمين وتفهيمهم بما ينير عقولهم، ليواجهوا فيما بعد أمور الدين والدنيا بمنهجية علمية، تنقلهم إلى أفضل الفكر، وأرحب النظر. وليتمكنوا أيضاً من نقل وتناقل هذا العلم بينهم، ولغيرهم، بمعرفة وفقه عظيم.

ويستفاد من منهجه تبارك وتعالى في تقرير هذا الحكم، أهمية تقرير الواقع وعدم مغالطة المنصوح بدفعه للمراد من خلال التجاهل عن بعض الحقائق. فلم يتجاهل القرآن الكريم حقيقة المنفعة التي تحصل للإنسان من الخمر والميسر حتى يدفعه إلى تركه، بل بين له الحقيقة والواقع الذي يعرفه عن الخمر والميسر، من أن فيهما منافع للناس (ومنافع للناس) وليست منفعة واحدة، بل بصيغة الجمع

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد (١٣٣/١)

(٢) أحمد، المسند (٦/ ٢٧٣) برقم (٣٧٢٧)

(منافع للناس) ثم بعد بيان الواقع، أوضح المفاضلة والمفاصلة بين إثمها ونفعها، بما يستلزم دفع الإثم والبعد عنه بتجنب المنفعة، وتقديم دفع الإثم على جلب المنفعة. وهذا الأسلوب تندفع إليه النفوس، لما فيه من الإعلام والتعريف بالحقائق، وأن الناصح والآمر يعرف تلك المنافع ولم يتغافل عن حقيقتها، بل أثبت الله تبارك وتعالى المنفعة الحاصلة من الخمر والميسر، ولم يتم التغافل عنها. وكذلك صحح وبين تبارك وتعالى أن الحقائق التي يعرفها الناس ناقصة، ويتحقق بها الإثم، لما تحمله من مخاطر تفوق المصالح (وإثمها أكبر من نفعها) وهو أسلوب تربوي ودعوي يتحقق به الهدف بإذن الله تعالى، فهو لا يغافلها فيما تُحب وتكره، بل يُصحح ويوضح لها الأكمل والأفضل والأرجح، والْمَنْجَى والمخرج، لأن في ذلك احتراماً لمدركات العقل، الذي يغرس الثقة في الْمُوَجَّه، وفي مضمون التوجيه، وأدعى للاستماع بروية، وإمعان الفكر والعقل في الموازنة بين التحذير والترغيب، وبين الفاضل والمفضول، وبين الخطأ والصواب، والحلال والحرام. فالحمد لله على هذا البيان والتعليم من الرحمن الرحيم.

وهذا يفيد تربوياً ودعوياً أهمية أسلوب المقارنة والمفاضلة والترجيح، من أجل الوصول بالْمُخَاطَب إلى الحقيقة التي قد تكون غائبة عنه. وكذلك من الفوائد: عدم التغافل عن الحقائق وتَخَطِّيها، وكذلك أهمية العقل، وأهمية مخاطبته بما يعقل، فإن ذلك أدعى للقبول.

وتتضمن هذه الآية الكريمة مزيداً من سؤال المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم (ويسألونك ماذا ينفقون) فالسؤال عن مقدار النفقة، فَسَهَّلَ وَيَسَّرَ لهم الرحمن الرحيم ذلك (قل العفو) فالمطلوب من النفقة هو العفو، الذي يتضمن ما سَهُلَ وتيسر، ولا يشق على الْمُنْفِق. فأنفقوا ما فَضُلَ من حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم، فتكونون عالة.[1] (كذلك يبين الله لكم الآيات) فهكذا بين الله الدلالات الدالة على الحق والمنافع من العلم بما يحبه الله تعالى (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) وفي الآية لَفْتُ انتباه للمؤمنين إلى التفكر في الدنيا والآخرة، وهو توجيه إجمالي لأمر واسع عظيم. فالتفكر في الدنيا يشمل البدء والمآل، والسعي والتوقف، والكسب والخسارة، والغنى والفقر، وزوالها وفنائها، وغير ذلك من حال الدنيا وتقلباتها. وكذلك التفكر في الآخرة التي هي المآل، وحياتها التي لا تفنى ولا تزول، وما فيها من السعادة للمؤمنين، والتعاسة والشقاء

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/٣)

والعذاب للكافرين، وغير ذلك مما في الآخرة من دواعي التفكير. كما أن في التوجيه الرباني للتفكر في الدنيا والآخرة ما يوجب المقارنة الدافعة للمفاضلة بينهما، والدافعة إلى تفضيل العاقبة الباقية على العاجلة الفانية. وجاء لفت الانتباه لهذا بأيسر الأساليب البلاغية المستثيرة للذهن، خاصة بعد سؤال السائلين عما يخص أمور دينهم ودنياهم من أجل آخرتهم. وكذلك فيه كرم الله تعالى في العلم والتعليم، إذ تأتي الإجابات عن الأسئلة بأوسع مما تطلبه وتستوجبه الإجابة. مما يفيد أهمية الكرم في التعليم، وفي الإجابة على اسئلة السائلين، في أي مجال وخاصة في العلم، وأخص منه علم الدين الموصل للآخرة.

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠)

تتناول الآية الكريمة ما شغل المسلمين وشق عليهم في أمر أموال اليتامى، حتى عزلوا طعامهم عن طعامهم، خوفاً على أنفسهم من تناولها. فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى (ويسألونك عن اليتامى. قل إصلاح لهم خير. وإن تخالطوهم فإخوانكم. والله يعلم المفسد من المصلح) فبين الله تعالى لعباده أمر اليتامى في كلمة واحدة (إصلاح) فجمعت جميع أنواع ما يمكن من حفظ ورعاية وتنمية مال اليتامى. والإصلاح ضد الفساد (قل إصلاح لهم خير) وهو القيام بإصلاح أموالهم من جميع الأوجه، وهو (لهم خير) أفضل من الفصل الذي يؤدي إلى عدم الإصلاح والنماء. بل وزاد على ذلك ما يمنع عنهم المشقة (وإن تخالطوهم فإخوانكم) فأباح مخالطة اليتامى في الطعام وفي الأموال، وفي غيرها مما تتحقق به مصلحتهم، وترتفع به المشقة. وعزا تبارك وتعالى ذلك الاجتهاد في الإصلاح إلى صفة وحال الأخوة (وإن تُخالِطُوهم فإخوانكم) وهي كلمة تعبر عن الصلة، ومحبة الخير، والحفظ والنماء، وتزول بها أضداد ذلك، من الفساد بجميع أنواعه، مما يفيد أن العلاقة الأخوية يجب أن تكون مثالاً للمحبة في الخير، وفي الكره للشر. ثم أشار تبارك وتعالى إلى المقاصد الداخلية النفسية، التي لا يعلم بها من غير صاحبها إلا الله سبحانه وتعالى (والله يعلم المفسد من المصلح) فهو يعلم مقاصدكم من المخالطة ومما تقومون به في أموالهم. وهذا بلا شك يغرس الحرص

والخوف، ويستصحب المراقبة من الله تعالى في كل ما يقوم به المرء، وخاصة في أموال اليتامى التي هي مدار الآية الكريمة.

وقوله تعالى (والله يعلم المفسد من المصلح) قاعدة سلوكية في كل أمر من أمور الحياة، التي قد لا يُجْزَمُ ولا يُعْرَفُ المقصدُ فيها بالسلوك أو القرائن، إلا بما في الصدور الذي لا يعلمه إلا اللهُ تعالى، عالمُ الغيب والشهادة. وهنا يُعَالِجُ المرءُ سُلُوكَهُ في كل لحظة بقوله تعالى (واللهُ يعلمُ المفسدَ من المصلح) فإن شك أحدٌ في إخلاصه، أصلح وطَيّبَ نفسه بقوله تعالى (واللهُ يعلمُ المفسدَ من المصلح) وإن شك أحدٌ في فعله وسلوكه، عالج نفسه بقوله (واللهُ يعلمُ المفسدَ من المصلح) وإن اجتهد في إصلاح شأن غيره، وحصل ما لا يريده، عالج نفسه بقوله (واللهُ يعلمُ المفسدَ من المصلح) وإن شك في نوايا غيره، قال لنفسه (واللهُ يعلمُ المفسدَ من المصلح)

وبالقياس فإن هذا المنهج الرباني يفيد: أن هناك أموراً في الحياة يصعب حيازة أجزائها، خاصة فيما يخص الآخرين، مما يُوجِب التعامل معها على وجه الإصلاح أولاً، واعتبار الأخوة ثانياً، واليقين بعِلْم الله تعالى لأعمال العباد ثالثاً، وما تنضوي عليه نيته وأهدافه التي لا تخفى على الله تعالى. ويمتد نفع هذا المنهج السلوكي إلى قواعد الإدارة: كإدارة الأعمال، وفي العلاقات الإدارية والعامة، وفي العلاقات الاجتماعية والأسرية، بأن يسعى الإنسان إلى تحقيق مبدأ الإصلاح، المبني على مبدأ الأخوة، ومستظهراً ومستشعراً لرقابة الله تعالى، ومعرفته بالنيات والأهداف. فهي قاعدة ضابطة للسلوك، وعريضة في مساحة سلطانها، وعميقة للمتمعن في جوانب معطياتها وفوائدها. فالحمد لله رب العالمين.

ثم يبين الله تبارك وتعالى امتنانه على المؤمنين بهذا التوجيه الكريم والعظيم (ولو شاء الله لأعنتكم) فلو أراد الله تعالى المشقة عليكم، بعدم إعطاء وبيان هذه الرخصة لفعل، والتي رفع الله تعالى بها الحرج والمشقة، بل وأوجد برفعها دوافعاً وسُبُلاً للخير وتحصيل المنافع لليتيم. وفي هذا التنويه من الله تعالى تعليمٌ للمؤمنين، بعظيم ما أعطى من التشريع، وما حقق به من الخير. وفي لفت الانتباه إلى رفع هذا الحرج ما يفيد أن البيان بالأضداد يعزز عامل الانتباه للنعمة. وهو أسلوب تربوي، بلفت الانتباه عند التوجيه إلى الأضداد التي تُعْرَف بها النعم. ثم ختم الله الآية العظيمة الكريمة بقوله سبحانه وتعالى (إن الله عزيز حكيم) فالعزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. وحكيم في أمره ونهيه، وتشريعه، وتقديره وأقداره، وخلقه، وإحيائه وإماتته،

فهو حكيم في كل شأن. وكذلك الْمُحْكِم للأشياء. والحكمة تتضمن وضع الشيء موضعه، وهي ضد العبث. وفي الجمع بين هاتين الصفتين (إن الله عزيز حكيم) أنه بالرغم من سلطانه وقوته الكاملة، وقدرته التامة القاهرة، إلا أنه حكيم فيها وبها، فهو حكيم في أمره وتدبيره سبحانه وتعالى، فيضعها مقتضى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، كالرحمة والرأفة والنصرة، والمكر للمظلوم ونصرته، والمكر بالظالم ومعاقبته. والحكمة صفة عظيمة جليلة، وقد امتدح الله تعالى في آية أخرى من آتاه الله الحكمة من عباده (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا) ولا شك أن حكمة العباد ليست كحكمة المانح والمعطي لها سبحانه تعالى، فحكمة الله كاملة، وحكمة المخلوق يعتريها ما يعتري الإنسان من النقص، ولكن من يؤت الحكمة فهو خير وأفضل وأحسن ممن لم يحصل عليها، فمن يؤت الحكمة من الناس، يغلب عليه وضع القوة والمعروف في موضعها المناسب. فالحمد لله الذي له هذه الصفات العليا والأسماء الحسنى. وهذا باعتبار أن الحكمة هي وضع الشيء موضعه.

(وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١)

تتناول الآية الكريمة أمر اختيار الزوج والزوجة من حيث الدين (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) فتضمنت الآية النهي عن التزوج بالنساء المشركات حتى تؤمن. ثم بين الله تبارك وتعالى علة النهي (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) فتفيد الآية عملية المفاضلة أمام أمرين، وهما: الإعجاب والخيرية. فالإعجاب قد لا يكون هو الخير والأفضل، فلا بد من النظر إلى المعيار الآخر، الذي هو الخيرية. وهذه قاعدة نفيسة، تُلهم المؤمن بسط فائدتها في كل أمر من الأمور. ومن الفوائد أن الآية ذكرت الإعجاب الذي يفيد أجزاء متفرقة ومكونات مختلفة، نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال (تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[1] فمكامن الإعجاب في المرأة يكون في تلك المقاييس الأربعة.

فبين الله تعالى إعمال المقياس الآخر، وهو خيرية الإيمان (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) لأن خيريتها من خيرية مكونات وآثار الإيمان، الذي يضبط المرأة في تصرفاتها وعلاقاتها، ويحفظها في نفسها ومالها وولدها وزوجها، فتتطلب رضى الله تعالى في طاعة زوجها وبرها له، وهذا لا يكون في المشركة بموجب انتفاء الإيمان عنها. كما أن مقاصد الإيمان في قلبها، يرتقي بها في الدنيا والآخرة.

وهذا ينطبق كذلك في اختيار الزوج، قال تعالى (ولا تُنْكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا. ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) وهذه مماثلة في كلا الجانبين: الإعجاب والخيرية.

ثم بين الله تعالى وجهاً آخر من الخيرية (أولئك يَدْعُونَ إلى النار) فهؤلاء المشركين يدعون إلى النار. والمتأمل يجد أنهم يدعون إلى النار من كل باب: من أبواب الشرك، والمعاصي الأخلاقية، والأذى، وكراهية المسلم والإسلام، ودعوة غيرهم للكفر، وصدودهم وصدهم لغيرهم عن سبيل الله. وهذا كله مناقض لدعوة الله تعالى (والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه) فالله يدعو لضد ما يدعون إليه. وهذه مفارقة كبيرة جداً، تستوجب الترك وعدم الاختيار، مهما كان الإعجاب. وفي الآية لفتة

([1]) البخاري (٣/٣٦٠) برقم (٥٠٩٠)

عظيمة، من أن الجنة والمغفرة هي بإذن الله تعالى وإرادته (والله يدعو إلى لجنة والمغفرة بإذنه) مما يستوجب الدعاء وسؤال الله تعالى الثبات على الحق حتى يلقاه العبد. فلا حظ لأحد إلا بإذن الله تعالى.

ثم يقول تعالى (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) فيبين تبارك وتعالى أنه يوضح أحكامه ومراده لعباده، ويعلمهم ما جهلوا مما يوجب لهم العمل بأحكامه، والامتثال لأمره ونهيه، والتذكر بهذا البيان إذا حصل النسيان.

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٢٣)

ثم يبين الله تعالى عما سأل عنه بعض المسلمين، من شأن المرأة إذا حاضت. فقد كانت اليهود إذا حاضت المرأة منهن لم يؤاكلوها، ولم يُشاربوها، ولم يُجامعوها في البيوت، فَسُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فنزل قوله تعالى[1] (يسألونك عن المحيض) فكانت الإجابة من الله تعالى في غاية البلاغة البيانية (قل هو أذى) فوصفه العليم القدير بكلمة واحدة (أذى) وهي شاملة الدلالة، دون إمعان في تفاصيل الأذى. وفي هذا حفظ لمشاعر المرأة، وحفظ لحيائها الذي يدفعها إلى أن لا يعرف أحدٌ غيرها عن خصوصياتها، فحفظ لها الله ربنا تبارك وتعالى ما تتأذى من تفاصيله على الملأ، ومقام حفظ الحياء والخصوصية كثير في كتاب الله تعالى، كمثل حال المطلقة (يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء) والمتوفى زوجها (يتربص بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) والأذى كناية عما تتأذى المرأة به، من هذا الأمر، وسواء أذى نفسي أو حسي. مما يلزم الزوج كذلك الابتعاد عن هذا الأذى. ولما أن الْمُتَأذي من أي أذى يتأثر نفسياً من ذلك، فيلزم مراعاة ما قد يبدر منها،

ثم أمر تبارك وتعالى باعتزالهن (فاعتزلوا النساء في المحيض) ثم فصل تبارك وتعالى (ولا تقربوهن حتى يَطْهُرن) فأمر باعتزال الوطء أي الجماع، وهو المحرم إجماعاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٣/١)

يدل على أن المباشرة بغير الوطء جائزة فيما أباحه الله تعالى.[١] ولقوله صلى الله عليه وسلم (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[٢] ومن فوائد المسائل الفقهية في هذا، أن السُنَّة فَصَّلَت في هذا، فأمعن الفقهاء والمفسرون النظر، والجمع بين دلالات الآية القرآنية الكريمة وهديه صلى الله عليه وسلم، ليخرجوا من ذلك بمسائل فقهية عظيمة جليلة في هذا الباب.

ومن الفوائد كذلك الأسلوب القرآني في إيراد الإجابة المفعمة بالأدب الجم، كما سبق الإشارة إليه، وبما يعطي المقصود والمعنى بالحكم دون التفصيل الذي يمتعض منه الْمُخَاطب، وهذا يفيد أهمية الأخذ بهذا الأسلوب القرآني الكريم عند التوجيه والتعليم، وعند الحديث والتحدث مع الغير، بأن يكون الكلام مفعم بالحياء وبما يحفظ مشاعر الغير، واختيار محامد الألفاظ، والتعبير بالدلالات والكلمات التي تحمل الأدب. وكذا أهمية تعويد النشأ على ذلك.

ثم يبين الله تعالى الإباحة وإعادة الحال إلى طبيعتها، بعد انتهاء الحيض والاغتسال منه (فإذا تطهرن) وهذا يحمل جانبين: انتهاء الحيض، وهو ابتداء التطهر، وإتمامه بالغسل، الذي وضحت السنة المزيد عن ذلك. (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) وهذا مزيد من الإعلام الْمُفْعَم بالأدب العظيم. فإذا حصل الطهر فليأتي الرجل زوجته من الوجه الذي أباحه الله تعالى، ولا يأتي من الوجه الذي لم يُبيحه الله تبارك وتعالى. وهذا الأسلوب الأخلاقي في التعليم، مسارٌ أدبي وتربوي، للأخذ به في باب منهج آداب التعليم، بحسب نوع المتلقي، ويفيد كذلك أن الحياء سمة من سمات هذا الدين العظيم. فيجب الأخذ بها، والحث عليها.

ثم يبين الله تعالى ما يحبه من عباده في هذا الخصوص (إن الله يُحب التوابين ويُحب المتطهرين) فالله يُحب الذين يكثرون التوبة، لما يعتري الإنسان من التقصير والزلات والذنوب، فيُحب هذا الصنف من المؤمنين. وكذلك يُحب المتنزهين عن الأذى الحسي، بالماء والاغتسال من الجنابة والحيض، والأوساخ، وغيرها مما يوجب النظافة والاغتسال. فجمعت محبة الله تعالى للمتطهرين من الآثام والأذى الحسي والمعنوي.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٧٨/١)

(٢) مسلم (٢٤٦/١) برقم (٣٠٢)

ومن الفوائد الفقهية، استنباط العلماء للدقائق من الدلالات التي فتقت العقول، وأنارتها بعمق التفكير والاستنباط، كقوله تعالى (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) فقال بعض العلماء فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى، للوجوب بعد كل حيضة، وأقوال لعلماء الأصول أنه على الوجوب، ومنهم من قال للإباحة، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب. ثم ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، بعد أن أورد تلك الأقوال: والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدُّ عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) أو مباحاً فمباح كقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح.(١) وهذا يفيد من الناحية العلمية والفكرية والتربوية أثر القرآن الكريم في معطياته ودلالاته على ظهور الفقه والأصول، ومنهج الاستنباط المبني على قواعد استنبطها العلماء من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة، وأن مدار اختلافهم على غور وعمق التأمل والجمع والاستنباط المتعمق، والذي ارتقت وارتفعت به عقولهم وفكرهم إلى هذا القدر من الفهم لدلالات النصوص، وهذا يفيد كذلك أن القرآن الكريم ينمي العقول ولا يجعلها أمام النص واقفة ثابتة، بل متحركة في رحابه.

وإضافة لما سبق من بيان الله تعالى للسائلين عن شأن المرأة إذا حاضت، يبين عَزَّ وجل المزيد من شأن الرجل مع زوجته، فيما كان يتساءل الناس عنه، مما يقوله أهل الكتاب، من اليهود في المدينة: من أن الرجل إذا أتى زوجته من خلفها في فرجها، كان الولد أحولاً.(٢) فقال تعالى (نساؤكم حرث لك فأتوا حرثك أنى شئتم) فأبطل الله تبارك تعالى هذا الاعتقاد بهذه الآية، فتمت معالجة ما انتشر بين الناس من اعتقاد غير صحيح، وهذا أيضاً من فوائد نزول القرآن الكريم منجماً، لمعالجة قضايا الناس المتنوعة. وذكر المفسرون، ومنهم ابن كثير رحمهم الله تعالى: أي كيف شئتم، مقبلة ومدبرة، في صمام واحد. أي فرجها فقط، كما ثبتت بذلك الأحاديث(٣) وكذلك أجاب ابن عباس

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٧/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦١/٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٧٠/١)

رضي الله تعالى عنهما لرجل سأله، فقال: قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن، لا تعدوا ذلك إلى غيره.(١) ومعناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى: من أي جهة شئتم، مقبلة ومدبرة، في أقبالهن.(٢)

وهذا يفيد عناية الإسلام بدقائق ما يحتاجه المسلم من بيان، وأنه يأتي بأسلوب بياني واضح، متكامل، ومُتَّسِماً بالأدب الجم، مع الوضوح التام، وامتلاء النص بما يغرس ويعلم منهجية الحياء في الخطاب والبيان التعليمي، فلا يشعر القارئ بأدنى حرج في تلاوة ذلك على الصغير والكبير والمرأة، وهذه من الإعجاز البياني للقرآن الكريم. فعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله (نساؤكم حرثٌ لكم) والحرث هو مكان الغرس والزرع، وكذلك رحم المرأة ينبت ويتخلق فيه الجنين. ثم يقول الله تعالى في جماع الرجل لأهله (فأتوا حرثكم أنى شئتم) فيتجلى فيه الأسلوب البياني المفعم بالأدب، الذي يحفظ للمرأة والرجل ما يشعر به من الحياء. وهذا مقتضى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فقد جاء في الحديث (إن الله حيي ستير)(٣) وفي نفس الوقت، قال الله تعالى (إن الله لا يستحي من الحق) فالله لا يستحي أن يبين الحق ويُظهره ويأمر به. مما يفيد أن الحياء لا يمنع من إظهار الحق وبيانه، ولكن بيانه بالأسلوب المتشبع بالحياء، الذي هو صفة من صفات الله تعالى. مما يُفيد أهمية التربية على الحياء، في الكلام واختيار الألفاظ المناسبة، والبعد عما لا يجمل التلفظ به، على أي وجه كان، ولْيُرَاعَ فيه الحال والمقام والمقال، والأدب الجم الرفيع، الذي هو من سمت الصالحين من العباد، وعلى رأسهم سيد المرسلين نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فلا يجد القارئ في كلامهم فواحش الألفاظ، أو ما لا يليق. وإنما ينتقون الألفاظ انتقاء الحريص، كقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لمن جاءه يسأل، كما سبق بيانه، حيث قال: قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن، لا تعدوا ذلك إلى غيره. وامتد هذا الأدب الرفيع في كلام العلماء، فكان بيانهم للحق واضح من كتبهم، بأجمل الألفاظ، من غير حاجة لما دُونَهَا من العبارات، والكلمات. اللهم علمنا وارزقنا الأدب بما تحب وترضى.

---

(١) المرجع السابق (٢٧٠/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٣)

(٣) أحمد (٢٢٤/٤) وأبو داود (/) برقم (٤٠١٣)

ومن الفوائد السياقية، اختيار لفظ (أنى) من جملة (أنى شئتم) فأنى تأتي سؤالاً، وإخباراً عن أمرٍ له جهات، فهو أعم في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى)[١]

ثم يقول الله تبارك وتعالى (وقدموا لأنفسكم) وهذا تنويه لما ينبغي أن يتقدم به المسلم مع زوجته، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تقول بسم الله. التسمية عند الجماع.[٢] وكذلك قدموا ما ينفعكم غداً، وقدموا لأنفسكم الطاعة والعمل الصالح. وقيل ابتغاء الولد والنسل.[٣] وليس ثمة ما يمنع من اشتمال الدلالة على جميع ما ذُكِر، وهي الخاصية البلاغية التي تميز بها القرآن الكريم من أن بعض دلالاته تتسع لتستوعب مقاصد مطلوبة متعددة. ومن الفوائد: ربط ما يبتغيه الزوجان بالهدف الدنيوي والأخروي، مع ذكر الله تعالى بالتسمية، لأهميتها وفضلها، ولما فيها من التعبد بما أمر الله تعالى به، وبما يحصل بها من البركة، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا. فرزقا ولداً، لم يضره الشيطان)[٤]

ثم كان خاتمة الآية الكريمة الأمر بالتقوى (واتقوا الله) وهو الوصية التي تتكرر من الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم. ليتنبه المؤمن لهذه الوصية، ويتأكد لديه أهميتها، وليتذكرها في كل وقت وحين، لأن بملازمة التقوى يحصل الخير، ويندفع الشر. فالتقوى تُوجِبُ الانتهاء عما نهى الله تعالى عنه، والامتثال لما أمر به سبحانه وتعالى، والخوف عند التقصير والزلل. مما يدفع المؤمن بالفرار إلى التوبة والاستغفار عند الخطأ والزلل. ثم يُذَكِّرُ اللهُ عباده بالرجوع إليه (واعلموا أنكم ملاقوه) فيدرك المؤمن بهذا اللقاء، أنه مُحاسب ومجازى على ما يكون منه. ثم يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (وبشر المؤمنين) ولم يتم ذكر الْمُبَشر به، ليستوعب كل خير من الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهي من أساليب التشويق في عظائم الخير. فإذا كانت بشارة المخلوق للمخلوق بما يتوقع ويُحِب، تثير في النفس الشوق والتطلع. فكيف ببشارة الخالق الكريم. مما يفيد تربوياً ودعوياً

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٦٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٧٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٦٤)

(٤) البخاري (٢/٤٣٨) برقم (٣٢٧١)

أهمية البشارة، كأسلوب فاعل ومؤثر، وكذلك أهمية التذكير بالتقوى، وتكرارها على مسامع الْمُخَاطَب، من أجل أن يتذكر، ولتقرع أذنه ببذل الخير ولزومه.

(وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥)

تبين هذه الآيات ما يجب أن يتأدب به الإنسان مع خالقه تبارك وتعالى، وكذلك تبين مدار الأيمان والحلف بالله تعالى، وما يتعلق بها، من المناهي والآداب. يقول الله تعالى (ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. والله سميعٌ عليم) فلما أن الإنسان يحتاج أن يؤكد بالْحَلْفِ والأيمان صدق قوله، أو ما رآه، أو سمعه، أو ما علمه، أو ما بما سيفعله أو يمتنع عنه أو لنفي تهمة أو أمرٍ من الأمور، فيؤكد ذلك لغيره بالحلف بالله تعالى، فإنه قد يحصل منه التجاوز، والتعدي بحلفه وأيمانه. فأوضح الله تبارك وتعالى هذا الأمر، بما يشمل جميع أوجه ومتعلقات الحلف، من حيث المعاني والمفاهيم الدالة والمستوعبة لذلك. ففهم علماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وغيرهم من العلماء هذا النص من أوجه متعددة، يحتملها التوجيه الرباني. وهذا من الإعجاز البياني أن يحتوي النص القليل المقتضب على جميع الأوجه التي يُراد بيانها. والوجه البياني الإعجازي ليس في اللفظ واستيعابه لمعاني كثيرة فقط، بل أيضاً في تراكيب الكلام، الذي يستوعب ويشمل مجموعة من الدلالات المقصودة والمرادة. فأورد الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ما ملخصه من الأقوال التفسيرية: أي لا تمتنعوا عن شيء من المكارم، تَعَلُّلاً بأنا حلفنا ألا نفعل كذا، قال معناه ابن عباس والنخعي ومجاهد والربيع وغيرهم. وقال سعيد بن جبير: هو الرجل يحلف ألا يبر، ولا يصل، ولا يُصلح بين الناس، فَيُقال له: بِرّ. فيقول: قد حلفت. وقال بعض المتأولين: المعنى، ولا تحلفوا بالله كاذبين، إذا أردتم البر والتقوى، والإصلاح.

ومن الدلالات كذلك: أقِلُّوا الأيمان، لما فيه من البر والتقوى. فإن الإكثار يكون معه الحِنْثُ، وعدم المراعاة لحق الله تعالى. وكذلك لا تجعلوا اليمين مبتذلة، في كل حق وباطل. وكذلك أنه إذا طُلِب من الرجل فعل خيرٍ، اعتل واعتذر بالله، فقال: عليّ يمين، وهو لم يحلف. وكذلك من المعاني: إذا

حلفتم ألا تَصِلُوا أرحامكم، ولا تتصدقوا، ولا تُصلحوا، وما شابه ذلك من أبواب الخير والبر، فكفروا اليمين.(١)

واشتملت الآية الكريمة على أمهات أنواع الخير، التي يجب أن لا تمنع اليمين من حصولها، وهي البر والتقوى والإصلاح بين الناس (ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتُصلِحُوا بين الناس) فالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، أهم وأولى بكفارة اليمين من الوفاء بالحلف. وهذا يفيد أهمية إدراك عامل المفاضلة بين الأمور، ورفع مستوى التفكير والاستنتاج والاستنباط، وترتيب الأولويات عند المسلم، والارتقاء بفكره وعلمه إلى درجات عالية من الفهم، والقدرة على الاستنتاج والاستنباط، والتفكير الْمُنْتِج، والمُحَقق لتماسك البناء الاجتماعي والأخلاقي، وإيثار الآخرة على الدنيا. فهذه المعاني في فهم فوائد القرآن، ترتقي بعقلية المتلقي نحو التفكير والعمل المحقق لمصالح ومقاصد الشريعة الغراء، والتي تحتاجها المناهج التعليمية، والأساليب التربوية، والدعوية، وكذلك منظومة الإدارة العملية.

وفي الآية من الفوائد أن لا يمنع اليمينُ البِرَ، بل يكفر عن يمينه ويعمل الخير، وأن منزلة البر والصلة وأوجه الخير عظيمة المكانة عند الله تعالى، إذ وجه الحالف أن يكفر عن يمينه. وفيه كذلك ما يدل على أهمية التعاون واللُّحْمَة والترابط، وتقديمها بالتكفير عن اليمين، وفيها حرص الشريعة الغراء على كل ما يجلب الخير للمؤمنين ولمجتمعهم، حيث وجَّهَت ودَلَّت المؤمنين على أبواب الخير، التي أغلقها العبد باليمين. ثم انتهى التوجيه الرباني في الآية العظيمة بقوله تعالى (والله سميع عليم) بأن الله يسمع ما تقولون، ويعلم ما تُسرون وتُعلنون. ففي أوجُه الحلف أن يحلف الحالف على أمر لا يعلمه ولا يعرفه المحْلُوف له، وأن الذي يعلمه ويعرفه هو الحالف، فبين الله تعالى أنه يسمع ويعلم ما لا يعرفه ويعلمه المحلوف له. ففيه تنبيه لعلم الله تعالى بالنوايا: فإن كان المحلوف له لا يستطيع أن يعرف ويعلم، فإن الله يسمع ويعلم. وإذا استصحب المسلم صفات الله تعالى في ذهنه عند كل أمر، أوقفته على ما يحبه الله تعالى، واندفع إليه، وامتنع عما نهى الله تعالى عنه وابتعد عنه. ومن الآداب كذلك ألّا يجعل المسلم ربه عُرضة ونصباً ومانعاً لأيمانه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٦٤ ـ ٦٥)

ثم يبين الله تعالى المزيد من التعليم فيما يخص الإيمان (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) فرفع الله الحرج عما اعتاد عليه اللسان، مما يجري على ألسنة الناس من الأيمان اللاغية، وقد اتفق العلماء على أن لغو الأيمان: كأن يقول الإنسان في عرض كلامه: لا والله. بلى والله. غير معتقد لليمين ولا مريد لها.(١) فهو لا يقصد اليمين البتة. وهذا فضل من الله عظيم، إذ رفع الحرج والإثم عن هذا النوع، الذي كثيراً ما يَبْدُرُ من الإنسان، دون إرادته اليمين. ولكن المؤاخذة تكون كما بين تبارك وتعالى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) بأن يحلف على الشي وهو يعلم أنه كاذب، فيخرج منه أن يحلف على الشيء وهو لا يريد إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه. ثم تُختم الآية الكريمة بقوله تعالى (والله غفور حليم) غفور لعباده حليم عليهم. وهذا من عظيم نعم الله تعالى ورحمته أنه يغفر لعباده ويحلم عليهم، ولا يُعَجِّل لهم العقوبة. ويغفر لمن استغفر وتاب. فالحمد لله تعالى على هذه النعمة العظيمة. وهذه الصفات الحميدة لله ربنا تبارك وتعالى.

(لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٢٧)

ينتقل السياق القرآني إلى قضايا الافتراق بين الزوجين، فيقول تبارك وتعالى (للذين يؤلون من نسائهم تربُّص أربعة أشهر. فإن فاءُو فإن الله غفور رحيم) تعالج هذه الآية وما بعدها ما يمكن أن يقع من الزوج من الأيمان على ألا يطأ زوجته، فمن آلى من زوجته دون أربعة أشهر، فهذا مِثْلُ سائر الأيمان. إما أن يُكفر ويجامع زوجته، أو يمضي في يمينه. وليس لزوجته سبيل عليه، لأنه دون أربعة أشهر (تربص أربعة أشهر) وإن كانت المدة أكثر من أربعة أشهر. انتظرت الزوجة أربعة أشهر، (فإن فاءو فإن الله غفور رحيم) أي فإن رجعوا عن الأيمان، فالله يغفر لهم ما سلف، وقد رحمهم بما جعل لهم من كفارة اليمين، وإن لم يفيء، وانتهت الأشهر الأربعة، فلها أن تطلب الجماع، فهو حق لها. بعد الأربعة أشهر. فإن جامع عليه كفارة اليمين، وإن امتنع فلها أن تصبر، أو تطلب الطلاق، وإن امتنع يُجبر على الطلاق.(٢)

(١) المرجع السابق (٦٦/٣)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨٠/١)

وهنا يظهر البيان القرآني المتضمن لمجموعة عظيمة من الفوائد، التي منها أدب العبارة التي احتفظت للزوجين بما يحصل بينهما في ستر بياني لفظي، فيقرؤه الصغير دون أن يفطن له، ويقرؤهُ الكبير فيفطن له دون أذى لحيائه، لما جُبِلَ عليه الإنسان من الحياء. مما يؤكد ارتقاء أسلوب القرآن الكريم بالعقل والذوق البشري إلى درجات عالية من الأخلاق والآداب والبلاغة الأسلوبية الرائعة، وكذا أهمية تربية الحياء في كل جانب، ومنها جانب اختيار الألفاظ المعبرة دون إيذاء لفضيلة الحياء. ومن الفوائد كذلك تعظيم الحقوق بين الزوجين، وفق القدرات والخصائص التي تحكم العلاقة بينهما، فحدد تبارك وتعالى ذلك في أربعة أشهر، مما يفيد ويبين للرجل ألا ينقطع عن زوجته فوق أربعة أشهر في سفر ونحوه، كحد أعلى. وأن للمرأة حقٌ واجبٌ في هذا الأمر، وإذا امتنع الزوج فلها أن تطالب بحقها، ولها أن تطلب الفراق بالطلاق إذا تجاوز الحد. وفيه من الفوائد منع الأذى الحسي والنفسي، ووجوب أداء الحقوق بين الزوجين، وأن مساحة الخيار مساحةٌ محدودةٌ، ومضبوطةٌ شرعاً. وكذلك عناية الشريعة بأدق أمور العلاقة بين الزوجين، كما أن في تحديدها بأربعة أشهر، دليلٌ على أنه من عظيم عليم خبير بما جُبِلَت عليه المرأة، فلا يمكن لأحدٍ أن يُحَدِّد مدة في هذا الأمر، ويحكم به إلا من السميع العليم، بل حتى تأديب الزوجة بالهجر لا يكون في أكثر من أربعة أشهر، قال تعالى في سورة النساء (واهجروهن في المضاجع) وقد استدعى عمر رضي الله تعالى مجموعة من النساءً، وسألهن. فذكرن أربعة أشهر، فجعل عمر رضي الله عنه مدة غزو الرجل أربعة أشهر، فإذا مضت المدة، رد الغازين ووجه بغيرهم.[1] فليتأمل المسلم وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم، عند حدود الله تعالى، ومراعاتهم لأحوال الناس، بما يحقق حفظهم في أنفسهم وأعراضهم، وكذلك يُلاحظ منهجية التنظيم وطريقة الاستدلال لها.

ثم تنتهي الآية الكريمة بما يتناسب مع الحال (وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) وإن أرادوا الطلاق، وعزموا على ذلك، فإن الله تعالى يسمعكم، ويعلم حالكم ونواياكم ومرادكم من هذا الأمر، إضراراً ومشاقة، وإلحاق الأذى بالطرف الآخر، أو غير ذلك. مما يوجب ويستجيش في النفس مراقبة العليم السميع الخبير. وهذا يدفع إلى عدم المضارة بين الزوجين، وإن حصلت المضارة فأبواب الحقوق مضبوطة بما يمنعها. فالحمد والشكر لله تعالى، أن أنعم على عباده بهذا التشريع العظيم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٧٢)

(وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ٢٢٨)

ثم ينتقل السياق إلى وجه آخر، مما يخص المطلقة (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) فالمطلقة تكون عدتها ثلاثة أطهار من الحيض، فينتظرن هذه المدة، التي هي قوله تعالى (يتربصن) وقد استوعبت كلمة (قُروء) دلالة الطُهْر والحيض، وهذا من الإعجاز البياني، أن تأتي اللفظة الواحدة، لتستوعب حالتين. قال الإمام القرطبي رحمه الله عن (ثلاثة قروء) أي ثلاث أدوار، أو ثلاث انتقالات، والمطلقة متصفة بحالتين فقط، فتارة تنتقل من طهر إلى حيض، وتارة من حيض إلى طُهر، فيستقيم معنى الكلام، ودلالته على الطهر والحيض جميعاً، فيصير الاسم مشتركاً.[١] وللعدل وحفظ الحقوق، كان انتظار المطلقة هذه المدة، لأجل التأكد من عدم وجود الحمل، وذلك لمنع تتداخل الأنساب، وليُحفظ حق الزوج الْمُطلِّق إن كان له ولد. وحفظاً لحق للزوج الآخر من ألا يُدْخِل في نسبه ما ليس منه. وهذا دليل على أهمية طهارة وحفظ الأنساب والنسل، وعدالة الشريعة، ودقتها في أحكامها العظيمة الرفيعة الجليلة.

وبل ويجب عليها أن تُفْصِح عن حملها، إن كان في الرحم حمل من الزوج الْمُطَلِّق (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) والنهي يقتضي تحريم كتمان ما في بطنها من جنين. لما فيه من حق الزوج الْمُطَلِّق، من الأبوة للولد. وكذلك حق الولد في النسب، من أن يُنسب لأبيه. ومن الفوائد تأكيد الله تعالى لتوحيد الربوبية، بأنه هو الخالق لهذا الجنين، فأكد الله تعالى ما يخصه من الخلق (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) بأنه هو الذي خلق ما في رحم المرأة، حتى لا يُنسب الخلق للزوج والزوجة. فهو الخلّاق العليم، وأن ما يخصها هو البيان، أو الكتمان لذلك. ثم حذر الله تعالى من كتمان ذلك الحمل، مستثمراً إيمانها إن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر، مما يفيد أهمية استثمار هذا الاختصاص تربوياً ودعوياً، وفي التقاضي وغيره لِمَا يُثير في النفس من الخوف من الله تعالى، والانتصار لتحقيق الإيمان، الذي يدفع بصاحبه لأداء أمانة الحقيقة، خوفاً من الله تعالى، الذي حَمَّلَه ومنحه هذا الوصف، الذي يُوجِبُ الصدق، حتى على ما تكره النفس. وفي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٦/٣)

نفس الوقت يحمل الوعيد، من عدم بيان الحقيقة، إن كان يؤمن بالله تعالى، وباليوم الآخر الذي فيه الحساب والجزاء (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) فسبيل المؤمنات يجعلهن يأبين الكتمان، وقد آمَنَّ بالله تعالى، وبما يترتب على الإيمان بالله تعالى من المعرفة التي تجعلهن يبتعدن عن كتمان الحق، وكذلك إيمانهن باليوم الآخر، الذي قد عرفن أنه يوم حساب وجزاء. ومن الفوائد: أهمية استثمار الأوصاف والخصائص المشجعة نحو فعل الخير وترك الشر.

ثم يبين تبارك وتعالى ما يمكن أن يقوم به الزوج من رد زوجته إلى نكاحها (وبُعُلتُهُن أحق بردهن في ذلك) فمن يُسر الشريعة الغراء، ورحمة الله الرحمن الرحيم، أن أتاح الله تبارك وتعالى للزوج أن يرد زوجته إلى نكاحها، ما دامت في تلك العدة، وأن من مقاصد الشريعة جمع الشمل، والسعي لتحقيق ذلك. ومن الفوائد أن سمى الله تعالى الزوج هنا بعلاً (وبُعُلتُهُن) وسُمِّيَ بعلاً، لعلوه على الزوجة، بما قد مَلَّكَهُ اللهُ تعالى من زوجيتها. ومنه قوله تعالى (أتدعون بعلاً) أي رباً، لعلوه.[١] و تفيد الآية الكريمة أن النية في المراجعة والإعادة، مبنية على الإصلاح، وليس من أجل المضارة لها (وبُعُلتُهُن أحق بردهن في ذلك. إن أرادا إصلاحاً) مما يبين أن منهج الإسلام قائم على النوايا الصالحة، قاطعاً للنوايا الخبيثة، للإضرار بالطرف الآخر. وبالتالي لا يجوز له أن يراجعها من أجل الإضرار بها. وهذا من خلال نيته التي لا يعرفها أحدٌ من الناس إلا هو من نفسه، وقبل ذلك العليم الحكيم سبحانه وتعالى. وهذا لا يمكن أن يكون في غير منهج يؤمن أصحابُه بالله تعالى واليوم الآخر. ليعرف المؤمن نعمة التشريع، مع نعمة الإيمان، التي يظهر أثر نعمتها على السلوك والعلاقات، وحفظها بالمنهجية التي لا يمكن لها أن تتحقق بغير ذلك. فالحمد والشكر لله تعالى. ومن فوائد دلالات الآيات: ما زَخُرَ به الفقه الإسلامي في هذا الباب والموضوع أو في غيره من دقائق الأحكام، حيث استنبط العلماء أحكاماً فقهية عظيمة الأثر في حياة الزوجين، وذلك من خلال هذه الآيات وغيرها، فينظرها من أرادها في كُتُب الفقه والتفسير.

ثم تأتي المعادلة في الحقوق بين الزوجين، في قوله تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) فكما أن للزوج حقوقاً، فكذلك للزوجة حقوق على زوجها، وبالتالي كل أحدٍ منهما عليه مسؤولية تجاه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٩/٣)

الآخر، فليؤد كل واحد منهما ما عليه من الحقوق للآخر بالمعروف. ثم بين سبحانه وتعالى أن للزوج درجة زائدة (وللرجال عليهن درجة) فالرجل يزيد على المرأة بدرجة، لما في ذلك من الإنفاق المالي، ولما في الرجل من خصيصة القوامة. فلا بد لأحد منهما على الآخر إمرة وقيادة من غير إنقاص لحقوق الآخر، ومنح الله تعالى هذه الولاية للرجل، لأن الطبيعة البشرية تقتضي ذلك، فلا تصح أمور الناس إلا بولاية. كما قال تعالى في سورة النساء (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذا التفضيل والحكم بزيادة الدرجة نعمة من الله تعالى، لتستقيم أمور المنزل، ومكونات الأسرة، التي ستؤول إلى ذرية، ورعاية وتوجيه ومسؤولية.

ثم ختم الله تعالى هذه الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل (والله عزيز حكيم) فهذا بيان وتأكيد على أن الله عزيز، له القوة والقدرة الكاملة، مما يوجب الخوف من انتقامه لمن عصاه وخالف أمره، وحكيم في تشريعه وفي أمره. ومعرفة هذه الصفات الآلهة، وعلاقتها بمضمون الآية الكريمة، ما يوجب الحذر من مخالفة أمره، أو الاعتراض على شيء منها، فهو حكيم فيما شرع، يعرف عن مخلوقه الإنسان ما لا يعرفه الإنسان عن نفسه، فهو الذي خلقه، وهو أقرب إليه من نفسه.

(ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠)

ثم ينتقل السياق إلى بيان الطلاق وآدابه (الطلاق مرتان) فأباح تبارك وتعالى الرجعة في المرة والمرتين، ما دامت في العدة. وأبانها في الثالثة، التي هي (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وهذا ضابط العودة والرجعة، أو المفارقة النهائية، ومن فوائد ذلك، أنها أتاحت الفرصة للتفكر بعد حدوث الطلقة الأولى، ثم أتاحت الفرصة الثانية، حتى لا يُقدِمُ على الثالثة إلا وقد مَرَّ بتجربتين في أمر الطلاق، وكذلك أتاحت الفرصة لمن لم يتفقان على أن تنتهي تلك العلاقة بأحسن ما يجب أن تكون، من حُسن التعامل في الافتراق، فكانت مُحَمَّلة بأدب رفيع، ورحمة جمة، مفروضة من فوق سبع سماوات على الزوج، ليحفظ حق طليقته. فإما يمسك عليه زوجه بالمعروف، فيُحسِن صحبتها وعشرتها، بما يُعرف من الحق، وكريم العشرة، أو يسرحها بإحسان، وكلمة (بإحسان) تحمل كل جميل يتجاوز بها عن الظلم، بل لا يحبس ظلمه عنها فقط، ليتجاوز بذلك إلى درجة الإحسان. حيث اشتملت لفظة (بإحسان) على ثلاث مكونات من المعاني والدلالات الأخلاقية الرفيعة، وهي: منع الظلم لأنه منافي للإحسان، وإعطائها كامل حقوقها المادية والمعنوية، لأنه جزء من الإحسان، والتفضل عليها بالزيادة من الحقوق المادية والمعنوية وهو كمال الإحسان. وهذا يفيد أن شريعة الله تعالى قائمة على الإحسان والرحمة، وعلى ما يُعرف من الحق وعدم الإضرار. وهذا يوجب أن يتحلى الزوج والزوجة بما يحقق ذلك، لما ينعكس أثره على الاستقرار النفسي والسلوكي والأخلاقي للأولاد، الذين هم امتداد للأسرة، بل ينشؤون ويتربون على هذه المنهجية، التي ستنعكس على مكوناتهم الأسرية فيما بعد، حيث ستخرج من هذه الأسرة أُسَرٌ متعددة، قد تفرعت من تلك الأسرة الأساسية.

ومن الدلالات البيانية، أن الله تعالى جمع جميع خصال الخير في إمساك الزوجة، بكلمة واحدة (بمعروف) وكذلك جميع خصال الخير، لتسريح الزوجة، في كلمة واحدة (بإحسان) فاستوعبت واستوفت اللفظتين كامل المراد الأخلاقي، بمساحته ومكوناته الواسعة العظيمة. وهذا من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ومضامينه الأخلاقية الرفيعة.

ثم يأمر الله تعالى الزوج بأن لا يتعدى على حقوقها (لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) فيحرم أن يأخذ من مهرها شيئاً. وكلمة (لا يحل) تعني أنه أصبح ملكاً لها، فلا يجوز التعدي عليه. وأن أخذه بغي وتعدي، وأنه محرم. وهذا من حفظ الشريعة للحقوق في أدق قضاياها. ثم استثنى لهما تبارك وتعالى، ما يحقق لهما الفراق بلا ضرر ولا ضرار (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) وهذا خطاب من الله تعالى للزوج والزوجة. فإن خاف الزوج والزوجة، بأن غلب على ظنهما، ألا يؤدي كل واحد منهما ما لصاحبه من الحقوق، فعالج تبارك وتعالى الأمر بقوله (فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وهذا الخطاب للحكام والمصلحين والمتوسطين بخير، فبين الله تعالى لهم، أن للزوجة أن تفتدي أمرها بإعطاء زوجها، وأذن له أن يأخذ منها. وهو الْخُلْع. مما يفيد أهمية إقامة حدود الله تعالى، وأن العلاقة بين الزوجين مبنية على إقامة هذه الحدود، وأن إقامتها هي الضابطة لاستمرار العلاقة، أو توقفها، فليس استمرارها لأي علة أخرى، طالما فقدت القدرة على إقامة حدود الله تعالى. وحدود الله تعالى، هي ما يجب أن ينتهي إليه العبد، ولا يتجاوزها. بما تتضمنه من أوامر ونواهي، وفروض، وحقوق، وواجبات، ومسؤوليات. مما يفيد أن إقامة الأسرة محفوفة بدقة الرعاية الربانية، في تفاصيل موجبات تكوينها واستمرارها، أو توقفها، مما يلزم المسلم أن يحترم تكوين هذا الكيان العظيم.

ومن فوائد المعاني اللفظية، أن الخطاب متعلق بالزوجين (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) فهو خاص بهما في أدق الخصوصيات التي لا يعرفها إلا هما. فالقضية مشتركة بينهما. مما يفيد، إذا غلب على ظنهما، بالعلم من حالهما فيما مضى من حياتهما، أنهما لا يستطيعان القيام بحدود الله تعالى، وأشفقا من وقوع ما يُكره بينهما، فلهما أن ينفصلا.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى الزوجين، بصيغة النهي عن تعدي حدوده (تلك حدود الله فلا تعتدوها) فأشارت الآية الكريمة أولا إلى أن الله تعالى بين تلك الحدود (تلك حدود الله) ثم النهي عن تعديها (فلا تعتدوها) فاشتملت على الترتيب البياني للصياغة، وكذا الإشارة إلى بيان تلك الحدود، ثم التحذير من مجاوزتها.

وحدود الله تعالى هي: شرعه الكريم، بما تضمنه من أوامر، ونواهي، وواجبات، وحقوق، ومسؤوليات. فبعد أن بين تبارك وتعالى حدوده، وجه الزوجين بما يجب عليهما تجاه حدوده، بأن يلزموها، ويمتثلوا بها، ولا يتجاوزونها بالمخالفة، والتقصير والتعدي. فإن من يتجاوزها ظالم لنفسه،

وظالم للطرف الآخر (ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون) فمن تجاوز الحلال للحرام، وقَصُرَ عن أداء ما يجب عليه، وتجاوز المعروف إلى المنكر فهو ظالم. استحق العقاب. وهذا دليل على تحريم الظلم، لأن الله تعالى سمى من اتصف بمجاوزة حدوده ظالم. ونسأل الله تعالى السلامة والتوفيق.

ثم يبين الله تعالى الحالة التي يمكن أن تعود المطلقة في الطلاق البائن للزوج الْمُطَلِّق، قال تعالى (فإن طلقها فلا تحل له) فإذا حصل الطلاق البائن، تصبح محرمة، غير حلال له، إلا بما قاله سبحانه وتعالى (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) فإذا حصل نكاح غيره لها، ثم طلقها، أو مات عنها، جاز لهما النكاح من جديد (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) فأفادت الآية الكريمة: إن طلقها الزوج الثاني، فلا حرج أن يتراجع الطرفان، وهما الزوج الأول والمطلقة من زوجها الثاني.

وفي لفظة (أن يتراجعا) تعبير عن اشتراك رغبة الطرفين معاً، واشترط لذلك شرطاً، يحسانه بمعرفتهما، وهو إقامة حدود الله تعالى (فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله) أي غلب على ظنهما العلم بإقامة حدود الله تعالى. وفي هذا الشرط ما يفيد أن العلاقة ليست مبنية على الرغبة فقط، بل أيضاً مبنية على القدرة في إقامة حدود الله تعالى، المتضمنة للحقوق الزوجية، لأن أداء الحقوق الزوجية سَبِيلُ للحياة الكريمة، ودعامة قوية لأسرة قوية، قادرة على رعاية ما يَرزقهما الله تعالى من الذرية. وهذا يفيد كذلك أهمية تعظيم الحقوق الزوجية، باعتبار أنهما مأمورين بها، وليس تفضلاً من أحدهما على الآخر، أو مجالاً لامتنان بعضهما على بعض، بل المنة لله تعالى، الذي أوجد هذه الأحكام، والحدود الشرعية للعلاقة الزوجية. ويفهم بالمقابلة إذا غلب على ظنهما، أنهما لا يستطيعان إقامة حدود الله تعالى، فلا يحل لهما الإقدام على التراجع. حتى لا تعود ولا تُعاد العشرة السيئة بينهما، لما قد يترتب على ذلك من المفاسد.

ومن فوائد قوله تعالى (فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله) الحسم في الأمور بما يغلب عليه الظن. فإذا تردد الإنسان في أمر، وليس هناك مجال غير الظن، فيأخذ بما غلب عليه ظنه. لتكون العزيمة والتوكل على الله تعالى. لأن منهج الإسلام يحارب الشك لما له من الوسوسة، المؤلمة للمسلم، والجالبة للشر. ومن أمثلة ذلك: أن يتوضأ المسلم، فيشك في انتقاض الوضوء، فإنه يقطع الشك بالأصل. ليقطع دابر الشك.

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) فهذه شريعة الله تعالى في قضايا الزواج، والعشرة، والطلاق، قد بينها ربنا تبارك وتعالى، مما يؤكد أهمية العلم بها، وأهمية تطبيقها والقيام بها، وعدم الاعتداء عليها، لأنه تبارك وتعالى قد بينها واضحة جلية (لقوم يعلمون) عندهم من مقومات التعلم والمعرفة ما تقوم بها الحجة عليهم. فلما منح اللهُ تعالى الإنسانَ من القدرة على الفهم والعلم، الذي ينتفي به الجهل عما فرض وبين للزوجين. أصبحوا ليسوا بها جاهلين، وأوجب ذلك العمل بها. وهذا يفيد أن على الزوجين معرفة الواجبات والحقوق الزوجية، لأنه لا يمكن إقامتها إلا بمعرفتها، بل يجب عليهما معرفتها حتى يقوما بأدائها كما فرضها الله تعالى. وهذا يفيد علمياً وجوب معرفة الزوجين لما يتعلق بهما من حقوق وواجبات، وما يجب عليهما تجاهها من التزام وأداء، حتى لا يكونا من الظالمين. لأن الله سبحانه وتعالى بين في تمام الآية السابقة، أن من يتعدى حدوه فهو ظالم (ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون)

وفي قوله تعالى (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) ما يفيد فريضة العلم بتلك الحدود من قبل الزوجين.

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ٢٣١)

يبين الله تعالى منهجية وآداب الطلاق، حيث يقول الحق تبارك وتعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) ففي جملة (فبلغن أجلهن) ما يدل ويفيد على أن هناك مدة زمنية للمطلقة، وهذ في الطلاق الرجعي، للمرة الأولى، والثانية، لأن لهما أجل، وهي العدة. فيكون هنا خياران، إما إرجاع المطلقة، وإما تركها، وهذان الخياران لهما آداب واجبة، وليست خيارية (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) وهذا أمر من الله تعالى، بأن يكون الإرجاع بهدف ونية إقامة العلاقة الزوجية وفق الحقوق والواجبات، وهو الإمساك بمعروف، أو تركها دون إلحاق أي ضرر بها، وهو التسريح لها بمعروف. وليس بالتعنيف والإضرار في كلا الحالتين. ففي حالة الإرجاع، لا يكون الهدف هو إلحاق الضرر بها (ولا تُمسكوهن ضراراً لتعتدوا) فيراجعها بنية الاعتداء والإيذاء، كإطالة الْعُدّة بمراجعتها مثلاً، أو بأي قصد سيء آخر. ثم بين تبارك وتعالى لمن يفعل ذلك الإضرار، بأنه ظالم لنفسه (ومن

يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) فيكون فاعل هذا الاعتداء على فرائض الله تعالى ظالم لنفسه، بظلمه طليقته، فوقع في ظُلْمين، ظُلْمُه لزوجته، أوقعه في ظلم نفسه كذلك، لما يقع عليه من الجزاء من الله تعالى. وفي الإشارة لظلمه لنفسه، لأنه مُتحقق عنده ظلمه لطليقته. ولكنه مُتناسي أو ناسي أن هذا ظلم لذاته بما يوقع نفسه في عذاب الله تعالى.

والمتأمل في مخاطبة الآيات الكريمة في هذا المقام يجد أنها مخاطبة للزوج، باعتبار ما له من القوامة، وتَحَمّل المسؤولية، ولكون النية خفية لا يعرفها أحدٌ غيره، في إمساكه، أو تسريحه، والله تعالى قبل ذلك مُطَّلِعٌ على نيته، فكان الخطاب والتحذير متوجهاً له، وكذلك كانت العقوبة موجهة له. فعالج تبارك تعالى هذا الأمر من خلال مخاطبة مَنْ أُوكِلَ له حق القوامة. ولو تأملها المرء لاستحى ممن خاطبه وعَلِمَ نيته، وسخر له هذه الزوجة، سكناً له. فلا يجب عليه تجاه هذه النعمة، والمنزلة إلا الامتثال، لمن أكرمه سبحانه وتعالى. وكذلك من الفوائد الإيجاز البلاغي في جملتين: الأولى (فأمسكوهن بمعروف) والثانية (سرحوهن بمعروف) فهما جملتان متضادتان: إمساك أو تسريح، لكنهما اجتمعتا على فضيلة المعروف، وجمعتا معروفاً واحداً، وهو الإحسان في كلا الوجهين، من الإمساك أو التسريح. كما أن لفظة (بمعروف) جمعت جميع خصال الخير، الواجبة والمستحبة، وزيادة الفضل عما يجب. وكذلك من الجوانب البلاغية، لفظة (ضرارا) فلم تُعَيّن درجته، ولا نوعه، لتستوعب هذه اللفظة جميع أنواع ودرجات الإضرار، حتى يتقي الله تعالى الزوج، في أي نية، ولأقل درجات وأنواع الإضرار. فسبحان من استوعب كلامه جميع مراده. فكما حفظ الله تعالى للرجل حقه في القوامة، حفظ حقوق المرأة في جميع أحوال معيشتها في بيت زوجها.

ثم ينهى الله تعالى عن التلاعب بآياته (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) وهذا النهي يقتضي الوجوب، والبعد والحذر، من أن يتجرأ الإنسان على آيات الله تعالى، بعدم الامتثال لها، ولما تضمنته من تشريع وترتيب، فإن من لم يعمل بمقتضاها، فهو بمثابة المستهزئ والمتلاعب بها، وكأنها لا تعني له شيئاً. وهذا نهي تحذيري، يفيد أن من يتخذها هزواً فقد ضاد النهي، فعصى الله تبارك وتعالى، فاستحق العقوبة. ولفظة الاستهزاء في الآية (هزوا) تُشعر المسلم بقبح صنيع من لا يتقيد بآيات الله تعالى، مما يوجب تعظيمها في القلب، وفي الانقياد والتطبيق لها. ثم بعد ذلك التحذير، يأتي التنويه ولفت الانتباه إلى قيمة ومنزلة النعمة (واذكروا نعمة الله عليكم) سواء نعمة الإسلام، أو نعمة تسخير الزوجات. أو نعمة الأحكام، وما فيها من الرفق والرحمة. وفي الآية تذكيرٌ، وأمرٌ بتذكر النعم

التي تستوجب الشكر. والشكر يستوجب الحمد والطاعة، والحفظ للنعمة بما يحقق رضا الله تعالى، عن الذاكر الشاكر لها.

وفي قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم) عموم النعم، ثم خص بعضها بما يناسب الحال (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) وهما نعمة القرآن الكريم، وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، لما فيهما من التشريع والبيان المنظم لحياة الإنسان: عبادة، وعقيدة، وأحكاماً: في مجال الأهل والمال والولد والمجتمع، وفي غيرها مما يحتاج إليه الفرد والمجتمع، والحاكم والمحكوم، وكل ما يتوصل به الإنسان لآخرته. فكانت موعظة يتعظ بها المُخَاطب (يعظكم به) لما فيها من المواعظ بالترغيب والترهيب، والقصص، والأحكام، والأمر والنهي، والحث، وبيان الحكمة، وغيرها مما يتعظ به الْمُخَاطَب. وهذا يفيد تربوياً ودعوياً أهمية الموعظة بعد البيان والتعليم، لينتهي الموقف التعليمي والدعوي، بموعظة تخاطب القلوب، وتستجيش الأفئدة، وأن خير ما يتعظ به الناس، كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لما فيهما من المواعظ الكافية البينة. وكذلك يفيد هذا أهمية الترغيب والترهيب في ضبط السلوك، وكذلك التذكير بنعم المنعم، لأنها تكسر النفوس المتعالية، أمام ما يتنعم به المرء من النعم، التي يغفل عنها، لاعتياده عليها، فاحتاج لمن يذكره بها.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة، بالأمر بالتقوى (واتقوا الله) لأن من تمسك بها، عصمه الله تعالى، وأعانه. ثم ينبه ويذكر المولى سبحانه وتعالى بعلمه، الذي أحاط بكل شيء (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) فمن كان بكل شيء عليم، فلن يخفى عليه ما تحمله النيات، من الإضرار أو الإصلاح، فضلا عن الأعمال الظاهرة. وهذا يُوجب الخوف والهيبة منه سبحانه وتعالى، التي تقتضي طاعته، وعدم معصيته.

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢٣٢)

وما زال السياق في أمر الطلاق والتراجع، إذ يقول الله تعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) ففي ذلك بيان أنه إذا تم تطليق المرأة، طلقة أو طلقتين، التي هي المرة الأولى أو الثانية، وبلغت منتهى العدة (فبلغن أجلهن) وهذا فيما يخص الزوجين، ليتوجه الخطاب بعد ذلك من الرحمن تبارك وتعالى إلى أولياء المرأة، بأن لا يَحُولُوا بين تراجع الزوجين (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا

تراضوا بينهم بالمعروف) فنهى الله تبارك وتعالى الأهل أن يعضلوهن، فيضيقوا عليهن، ويمنعوهن، بحبسهن عن أزواجهن، إن أرادا وتوافقا على التراجع بالمعروف، المتضمن للقيام بالحقوق. وهذا يفيد أن منهج الإسلام، منهج بنائي للأسرة في تأسيسها وتعايشها، وعند حصول ما يعطبها، وأن من مقاصد الدين الأسرية، الاستمرار والحفاظ على كيانها، وأنه يستوجب على الأولياء أن يكونوا عوناً للبناء، كما يُحب ربي ويرضى.

كما أن هذا الخطاب والبيان، موعظة من الله تعالى لأولياء أمور النساء، مما يجب الالتزام به (ذلك يوعظ به) وجعل الالتزام بوعظه سبحانه وتعالى، دليل الإيمان (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) فالإيمان به يوجب الطاعة، وتخصيص اليوم الآخر، لما فيه من المآل، المتضمن للحساب والجزاء. فكانت الموعظة ببيان الأحكام، ومنهج التراجع، الْمُعَزَّز بالتذكير بالإيمان والمال، وهذا يفيد ويبين أن منهجية الإصلاح والتربية والتعليم والدعوة، يجب ألّا ينتهي فيها البيان المعرفي، دون عامل التحفيز الإيماني، الذي يدفع ويستثير المتعلم نحو التطبيق العملي، لمقتضى النص التعليمي والبياني. وهذا مثل ما حصل في قضية طليقة أبي البداح رضي الله تعالى عنهما، التي ذُكِرت في أسباب النزول، من أن أخت معقل بن يسار، كانت تحت أبي البداح، فطلقها حتى انتهت عدتها، ثم ندم فخطبها، فرضيت، وأبى أخوها أن يزوجها. وقال: وجهي من وجهك حرام إن تزوجتيه. فنزلت الآية الكريمة. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم معقلاً. فقال له (إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك عن أبي البداح) فقال آمنت بالله، وزوجها منه.[1]

ثم يبين الله تعالى فائدة ما وجَّهَ إليه، وأمر الالتزام به، فقال تعالى (ذلكم أزكى لكم وأطهر) فهذا الذي وجه وأمر به تبارك وتعالى، أصلح وأنقى، فهو الأفضل، ولم يتم ذكر المفضول في نص الآية، فَحُذِف المستهدف بالمقارنة، وهو ما تجتهدون فيه لمصلحة الزوجة، من عدم رجعتها لزوجها، ولما قد يغلب أحياناً من الحنق والمكابرة والاقتصاص، ويكون الاجتهاد في غير مكانه، فهذا التشريع أصلح وأطهر وأنقى لكم مما تجتهدون فيه وبه، ولما يعتري الاجتهاد من الخوارم. ثم أيضاً في جملة (ذلكم أزكى لكم وأطهر) ما يفيد تزكية منهج الله تعالى وحكمه من العيب والنقص، الذي قد يحدث فيما تقررون في حق الزوجة، وأيضاً تزكية ومطهرة لأنفسكم، من الإثم الذي يلحق بكم، من منع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٤/٣)

عودة الزوجة لزوجها، وكذلك فيه تزكية لأمر الزوجين، باختيار أحسن الأوجه لحياتهما، طالما التزما بإقامة الحياة بالمعروف. والانتهاء عن أسباب ما حصل من الفرقة. وأزكى للذرية بتواجد الأبوين في كنف البيت، ويكون أطهر وأنقى للأسرة جمعاً، من كل عيب ونقص، قد يحدث لهم من قطع أمر المراجعة. مما يتبين أن في عدم ذكر المفضول، ليعم نفع النص باحتواء أبواب متعددة، كما ظهر ذلك آنفاً بفضل الله تعالى وجوده وكرمه وإحسانه.

ثم بين الله تعالى العلة العظيمة في تقديم ما أمر وبين، على ما تجتهد فيه العقول (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) مما يفيد كذلك أهمية تقديم النص الشرعي على اجتهاد العقل. لأن النص الشرعي صادر عن العلم الذي أحاط الله تعالى به كل شيء، بينما العقل البشري، يقصر علمه عما غاب عنه، وعن مغبة الكثير من الأشياء، وينعدم عن معرفة ما في النوايا، التي تحملها الصدور، في حين لا يغيب من ذلك شيءٌ عن علام الغيوب، سبحانه وتعالى. فأوجب هذا تقديم النقل على العقل، والإذعان له، بقول المؤمن (ربنا سمعنا وأطعنا)

ومن الفوائد العامة، عناية نصوص القرآن الكريم من رب العالمين بأساس الأسرة، وتنظيم حلول مشكلاتها، وأن الفراق قد يأتي بعده لقاء أعمق مما كان عليه قبل الفراق، لأن الرغبة في عودة المطلقين، دليلٌ على أسف وحسرة لما حصل، ورغبة أكيدة في القيام بالمعروف. ولما أن الإنسان معرض للخطأ والتسرع، وما قد ينتابه من التغيرات النفسية والقلبية، أتاح له الشارع الحكيم المعالجة حتى المرة الثانية. ومن وجه آخر، أتاح الفرصة للمتزوجين، في حال اكتشاف عدم تجانسهما، وعدم تقبل كلُ واحدٍ منهما للآخر، أن يفترقا بمعروف وإحسان. احتراماً للعشرة وإن قصرت مُدَّتُها.

وهناك فوائد عظيمة جليلة، لمن تأمل شريعة الله تعالى. ومن أبرزها، ما ظهرت على عقلية العلماء، المشتغلين بالفقه والتفسير والحديث والعقيدة، حيث تفتقت عن عقولهم معارف عظيمة جليلة، بمدارستهم آيات القرآن الكريم وسُنَّة وحديث النبي الكريم محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم.

(وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣)

ثم ينتقل السياق القرآني للمولود، الذي هو ثمرة الزواج، والْمُتَعَلِّق حُبُّهُ بالفؤاد، ففصل ذلك الرحمن الرحيم، عالم الغيب الكريم، في كتابه العزيز، فقال تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) فجاء الخطاب بالأمر، في صيغة الخبر، أو الاخبار، مما يفيد الوجوب. وصيغة الأمر في الخطاب، يتضمن وجوب أن تعتني الأم برضيعها، فترضعه حولين كاملين، ووجوب أن يمكنها الزوج من ذلك، ووجوب أن يُمَكِّن أولياء الزوجة ابنتهم من ارضاع ابنها، إن كانت مطلقة. فتضمن الخطاب القرآني في صياغته بلاغة إعجازية عظيمة، إذ شَمِلَ واستوعب الخطاب الرباني، جميع مقاصده، وكثرة مضامينه وتعاليمه، مع قلة ألفاظه. ليكون قولاً فصلاً في هذا الأمر، ولكل طرفٍ له علاقة في أمر الإرضاع، وفي جميع الأحوال، التي يمكن أن يُصار إليها، فسبحان من أعجز بكلامه جميع المتكلمين.

ثم حدد وحسم مدة الرضاع، ليقطع أمر الاختلاف والإضرار (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) ولفظة (كاملين) يقطع بها تأويل كل متأول، أو بما يُسَارُ إليه من المفاهيم. إذ أن الحول قد يُطلق على أغلبه. وفي هذا حفظ لحق الطفل من التفريط والإضرار به، نتيجة المنازعة أو الطلاق، أو لما يستوعبه مفهوم الحولين من نقص التمام. أو لأي سبب كان. كما ألزم الأم بالإرضاع، لأنها أكثر به شفقة، وعناية، وقدرة لشأنه. ويُفْهَم من هذا التحديد الزمني، أنه لا اعتبار لما بعد الحولين، وأن الطفل لا يحتاج للرضاعة بعدها. ثم قال تعالى (لمن أراد أن يُتم الرضاعة) مما يفيد أن الحولين هما تمام الرضاعة، وهو الأصل لمن أراد إنفاذ ما أمر الله تعالى به، على وجه الكمال. وقد أشار أهل العلم من علماء التفسير، عند تفسيرهم لقوله تعالى (لمن أراد أن يُتم الرضاعة) أن إرضاع الحولين ليس حتماً، فإنه يجوز الفطام قبل الحولين. ومن الفوائد أن العلماء استنبطوا أن الرضاع بعد الحولين لا تثبت به الأخوة بالرضاع. ولكن الحولين حق للطفل، وحق للأم، ولا ينازعها فيه منازع، بهذا النص الرباني. لأي تأويل كان.

ومن باب الفائدة: يمكن القول: عن قوله تعالى (لمن أراد) هل هو تأكيد أو تخيير؟ فلما قضى الله تبارك وتعالى الرضاعة بالحولين، ونص على كمالهما، يكون هذا للتأكيد. فرضاعة المولود سنتين كاملتين، إن أردتم كمال الرضاعة، التي أمر الله تعالى بها. ولا يمنع أن يكون متضمناً للوجهين، فيكون للتأكيد على الأصل، وللتخيير إذا وجدت العلة الداعية والمانعة من إتمام الحولين لأجل رفع الحرج. ويُعزز هذا ما تضمنته الآية الكريمة على ما سيأتي بيانه، وهو قوله تعالى (فإن أرادا فصالاً

عن تراض منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما) أي فطام الرضيع. وهذا كله من إعجاز كلامه تبارك وتعالى، إذ استوعبت ألفاظ الآية الكريمة جميع الأوجه التي يمكن أن يُصار إليها، مع حفظ سلطان الحكم.

ثم بين الله تعالى ما يجب على الأب، فقال عَزَّ وجل (وعلى المولود له رزقهن وكسوتُهن بالمعروف) ومن فوائد المعاني اللغوية أن قوله تعالى (وعلى المولود له) أي: وعلى الأب. والمعنى: وعلى الذي وُلِدَ له.(١) بمعنى: وعلى من ولد له مولود فعليه النفقة والكسوة للمرضعة (بالمعروف) على قدر وسعه. وفي هذا من الفوائد، أن على الأب بحكم قدرته على المشقة والعمل، أن يتكلف بذلك للمرضعة، وقد ارتبط بهذا التوجيه الكريم أحكاماً فقهية ودلالات عظيمة، استوعبت بها قضايا مهمة، في شأن المولود والمرضعة، وفي حالاتها المختلفة: كأن تكون مطلقة، أو متوفى زوجها عنها، وكذلك ما يتعلق بأجرة المرضعة. وفي كلمة (بالمعروف) استوعبت بها الفوارق بين الآباء في الرزق، فمن مبسوط له الرزق، ومن عيشه كفاف، ومن رزقه درجات متفاوتة بين ذلك، فاستوعبت (بالمعروف) جميع مستويات الرزق للعباد، وهذا من بلاغة البيان الإعجازي، الذي استوعبت ألفاظه حالات مختلفة متعددة، بلفظة واحدة، وكذا انتفت بها المشقة عن الوالد، الذي هو الأب. وهذا من رحمته تبارك وتعالى. الذي أكدها بقوله عَزَّ وجل (لا تُكلَّفُ نفسٌ إلا وسعها) فالوسع هو الاستطاعة المتفاوتة بين الناس، فالوسع هو الحكم في قدر وصفة النفقة. فسبحان من استوعبت آياته مراده، وأحكامه، ورحمته، وبيانه، في إيجاز لا تبلغه بلاغة البلغاء، ولو اجتمعوا على آية.

ثم تناول سياق الآية الكريمة جانب منع الإضرار (لا تضار والدة بولدها. ولا مولود له بولده) فلما أن الضرر أنواع ودرجات، نهى الشارع الحكيم عن جميعه، بدرجاته، وأنواعه، في لفظة واحدة (لا تضار) فلا تضار الأم بولدها، وكذلك الأب بولده، والإضرار من أي طرف لأي طرف. وإذا انتفى الإضرار بين الأبوين، سَلِمَ حال الرضيع، فلم تكن الحاجة موجبة لذكر وقوع الضرر عليه في نص الآية الكريمة، وهذا غاية البيان البلاغي، الذي يَسْلَمُ من زيادة اللفظ المُستغنَى عنه. فلا تجد في كتاب الله تعالى كلمة زائدة، يغني غيرها عنها. وكلمة (تُضار) مبني للمجهول ليستوعب كل من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٨/٣)

له يد في الإضرار، سواء الأب، أو الأم، أو أولياء الزوجة، أو أولياء الزوج المتوفى، أو من يُصلح، أو يقضي بينهم،

ومن حالات الضرر، أن تُمنَع الوالدة من إرضاع ولدها، بأي عائق من العوائق، أو لا تُعْطَى ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو أن يكون الضرر من الوالدة بالأب، كأن تمتنع عن ارضاع الرضيع، للمضارة بأبيه، أو تُبَالِغ في الزيادة عن الواجب من الأجرة، أو النفقة، أو الكسوة، أو نحو ذلك، من أنواع صور الإضرار المختلفة.

ثم بين الله تعالى ما يمكن أن يكون من الاحتمالات، التي قد تحصل للأسرة، كموت الأب، فعالج ذلك بقوله سبحانه وتعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) أي على وارث الطفل، إذا عُدم الأب، وليس للطفل مالٌ، فعلى الوارث مثل ما على الأب، من الحقوق للمرضع. فحفظ الله تعالى حق المرضع، ورتب المسؤولية، بحفظ الرضيع، بهذه الأحكام العظيمة، الجليلة القدر والفائدة. وهذا دليل على استيعاب هذه الشريعة الغراء لدقائق القضايا، والتي منها حق الطفل، وحق المرضع.

ثم يَرِد المزيد من البيان القرآني الكريم، عن متعلقات الرضيع بالأبوين، فيقول تبارك وتعالى (فإن أرادا فصالاً) ومعنى الفصال من الفصل، وهو التفريق بين الصبي والثدي[١] فإن أراد الوالدان فطاماً للرضيع عن الرضاعة قبل تمام الحولين، اشترط له تبارك وتعالى اتفاق ورضى الوالدين (فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاورٍ) فاشترط لهذا الفطام ألا ينفرد أحد الأبوين بقرار عن الآخر، بل لا بد أن يشمل أمرين مهمين، الأول (تراض منهما) والأمر الثاني (وتشاورٍ) لأن في اجتماع أمر التراض والتشاور ما يحقق مصلحة الأبوين والرضيع معاً، ويمتنع بهما المفسدة التي يمكن أن تقع وتلحق بالرضيع. وأفاد هذا التوجيه الرباني بيان وتحقيق منهجية إدارة مسألة عظيمة من مسائل شؤن الأسرة، التي يمكن للمتفحص لها أن يُمنْهِج منهجية للكثير من المعضلات والمشكلات، التي تواجه الفرد أو المجموعات وفق هذه المعطيات، المبنية على تحقيق المقاصد، وبمعنى: أن انطلاق الْمُنَظِّم والْمُؤطِّر من المقاصد الصحيحة، يحقق له النجاح في اختيار وتقرير المنهجية الإدارية والنظامية الناجحة، للكثير من أمور الحياة، في البيت والمهنة، وفي العلاقات الاجتماعية، وغيرها من دوائر الحياة المختلفة والمترابطة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٣)

وقال تعالى في حسم وإفساح هذا الأمر، فيما يخص فطام الصبي إذا تحقق فيه الشرطان السابقان (فلا جناح عليهما) فنفى تبارك وتعالى الإثم عن الوالدين، فيما اتفقا وتشاورا عليه، وبالمفهوم دل النص القرآني الكريم على أنه في حالة انفراد أحد الأبوين عن الآخر بالقرار فلا يجوز فطامه، لأنهما شركاء في هذا الطفل، وشركاء في تحقيق مصلحته، ولمنع المضارة من أحد الطرفين للآخر، وللرضيع كذلك. وفي هذا التشريع إيقاع الاحتياط لمصلحة الطفل، وعناية الله ورحمته به في تشريعه وتدبيره، وترتيب الإثم على من أضر به، فقد ظهرت عناية الله تعالى بالفرد في جميع أطواره، ومنها طور الطفولة، التي لا يعي فيها لمصلحته، ولا يستطيع تحقيقها، فحفظ الله تبارك وتعالى العناية به تشريعاً وتنظيماً.

وهذا يؤكد أيضاً أن الأصل في إرضاع الرضيع حولين كاملين، ولم يستثني ذلك إلا بتلك الشروط التي ذُكرت آنفاً، وذلك مراعاة لما قد يحدث من أمور متعلقة بكل حالة، فينظر فيها الأبوان، بما يحقق مصلحة الرضيع، ومن فوائد ذلك استيعاب الشريعة للأحوال والمستجدات التي قد تطرأ، وكذلك لما هو متعلق بالرضيع، من قدرته على الفطام، والاستعاضة بغير اللبن من الطعام. وأيضاً لما قد يحدث من مستجدات الأزمان، التي قد يتحقق بها المصالح. وهذا كله دليل على أن هذا نهج رباني، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. وأنه تنزيل من عزيز حكيم رحيم.

وقد بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم ما كنوا عليه وقت نزول القرآن الكريم، في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيقول قتادة: كان الرضاع واجباً في الحولين، وكان يحرم الفطام قبله، ثم خُفِّف، وأبيح الرضاع أقل من الحولين بقوله تعالى (فإن أرادا فصالاً)[١]

وهذا يفيد في الأمور العامة، ألا ينفرد الشركاء في أمر من الأمور التي تخصهم بمنفعة أو إلحاق ضررٍ إلا بالتشاور، الذي يدفع البغضاء والتجافي، ويجلب التواد، لأن من مقاصد الشريعة التفاف الأفراد والمجموعات والأسر والمجتمع، وأنه مقصد عظيم من مقاصد هذا الدين العظيم. ويمتد هذا المنهج تربوياً، أن يتعلم الأولاد هذه المقاصد عملياً في حياتهم الأسرية، وأن تعي الجهات التربوية والتعليمية ذلك، لتحقيقه في مجتمعها التعليمي.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٣)

ومن الفوائد كذلك ما يتعلق بالاجتهاد، يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد في الأحكام، بإباحة اللهُ تعالى للوالدين التشاور فيما يؤدي إلى صلاح الصغير، وذلك موقوف على غالب ظنونهما، لا على الحقيقة واليقين.(١)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى حالة أخرى من حالات الإرضاع (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم) وهذا نوع ثاني، أو مجال ثاني من الإرضاع، وهو: إن أردتم أن تتخذوا مُرضعة للرضيع. والتقدير في العربية: أن تسترضعوا أجنبية لأولادكم. فنفى الإثم ببيان الإباحة في هذا الأمر، مع بيان المعاوضة (إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) واشتمل لفظ (إذا سلمتم) دلالتين، هما: أي سلمتم الأجرة للمرضعة الأجنبية. والدلالة الثانية: سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع، أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك على اتفاق منهما، وقصد خير، وإرادة معروف من الأمر.(٢) والمتأمل يجد أن كلا المعنيين مقصودين، فاستوعبت الجملة دلالتين في صياغة واحدة، لهما أهمية كبيرة. وهذا من البيان الإعجازي للقرآن الكريم.

ثم انتهت الآية بما يعض به الْمُخَاطَب (واتقوا الله. واعلموا أن الله بما تعملون بصير) وهي الموعظة الجامعة بكل خير، بأن تتقوا الله في جميع أحوالكم. ثم الإخبار والتذكير بما يعرفه المؤمنون، من أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من الأحوال والأقوال. مما يستوجب استحضار ذلك في جميع الأحوال. وهذا يفيد أهمية الموعظة في ختام التعليم والتدريس، والنصح والإرشاد والبيان. لأن الموعظة تُعيد المؤمن إلى الحق، وتُذكره ما غفل عنه.

(وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤)

وينتقل السياق القرآني لقضية أسرية أخرى، متعلقة بوفاة الزوج (والذين يُتوفّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) فقد بين الله تعالى حال الزوجة التي يموت عنها زوجها، بأن تكون عدتها غير عدة المطلقة، فعدتها أربعة أشهر وعشرا. وذلك حتى يتبين الحمل إن كانت

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق. مُستفاد من بيان القرطبي وشرحه. رحمة الله تعالى عليه وعلينا وعلى جميع المسلمين.

حاملاً. وقد أجمل اللهُ تعالى انتظار ومكوث المرأة عن النكاح وما يتعلق به بكلمة واحدة (يتربصن) وهي التأني والتوقف عن النكاح برجل آخر، حتى تنتهي العدة المحدودة. وفي هذا السياق حفظ لمشاعر المرأة المسلمة، التي يبلغ الحياء منها مبلغاً لا تتحمل فيه التفصيل من الكلام. بحيث يقرأ القارئ دون أن تتأثر المرأة بما تسمع، مما يخص شأنها. وفي هذه المدة حفظ لحق الزوج الْمُتَوَفَّى، وللحمل والنسب، إن كان بها حملٌ، وكذا حفظ لها من أن تخلط بين نسبين، وحفظاً للناكح من أن يدخل في نسبه ما ليس منه وله. فحفظ الله تعالى بهذا الحكم حقوق الجميع. وهناك أحكام تفصيلية تخص الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، استوعبت تفاصيلها السُنَّة النبوية، ليدرك المسلم أن منهج الإسلام كل متكامل بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ومن الفوائد ما جمعه وحرره العلماء من الأحكام الفقهية، التي استنبطوها من تحرير العام والخاص، والمقيد والمطلق، وما تضمنته السُنَّة النبوية المباركة في هذا الشأن، وفي غيره كعدة الحامل وغير الحامل والأمة. فانبجست عن العقول علماً عظيماً من المصدرين: الكتاب والسنة، وارتقت به الأفهام والألباب.

ثم يبين الله تعالى حال الْمُتَوَفَّى عنها زوجها بعد انقضاء العدة (فإذا بلغن أجلهن) أي انقضت العدة (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وهذا خطاب لجميع من له علاقة بالْمُتَوَفَّى عنها زوجها، من أولياء الأمور، ولمن له شأن في ذلك، كالقاضي وأولياء أمور الْمُتَوَفَّى، فيما إذا أرادت الزواج وما دونه من الزينة، وضبط ذلك (بالمعروف) والمعروف في هذا متعلق بأحكام الشريعة، فيصبح فيما أذن فيه الشرع. لا محرم ولا مكروه. وبالمفهوم من التوجيه القرآني، أن الولي يمنع وليته من تجاوز ما لا يجوز شرعاً، لأن النهي له عن (ما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وبالتالي فإن من تجاوزن ذلك المعروف، وجب على الولي أن يمنع وليته عن المجاوزة للمعروف. وبالتالي فإن هذا واجب عليه، ومطالب بإقامته وحفظه في حق وليته. مما يفيد أن منهج الإسلام يعطي وأعطى الحرية للمرأة في هذا الشأن، وفق دائرة الحماية الشخصية لها، بحفظها مما قد يضرها، أو تضر هي به غيرها. وهذه من نِعَمِ تشريع الإسلام الحكيم، في دقة توجيهه، وإحاطته وعنايته وحفظه لشأن المرأة. وأن الاهتمام بها دليل على مكانتها ومنزلتها في الإسلام، ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة الجميع (والله بما تعملون خبير) فالله عالم بأعمالكم، مما يوجب الحذر من العمل والنوايا التي تخالف أحكام الله تعالى. ويفيد هذا كذلك أهمية التذكير بالمواعظ في ختام النصح والتوجيه والتعليم. وأن للموعظة أثر في النفس عظيم. وأنه لا بأس بتكرارها، كما تتكرر في آيات القرآن الكريم.

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥)

ويستمر البيان القرآني الكريم، في إيضاح ما له علاقة بأمر الْمُعْتَدَّةِ من وفاة الزوج (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) فبهذا التوجيه الرباني، يتولى تبارك وتعالى التوجيه في أدق شؤون المرأة المعتدة بوفاة زوجها، وذلك بمخاطبة جميع من يمكن أن تكون له رغبة في الزواج من الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، بأنه لا إثم على الرجل الذي له رغبة في الزواج من الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، من خلال التعريض الذي لا تصريح فيه من الرغبة في الزواج بها، أثناء عدة الوفاة. وفي هذا التوجيه الكريم من الفوائد: تربية الحياء والخشية في المجتمع، واحترام مشاعر الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، وكذلك احترام الاعتداد لأمر الزوج الْمُتَوَفَّى، مع مراعاة رغبة الراغب بإيصالها تعريضاً لا تصريحاً، بحيث يُفهم منها الرغبة المحتملة، دون التصريح المؤكد. وفي لفظة (التعريض) تعني الإفهام، بمعنى الشيء ومقصده رمزاً. ويفيد هذا أن التصريح للمعتدة لا يجوز، إذ أباح الشارع الحكيم التعريض فقط، فيفهم منه منع التصريح للمعتدة بالرغبة. وهذا يفيد أن من قواعد منهج الإسلام اللطف في العبارات الحاملة للمعاني والدلالات السامية، والترفع عن العبارات التي لا تراع واقع الحال، ولا جوانب الحياء المختلفة، وأن الإسلام دين الحياء والأدب والأخلاق.

ومن الفوائد مراعاة المنهج الإسلامي للجوانب النفسية، فأباح التعريض للراغب من الرجال، واحترام مشاعر الزوجة الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، وكذلك مشاعر أهل الْمُتَوَفَّى، ومشاعر أولادها، إن كان لها ولد، وكذلك مشاعر الناس الذين يُحيطون بها، واحترام الْمُتَوَفَّى في عدة زوجته. فراعت أحكام الله تعالى جوانب شؤون الإنسان في أحلك الأمور. وفند العلماء ما يتعلق بالتعريض للمطلقة الرجعية، ما خلاصته: أنه لا يجوز. لأنها لا زال مقامها هو مقام الزوجة.

وكذلك نفي الإثم عما يدور في النفس من الرغبة المضمورة والمستورة في النفس، ولم تُكشف، ولم يكشفها من الرغبة بالتزوج من الْمُعتدة، فستر تلك الرغبة (أو أكننتم في أنفسكم) فنفى الله تعالى الإثم، عمن أراد الزواج من الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، سواء بالتعريض، أو الإكنان. وهو الإخفاء. ثم بين الله تعالى للرجال ممن لهم شأن في هذا الشأن، بعلمه سبحانه وتعالى لسرهم وجهرهم (علم الله أنكم

ستذكرونهن) فرخص الله تعالى ذلك مراعاة للطبيعة النفسية، من أنكم ستذكرون الْمُعْتَدة، إما سراً في نفوسكم، أو جهرا بألسنتكم، من رغبتكم في الزواج، فأباح لكم التعريض رحمة بكم. لأن مفهوم النص يفيد أن من رحمته بكم رفع عنكم الإثم لما يعلمه من حالكم الطبيعي، وأباح لكم التعريض والإكنان. وهذا يفيد أهمية تقوية الإيمان عند الإنسان، من أن الله عالم بخلجات النفوس، وأن شريعته الغراء راعت هذه الجوانب، ووازنت بينها وبين جميع المصالح، وأدبتها بكمال الأدب الجم الرفيع.

ثم تُستكمل جوانب التنظيم، والأدب في شريعة الله تعالى، بأنه سبحانه عَزَّ وجل نهى عن الوعد سراً (ولا تُواعِدُوهُنَّ سِراً) فلا يعدها ويُسِرُّ لها بالزواج، وهو الأمر المتجاوز للتعريض بالتصريح، أو يأخذ عليها العهد والميثاق ألا تتزوج بغيره ونحو ذلك، فهو محرمٌ. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن بعض الصحابة والأئمة العلماء: أي لا يقل الرجل لهذه المعتدة: تزوجيني، بل يُعَرِّض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره في استسرار وخُفية.[١] وقال كذلك أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها. وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته.[٢] واستثنى من ذلك (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) وهو ما أبيح من التعريض. وفي هذه التنبيهات والأحكام من العزيز الحكيم، ما ينضبط وينصلح به حال أمر المجتمع، وخاصة في مقام أمر الْمُتَوَفَّى عنها زوجها. حتى بين وأكد في أمر عقد النكاح، بقوله تعالى (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجَلَهُ) فلا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة.[٣] ومعنى (حتى يبلغ الكتابُ أجَلَهُ) أي تمام العدة، والكتاب هو الحد، والقدر الذي جُعِل للعدة. وسماه الله تعالى كتاباً باعتبار أن الذي حدّه وفرضه كتاب الله تعالى. كقوله سبحانه وتعالى (كتاب الله عليكم) أي حتى يبلغ الفرض أجله.[٤]

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٥/٣)

(٢) المرجع السابق (١٢٦/٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٤/١)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٧/٣)

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة المخاطبين بها (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) فيذكر المؤمنين بما يعلمون من علمه عَزَّ وجل بما في نفوسهم، وبالتالي فإن من يعلم ما في نفوسهم، فإنه يعلم أعمالهم الظاهرة، مما يوجب الحذر. (فاحذروه) فاحذروا عقابه، الذي يوجب الوقوف عند حدوده، فلا تتجاوزوها. وفي هذه الآية وعظ بما هو أخص، وهو علمه تبارك وتعالى بما في النفس، لِيُفْهَم به ما هو أعم، الذي هو علمه بالظاهر من العمل. وفي لفظة (فاحذروه) ما يوجب التوقي من عقابه، بدرجاته وأنواعه. مما يبعث في النفس الخوف من أن يتجرأ أحدٌ على حدوده. ثم تنتهي الموعظة بقوله سبحانه وتعالى (واعلموا أن الله غفور حليم) فجمع تبارك وتعالى بين البيان والتحذير، وبين عدم اليأس من مغفرته وحلمه الذي لا يُعَجِّل به العقوبة، حتى يستغفر ويتوب من الأخطاء والآثام، ولا ييأس من عفوه ومغفرته تبارك وتعالى. وأن عدم مسارعته بالعقوبة لحلمه العظيم سبحانه وتعالى. وهذه والله من رحمته بعباده، إذ يعلمهم، ويُحذرهم، ويخوفهم من تجاوز حدوده، ومع هذا يمنع عنهم اليأس والقنوط من مغفرته، فلا أبلغ من الطمع في مغفرته ورحمته، واستثمار حلمه من هذا البيان وأمثاله. فالحمد لله رب العالمين. وهذا يُفيد تربوياً أهمية الموازنة بين الترغيب والترهيب، وأهمية أن لا يُقَنِّط الداعية والمربي غيره من رحمة الله تعالى ومغفرته، وأن حلمه منحة للمذنب والعاصي والمقصر، ليستغفر ويتوب من ذنبه.

(لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم لواقع آخر، وحالة أخرى من الطلاق (ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) فنفى الله تبارك وتعالى الإثم عمن طلق زوجته بعد العقد، وقبل الدخول بها والجماع. وفي هذا من الفوائد إتاحة الفرصة لمن تغيرت خواطرهم عن استمرار النكاح قبل البناء والجماع، وهو معنى (ما لم تمسوهن) فيكون هذا الامتناع عن استمرار النكاح لأسباب لا حصر لها، وربما أن هذه الحالة أفضل وأصلح للطرفين من الطلاق بعد الجماع. ولما أن في هذا انكسار لقلب الْمُطَلّقة، أمر الله بإمتاعها إن لم يكن قد أعطيت مهراً (أو تفرضوا

لهن فريضة) وهو تعويضها بشيء تُعْطَاه من زوجها، بحسب حاله، فيكون على الموسع قدره وعلى المقتر قدره (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره)(١)

وهنا يظهر لطف الله تعالى بجبر الخواطر، عما يصيب الإنسان من هذا الموقف وأمثاله. فلم تهمل الشريعة الغراء الجوانب النفسية في أحكامها، فتناولت هذا الجانب تناولاً لطيفاً حكيماً، كما يتضح من كل موقف في مكانه. وكما يظهر أيضاً لطف الله تعالى بأن أوكل مقدار التعويض لقدرة الزوج المالية، بحيث يُعطي على قدر ما وسع الله تعالى به عليه. وهما صنفان رئيسان (الموسع) و (المقتر) فالأول هو الذي اتسعت حاله، والثاني: هو الْمُقِل، أي قليل المال. وبينهما درجات متفاوتة من الاتساع والضيق في القدرة التي هي (قَدَرُهُ) وهذه من دقائق الإحكام والأحكام في التوجيه، إذ تم إحكام مساحة النفقة المختلفة من شخص لآخر بمعاني وألفاظ محددة، استوعبت تلك الدرجات المختلفات بين الناس في القدرات المالية. وهذا من عظيم البيان القرآني الكريم. الذي يتعلم منه الإنسان كيف يضبط ألفاظ مراده وتنظيم بيانه.

ثم قال تعالى تأكيداً وبياناً (متاعاً بالمعروف) أي بقدر الإمكان، وبقدر الحق الواجب.(٢) وكلمة (بالمعروف) صفة وقياس يجمع جميع مفردات ومكونات الأخلاق، والبذل والسخاء، ويجمع بها مقدار التفاوت بين الناس فيها، وكذا تباين مقدار ودرجات الوسع والسعة بينهم، فكلٌ بحسبه. ثم قال تعالى (حقاً على المحسنين) أي واجباً على المحسن. والتوجيه يحمل أيضاً التشجيع والتحفيز، لما يُفهم منه أنه واجب على من هو متصف بالإحسان، وكل أحد من المسلمين يريد أن يكون متصفاً بالإحسان، ولا أحد منهم يريد أن يتجرد أو يجرده أحدٌ من هذه الصفة. فهي صفة مشجعة على الاتصاف بها، ودافعة لفعل الخير والرغبة فيه. وبالتالي ينتفي أن يعمل به من لم يتصف بالإحسان، وهي الصفة التي ينفر منها كل إنسان. مما يفيد تربوياً ودعوياً وإدارياً، وفي كل جانب من جوانب العمل والأداء البشري، أهمية الْتَمَثُّل بمنهج القرآن الكريم في أساليبه المحفزة للخير بتنوعه المنفرد، والجاذب لفعل الخير، حتى يتحقق النجاح من خلال العمل بتوجيهاته. وقد تزوج جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه امرأة من بني نصر، فطلقها قبل أن يدخل بها، فأرسل إليها الصداق

---

(١) للمزيد يُنظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٥/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير(٢٤٧/١)

كاملاً، وقال: أنا أحق بالعفو منها.(١) فليتأمل المسلم أثر هذه الآية الكريمة على سلوك الصحابي الجليل جبير بن مطعم رضي الله عنه. وكذلك في قوله: أنا أحق بالعفو منها، بما يدل على أن المبادرة قد تكون من الزوجة المطلقة، بعفوها عن حقها.

ومن الفوائد الكناية عن الجماع بلفظة (تمسوهن) وهي اللفظة التي تؤدي المعنى المقصود، مع حفظ جانب حياء المرأة من أن يُصرح في هذا الأمر بما يحرجها ويُخْجلها. وهذا يفيد أهمية التربية اللفظية والعناية بها، واختيار الألفاظ المناسبة لواقع الحال وللمُخَاطب. والحذر من الألفاظ المثيرة، والألفاظ التي لا تحمل القدر الكافي من الحياء، ومن حفظ مشاعر الآخرين في التخاطب، وفي كل أمر من أمور التعامل والتفاعل الاجتماعي.

(وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧)

ثم ينتقل السياق إلى بيان نوعٍ آخر من الحالات الأخرى التي يتم فيها الطلاق، قال تعالى (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) وهذا الاختلاف في تقرير مهر الزوجة. فإذا طلقها الزوج بعد العقد، وقبل الدخول بها، أي قبل الجماع، وقد فرض لها المهر، وأراد أن يطلقها أوجب لها نصف المهر. وللعلماء تفصيل واجتهادات فقهية في ذلك. وهنا يُستفاد الدقة في تقنين وتفصيل وتفنيد الأمر، بين هذه الآية والتي قبلها، ففي التي قبلها لم يتم تحديد المهر، فَفُرِض لها ما يطيب به خاطرها (فمتعوهن)، وفي هذه الآية تم تحديد المهر، فَفُرِض لها نصف المهر تطيباً لخاطرها. إلا أن تعفوا عن ذلك وتتنازل (إلا أن يعفون) فأتاح للزوجة أن تتكرم على زوجها بما هو حق لها. وهذا من اتاحة فرص المرحمة بين الزوجين، فلربما واقع حال الزوج يحتاج ذلك، فمنحها الحكم الشرعي حق التنازل عن حقها (أو يعفوا الذي بيده عُقدة النكاح) وهو الزوج، وللفقهاء تفصيل في ذلك، ولكن يُستفاد أيضاً من ذلك أن للزوج أن يعفو أيضاً عن النصف الآخر للزوجة، فيعطيها المهر كاملاً، ولها أن تعفوا عن النصف الذي لها. ثم رجح رَبُنا تبارك وتعالى للزوجين العفو (وأن تعقوا أقرب للتقوى) وفي هذا تشجيع لكل واحد منهما أن يُبادر ويأخذ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٦/٣)

بالعفو عما له عند الطرف الآخر، فيبادر بالتنازل. وفي هذا تحقيق لمكاسب ثواب الأخلاق في الافتراق بإحسان، وتقوية للنفس على الخير والكرم، والتفضل عما هو حق لها إلى الآخر، ولتسود الأخلاق بينهما حتى في افتراقهما، والتي ستظهر على الآخرين بالتقليد والمحاكاة. وهذا التشجيع ارتبط بميزة مؤثرة وفاعلة وقوية، وهي (للتقوى) فقال تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) واقتراب التصرف من فعل المتقين منزلة رفيعة نحو تحقيق التقوى، التي يطمع لها كل أحد من المؤمنين. مما يفيد تربوياً، أهمية التحفيز المعنوي، وأهمية التربية الخلقية، وأهمية العفو، والتنازل عن الحق للغير، لتحقيق التقوى، التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى. ثم يزداد التشجيع والتحفيز في الآية الكريمة، بقوله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) فلا تنسوا تحقيق الفضل بإتمام الرجل الصداق كله، أو ترك المرأة للنصف الذي لها. فما أجمل وأعمق منهج ربنا تبارك وتعالى. وكذلك من الفوائد، أن في التوجيه الرباني إلى عدم نسيان الفضل، إشارة إلى أهمية تذكر ما سبق من الخير، فإنه من دواعي التغاضي عن محل الخلاف، ومن دواعي المبادرة إلى التفضل بنفس طيبة كريمة.

(حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى أمر الصلاة، ليستأنف بعدها أمر الْمُتَوَفَّى عنها زوجها. فيأمر الله تعالى الأمة في هذه الآية الكريمة بالمحافظة على الصلوات (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى. وقوموا لله قانتين) وجاء الحث على المحافظة على أداء الصلاة بصيغة الأمر.

والمحافظة تعني المداومة عليها، مما يفيد وجوب المحافظة بالمداومة على أداء الصلاة، وعدم التهاون فيها. وهذا دليل على مكانتها العظيمة، ومنزلة المداومة والمحافظة عليها، وكذلك منزلة المحافظ لها. لأن من امتثل ما أُمِرَ به، فلا شك أن له ميزة ومنزلة شريفة، بفضله وكرمه سبحانه وتعالى. ثم خص الصلاة الوسطى، وأفردها من بين جنسها بالذكر، بالرغم من دخولها في عموم الصلاة تشريفاً لها. وقيل هي صلاة العصر، وقيل غيرها، وقيل في تعيينها عشرة أقوال، وقيل هي مبهمة مثل ليلة القدر، ليجتهد المؤمن في ذلك. ورجح الإمام القرطبي رحمه الله إبهامها، وقال: وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، لتعارض الأدلة وعدم الترجيح، فلم يبق إلا المحافظة على جميعها، وأدائها في أوقاتها،

والله تعالى أعلم.[١] وفي هذا ما يحفز المسلم على أن يحافظ عليها جميعاً، لأمره تبارك وتعالى بذلك، ولتكون الوسطى من بين الصلوات التي حافظ عليها. وفي هذا دليل على أن في إحدى تلك الصلوات ميزة وتشريف من الله تعالى لها، يلزم المؤمن الاجتهاد في الجميع لالتماسها، والحصول على ما فيها من زيادة خير.

ثم بين الله تعالى صفة القيام للصلاة (وقوموا لله قانتين) فأمر أن يقوم المصلي في صلاته طائعاً، خاشعاً ذليلاً مستكيناً بين يدي الله تعالى، مما يستلزم ترك الكلام في الصلاة.

قال زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه: كنا نتكلم في الصلاة. يكلم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت (وقوموا لله قانتين) فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام.[٢] وهذه الدلالات والمعاني المتعددة عن مفهوم لفظة (قانتين) هي من متطلبات الصلاة، فمعانيها مستوعبة لما يكون عليه المصلي في صلاته.

لما أمر الله تعالى القيام في الصلاة بخشوع وسكينة، وذلك في الحالة الغالبة للمصلين، بين تبارك وتعالى في الآية التالية حال ما ينوب المصلي من الخوف. فقال تعالى (فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً) والخوف هو الفزع، لأي أمر من الأمور المفزعة، وجاء الخوف عاماً محذوف المتعلق به، ليستوعب كل أنواع الخوف. فبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد حتى في حال الخوف، ورخص للخائف في حالة أدائها، بأن يؤديها على الأقدام مشياً، أو راكباً على ظهور الدواب وغيرها مثل السيارة والدراجة وغيرها، فيكون على قدر ما يستطيع، وعلى أي جهة استطاع من التوجه. وهذا يفيد أهمية أداء الصلاة في وقتها، وألا يؤخرها عن وقتها حتى في حالة الخوف والفزع. وبالتالي يجب على المسلم أن يحذر من تأخيرها عن وقتها من غير عذر قاهر، فإذا لم يُرخص للخائف، فكيف بالآمن، ولذلك أكد تبارك وتعالى هذا بقوله في تمام الآية (فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) فأمر في حال رجوع الأمن أن تُؤَدَّى الصلاة بكمالها، كما عَلّمكُم كيفية أدائها وأنتم آمنون، بإتمام ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها. وفي هذا امتنان الله تعالى لعباده بالعلم

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٠/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٠/٣)

الذي علمهم من الإيمان والعبادة والأخلاق، وكل ما تعلموه من هذا الدين، الذي كانوا به من قبل جاهلين.

وفي قوله تعالى (فإذا أمنتم فاذكروا الله) وهذا لِيَعِمَّ الصلاة، وعموم الذكر، من الشكر والتسبيح والتهليل والتكبير والحمد. وهما قولان[١] فكما علمكم ما كنتم تجهلون من خير الدين فاذكروه بعموم الذكر وأنواعه.

ومن فوائد الآية الكريمة خلو أحكام هذا الدين من التعنت والإعجاز، بل إن الله تعالى يقبل الإجزاء من العبادة، بسبب دواعي عدم القدرة على أداء كمالها. فأرشد تبارك وتعالى إلى الطريقة المجزية أثناء الخوف، فَعَلَّم عباده المؤمنين ما كانوا يجهلون من كيفية أدائها أثناء الخوف، فلزم الشكر لله تعالى، وذكره بكل أنواع الذكر. وهذا يفيد كذلك أن الصلاة لا تسقط عن الخائف، وبالتالي لا تسقط في الأحوال الأخرى، بل يؤديها بما يجزي. كما أرشد الله تعالى لذلك، وأرشد وبين رسوله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم في سُنَّته المُطهرة. وهذا دليل عظيم وقوي على منزلة الصلاة، ومكانتها، وشرفها، التي توجب على العبد ألا يتهاون فيها، بل يُجِلَّها ويُقدر منزلتها، بالمحافظة عليها، والاجتهاد في خشوعها، وأداء كمالها.

(وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢)

وبعد أن انقطع السياق عن أمر المطلقة والْمُتَوَفَّى عنها زوجها، من أجل بيان وجوب المحافظة على الصلاة وأدائها، يعود السياق إلى الْمُتَوَفَّى عنها زوجها والأمر ببرها. ولعل هذا الأسلوب من باب شد الانتباه لأمر مهم، قد انقطع إتمام السياق لأهميته، حتى يلتفت الانتباه إليه، وذلك أن الْمُتَحَدِّثُ في قضية لا يقطعها إلا لأمر مهم، قد استوجب البيان له، ثم يستأنف ما كان يبينه. ذلك أنها قضية الصلاة التي هي عمود الدين.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢٥١/١)

يقول الله تبارك وتعالى (والذين يُتَوفَّون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج) يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة منهجية التعامل مع من توفي عنها زوجها، بوصية الله تبارك وتعالى لها، أن تَبْقَى وتُبْقَى حولاً كاملاً من الامتاع والاكرام والنفقة، وما تحتاج إليه، وذلك إكراماً لها، وبراً بزوجها، فجمع الله تعالى لها بين عدتها أربعة أشهر وعشر، وبين استكمال الحول امتاعاً. مما يبين حرص المنهج الإسلامي على الجوانب المعنوية والأخلاقية، وحفظ المودة والبر، من خلال بر الميت، بإكرام من مات عنها، وجبراً لخاطرها، المتأثر بحادث الوفاة. وهذا يقود إلى استصحاب هذا التوجيه إلى أهمية مراعاة الجوانب الأخلاقية والنفسية، وألا يُنظر لانقطاع العلاقة فقط، بل يُنظر إلى المعروف الذي كان، حتى ينتهي بمعروف.

واستثنى سبحانه وتعالى من ذلك حال رغبتها في عدم إكمال الحول (فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف) فإن رغبت الخروج بعد عدتها فلها الحرية المطلقة في ذلك، ولا إثم ولا حرج على أولياء الْمُتَوَفَّى مما فعلته بنفسها، من الزينة والتجمل في حدود ما هو معروف من الشرع (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف) ويبين هذا منهجية الإسلام في تقرير دائرة الحرية، بأن لا تتجاوز حدود الشريعة الغراء، إذ تنتهي حرية الفرد عند حدود الله تعالى. وهذا من حفظ الإسلام لحقوق الفرد، وحقوق الآخرين، لما قد يصل إليهم من أذى، وتبعات غيرهم عليهم، وأيضاً تبعات تجاوز الحدود الشرعية على الآخرين من المجتمع، بأي صورة كانت. فحفظ الله تبارك وتعالى الحقوق الخاصة للفرد، وكذلك الحقوق التي بين الأفراد ومجتمعهم، على اختلاف علاقاتهم، واختلاف درجات التأثير.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة للمُخَاطَبِين خاصة، وللجميع عامة (والله عزيز حكيم) فيعلمهم ويذكرهم بأنه عزيز، فله العزة كلها، المتضمنة للقدرة الكاملة، والهيمنة الشاملة، وأنه حكيم بهذه الأحكام الدالة على عظيم حكمته، التي وُضِعَت في مواضعها.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى امتاع المتوفى عنها زوجها، ذكر امتاع المطلقة (وللمطلقات متاع بالمعروف) فكل مطلقة لها على زوجها أن يمتعها بالعطاء، الذي يُنَاسِب حاله وحالها، ثم بين الله تعالى حكم ذلك، بقوله سبحانه وتعالى (حقاً على المتقين) فهو حق، وكلمة حق، تعني الوجوب، فهو حق واجب، يقوم به المتقون. مما يفيد أن من يتقي الله تعالى يقوم بما هو حق، وأن القيام بالحق، دليلٌ على التقوى. ثم يقول تبارك وتعالى (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) فيمتن

الله تعالى على عباده المؤمنين، بما بين لهم من الآيات الكريمات، الحاملات للأحكام التي يدخل فيها الواجب والمستحب والمحرم والمكروه، وما يلتحق بها من آداب وأخلاق. لعلكم تصلون بها إلى كمال التعقل بأدائها.

مما يفيد أن تأدية أحكام الله تعالى تحقق لمن يؤديها كمال التعقل البشري، حيث يثبت لمن قام بها وصف العقلاء، ومن تهاون بها فلا يثبت له وصف العقلاء، وهو عقل الرشد، وليس عقل الإدراك. إذ أن عقل الإدراك هو العقل الْمُكلّف به المخاطب، وهو ضد الجنون وصغر السن، الذي لا يعقل به الصغير حقائق الأشياء، ومرفوع عنه به القلم. وعقل الرشد هو العقل الذي تجاوز عقل الإدراك، الذي يدرك به الأشياء وأنواعها وأحجامها وخيرها وشرها، فيدرك الحق ويتبعه، ويدرك به الباطل فيجتنبه. فمن أدرك الحق ولم يتبعه، وأدرك الباطل واتبعه، فهذا لا يسمى عاقلاً، عقل رشد. لأن ثمرة العقل استعمال الأشياء النافعة المستقيمة. ولذلك يقول الناس مجازاً وليس حقيقة لمن استبان أمامه الخير ولم يأخذه، أنت مجنون، أو هذا مجنون، فيصفونه بذلك، أو يستنكرون عليه ذلك مجازاً وليس حقيقة، لأن تصرفه خلاف ما يجب.

(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥)

يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، مبيناً حالاً من أحول بني إسرائيل (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوفُ حذر الموت) والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم (ألم تر) وكذا مُخَاطب به المؤمنون، وكل من يسمع كلامه تبارك وتعالى من غيرهم. فإذا خُوطب النبي صلى الله عليه وسلم شمل الخطاب من معه ما لم يكن مخصوصاً به دون غيره. وخاطب الله تعالى بالقرآن الكريم الثقلين: الإنس والجن.

وجملة (ألم تر) سؤال تقريري لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه أمر القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، بعلة الوباء الذي أصاب بعضهم، وانتشر بينهم، أو بسبب مداهمة عدوهم لهم. ومن الفوائد أن (ألم تر) تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك، خبر أولئك.

وجملة (ألم تر) بمعنى ألم تعلم بخبر أولئك، وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لعبده أو لعباده (ألم تر) فإخباره سبحانه وتعالى يقع من الصدق كأن الْمُخَاطب به رآه رأي العين. وقوله تعالى (وهم الوف) يعني عدد متكرر من مضاعفات الألف، فهم عدد كبير بالآلاف.

فهم قوم من بني إسرائيل خرجوا من ديارهم التي انتشر فيها وباءٌ قاتلٌ، وذلك خوفاً من أن يدركهم الموت(١) كما قال تعالى (حذر الموت) أي توقي من الموت، فأدركهم الله تعالى بما أراد من الموت. ليتأكد للإنسان أن الحذر لا يغني عن القدر، ومهما هرب من قدر الله تعالى وأمره، فإن قدر الله تعالى مُدْرِك من أراد الله تعالى إنفاذه فيه. وإذا تمعن المؤمن هذا، أحدث لديه سكينة وطمأنينة عظيمة، أمام مُدْلَهِمّات الأمور التي يواجهها في حياته، من أن الله مُمْضِي قدره وإرادته، وأن الأسباب لا تغني من الله شيئاً، إذا أراد الله تعالى أمراً بعبده. وبالتالي فإن المؤمن عندما يأخذ بالأسباب، يكون موقناً أن هذا السبب لا يعمل بنفسه، ويقي ويحقق بذاته، وإنما بقدر الله تعالى وإرادته. وهذا في جميع أحواله وتقلباته، كمرضه وعلاجه، وفقره وغناه، فغناه لا يمنع فقره، وفقره لا يمنع غناه إذا ما أراد الله تعالى. وهكذا في كل حال وأمر من أمور الإنسان. حيث أن الله تعالى أماتهم بقدرته، بعد أن خرجوا من ديارهم الموبوءة، فلم يغنيهم خروجهم عن قدر الموت الذي أراده الله تعالى لهم (فقال لهم الله موتوا) فماتوا جميعاً بأمره تبارك وتعالى. وعندما أراد إحياءهم، أحياهم كما قال تعالى (ثم أحياهم) فالأمر كله لله تعالى.

وهذا لا يعني ترك الأسباب الواقية من كل شر بحسبه، لأن منهج الله تعالى يأمر بالتحرز من الضرر والشر، وذلك بأخذ الأسباب الدافعة لشر والجالبة للخير، كالجهاد الذي هو أخذ بالأسباب، ولكن هذا الْحَدَث الذي أخبر الله تعالى به، ليتيقن المؤمن أن الله تعالى إذا أراد شيئاً، فلا تقي الأسبابُ ولا تُغني عنه شيئاً. ليطمئن المؤمن أمام ما يعترضه من الأسباب المخيفة، ويأخذ بالأسباب في طمأنينة، فَتُحْفَظ عقيدته في ربه، وتُحْفَظ سلامة إيمانه وسكينته وطمأنينته.

(١) ذكرت كتب التفسير أن خوف الموت من الوباء هو الذي أخرجهم، كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي. في موضع الآية الكريمة.

والقتال في سبيل الله تعالى هو من الأخذ بالأسباب في جهاد الطلب أو جهاد الدفع. ولا يتحقق النصر بالسبب نفسه فقط، بل بقدرة الله تعالى وقضائه ونصرته ومراده، فمهما كانت الأسباب فإنها لا تغني عما أراد الله شيئاً.

ثم بين الله تعالى فضله على أولئك، وعلى غيرهم من خلقه، فقال تبارك وتعالى (إن الله لذو فضل على الناس) إذ تفضل الله تعالى عليهم بالإحياء بعد الموت، ليبين لهم كيف تفضل عليهم، بدفع المكروه عنهم. ولو تأمل المسلم في مسيرة حياته، لوجد أن الله قد صرف عنه كثيراً مما يكره، من غير أن يتخذ سبباً لجهله بما هو واقع به، أو لِفُجَأتِهِ لَهُ، أو لعلمه بعد زواله، من غير أن يشعر به. وكم من مصيبة تجاوزت صاحبها أو تجاوزها دون أن تمر به، أو يمر بها، وهو في غفلة عنها. وكم خالطه، أو خالط من عليلٍ مُعْدٍ بعلته وهو لا يعلم، ولم يُصِبْهُ من ذلك شيءٌ، وكم سقط أمامه أو بعده شيء قاتل أو مؤذٍ، فأنجاه الله تعالى من غير احترازٍ منه، ولو تقدم أو تأخر طرفة عين لأصابه ذلك الهالك. مما يوجب الشكر والثناء، ولكن غفلة العبد عن الشكر كثيرة، كما قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) مما يفيد أن القليل هم الشاكرون لربهم. وهذا يدفع المؤمن للشكر والثناء على ما يعلم من نعم الله تعالى، وعلى ما لا يعلم مما خفي عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

ومن فوائد هذا الحدث ما يزرع في المؤمن من الشجاعة القلبية أمام الفواجع والأحداث، فيتعامل معها بلا هلعٍ يَخْذِلُ قوتَه وشجاعتَه ورباطةَ جأشِه، ولا جزع يُغْضِبُهُ فَيَخْرُجُ به إلى ما لا يُرضي الله تبارك وتعالى. فالصحابي سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، خاض الحروب في مقدمة الصفوف، وما مات من طعنة رمح، ولا من ضربة سيف رضي الله تعالى عنه، وكان يقول: لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.[١] كما أن في عرض هذا الموقف ما يشجع المؤمن ويزيده ثباتاً وإيماناً في مواقع القتال، التي يَصُدُ فيها وبها كل شر عن الإسلام والمسلمين. وفي هذا تشجيع للجهاد في سبيل الله تعالى، ولذلك جاء في الآية التالية لهذه الآية الكريمة، الأمر بالقتال في سبيل الله تعالى، فقال جَلَّ من قائل (وقاتلوا في سبيل الله) فأمر فيها بالقتال في سبيله تبارك وتعالى، ليغرس فيه ذلك مبدأ الشجاعة، وليفهم منها ألا يهرب عن القتال

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٨٢/١)

والجهاد في سبيله، درءً للموت وخوفاً منه، كما حصل للذين أدركهم الموت، وهم فارّين من أسبابه، كما سبق من القصة الماضية. التي بينتها الآية الكريمة.

وفي قوله تعالى (في سبيل الله) بيانٌ لجانب التوحيد والإخلاص لله تعالى وحده، فلا يكون القتال لأي وجه آخر غير سبيل الله تعالى. ويقول مالك رحمه الله تعالى عن سُبُل الله تعالى: أن سُبُل الله تعالى كثيرة، وما من سبيل إلا يُقاتل عليها أو فيها أو لها. وأعظمها دين الإسلام.[1] وفي قوله تعالى (في سبيل الله) هي الطريق المحقق والموصل إلى رضا الله تعالى، والتي منها الجهاد في سبيله.

ثم تنتهي الآية بتوجيه كريم، وبيان عظيم (واعلموا أن الله سميع عليم) فأمر الله تعالى أن يعلموا بأنه تبارك وتعالى يسمع ويعلم مراد كل أحد، وما يقول من قول في شأن القتال أو غيره إلا وهو يسمعه ويعلمه. وفي هذا السياق القرآني الكريم، تحذير من الغفلة عن إحاطته سبحانه وتعالى بعباده سمعاً وعلماً وقدرة. وأمرٌ بالعمل بمقتضى ما عَلَّمَهُم (واعلموا أن الله سميع عليم) وفي هذا ما يفيد الأمر بالعلم بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، وما يُفيد شرف العلم بها، وما تُفْضِي إليه من خير للعالم بها، في دينه ودنياه، مما يلزم الاهتمام بها علماً وتعليماً.

ولما أن القتال في سبيل الله تعالى يلزمه المال لتوفير العتاد، وما يحتاجه الجُنْدُ من طعام وشراب ولباس، وغيره مما لا غنى عنه للجهاد، حث الله تبارك وتعالى بأسلوب التشجيع على الإنفاق، فقال تعالى (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسنا) فالحث والتشجيع جاء بصيغة الاستحثاث التشجيعي، من هو هذا الذي يُقرض الله، أي يُنفق في سبيل الله تعالى. فالذي يُقْرِض هو العبد، والمكافئ لهذا القرض الرب تبارك وتعالى. وهذا الإنفاق من العبد على صيغة الإقراض، الْمُعاد، ولكن الإعادة هنا مختلفة عن إعادة البشر لبعضهم البعض، لأنها إعادة من مالك الملك. واشترط لهذا الأمر صفة الإحسان (قرضاً حسناً) والقرض الحسن عن طيب نفس. ولفظة (حسناً) تجمع كل جوامع الحسن في النية والإخلاص، وفي المقدار والنوع، وكذا طيبة النفس الممتلئة بالإيمان، والأدب والأخلاق في الإنفاق. ومنافية لكل ما هو ضد الإحسان وصفاته ودلالاته.

ثم يبين الله تعالى مقدار المكافأة للمنفق (فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) فلم يحدده بضعف، ولا بضعفين ولا بثلاثة، بل أضعافاً متكررة، لا يُحصيها إلا الله تبارك وتعالى. ويُستفاد من ذلك أهمية

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٤/٣)

الكرم وسخاء النفس في العطاء، وأن يُحسن من استقرض مع من أقرضه، وقتاً ومقداراً وشكراً وثناءً وإحساناً. لأنه منهج الله تعالى الكريم الرحمن.

ثم يبين الله تعالى في تمام الآية الكريمة أموراً عظيمة في الاعتقاد، وأثراً لها في السلوك والاطمئنان. فيقول تبارك وتعالى (والله يقبضُ ويبسط وإليه تُرجعون) فالرزق بيد الله تعالى يقبضه بقدر ما يشاء عمن يشاء، ابتلاء واختباراً، ويوسعه لمن يشاء امتحاناً واختباراً له، فيما وسعه عليه. وهذا المفهوم يُعطي المؤمن قوة في اعتقاده، واعتماده على ربه، والاستعانة به في طلب بسط الرزق وسعته وبركته، وفي تسهيل أمر الحصول عليه، وسؤاله أن تستطيب نفسه بما أعطاه، من سعة أو قبض، لعلمه أن الله يحكم ما يريد، وأن الخير فيما يقضيه الله تعالى. فيزداد طمأنينة ورضا بما أعطى، وبقدر ما أعطى تبارك وتعالى. ويظهر هذا على أخلاقه من التواضع والإنفاق إن بَسَطَ ربُّه له الرزق، والصبر وعدم الضجر إن ضاق عليه الرزقُ. ثم ينتهي نص الآية الكريمة، ولا تنتهي فوائدها بموعظة مؤثرة (وإليه تُرجعون) بيان وتأكيد بنهاية الختام الدنيوي، وذلك بالرجوع إليه سبحانه وتعالى. فالرجوع بعد الموت إلى الله تعالى، فيحاسب ويجازي كلاً بعمله، مما يدفع المؤمن من خلال هذه الموعظة الاندفاع للخير والانقباض عن الشر.

وهذا يُفيد أهمية أن يتناول الداعية والمربي والناصح، الدلالات القرآنية الكريمة، التي تدفع الإنسان للخير، وتُبعده عن الشر، وتربي فيه خصال الخير ومكارم الأخلاق. والحمد لله رب العالمين.

(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦)

وهذا قَصَصٌ آخر، يشحذ همم المؤمنين لمواجهة عدوهم، قال تعالى (ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله) فيقص الله تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وعلى من يبلغه القرآن الكريم ويسمعه، قصة جماعة من بني إسرائيل، في زمن ما بعد موسى عليه الصلاة والسلام. مما يفيد بأن هناك أنبياء أرسلهم الله تعالى بين موسى وعيسى عليهم السلام. وطلبوا من نبيهم أن يعين لهم أميراً قائداً، حتى يأتمروا به في قيادة دفة الجيش، بهدف القتال في سبيل الله تعالى. وقد جاء النص القرآني الكريم بأسلوب

لفت وشد الانتباه، بصيغة السؤال التقريري عما حدث من أمر قوم من بني إسرائيل، الذي جاءكم توصيفه كأنكم رأيتموه، فالذي أخبر به خالق كل شيء ومليكه، فَخَبَرُه حقيقة ماثلة لا شك ولا ريب فيه، فهو بمنزلة من شاهد وعاين بنفسه، ومن الفوائد أنها تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك.

وفي قولهم (ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله) بيان للمطلوب، وللهدف من الطلب. فالمطلوب تعيين أميرٍ لهم، بهدف القتال في سبيل الله تعالى، مما يفيد أهمية القائد والأمير في الحرب، وذلك لأهمية القيادة، التي يتبعها الْمُنْقَادون من المرؤسين. وأهمية وحدة الاصطفاف حول قائد واحد، وأن يكون خبيراً في هذا الأمر، ليتم ويتحقق الهدف. وأن هذه من أولويات إدارة الأمر في القتال، وفي غيره من التجمعات المهنية، والاجتماعية، والإدارية. ثم أيضاً عينوا الهدف والمسلك الذي يجتمعون عليه وهو (نقاتل في سبيل الله) فتحديد الهدف في غاية الأهمية، إذ هو الذي يلتف عليه فريق العمل، وسواء كان كبيراً أو صغيراً، ولمجموعة صغيرة أو كبيرة. ولكن نبيهم عليه السلام أراد أن يستوثق منهم لهذا الطلب، حتى لا يقرر شيئاً ثم ينكصوا عنه (قال هل عسيتم إن كُتِبَ عليكم القتالُ ألا تقاتلوا) وهذا يفيد ويدل على أهمية الاستيثاق من الأمر، ووضع الاحتمال أمام المجموعة المطالبة بالأمر، حتى يتخذ القرار وفق معطيات صحيحة، وكلمة (هل عسيتم) سؤال توقعٍ يستوثق به حال إن فُرِض عليهم القتال من الله تعالى، وهي تحمل معنى الإشفاق عليهم من احتمال عدم امتثالهم للقتال إذا فُرِضَ عليهم (هل عسيتُم إن كُتِبَ عليكم القتال ألا تُقاتلوا) فقد يحصل منهم العدول عن أمر الله تعالى (ألا تُقَاتِلوا) وفي قول نبيهم لهم (إن كُتِبَ عليكم القتال) دليل على أنه لا يأذن لهم بالقتال من عند نفسه، بل يأخذ الإذن لهم بالجهاد من عند الله تعالى (إن كُتِبَ عليكم القتال) فالذي يفرضه هو الله تعالى، لأن معنى (كُتِبَ) أي فُرِضَ. فأجابوه بنفي علة الامتناع عن القتال، ووجود علة الرغبة في القتال (قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله) فَنَفَوا علة الامتناع عن القتال في سبيل الله تعالى، ثم أثبتوا وجود العلة القوية الداعية للقتال، وهي (وقد أُخْرِجْنَا من ديارنا وأبنائنا) فقد تم تهجيرهم عن ديارهم وعن أبنائهم، مما يدل على أنها علل قوية للقتال. مما يزيل المانع من تعيين ملكاً يُقاتلون تحت إمرته، وتجتمع تحته كلمتهم ومشورتهم. مما يفيد أهمية الاستيثاق والنظر في العلل التي يُبنى عليها القرار، حتى يكون فاعلاً ووجيهاً. وأهمية وحدة مصدر جمع الكلمة التي تقررت في وجود القائد، الذي ينقادون له، ويلتفون حوله.

ومن الفوائد كذلك: أسلوب ترتيب الكلام، بنفي الامتناع من خلال نفي وجود موانعه، ثم بيان علل أو العلة الموجبة له. وهذه الدقة غاية في تحرير وترتيب الكلام، وبلاغته في أوجز ما يكون.

ثم كُتِبَ عليهم القتال (فلما كُتِبَ عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم) فكانت نتيجة مخالفة لما استوثق منهم نبيهم عليه الصلاة والسلام. فأعرض الكثيرُ وبقي القليلُ الذين عَبَرُوا النهر على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. ولعل في هذا تصفية للمُخَذِّلين والمرجفين، فلربما في الخلاص منهم قوة للقلة، بذهاب الضعيف الكثير. وفي هذا درس للمؤمنين بأن لا يكونوا مثل هؤلاء الذين تولوا، بل ليكونوا مثل الذين ثبتوا، فيقتدوا بهم.

وفيه من الفوائد أن موازين الحق ليست بالكثرة، بل باتباع الحق ولو كانوا قِلَّة. ثم تنتهي الآية الكريمة بقول الحق تبارك وتعالى (والله عليم بالظالمين) فهوا عالم بالظالم الذي يصدر عنه الظلم، مما يُفيد الوعيد له، كما أن في هذا تعليم لهذه الأمة، بأن يكونوا مع نبيهم صفاً واحداً، ولا يكونوا مثل الظالمين الذين تولوا عن القتال، بعد أن طلبوه ورَغِبُوا فيه. كما يفيد هذا أن مسلك الذين تولوا عن القتال هو مسلك الظلم الآثم، وأن من يقرر ويمتنع عما فرض الله تعالى عليه فهو ظالم، يستحق العقوبة من الله تعالى.

(وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧)

ثم يأتي مشهدٌ آخر من مشاهد التعنت (وقال لهم نَبِيُّهُم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) أي أن الله أجابكم على ما سألتم، فَعُيِّن طالوتُ ملكاً عليكم. وهنا يأتي التعنت الآخر، بتقديم العقل على النقل، والفهم القاصر، والحكم بغير علم (قالوا أنَّى يكون له الملك علينا) وهذا صيغة الاعتراض، الذي يحمل اندهاشاً من هذا التعيين والاختيار لطالوت، ثم تأتي علل الاعتراض (ونحن أحق بالملك منه. ولم يُؤتَ سعة من المال) فالاعتراض الأول (ونحن أحق بالملك منه) فهو متعلق بالأحقية، من أن المُلك لا يخرج عن فئتهم، ولفظة (أحق) تجمع دلالات كثيرة فيما يعنون من الأحقية، لتشمل اصطفاءهم بالملك، والنسب والمال والجاه، وكل ما يمكن أن يشعر به المرء، من أنه أحق من غيره به. وهذه قد تعمي الإنسان عن قَدَر الله، وحكم الله، واختيار الله، وإرادة الله

تعالى، بل تعمي الإنسان عما عند غيره من الصلاح والقدرة، فهي قاتلة للقدرات، ومدمرة للإرادات، ومُشعلة للكبر.

ثم تأتي العلة الأخرى، التي احتجوا بها على رفض تمليكه عليهم (ولم يُؤتَ سعة من المال) مما يفيد أن طالوت كان قليل المال، وأن علة الغنى أساس ومقياس للرئاسة في حكمهم، وهذا يفيد بأن المقاييس البشرية تقوم على معطيات يعتريها الخطأ، لكونها قد تنظر للأمر من جهة المظهر، وتهمله من جهة الكمال والتمام، كما أن لفظ الأحقية الجائرة يجر إلى استعلاء النفس بما لديها، وبما تظن أنه هو الحق، المبرر للحق الذي تتصوره وإن كان مخالفاً للحقيقة. كما أن لفظ الأحقية الجائرة، يُهَمّشُ ويَئِدُ بها الظالمون أصحابَ الاستحقاق، من الموهوبين والقادرين والْمُفَضَّلِين بما فضلهم الله تعالى، من المهارات والقدرات، التي تُعطيهم حق الأولوية على غيرهم. ويمتد بساط هذا في كافة مستويات الأعمال الإدارية وغيرها.

وعلى لسان نبيهم يَرُدُّ الله تعالى عليهم، بقوله سبحانه وتعالى (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي مُلكه من يشاء) فأول أُسس التفضيل لطالوت، الذي كان فقيراً، أن الله تبارك وتعالى اصطفاه (إن الله اصطفاه عليكم) فقد اختاره من بينكم، ولفظة الاصطفاء تَدُلُّ على انتقاء الْمُصْطَفَى من بين أفراده، فيختاره لعلل قد لا يعرفها أو يتنبه لها أحد من المخلوقين، بسبب ما غشى عقولهم من سلطان الأحقية غير الصائبة. وكفى باصطفاء الله تعالى حجة بالغة، قاطعة فاصلة لهذا الأمر، ولكن الله تبارك وتعالى يبين مزيداً من أسس الاصطفاء (وزاده بسطة في العلم) وهو الأساس الثاني: مما يدل على أن العلم بما هو مؤهل له، قضية مهمة وكبيرة، وأن يُقَدَّم صاحب العلم، العالم بالعلم المخصوص، بالشيء الْمُكَلَّف به على غيره. وأنه ركيزة لنجاح الأعمال في جميع مجالاتها. ولما أن السلامة والقوة الجسمية ركيزة مهمة في القتال، بَيَّنَ الله تعالى هذا السبب (وزاده بسطة في العلم والجسم) وهي الأساس الثالث، وهي متعلقة بالكمال الجسمي وقوته وسلامته، لأنها القوة التي يُنَفّذ بها الحق، ولأن كماله يمنع ما يحول بينه وبين أداء ما هو مُكَلَّفٌ به. ثم يحسم الله تعالى الأمر في اختيار طالوت وغيره، بقوله عَزَّ وجل (والله يُؤتي مُلْكَهُ من يشاء) كما في قوله تعالى في سورة آل عمران (قل اللهم مالك الملك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) فقطع بهذا كل رأي، وكل تطاول. مما يفيد ألا يُنَازِع أحدٌ أحداً ممن يُؤتيه الله تعالى الملك. وأن أهمية الطاعة ولزوم الأمر واجبٌ لمن كان والياً فيما يُرضي الله تعالى، وكذا في الجوانب الإدارية

والقيادية، على مختلف درجاتها، وعدم منازعة من أوكل إليه أمرٌ من الأمور، بل يلزم تسديده وإعانته على ما يتحقق به الخير للجميع. وأنه يلزم عدم النظر للنسب والمال في مثل هذا، بل لكل ولاية ما يناسبها من نوع العلم، والكمال النفسي والجسمي. وأن الجهل لا تقوم به قيادة، ولا إدارة، ولا زمام أمر من أمور المجتمع. كما أن مطلب الكمال الجسمي، وتمامه وقوته وبسطته في الأمور العسكرية أمرٌ متعينٌ.

ثم انتهت الآية الكريمة بموعظة عظيمة (والله واسع عليم) فتبارك وتعالى واسع في علمه وعطائه وفضله وقدرته، وهو العليم بأحوال العباد، وتفيد كذلك بأن الله تعالى هو الذي وسَّع وبسط عليكم رزقه، وهو العليم بطالوت فأعطاه الملك من بينكم. وأنه عليم بما يختار ويصطفي، وبالتالي ليس لأحد حق الاعتراض على أمر الله تعالى، الذي كَمُلَت صفاته وتعالت بالكمال في الْوِسْعِ والتوسعة على من يشاء، والعلم بما يختار ويعطي.

(وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ٢٤٨)

ثم بين لهم نبيهم علامات ملكه، قال تعالى (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) مما يفيد أهمية البرهان، لتأكيد الحقائق، وإقامة الحجة، خاصة للمتعنتين، من أجل إخضاعهم للحجة، التي هي وسيلة لتقوية الثبات. وكذلك وسيلة في اجتماع الكلمة، وتحقيق البناء الاجتماعي الْمُتَماسك، وكذلك في التأثير التربوي والدعوي، أثناء وعند تنفيذ المهام الإدارية والقيادية، التي قد تستدعي البرهان على صحة الأمر، أو في تعيين أفضل البدائل الْمُرَاد الأخذ بها.

ثم تضمن السياق القرآني الكريم، تلك الحجة والعلامة الدالة على الصدق والحقيقة، قال تعالى (إن آية مُلْكِهِ أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) فالعلامة الأولى: أن يُرَدَّ عليكم التابوت الذي أُخِذَ منكم (أن يأتيكم التابوت) والثانية: أن فيه سكينة من الطمأنينة والرحمة. ومن فضائل نعمة السكينة، ما تُحدثه في القلب من القوة والرضا والسعادة الباعثة على رباطة الجأش، وزيادة الإيمان وعدم الجزع، وقد امتن الله تعالى على رسوله والمؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة، كما في سورة الفتح (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا

إيماناً مع إيمانهم) وقال تعالى (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) فهي نعمة عظيمة. وفي لفظة (سكينة من ربكم) ما يفيد التفضل ابتداءً من الله تعالى بهذه السكينة عليهم. وأما الآية الثالثة: (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) عصا موسى وعصا هارون، والتوراة، وثياب موسى وثياب هارون. والرابعة (تحمله الملائكة) قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت.[١]

وهذا يُفيد أن قدرة الله تعالى عظيمة، وآياته وحججه باهرة ظاهرة في كل وقت وحين، فيوجههم نبيهم إلى هذه الآية الباهرة، التي توجب إيمانهم به، وبطالوت ملكاً عليهم. قال تعالى (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) مما يفيد أن الآيات توجب الإيمان، وأن من يُعرض عن الإيمان بعد الآيات فهو الجاحد المكابر المعاند.

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩)

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى مشهد آخر من مشاهد طالوت وجنوده، قال تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مُبْتَلِيكُم بنهر) فبينت هذه الآية أول مسار الجيش وانفصاله عن ديارهم، في اتجاهه للعدو، بقيادة ملكهم طالوت، وأخبرهم بما يواجههم، ويقابلهم من الابتلاء والاختبار، من أنَّ الله مبتليهم بنهر ماء، وبين لهم ما ينبغي عليهم، قال تعالى (فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني) وهذا يفيد بأن هذا اختبار، وتمحيص لقوة الإرادة والصبر والتحمل، فمن يشرب من الماء يكون قد ضَعُفَت إرادته أمام الماء، فهو للعصيان في الشدائد أقرب. ومن يترك شُرب الماء، فهو أقدر على ضبط النفس وعلى الصبر والتحمل للشدائد. ولتكون النتيجة: أن من شرب وليس من أصحابي، فليس بجزء مني، وهذا يفيد أن الصحبة تشكل كُلاً واحداً للرفقة، وكأنهم جسدٌ واحدٌ، فمن افترق عن الرفقة، فكأنما انقطع من هذا الجسد، الذي تُمثله كتلة أو جسد الرفقة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٩/١)

(فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني) ومن لم يطعمه، قد امتثل للأمر، فإنه من أصحابي، فكان جزءٌ من هذه الرفقة. وكلمة (يطعمه) أي يذقه. واستثنى من أخذ بالمقدار الذي استثناه الله تبارك وتعالى (إلا من اغترف غرفة بيده) والاغتراف هو الأخذ من الشيء باليد وبآلة، ومنه الْمِغْرَفَة.[١] ومن فوائد ذلك أن لله يحكم ما يريد، وأن على المؤمن طاعة الله تعالى. وكذلك أهمية العناية بالاختبار. فأهميته للأمور والمهات بحسبها، لأن في التمحيص ما يبين الصالح وغير الصالح، ويبين التفاوت في القدرات التي يتأهل بها البعض دون البعض الآخر. وأن على القائد أن يُمحص ويُتابع الأمر في الاختبار، وفي التطبيق والتمحيص والتفنيد. وأن هذا من الأمور التي تتقوى بها الإدارة في كل مرفق، وفي كل مستوى، بل وتتقوى به المصالح العامة والخاصة، وأن كل فئة من الناس يتمثل فيها تفاوت القلوب والعقول والإيمان. وكذا الطاعة والاستجابة للأوامر والنواهي.

وفي قوله (فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني) ما يفيد أمر الحسم والاخبار بالمطلوب، وما ينبني عليها من القرارات، وكذا التشجيع بما يناسب الحال والموقف، فلفظة (ليس مني) وكذا لفظة (مني) فيها التشجيع نحو الاستباق لمعية الصالحين، والتحذير من الانقطاع عنهم، بسبب ما يواجه المرء من الشهوات. وفيها التشجيع على الصبر والتصبر عن الشهوات، وأن الإيمان ضابط للسلوك البشري، وموجهٌ له نحو الصلاح في أحلك الأمور، ومنها مواجهة الشهوات. مما يدل على أهمية التربية الإيمانية، لتحقيق قوة الأمة، وقوة الدولة، والمجتمع والأداء المنضبط، بحفظ الحقوق.

ويفيد هذا أن جانب الابتلاء والتمحيص متعلق بهذا الإنسان، وأن الله تعالى يبتليه، حتى وإن كان سائراً في الطاعة. فهم القليل الذين قَبِلُوا بالقتال، ومع هذا كانت أول الخطوات ابتلاء، حتى يُدرك المسلم أن الابتلاء لا يعني عدم رضى الله تعالى عن العبد، بل إنه سُنّة من سُنن الله تعالى للناس في هذه الحياة الدنيا. وألا يُنْظَر للمُبْتَلى أنه معاقب، أو مَبْغُوض من الله تعالى، وليوطن المؤمن نفسه، من أن الله تعالى قد يبتليه، وهو في مسار الطاعة، فيسأل الله تعالى العافية.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/٣)

ثم بعد أن وصلوا النهر جاء موقف الفرز، قال تعالى (فشربوا منه إلا قليلاً منهم) فالكثير هُمُ الذين شربوا، مما يدل ويفيد: أن الكثرة قد لا تكون هي الصائبة، فالحق مع من اتبع الهدى وإن كانوا قليلاً. فالقليل هم الذين لم يشربوا.

ثم يُخبر الله تعالى بمجاوزتهم ومغادرتهم النهر، قال تعالى (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه) ليأتي الموقف الآخر، الذي يظهر فيه مزيد من التمحيص والفحص، والاختبار لمكونات الجيش الإيمانية، وهو مشاهدة عدوهم جالوت، قال تعالى (قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) مما يفيد أن عدد عدوهم كان كثيراً جداً، مما أذهل جند طالوت. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: جاز معه النهر أربعة الاف رجل، فيهم من شرب. فلما نظروا إلى جالوت وجنوده، وكانوا مائة ألف. فرجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون.[١] وأمام هذا الموقف انقسم الجند إلى قسمين: القسم الأول قالوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) والقسم الثاني (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) فالقسم الثاني بلغوا من الإيمان ما جعلهم يوقنون بأن النصر من عند الله تعالى، وإن قُتِلُوا سيلقون الله تعالى شهداء. لأن الظن هنا بمعنى اليقين، أي يتيقنون.[٢] مما يفيد أن الإيمان هو مصدر الثبات، وأن ضعف الإيمان مصدر الشك، الذي يؤدي إلى الخوف، نتيجة الرهبة من الكثرة، والخوف من الموت، والخوف من الفشل، والخوف من الإقدام، وأما الإيمان فهو قوة للثبات، وقوة للشجاعة، وقوة لفعل الخير، وقوة للإنفاق، وقوة للإقدام. وفي جملة (يظنون أنهم ملاقوا الله) ما يفيد إيمانهم بالحياة الآخرة بعد الموت، وإيمانهم بأنهم سيلقون الله تعالى، وإيمانهم بأنه سوف يأجُرُهُم على قتالهم في سبيله سبحانه وتعالى. وهذا يفيد عسكرياً وتربويا ودعوياً ومهنياً وإدارياً، أهمية التربية الإيمانية، التي تجعل من المؤمن قوة لا تنحط، ولا تنكسر، ولا تنثني، بل قوة قائمة صامدة أمام المخاوف، وأمام المغريات.

ومن جميل فهمهم وقوة معتقدهم الإيماني، أنهم لم يجعلوا النصر بالكثرة، إنما أيقنوا أن النصر بتأييد الله تعالى للمنصور، قال تعالى عنهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) فاعتصموا بالله تعالى واستيقنوا بِنُصْرَة القوي العزيز، كما هي عقيدة المؤمن، بأن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٦/٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٦٥/١)

الغلبة والنصر هي بتأييد الله تعالى. وفي لفظة (كم من فئة) تفيد كثرة انتصارات الفئة القليلة، أي ليس مرة ولا مرتين، بل مرات كثيرة، انتصرت فيها الفئةُ القليلة على الفئةِ الكثيرة، وذلك (بإذن الله) وهنا ربطوا النصر (بإذن الله) مما يؤكد صحيح الفهم والاعتقاد، من أن كل شيء بإذن الله تعالى.

وجملة (بإذن الله) قوة اعتقادية وعملية عظيمة للمؤمن، إذ بها يتوكل على الله تعالى، وبها يرضى بنتيجة أمر الله تعالى. فإذا أخذ بالأسباب، اعتقد أنه سيتمكن بإذن الله تعالى، وإن حصل ما لا يريد أيقن وقال: لم يأذن به الله تعالى، وإن تردد في شيء استقوى (بإذن الله) وإن أخافه شيء انتصر على خوفه (بإذن الله) وإن استشعر بخذلان غيره له، اطمأن بقوله كل شيء (بإذن الله) وإن رأى بريق ما يحب قال (بإذن الله) وإن تحقق ما يحب، قال: الحمد لله، وقد حصل (بإذن الله) فتكون (بإذن الله) هي القوة التي يمتلئ القلب بها في كل وقت وحين، وفي كل شأن من شؤون الدنيا والحياة. ثم قالوا (والله مع الصابرين) وهذا تقرير بما تعلموا، بأن الله تعالى معين ومساند للصابر. فهو معه بتأييده ونصره وتوفيقه ومؤازرته. مما يدل ويفيد، أن الصبر وسيلة من الوسائل التي يستعين بها المؤمن على معية الله تعالى له، في قضاء حاجاته، وتفريج كرباته، والانتصار بها على ما يواجهه في الحياة.

مما يفيد أن جملة (والله مع الصابرين) قاعدة يستقوي به المؤمن على قضاء حوائجه، وما ينوبه من ضرر وكربات. فحينما تواجهه صعوبةٌ يستعين عليها بتطبيق قوله تعالى (والله مع الصابرين) وإن شرع في عمل استعان في قضائه بقوله (والله مع الصابرين) لأن كل عمل يحتاج لصبر، وإن تقاعست نفسه عن طاعة، تذكر قوله تعالى (والله مع الصابرين) وإن واجهته شهوة خاطئة استعان في التوقف عنها بتطبيق قوله تعالى (والله مع الصابرين) فهي قوة لمن تذكرها وعمل بمقتضاها، حتى يكون الله تبارك وتعالى معه فيما هو فيه، من دفع شر، أو جلب خير، أو تفريج هم، أو إجلاء حُزن، أو دفع كسل، أو رفع عجز.

(وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠)

ثم ينتقل المشهد القرآني لبيان المواجهة بين طالوت وجالوت (ولما برزوا لجالوت وجنوده) وهذا هو أول بَدْء اللقاء، فحين ظهر جنود طالوت في أرض المعركة لجالوت قائد العمالقة، ومعه جنوده استعانوا بالله تعالى، الذي من فضله تبارك وتعالى عليهم أن وفقهم إلى ذكره أمام الحشد الهائل لجالوت وجنوده (قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) فأول دعاؤهم (ربنا أفرغ علينا صبرا) لأن لقاء العدو يحتاج إلى الصبر، وكذا كل أمر يواجه المرء يحتاج إلى صبر. ثم في هذا الدعاء ما يفيد أن المؤمن يطلب الصبر من الله تعالى. فقد طلبوه من الله تعالى. مما يفيد أن المؤمن يصبر ويطلب من الله تعالى أن يصبره، فلا يعتمد على جهده وظنه بنفسه، بل يلجأ إلى الله تعالى فيما يقصده. ثم طلبوا من الله تعالى التثبيت (وثبت أقدامنا) فتثبيت الأقدام أمام الفواجع عزيزة، وصعبة المنال، إلا بتوفيق الله تعالى، والثبات وعدم الفرار من العدو في الحرب وفي غيره، أمرٌ يحتاج إلى قوة إرادة، يمنحها الله تعالى للعبد، إذ لا ثبات لمن لم يعينه الله تبارك وتعالى، فيثبت قلبه وقدمه أمام صليل السيوف. ثم سألوا الله تعالى النصر (وانصرنا على القوم الكافرين) فسألوا الله تعالى النصر على هؤلاء الكفار، مما يُعَلِّم المؤمنَ، أن النصر هو من الله تعالى، في كل باب، ومنها باب النصر على الكفار في ميدان المعركة، مما يلزم المؤمن أن يطلبه من الله تعالى، ولا يعتمد على قوته وقدرته، حتى لا تخذله في الميدان، بل يعتمد على قوة الله تعالى ونصرته.

وهذا يفيد أهمية الدعاء في كل وجه، وفي كل باب، وفي كل حال وحين. فلا نصر إلا بالله تعالى، ولا ثبات إلا بالله تعالى، ولا صبر لأحدٍ إلا بالله تعالى، ولا يُستجلب خيرٌ إلا بالله تعالى، ولا يندفع شر إلا بالله تعالى.

(فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢)

ثم ينتقل المشهد إلى نتيجة المعركة، بين أهل الإيمان وأهل الكفر، يقول الله تبارك وتعالى (فهزموهم بإذن الله) فكانت المبادرة في القرآن الكريم إلى إعلان النتيجة، بهزيمة الكفر، ولكن هزيمتهم لم تكن بسبب قوة جيش طالوت، لأن قوتهم لم تكن متكافئة مع قوة جيش جالوت، لا من حيث العدد، ولا من حيث العتاد، ولكن كانت الهزيمة (بإذن الله) كما قال تعالى (فهزموهم بإذن الله) لأنهم اعتمدوا في هزيمة عدوهم على الله تعالى، بإذن الله القوي العزيز، كما قالوا في الآية السابقة (قال

الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبة فئة كثيرة بإذن الله) فالذي أنزل النصر هو الله القوي العزيز.

ثم يكشف ويبين الله تعالى الرجل الفارس الذي قتل جالوت (وقتل داود جالوت) حيث خرج داود من جيش طالوت، فقتل جالوت، ثم يقول الله تبارك وتعالى ممتناً على داود عليه السلام (وآتاه اللهُ الْمُلْكَ والحكمةَ) فقد تفضل الله تعالى على داود عليه السلام بأن آتاه الملك بعد طالوت، وكذلك (والحكمة) وهي النبوة بعد النبي شمويل.[1] فجمع الله تعالى له بين الملك والنبوة. بل وتفضل الله تعالى عليه بقوله سبحانه وتعالى (وعلّمه مما يشاء) أي من العلم الذي اخْتَصَه به تبارك وتعالى. وهذا يؤكد ويبين أن الله تعالى هو الذي يؤتي الملك من يشاء من عباده، إذ كيف هيء الْمُلْكَ والرسالة، لداود عليه الصلاة والسلام. وزاده بفضله من العلم الذي اختصه به.

ثم يبين الله تعالى حكمته في الدفع (ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض) فلولا دفع الله تعالى عن قوم بقومٍ آخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لَهُلِكُوا.[2] مما يفيد أن لله تعالى الحكمة البالغة في تسليط قوم على قوم، لدفع الشر به عن قوم آخرين. قد يعلمون بذلك ويشعرون بهذه النعمة، وقد لا يتنبهون لها، مما يلزم المسلم، التفكير فيما تمر به وبحال المسلمين من أحداث، وما يرى فيها من صراع، ليدفع الله تعالى به عن قوم آخرين شراً عظيماً. واشتملت الآية الكريمة على الحكمة من هذا الدفع، في قوله تعالى (لفسدت الأرض) فهذا التدافع لبقاء الصالح، وحفظه من فساد وشر الفاسد الظالم (ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض) فلا ينحصر النظر لهذا التدافع، من باب ووجه هلاك المقتولين فقط، بل يُنظر للوجه الآخر أيضاً حتى تكتمل حقيقة الحكمة والنعمة، وهو بقاء الصلاح والصالحين فيها، من أجل إصلاحها بالخير، والحفاظ على وجودهم، وكذلك لدفع الفساد عن الأرض، ببقاء الصالحين وهلاك الفاسدين، وكذلك يفيد هذا أن فساد الأرض هو بسبب من عليها، لما يحصل منهم، من الجور والظلم، وأن صلاحها بصلاح الصالحين. كما يُستفاد من هذه الآية الكريمة أن الصراع بين الحق والباطل مستمر، حتى لا يهلك الصالح بقوة وفساد الفاسد.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/ ٣١٠)

(٢) المرجع السابق (١/ ٣١٠)

فالحمد والشكر لله تعالى، الذي يدفع عن الصالحين بمنهج التدافع.

ولو استصحب الإنسان هذه الحكمة الربانية في عموم الحياة، لوجد صورها وأحداثها وحقائقها أمامه، في عموم مضارب الحياة المختلفة، بما يحقق المنافع، ويدفع المضار والمصائب في مجالات الحياة المتعددة: كالتجارة والتداوي والشفاء، وفي الأرزاق وغيرها. فيأتي هذا ليدفع به عن آخر، ويجيء هذا ليحصل له من هذا خير لم يتوقعه، وتهيأ لهذا أمورٌ لم تخطر بباله، فيحصل له ما لم يحتسبه من فضل الله تعالى، فمن الذي دفع بهذا لهذا، حتى يحصل لطرف ثالث أو أكثر من فضل الله تعالى ما لم يتوقعه. وربما يأتي هذا ليدفع الله تعالى به شراً عن آخر. فسبحان الله تعالى، له الحكمة البالغة في تدبيره واختياره. وهذا كله من فضل الله تعالى ورحمته، كما جاء في ختام الآية الكريمة (ولكن الله ذو فضل على العالمين) ففضل الله تعالى على العالمين كبير وعظيم لو تأمله الإنسان. وهذا يتطلب أموراً: فمنها التوكل على الله تعالى، والاستعانة به في كل أمر، فهو الذي يدفع بحكمته البالغة، وإرادته النافذة، وسلطانه العظيم، وقدرته القاهرة. كما يتطلب هذا من المؤمن، التفكر في شأنه وشأن المجتمعات، وكيف يدبر الله تعالى أمور العالمين، بدفعه الناس بعضهم ببعض، حتى لا تفسد الأرض، بقوة وكثرة فساد الفاسد، وهلاك القليل الصالح.

ومن الفوائد: أن قررت الآية الكريمة أنَّ فضل الله تعالى عام على خلقه أجمعين (ولكن الله ذو فضل على العالمين)

ثم يبين الله تعالى مغزى بيان هذه الأحداث (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) فهذه الآيات نقصها عليك يا محمد بالصدق (بالحق) وفيها ما يُثْبِتُ نبوتك (وإنك لمن المرسلين) ليرد على كل من يقول للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: لست مرسلا. فهذه أحداث لا يعلمها إلا أهلها بعد الله تعالى، فَيُخْبِرُ بها النبي الأمي، الذي لا يقرأ ولا يكتب صلى الله عليه وسلم.

ويتبين من هذا القصص أنه وسيلة دعوية وتربوية، وهداية وإعجاز في ألفاظه ومحتواه، وفيه دروسٌ وعِبَرٌ، وبيانٌ لحكمة الله تعالى وقدرته العظيمة، وسُننه سبحانه وتعالى في تدبير خلقه، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يتطلب من المؤمنين توظيف محتوى القرآن الكريم في منهج تربوي ودعوي، وأيضاً تنظيمي وتخطيطي وتشريعي، لما فيه من المضامين العظيمة، التي تهدي للتي هي أقوم، في كل باب، وجانب، من جوانب الحياة.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان تفاضل الرُّسُل (تلك الرُّسُل فضلنا بعضهم على بعض. منهم من كلم الله. ورفع بعضهم درجات) فَرُسُلُ الله تعالى مُتَفَاضلون بينهم، بما فضل الله بعضهم على بعض. فالتفضيل ليس منهم، بل هو من الله تبارك وتعالى (فضلنا) حيث نسب التفضيل له تبارك وتعالى (تلك الرُّسُل فضلنا بعضهم على بعض) مما يفيد أن الله تبارك وتعالى هو المتفضل، بما يَخُصُّ به الرسولَ من رُسِلِهِ، بخصائص وقدرات ومعجزات، فيفضله عن غيره من الرُّسُل. كما يفيد هذا أن مقام التفضيل من الله تعالى للأنبياء، وليس لأحد من خلقه، بل يجب الانقياد والإيمان والتسليم بذلك. كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم (لا تُخَيِّروا بين الأنبياء)(١) (لا تفضلوا بين أنبياء الله)(٢) فلم يأمر اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بأن يتعبدوه بالمفاضلة بين أنبيائه، بل يؤمنون بهم جميعاً، وأن الله تعالى هو الذي فاضل بينهم بحكمته، وأن مقام التفضيل والتفاضل له وحده سبحانه وتعالى.

ومن ذلك التفضيل، قوله تعالى (منهم من كلم اللهُ) فتكليم الله تبارك وتعالى فضل مزية للنبي، كموسى عليه الصلاة والسلام، فهو كليم الله تعالى. وقال تعالى (ورفع بعضهم درجات) كما جاء في حديث الإسراء، حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم، في كل سماء أنبياء بحسب منازلهم(٣) وقال الله تعالى عن عيسى عليه السلام (وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُس) فقد أيد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الدالة على صدق نبوته (البينات) وكذلك أيده الله تبارك وتعالى (بروح القُدُس) وهو جبريل عليه السلام.

ومن بعض تلك الفضائل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الله، وموسى كليم الله تعالى، وداود عليه الصلاة والسلام آتاه الله الملك والحكمة، وعلمه صنعة الدروع، وعلم سليمان عليه الصلاة

---

(١) البخاري (٢٧٧/٤) برقم (٦٩١٦)

(٢) مسلم (١٨٤٣/٤ – ١٨٤٤) برقم (٢٣٧٣)

(٣) البخاري (١٣٢/١) برقم (٣٤٩)

والسلام منطق الطير، وسخر له الجن، وعيسى عليه الصلاة والسلام يُبرئ الأكمه والأبرص، وينبؤهم بما يأكلون وما يدخرون، وغير ذلك من الفضائل والآيات. ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أُسري به، وأُرْسِل للثقلين: الإنس والجن، وفضل الله تعالى أمته، وجعله خاتم الأنبياء، وتكثير الطعام، ونبع الماء من تحت اصبعيه، ونصرته بالرعب. وغيرها من الفضائل. فجميعها من الله تعالى.

وهذا التنويه والبيان من الله تبارك وتعالى يفيد كذلك في فهم منهج التفاضل بين العباد، من أن الأفراد من الناس، عندما يُفَضِّلُ اللهُ تعالى بعضَهم على بعضٍ بفضل مزية، فإنه هو المتفضل، وليس الشخص تفاضل على غيره بما لَهُ من خصائص، لأن الذي منحه تلك الخصائص هو الله الغني الكريم، فلا يفخر بها على غيره، أو يتكبر بها على غيره. لأنه لم يتفضل بها على نفسه، ولا يستطيع ذلك، بل الله تعالى هو المتفضل عليه بما أنعم وخصه من كريم عطائه سبحانه وتعالى. وهذا يفيد أن تُنسب النعم كلها لله تعالى.

وكلما بعث الله تعالى رسولاً من رُسُلِهِ على قومٍ، استوجب ذلك الإيمان به وطاعته، وذلك لِمَا أظهر الله تعالى على أنبيائه من البينات والمعجزات، ولكن أكثر أقوامهم كفروا وانحرفوا، ونتيجة لهذا الانحراف حصل الاختلاف، وأصبح هناك المؤمن والكافر، فنتج عن ذلك الاقتتال بينهم. قال تعالى (ولو شاء اللهُ ما اقتتل الذين من بعدهم. من بعد ما جاءَتهم البينات) فلو شاء وأراد الله تعالى أن لا يقتتلوا من بعد ما اتضحت لهم البينات، التي جاء بها الرُسُل الكرام، لكان ذلك، لما له من كمال الإرادة والسلطة والقدرة، فليس ذلك خروجاً عن سلطانه وقهره. فنفى سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة كل نقص، بإثبات القدرة والمشيئة له، تبارك وتعالى. (ولو شاء اللهُ ما اقتتل الذين من بعدهم. من بعد ما جاءَتهم البينات) ولكن بسبب الاختلاف على النبي الْمُرْسَل، حصل هذا الاقتتال (ولكن اختلفوا. فمنهم من آمن. ومنهم من كفر) مما يفيد أن الاختلاف في الملة شرٌ، موجب للعداوة والاقتتال. وكذلك يفيد هذا خطورة الاختلاف في تجزئة الملة، التي ينتج عنها التصنيف التكفيري. ثم يقول تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا) وكذلك لو أراد الله تعالى ألا يقتتلوا، لكان ذلك، فأثبت سبحانه وتعالى مشيئته فيما لو أراد ألا يحصل بينهم الاقتتال، لكان ذلك، وبهذا نفى سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة كل نقص، بإثبات القدرة والمشيئة له تبارك وتعالى (ولكن الله يفعل ما يريد) فهذا كله لأن الله تعالى يفعل ما يريد، وبالتالي نفى عَزَّ وجَلَّ كل شيء يحصل بغير

إرادته، فإرادته كاملة سبحانه وتعالى. ولا شيء يحصل من غير مشيئته، ولو شاء الله تعالى ألا يكون الشيء الحاصل على ما هو عليه لما حصل، ولكان كما شاء الله سبحانه وتعالى.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الحث على الإنفاق (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) ويستهل الخطاب في الآية القرآنية الكريمة، بأسلوب النداء، الذي يفيد شد الانتباه، لما يُلْقَى إليهم، لأهميته المتعلقة بآخرتهم.

وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان رتبة عظيمة من الله تعالى لهم، وتقرير إيمانهم به، منه تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا) فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذا كله ليلفت انتباههم، وليعلمهم ما ينفعهم. ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو، بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله.

ثم يُحثهم الله تعالى على الإنفاق، بأسلوب اشتمل على ثلاثة محفزات: التحفيز التشجيعي، والأمر، والترغيب التحذيري. فالتحفيز من مناداته سبحانه وتعالى لهم بالمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) والأمر بقوله تعالى (أنفقوا) لأن في الأمر تقوية لإرادة المؤمن، تجاه ما يُحب، بأن يُنفق منه، مما يفيد أن بعض المطالب تحتاج أن يكون فيها السياق بالأمر، مع ما كان قبلها من التشجيع والتكريم، أي جمعت الآية الكريمة بين عوامل التحفيز بالتشجيع (يا أيها الذين آمنوا) وبين الأمر (أنفقوا) وكذلك بيان العلة الْمُرَغِبَة في الإنفاق (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وهذا الأمر بالإنفاق ليس بكل ما عند المؤمن، بل بجزء مما عنده من الرزق. (أنفقوا مما رزقناكم) وهذا من لطفه سبحانه وتعالى وعظيم منهجه، وكريم حكمته عَزَّ وجل. وفيه كذلك من الفوائد: إثبات أن ما عند العبد من رزق، فهو من الله تعالى، تفضلاً منه وكرماً، حيث يقول تبارك وتعالى (مما رزقناكم) فنسب الرزق الذي عند العباد له سبحانه وتعالى (مما رزقناكم)

وفي لفظة (مما رزقناكم) أي ليس كل ما رزقناكم تُنفقونه، بل بشيء منه، كما أن من لطفه تبارك وتعالى أنه لم يحدد الكمية والمقدار، بل جعلها بحسب تقدير الْمُنْفِق وسخائه وكرمه، وحاجته وتقديره للموقف. وشملت لفظة (مما رزقناكم) جميع أصناف الرزق، ولم يُحصر في نوع معين، لتستوعب

جميع عطاء الله تعالى ورزقه، من علم ومال وطعام، وكسوة، وأنعام، أو جهد بدني، أو جاه، فجميعها وغيرها، هي أرزاق من فضل الله تعالى.

فسبحان من استوعب كلامه مراده في أبلغ بيان، إذ كيف استوعبت (مما رزقناكم) العديد من الفوائد والدلالات، في التنوع والمقدار، وفي تقدير حال الْمُنْفِق والْمُنْفَق فيه وعليه. فسبحان من جمع كلامه فصل الخطاب، وجمال البيان، وعظيم الأساليب البلاغية، والدعوية، والتربوية.

وتستثير الآية الكريمة عند المؤمن، جانب الإنفاق بسخاء، من خلال تذكيره بيوم الحساب (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة) هذا اليوم الذي تنتفي فيه القدرة على بيع شيء مما رزق اللهُ تعالى العبدَ في الدنيا حتى يشتري به ما يحتاجه في الآخرة، من الحسنات والدرجات والجنات، ودفع العذاب، والابعاد عن النار، فلا مجال للبيع البتة (لا بيع فيه) وكذلك (ولا خُلَّةٌ) وهي الصداقة التي تنفع، فإنها تنتهي. وكذلك (ولا شفاعة) فلا أحدٌ يشفع لأحدٍ إلا بإذنه سبحانه وتعالى. فأسباب الاستفادة في الآخرة من أمور الدنيا تنتهي يوم الحساب، إلا بما قدم المؤمن في دنياه لآخرته. ففيها الاستحثاث على اغتنام الفرصة، بأسلوب التذكير والتحذير التشجيعي، الدافع لاغتنام فرصة الحياة، وفرصة قبول البيع والمعاوضة في الدنيا. ثم إن المستفيد من هذا هو المؤمن المنفق، فيستفيد من إنفاقه في الدنيا، ليجده أمامه في الآخرة، فيرفع الله تعالى به درجاته، ويمحو به سيئاته. كما أن في هذه الأمر من الله العزيز الحكيم، ما يدل على أهمية النفقة، وفضلها على المنفق في الآخرة. وكذا عناية منهج الإسلام بالتواصل الاجتماعي من خلال النفقة، وتفقد أحوال الآخرين، ومواصلتهم بالنفقة في كل باب يستطيعه المؤمن.

ثم تنتهي الآية الكريمة ببيان حال الكافر، قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وهذا حصر للظلم الكامل في الكافرين، فليس هناك أظلم ممن يلقى الله تعالى وهو كافر. لما حصل منهم من الظلم بما أنعم الله تعالى عليهم. فظلموا أنفسهم ببغيهم وكفرهم. مما يفيد التحذير للمؤمن من أن يسلك مسلك الكافرين الظالمين.

(ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥)

ثم تأتي آية الكرسي، التي هي أفضل آية في كتاب الله تعالى، كما ورد في الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم، سأل أُبي بن كعب " أي آية في كتاب الله أعظم" قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً. ثم قال: آية الكرسي، قال (والله! لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر)[١]

افتتحت آية الكرسي العظيمة بقوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) فكان مطلعها لفظ الجلالة (الله) ثم بيان وحدانيته عَزَّ وجل، بأن الله هو الاله الذي لا إله غيره، ولفظة (لا إله) تفيد نفي ألوهية غيره سبحانه وتعالى، فلا معبود بحق غيره عَزَّ وجل، وأن غيره دونه، فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى، فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل. وجملة (لا إله إلا هو) حصرٌ للعبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله يُعبد في الأرض ولا في السماء غيره تبارك وتعالى. وأنه (الحي) فغيره يموت، فانحصرت ديمومة الحياة الكاملة له تبارك وتعالى، وبالتالي كل معبود يُعبد من دون الله تعالى سيموت، إن كان من الأحياء، ويندثر وينهلك إن كان من الجمادات. فلا حياة من دون موت، ولا وجود لشيء من غير زوال، إلا الله تبارك وتعالى.

وأنه تبارك وتعالى (القيوم) الذي قام بنفسه، واستغنى عن غيره، مما يفيد أن غيره غير قائم بنفسه، بل مُفْتَقِرٌ إليه في وجوده، ابتداء ونمواً وحركة وحياة، وموتاً وانعداماً، وإعادة ورزقاً، وعافية وصحة، وفي كل أمرٍ من أمرِه، ظاهراً وباطناً. وبالتالي فهو الْمُوجِدُ الخالقُ لكل مخلوق، والْمُمِد له بما يحتاجه لقوامه. وأنه تبارك وتعالى (لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم) فلا ينعس، ولا ينام، وهذه من صفات القوة، والعظمة، والكمال، لأن الذي ينام ويسهو، يعتريه الضعف والتعب والإجهاد. وهي صفة النقص التي في مخلوقاته سبحانه وتعالى، مما يفيد حاجة المخلوق للخالق، الذي من عظمته وجلاله لا ينعس ولا ينام، فسبحان الله العظيم، فكيف يتوجه المخلوقُ لمخلوقٍ مثله، ناقص الإرادة، وتعتريه تلك النواقص، ويترك عبادة كامل الإرادة.

---

(١) مسلم (٥٥٦/١) برقم (٨١٠)

ثم بينت هذه الآية العظيمة ملكه العظيم (له ما في السماوات وما في الأرض) فكل ما في الكون ملكه. بما يفيد أنهم عبيده، والعبيد يلزمهم طاعة سيدهم، فلا يحق لأحد منهم أن يتصرف على غير ما يريد مالك الملك سبحانه وتعالى. وبالتالي هو صاحب السلطان في ملكه، فَيُصَرِّفُهُ كيف يشاء، بما يفيد أن المملوك مُفْتَقِرُ لمالكه في كل شيء، من إيجاده، وطعامه وشرابه، وصحته ورزقه، وسيره من وجوده إلى مماته، ثم بعثه ونُشُورِه.

ثم تبين الآية الكريمة العظيمة، عظمة الله تعالى في قوة سلطانه على عباده (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) فبين هذا المقطع الكريم، بصيغة السؤال الاستنكاري، الذي يتضمن في صياغته، كبرياء الله تعالى وجلالته، أنه مَنْ هذا الذي يمكن أن يتجرأ، فيشفع لأحد عنده، من غير أن يأذن له الملك القدوس. بما يفيد: أنه لا أحد يجرؤ أن يتقدم إليه سبحانه وتعالى في شفاعة لأحد، دون أن يأذن له تبارك وتعالى، وذلك لجلالته وكبريائه، وعظيم سلطانه، وقهره وقوته، وهيبته سبحانه وتعالى. مما يفيد تساقط وجاهة الوجهاء، وشفاعة الشفعاء، عند مقامه سبحانه وتعالى، مهما بلغت رتبته ومكانته في الدنيا، حتى يأذن لمن يشاء سبحانه وتعالى. ويفيد هذا أن مكانة عبيده لا تغني عنهم شيئاً، إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

ثم بينت الآية العظيمة سعة علمه الذي أحاط بكل شيء (يعلمُ ما بين أيديهم وما خلفهم) فقد أحاط علمُه بما هو مُسْتَقْبِلٌ من أمور خلقه (يعلم ما بين أيديهم) فالمخلوق لا يعرف عن مجريات مستقبله، والله تبارك وتعالى يعلم كل ما سيكون من مستقبل هذا المخلوق. كما أحاط علمه بجميع ما مضى من أموره الماضية. في حين أن المخلوق ينسى الكثير مما مضى من أمره الخاص به. وأما خَلْقُهُ جميعاً، فلا يعلمون من علم الله تبارك وتعالى إلا بما يشاء، مما يُعطيهم ويهديهم إليه (ولا يُحِيطُون بشيء من علمه إلا بما شاء) فما يعرفه الخلائق من معرفة، هي جزء صغيرٌ مما شاء الله تعالى أن يعرفوه. وهذا يفيد افتقار العبد لعلم الله تعالى، في حفظه وفهمه وتفكيره وتَعَلُّمِه وتعليمه، مما يستوجب على العبد أن يطلبه من الباري سبحانه وتعالى، وأن يلتجئ إليه في طلب العلم والفهم، وإذا تعلم شيئاً يَنْسُب التوفيق والتعليم لله تعالى، بأن يقول وفقني الله تعالى لفهم هذا، وتفسير هذا، وحفظ هذا، واستنباط هذا. فلولا عطاء الله تعالى وكرمه لما حصل له معرفة ما علم من علم، في شريعة الله تعالى، أو مهنة، أو تجارة، أو غيرها من أصناف ومجالات العلوم.

ويدل النص من الآية، أن علم الإنسان محدود، بما علمه الله تعالى، كما قالت الملائكة في أوائل هذه السورة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) وفي قوله تعالى (إلا بما شاء) مما يفيد تفاوت قدر العلم عند عباده، فيشاء الله تعالى لهذا قدراً ونوعاً، ويشاء لغيره ما يشاء قدْراً ونوعاً، ولهذا تفاوت الناس، حتى أنهم احتاج بعضهم لبعض، واحتاجوا للاستشارة، وللمشاورة بينهم، فتسمع من هذا خلاف هذا، ومن هذا ما يفوق هذا، والأمر واحدٌ ، وقد تجد عند الصغير ما لا تجده عند الكبير أحياناً، وتجد عند المبتدئ ما لا تجد عند من بلغ شأواً، حتى قالوا: قد تجد في النهر ما لا تجده في البحر. وقد شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وشاور الصحابة بعضهم بعضا. وأخذ صلى الله عليه وسلم بمشورة بعض أصحابه، مثل يوم أحد، في الخروج للعدو أو مقاتلتهم في المدينة.

ثم بينت الآية العظيمة، عظمة كرسيه سبحانه وتعالى، الدالة على عظمته تبارك وتعالى (وسع كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض) وأنه قد حفظها (ولا يَؤُدُهُ حفظها) فلا يعجزه ولا يُثقله حفظها، لكماله وكمال قوته وقدرته وعظمته وإحكامه، الذي جعل لكل شيء نظاماً دقيقاً، لا يتقدم ولا يتأخر إلا بأمره عَزَّ وجل. فالذي لا يعجزه حفظ عظيم ما خلق، لا يعجزه غيره، وهذا يفيد افتقار المخلوق لحفظ الله تعالى، مما يستوجب على المسلم، أن يسأل الله تعالى أن يحفظه في كل وقت وحين، من الهوام، وشرور الجن والإنس، في نفسه وماله ودينه وعقله وأهله، وفي كل أمر وشأن، وفي كل لحظة هو فيها، ولذلك جاءت السنة المباركة، بأدعية وأوراد، للحفظ عند النوم، وفي الصباح والمساء. فما أحوج العبد لحفظ ربه تبارك وتعالى.

ثم تكتمل الآية العظيمة الكريمة بقوله تعالى (وهو العلي العظيم) فتبين أنه هو العلي على مخلوقاته كلها، وبالتالي فكل شيء تحته سبحانه وتعالى، وهو العلي مكانا ومكانة، وبأسمائه وصفاته وقدرته وإحاطته، وأن كل شيء قد دان وخضع له عَزَّ وجل، وكل شيء تحت قدرته وسلطانه. وكذلك من صفاته (العظيم) الجامع لجميع صفات العظمة والقوة والقدرة. مما يفيد افتقار العبد لعظمته وقدرته، ليلجأ إليه في كل أمر وشأن، وألا ينازع الله تعالى في عظمته وكبريائه، فهو مخلوق ضعيف، لخالق عظيم سبحانه وتعالى.

(لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم، إلى بيان حقيقة المنهج الرباني الدعوي، في قَبُولِ الإسلام، والدخول فيه، والذي يجب أن يعرفه المؤمنون، قال تعالى (لا إكراه في الدين) فابتدأت الآية الكريمة، بالتوجيه المتضمن للنهي عن الإكراه لأي أحدٍ، على الدخول في الإسلام واعتناقه. وذلك لوجود الأسباب المانعة من ذلك الإكراه، والموجبة لكل أحد أن يدخل في الإسلام طواعية، لأنه (قد تبين الرُشدُ من الغي) قال الراغب الأصفهاني: والرشد خلاف الغي، وهو الهداية.[١] والغي هو جهلٌ من اعتقاد فاسد.[٢] فبينت الآية الكريمة أنه قد انتهى الجهل المانع من الدخول في لإسلام، إذ أن دين الله تعالى أصبح واضحاً جلياً لكل أحدٍ، بأنه هو الدين الْمُنَزَّل من الله تعالى، لما تضمنه من الدلائل والبراهين المانعة من الشك فيه، والجهل به، والجهل بما هو ضده من الشرك والكفر، فاستبان الرشد من الغي (قد تبين الرشد من الغي)

وفي قوله تعالى (قد تبين الرشد من الغي) ما يفيد أن الصالح إذا ظهر أبان فساد الفاسد. واستنار للآخرين الحق، وهذا يفيد أيضاً أن القدوة الصالحة، المتمسكة بمسلك، ومنهج الإسلام، تبين للفاسدين فساد فسادهم، فيكون واقع الحال أبلغ من واقع المقال. والسياق في قوله تعالى (لا إكراه في الدين) يفيد أنها قاعدة دعوية، مما يجب على المسلم بيان حقيقة الإسلام قولاً وعملاً، دون إلزام لأحد، فجوهر الإسلام، بكامل منهجه وأدلته، دالٌ على أنه دين الله تعالى، لما تضمنه من الأدلة والحجج والبراهين، وكذا منهجه الأخلاقي والاجتماعي، وتشريعه في العبادة والعقيدة والمعاملات، وفي جميع محتواه ومضمونه. فأصبحت الدعوة إلى هذا الدين بالبيان والإيضاح، كافية للدخول فيه طواعية ورغبة ومحبة له وفيه.

ثم يبين الله تعالى طريق النجاة (فمن يكفر بالطاغوت ويُؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى. لا انفصام لها. والله سميعٌ عليم) فأول الطريق هو الكفر بكل ما يُعْبَد من دون الله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت) وكل معبود غيره سبحانه وتعالى هو طاغوت. والثاني: الإيمان بالله تعالى (ويؤمن بالله)

(١) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٩٦)

(٢) المرجع السابق (٣٦٩)

والإيمان به سبحانه وتعالى عروة عظيمة، إذ توجب له الانقياد لشرعه، وبالتالي فإن النتيجة التي يحصلُ عليها المؤمن، أنه استمسك بالعروة الوثقى (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة الوثقى، التي لا تنفصم في نفسها، مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قوية. وربْطُها قوي شديد. وقال مجاهد: العروة الوثقى، يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني، لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى، القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد، قال: هو الحبُ في الله، والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها[١] وهذا يدل على عظمة كلام الله تعالى، إذ كيف استوعب كلامه سبحانه وتعالى دلالات المعاني، وجميع مراده، فاستوعبت جملة (بالعروة الوثقى) جميع هذه المعاني والدلالات. فسبحان من استوعب كلامُه مراده بأبلغ بيان، وفي أعظم الألفاظ، فتعاظمت الألفاظ بما استوعبت من كلام رب العباد، فالشكر والحمد لله رب العالمين. ثم تُخْتَم الآية الكريمة، ببيانٍ، وعلمٍ، وتعليمٍ، وموعظةٍ عظيمةٍ، وهي قوله تعالى (والله سميع عليم) فهو يسمع أقوال العباد، وعليم بأعمالهم، مما يجعل العبد الْمُتفَهِّم لها، يُدْرِك حقيقة صفات الله تعالى، الموجبة لمراقبته، والحذر من معصيته، والعمل بطاعته، لأنه يسمعه أينما كان، وعلى أي حال كان، ويعلم ما يُحْدِثُه من شر أو خير، مما يوجب له الاستقامة على الطريق الصحيح، الموجب لرحمته، وكريم عطائه، وبره، وإحسانه، تبارك وتعالى.

ثم يبين الله تعالى منهجه وعنايته بأوليائه المؤمنين، وكذلك منهج الطواغيت مع أوليائهم الكافرين، ليدرك الإنسانُ مَفَارِق الطرق، واتجاه كل طريق (الله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهم من الظلمات إلى النور) فبين الله تعالى أنه ولي للمؤمنين، بهدايته وتأييده وتوفيقه لهم، حتى يُخرجهم من كل ظلمة من ظلمات الكفر، والشرك، والجهل، والشر، إلى نور الإسلام، في هديه، وعقيدته، وأخلاقه، وتشريعه، ليصل بهم إلى جنات النعيم. وأما من كفر فتتولاهم معبوداتهم من غير الله تبارك وتعالى، كما قال عَزَّ وجل (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت. يُخْرِجُونَهم من النور إلى الظلمات) فبالمقارنة أوضح تبارك وتعالى أمر الكافرين، وأوليائهم مما عُبِدَ من دون الله تعالى، من أنهم على النقيض من أمر المؤمنين بالله تعالى، ذلك أن طواغيتهم تُبْعِدُهم عن نور الإسلام، وهديه وطمأنينته، إلى ظلمات الكفر والشقاء، الموصلة للمزيد من الشقاء، والعذاب يوم القيامة، فإن مصيرهم إلى النار (أولئك

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٩/١)

أصحاب النار هم فيها خالدون) وهذا يفيد أن مصير الكافر هو الخلود في النار. وأنه لا دين يُنجي إلا دين الله تبارك وتعالى.

ويفيد هذا أن دين الله تعالى نورٌ، بكامل تشريعه، ويُفضي إلى نور الآخرة ونعيمها، وأن الكفر ظلمة، ويُفضي إلى ظلمة، وعذاب أليم. وأن المؤمنين في نور عظيم، وأن الكافرين في ظلمة كأيبة، في الفكر والنفس والحياة، وإن ظهرت ملذات الدنيا بينهم وعليهم، فإن معاناة نفوسهم تعاسة وكآبة.

كما يفيد سياق الآية الكريمة، ومنهجها ودلالاتها، أهمية التعليم، والإقناع، والدعوة، والتوجيه، بالمقارنة بين المتضادات، لما فيها من وضوح البيان الْمُقَارَن، الذي يوضح حقيقة الأمرين بجلاء، ويضع الأمور أمام ناظرِها، كما هي. وفي المقارنة استثارة العقل، نحو التفكير، والتمحيص، والتأمل، وذلك لما في المقارنة من أخذ الْمُخَاطَب بالعلم الجلي، إلى واقع الحقائق، التي تنفي عنه الجهل، وتحقق له العلم بالأمر الْمُزِيل لكل لَبْس.

وفي جملة (الله ولي الذين آمنوا) ترغيب وتحفيز لحقيقة يتولاها الله تعالى بفضله، ومنزلة كريمة عظيمة، وهي أن يكون الله تعالى ولي المؤمن، بقوته وحفظه، وهدايته وسلطانه ورحمته وكريم عطائه، وهذا يفيد تطبيقياً، أهمية التأييد بالمناصرة، وشد الأزر، لأن المعونة من المحفزات التي تُحَفِّز الإنسانَ نحو الأداء، والبعد عن التخاذل والانكسار، وسواء كان هذا في مجال دفع الشر، أو جلب النفع، وسواء كان في إدارة الأفراد والجهات، أو في غيرها، لأن المعاونة وسيلة يتحقق بها الخير بإذن الله تعالى.

(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨)

ينتقل السياق القرآني الكريم، إلى قصة من قَصَص ما وقع لإبراهيم، خليل الله تعالى، وذلك في موقفه مع ملك جبار عنيد، قال تعالى (ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه أنْ آتاه اللهُ الْمُلْكَ) فقد جاء النص القرآني الكريم، بأسلوب لفت وشد الانتباه، بصيغة السؤال التقريري عما حدث من أمر إبراهيم، الذي حاجه ذلك الملك في وجود الله تبارك وتعالى، ذلك أن الملك أنكر أن يكون هناك ربٌ غيره. فجاء توصيف هذه الواقعة، كأنكم رأيتموها. فَخَبَرُه تبارك وتعالى حقيقة ماثلة، لا

شك ولا ريب فيها، فخبره سبحانه وتعالى، بمنزلة من شاهد وعاين بنفسه ما أُخْبِرَ به، وتأتي (ألم تر) بمعنى ألم ينته إلى علمك. ولفت الانتباه هنا ليعلم ويتعلم كل من يسمع القرآن الكريم بعظيم أخباره، حتى تقوم عليه الحجة، بهذه البراهين الحوارية، التي قامت بين خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا الملك المتجبر.

وكذلك من الفوائد: أن الله تعالى نسب إعطاء الْمُلْك له سبحانه وتعالى (أنْ آتاه اللهُ الْمُلْكَ) وبالتالي فإن الحصول على ما يملك الإنسان من قليل أو كثير، هو عطاء من الله تعالى، بحكمته، ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، فإنه عليم حكيم. ويفيد كذلك أن الله تعالى يعطي من يشاء، حتى العاصي والكافر، فإن الله يعطي بحكمته وقدرته، وكذلك يفيد هذا أن العطاء من الله تعالى لا يعني رضاه عن الْمُعْطَى، وبالتالي فإن منع العطاء، لا يعني السخط، ولكنه تعالى يُعطي ويمنع بحكمته.

فالله تبارك وتعالى يلفت الانتباه إلى هذا الرجل الذي أعطاه الله عَزَّ وجل الْمُلْكَ، وهو كما ورد في كُتُبِ التفسير، أنه ملك بابل، نمرود بن كنعان. وقال مجاهد: مَلَكَ الدنيا، مشارقها ومغاربها، أربعة: مؤمنان، وكافران. فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود وبختنصر. والله تعالى أعلم.[١] وهذا الملك أنكر أن يكون هناك ربٌ غيره. فصفة هذا الملك، أنه ليس فقط، كافرٌ بالله تعالى، بل تطاول به الكبر والأشر وعظمة ما هو فيه من مُلك، إلى أن ادعى: أنه هو الرب، ولا رب سواه. مما يفيد خُطُورة التمادي والغرور بما يُعطي الله تعالى عبده من كريم عطائه، فيأخذه ذلك إلى الغرور، الذي يقود إلى التعالي، والادعاء لنفسه بما ليس له حقيقة، والتي أبطلها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (إذ قال إبراهيمُ ربي الذي يُحْي ويميت) فأنكر إبراهيم ربوبية هذا النمرود، وأثبت أنه ثابت على أن ربَّهُ هو الخالق المنفرد بخلقه، الذي يحي ويميت، فذكر أظهر تدبير لله تعالى. فرد هذا الملك (قال أنا أُحي وأميت) ويقصد أنه يقتل من يُريد، ويُبقي من يُريد. وهذا من دهائه الذي حاد به عن حقيقة الجواب المقصود والمطلوب، وقد يقصد بذلك المكابرة والمعاندة. وهذا يُفيد أن البعض لديه من الدهاء والتمويه، ما يموه به على ضعفاء العقول والتفكير، مما يجب الحيطة للمناظر في مناظرته، والاستعانة بالله تعالى، فأعان الله تبارك وتعالى خليله إبراهيم إلى أن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٢٠)

ينتقل إلى محاجة أخرى، وبأسلوب لا يستطيع أن يموه فيه، قال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام (قال إبراهيم فإن اللهَ يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فهذا محكٌ وموقفٌ ومطلبٌ لا يستطيع أن يموه فيه. (فَبُهت الذي كفر) فانقطعت حجته، ولم يستطع أن يرد بشيء. لأنه لا يستطيع أن يغير مكان شروق وغروب الشمس، الظاهرة للناس جميعاً.

ثم تنتهي الآية ببيان النتيجة لكل ظالم (والله لا يهدي القوم الظالمين) فلا يُلهم الله تبارك وتعالى الحجة والبرهان للظالم، لأنه يفقدها أصلاً، فلا يُعان بالهداية والتوفيق لما غاب عنه. وفي امتناع هداية الله تعالى للظالم ما يتضمن التحذير من الظلم بجميع أنواعه، حتى ولو انتصر بظلمه وجبروته، فإن الله تبارك وتعالى لا يهديه، ويخذله في مواطن أشد مضاضة من مواطن حلاوة الانتصار، لتكون عليه أقوى وأعنف، والمتأمل في أحداث الظالمين بجميع مستوياتهم، يجدها ماثلة أمامه. فنسأل الله تعالى برحمته أن يُعدنا عن الظلم ويُبعد الظلم عنا.

(أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٥٩)

ثم هذا مثلٌ آخر معطوف على المثل السابق، الذي بهت الله فيه ذلك الملك الجبار، وأَيَّدَ خليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، بالحجج والبراهين القاطعة، فيقول الله تبارك وتعالى في هذا المثل (أو كالذي مَرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها) فهل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، وهذا الرجُل الذي مر بقرية، قد خلت من أهلها، وأصبحت خَرِبَةٌ، (خاوية) أي خالية، متهالكة على (عروشها) أي أسقفها. فقد سقطت سُقُوفُهَا وجدرانها. فوقف الرجل متحيراً، متأملاً في حال أهلها، ودمارها، وصعوبة عودة نشأتها، بعد أن كانت شامخة، يَدُبُّ الناس فيها، عمارة، وبناءً، وتطويراً، وبيعاً وشراءً، ثم أصبحت هشيم متهالكة، فقاده تفكيره للشك في الإحياء (قال أَنَّى يُحيِ هذه اللهُ بعد موتها) فقول الرجل (أَنَّى يُحيِ هذه اللهُ) دليل على أنه مؤمن بالله تعالى، وليس مثل النمرود، غير أنه شاك في القدرة على البعث بعد الموت. فقال هذا على وجه الشك والاستبعاد.

(فأماته اللهُ مائةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَه) فلما استقل سوياً، قال الله تعالى له بواسطة الْمَلَكِ[١] (قال كم لبثت) وفي هذا السؤال ما يجعله يفكر، ويستعيد ماضيه وواقعه، إذ لم يُبادره الله تعالى بالإخبار ابتداء، بل بادره بالسؤال، ففي السؤال فوائد: تنبيه، وشد انتباه، وبيان عجز المسؤول عن الإجابة، وبيان فقر علمه عن نفسه، وعجز قدرته عن حاله. وليعلم بقدرة الله تعالى على البعث، وسهولة الأمر عليه سبحانه وتعالى. وأن عجز المخلوق لا يُقاس على قدرة الخالق، فإن الخالق تبارك وتعالى عظيم قدير، وأن المخلوق ضعيف عاجز في كل أمر، وعلى كل وجه، إلا بتوفيق الله تعالى، وعونه ولطفه. ولذلك جاءت إجابته لِلمَلَكِ على حسب علمه القاصر، فقال في الإجابة على السؤال (قال لَبِثْتُ يوماً أو بعضَ يوم) فغيابه في موته لم يتجاوز في ظنه، يوماً، أو حتى جُزْء من يوم، وهذا في تقديره القاصر، الذي يدل على عظيم قدرة الله تعالى، وسعة علمه الكامل، سبحانه وتعالى. وهنا تأتي الإجابة من الله تعالى، ليكون وقعها في قلبه وحاله عظيم (قال بَل لَبِثْتَ مائة عام) فحتماً سيكون أثر هذا الخبر عليه عظيم، ثم يستمر البيان من الله تعالى له، حتى يتعظ، وكذلك ليتعظ غيره به من بعده، وبقدرة الله تعالى على البعث والجزاء، فقال تعالى (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّه) فلفت الله تعالى إلى المحسوس من الطعام، الذي لم يتغير مع طول زمن ما مر عليه. ليعلم أن سُنن التغيير بيد الله تعالى، فلو أراد الله تعالى للشيء، ألا يتغير مع طول الزمن لكان كذلك، كما يشاء ربنا تبارك وتعالى، وله أن يغير غيره، فيصبح رميماً، كما يشاء الخالق العزيز الكريم.

ثم لفت انتباهه إلى حماره (وانظر إلى حمارك) الذي أرِم، وهَلَكَ، ولم يبق منه إلا العظام، فدل ذلك على الموت والفناء، بدليل قاطع ماثل أمامه، لينظر بعد ذلك، كيف يحيه الله تعالى، وهو ينظر إليه، فَتَدُبُ الحياة فيه (وانظر إلى حمارك) فالطعام لم يتغير، وهو الذي يتعفن مع الزمن وينعدم، ويتلاشى مع الوقت والحرارة، وحَرْقُ الشمس له، وأما الحمار فهو الذي يمكن أن يعيش مائة سنة، فكان تقدير الله تعالى فيهما، على نقيض ما يمكن أن يحسبه، ويتصوره الإنسان، ليعلم ويستعظم قدرة الله تعالى، حتى في تغيير النواميس والقوانين، وسُنن التدبير، التي سَنَّها الله تعالى لحركة وخَلْقِ الكون.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٢/١)

ثم بين الله تعالى أن ما حصل منك ولك، ليكون عبرة وآية لمن بعدك (ولنجعلك آية للناس) ليكون آية للناس، في قدرة الله تعالى على الإحياء والبعث والنشور بعد الموت.

ثم لفت الله تبارك وتعالى، نظر وانتباه الذي أحياه، إلى كيف تتم عملية الإحياء في حماره، بعد أن رآه وقد أَرِمَ وتهالك، فلم يبق إلا عظامه (وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُهَا) أي كيف نرفع بعضها على بعض في التركيب للإحياء، لأن النشز الارتفاع.[١] فَيُرْفَعُ بعضها إلى بعض، ويُوصَل بعضها ببعض، بعد تفرقها واختلافها عن أماكنها، فَيُعَاد ترتيبها، كما كانت (ثم نكسوها لحماً) ثم يبني اللحم على تلك العظام، بعد أن تم نَشْزُهَا. لِيُعِيدُ الله تعالى الحياة فيها. (فلما تبين له. قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) فمعاينته لحالة الموت، وعملية الإحياء بعد الموت، أيقنته بذلك الأمر، الذي لا ريب، ولا شك فيه. (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) فهذا اعتراف منه بقدرة الله تعالى على كل شيء، ولم يقل ذلك الرجل: أعلم بقدرة الله تعالى على الإحياء، وإنما امتد يقين علمه وإيمانه بقدرة الله تعالى على كل شيء. مما يفيد أن معرفة القدرة في أمر، يمتد سلطانها على غيرها، فمعرفة قدرة الله تعالى على إحياء الأرض بالمطر والماء بعد موتها، يبين قدرة الله تعالى على الإحياء والبعث والنشور، وأنه سبحانه وتعالى، على كل شيء قدير. وهذا يفيد في المجال التربوي التعليمي، وكذا الدعوي، أهمية لفت الانتباه إلى آيات الله تعالى في خلقه، التي قد يغفل عنها البعض، لأنها موصلة للعبد، اليقين بأن الله تعالى خالق كل شيء ومدبره ومالكه، وأن كل شيء من آياته الكونية مُتَّسِقٌ مع آياته القرآنية.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٢/٣)

(وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَ لَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠)

ثم ينتقل السياق إلى عملية إحياء أخرى، مع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. قال تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى) فقد طلب إبراهيم صلى الله عليه وسلم من الله تبارك وتعالى، أن يُريه كيف يُحي الموتى، فقال الله تعالى له (أولم تُؤمن) وهذا سؤال من الله تبارك وتعالى لإبراهيم الخليل (قال بلى) فيزول بهذا الجزء من جواب إبراهيم الخليل لهذا السؤال، أي شبهة، تَرِدُ من أحدٍ على خليله إبراهيم، إذ لو أن الله تعالى بين لخليله عملية الإحياء، دون تحقيق سؤال إبراهيم عليه السلام، وبيان إيمانه، لربما اختلفت المفاهيم عن علة السؤال، وعن قوة إيمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفي قوله (بلى) أي علمت، وآمنت، بأنك قادر على ذلك (ولكن ليطمئن قلبي) ولكن سألتُ ليطمئنُ قلبي، باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان.(١) فاستجاب الله تعالى طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقال الله تعالى (قال فَخُذْ أربعةً من الطير) ولم يحدد له تبارك وتعالى نوعاً محدداً ومعيناً من الطيور، بل من أي نوع متوفر (فَصُرْهُنَّ إليك) أي ضُمَّهُنَّ، واذبحهنَّ، ومزقهُنَّ (ثم اجعل على كل جبلٍ منهُنَّ جُزْءاً) فيظهر في التوجيه الإلهي غاية الإعجاز، والترتيب فيما يقوم به إبراهيم الخليل، من الذبح والتقطيع، الذي تنتفي به اجتماع الأجزاء، ثم توزيعها على الجبال، التي تُحيط به، ليبتعد المكان بأجزائها (ثم ادعُهُنَّ يأتينك سعيا) ثم ينادي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، تلك الطيور، فتأتيه مسرعات. وفي سرعتهن زيادة في القدرة البالغة، إذ ليس عملية الإحياء في جمع الأجزاء وإعادة الحياة، بل كذلك في السرعة البالغة، التي لا تتجاوز عملية النداء الصوتي من إبراهيم الخليل. بل جاء في التفسير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أنه قال: وأخذ رؤوسُهُن بيديه ـ أي إبراهيم أخذهن ـ ثم أمره الله تعالى، أن يدعوهنَّ، فَدعاهُنَّ كما أمره اللهُ عَزَّ وجل. فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم. والأجزاء

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨١/١)

من كل طائر فيتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على جِدَّتِه. وأتينه يمشين سعياً، ليكون أبلغ في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام.[١]

ثم تنتهي الآية الكريمة ببيان ما لله تعالى من صفة العزة والحكمة (واعلم أن الله عزيزٌ حكيم) وفي كلمة (واعلم) ما يفيد الأمر بمعرفة هذا العلم. والذي يفيد أهمية أن يعرف المسلم، أن الله تبارك وتعالى عزيز حكيم، وهذا يفيد فضل معرفة أسماء الله تعالى وصفاته. ففي معرفتها تقوية للإيمان، الباعث لكل خير، والْمُبْعِد عن كل شر. ويفيد أهمية بل وجوب أن يتعلم المرء ما يعلم به أن الله عزيز حكيم، وهذا يحصل بالنظر والتأمل في آيات الله تعالى الكونية والشرعية.

والعزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، فكل شيء طواعية له. وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء. حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.[٢] والعزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. والحكيم: الْمُحْكِم للأشياء[٣] والحكمة تتضمن وضع الشيء موضعه، فهو حكيم في شرعه وأمره سبحانه وتعالى. وهذا يتطلب من المؤمن استشعار هذه المعاني، من صفاته جَلَّ جَلاله، لأنها تبعث في النفس التوقير، والخوف، والامتثال، والاهتداء، الذي يحقق الطاعة لله تعالى.

(مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الحث على الإنفاق في سبيل الله تعالى (مَثَلُ الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّةٍ أنبتت سبع سَنَابِلَ في كُل سُنْبُلَة مائة حبة والله يُضاعِفُ لمن يشاء. والله واسعٌ عليم) ابتدأ الله تعالى هذه الآية الكريمة بضرب المثل، الذي يُقَرِّب المعنى للمُتَلَقِّي، من المخاطبين بالقرآن الكريم. وهذا السياق للمؤمنين، لأنه لا يُقْبَلُ عملٌ من الإنفاق إلا بإيمان. فشبه الله تبارك وتعالى الذي يُنفقُ ماله في سبيله بالسنبلة، المُتكاثر العطاء فيها. قال ابن كثير رحمه

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٠/١)

الله تعالى: وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة. فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة، ينميها الله تعالى لأصحابها، كما يُنمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.(١)

وتضمنت الآية وجوب الإخلاص، ليتحقق الانتفاع بالنفقة، إذ قال تعالى (يُنفقون أموالهم في سبيل الله) فحصرها في سبيل الله تعالى، لتشمل الوجهين معاً، الأول: أن تكون مخارجها في طاعة الله تعالى، والثاني: أن تكون لله تعالى، لأن الذي في سبيل الله تعالى، لن يكون كذلك ما لم يكن خالصاً، لا رياء فيه، ولا لجلب مصلحة خاصة. كما تضمنت الآية العظيمة مجال النفقة (في سبيل الله) قال ابن سعدي رحمه الله تعالى: فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تَجَهُّز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين، ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين.(٢) وهذا يدل على فضل النفقة في سبيل الله تعالى، وأهميتها وثوابها العظيم. فمن فَضْلِهَا: المضاعفة لصاحبها، بالأجر العظيم، الذي لا يحصيه ولا يجد معرفته أحد، كما قال الله عَزَّ وجل (واللهُ يُضاعفُ لمن يشاء) فلم يُحدد المضاعفة، لتزيد عن السبعمائة ضعف، مما يدل على كرم الله تعالى. قالت طائفة من العلماء: بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف.(٣) فأفادت الآية الكريمة: كرم الله تعالى غير المحدود لمن يشاء. وفي هذا تشجيع ومدح للمنفق في سبيل الله تعالى، إذ أن المكافأة ومضاعفتها للمنفق مدح وثناء له بما عمل، وتشجيعٌ له على فعل الخير. ثم عزز تبارك وتعالى ذلك ببيان ما يناسب المقام من صفاته المجيدة سبحانه وتعالى (والله واسع عليم) فهو واسع في هباته وعطائه وعلمه وقدرته، فلا يُحصي سعته أحدٌ من خلقه، ولا يعرف كنه عظيم وسعه سبحانه وتعالى إلا هو.

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٤/١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٠٩/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/٣)

وهذا يُفيد تربوياً وإدارياً، أهمية التشجيع لفعل الخيرات، والاجتهاد وبذل الوسع في أوجه الخير، وكذا أهمية التشجيع في مجال العمل المهني والإداري، فإن التشجيع من أنجع الأساليب في دفع كوامن الخير عند الناس، لأن النفوس مجبولة على حب المكافأة والمدح والتشجيع.

وفي ضرب المثل بالسنبلة ما يفيد فضل الزراعة، لما فيها من الخير، لمخلوقات الله تعالى، وسد حاجتهم مما يحتاجونه من الطعام. وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس، والمكاسب التي يشتغل بها العمال، ولذلك ضرب الله به المثل.(١) وقد قال صلى الله عليه وسلم (ما من مسلمٍ يغرسُ غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة)(٢)

وفي صورة ضرب المثل بالسنبلة، ما يُفيدُ ويعلمُ كيف يتم تقريب المعنى والصورة المراد نقلها للمتعلم، وكيف ينتقي المثل الذي يتناسب والْمُمَثَّل به، من حيث الصورة والنوع والقدر، والتشابه في الدلالة. وبما يوسع الأفق والخيال الصادق، ليستوعب المراد، ويثير التفكر نحو الخير والفلاح.

(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢ ۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ٢٦٣)

ثم تأتي الآية التالية، فَتُبَيِّن آداب الانفاق، قال تعالى (الذين يُنْفِقُون أموالَهُم في سبيل الله ثم لا يُتْبِعُونَ ما أنفقوا مناً ولا أذى) ففيها تأكيد الإنفاق في سبيله سبحانه وتعالى، بإيرادها مرة أخرى في هذه الآية، متبوعة ببيان أدب الإنفاق، بأن لا يتبع، ولا يُرْدِف ذلك الإنفاق بما يجرح مشاعر الْمُعْطَى (مناً) وهو ذكر ما أنفق على الْمُنْفَق عليه، بالتعداد والتفاخر والتفضُّل عليه. لما في ذلك من الأذى النفسي والحسي على الْمُتَصَدَّق عليه، من التعيير وكسر نفسه، وإشعاره بحرارة الفقر والفاقة والحاجة، مما يدل على أن نهج هذا الدين الأخلاقي، هو منهج الأدب والرحمة، وستر الغير. بل ومن شدة أثر الْمَنّ، أن جاء في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يُزكيهم ولهم عذابٌ أليم. قلنا: من هم يا رسول الله! فقد خابوا وخسروا. فقال:

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/٣)

(٢) البخاري (١٥٢/٢) برقم (٢٣٢٠)

المنان والْمُسْبِل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[١] فهذا تَوَعُّد بالعذاب. مما يفيد: أن حبس الأذى، مع منع النفقة، أفضل من الصدقة مع الأذى. وهذه المعادلة فيها من الفوائد الكثير والكثير لمن تأملها.

ثم ذكر الله تبارك وتعالى الأدب الثاني: وهو أعم من المن، لاشتماله عليه وعلى غيره، وهو الأذى (ثم لا يُتْبِعُونَ ما أنفقوا مناً ولا أذى) فالأذى يجمع كل ما يتأذى به الْمُنْفَقُ عليهم، أو عليه، بأي وجه كان، ويدخل في ذلك المن، باعتباره جزء من الأذى، وإفراده بالذكر من بين عموم الأذى، لقوة أذاه وضرره وشَرُّه. وهذا يفيد من حيث الأسلوب البياني، أن هناك علة ظاهرة، بائنة، تستدعي بيان الخاص، مع أنه داخل ضمن اللفظ والمعنى العام، مما يُعطي دلالةً مُلْفِتَةً للفظ الخاص ولمراده ولدلالته كذلك. فيكون التنبيه للأهمية، أو للخطورة، أو لأي غرض يحمله مُراد الكلام وصياغته.

فَمَنْ تمثل بهذه الأخلاق، والآداب الإسلامية في الإنفاق، على الوجه الذي أراده الله تعالى، فلهم بشارة من الله تعالى، وهي قوله عَزَّ وجل (لهم أجرهم عند ربهم) وهو الثواب الذي لا يُقَدِّرُ حجمه، ومقداره أحدٌ، غير الله عَزَّ وجل، لأن ثواب الله تعالى عظيم، خاصة وأنه قيده سبحانه وتعالى بلفظ (عند ربهم) فهو المتكفل به، وهو ضمان عظيم من ربٍ كريم سبحانه وتعالى. وأيضاً لهم من البشرى بالأمن، حيث قال تعالى (ولا خوفٌ عليهم) فنفى تبارك وتعالى الخوف عليهم، فيما هو قادم من أمرهم. لأن الخوف مُتَعَلِّقٌ بقادم، ثم البشارة الثالثة الأخرى (ولا هم يحزنون) ونفى عنهم الحزن والأسى على ما مضى. لأن الحزن متعلق بماضٍ يتأسى عليه المرء. وبهذا تكون قد حلَّت عليهم السعادة، بانتفاء الهم والحزن، مع وجود وحلول عظيم الثواب من الله تعالى عليهم. مما يفيد أن الهم والحزن، هما السببان الرئيسان لشقاء الإنسان. فنسأل الله تعالى أن يجيرنا والمسلمين منهما.

ثم يبين الله تبارك وتعالى المفاضلة الصحيحة، بين أمر القول بالمعروف بلا نفقة، وبين النفقة مع وجود الأذى (قولٌ معروفٌ ومغْفِرَةٌ خيرٌ من صدقة يتبعُها أذى) فيفيد ذلك أن كلمة طيبة، ودعوة لمسلم، وعفو عن ظلم، أفضل وأحسن من صدقة يُتْبِعُها أذى، من المُتَصَدِّق على المُتَصَدّق عليه أو عليهم. وهذه مقارنة تفيد الْمُخَاطَب: بالمنهجية الأخلاقية الصحيحة، لتوجيه وتربية النفس بأخلاق

---

(١) الترمذي (٣/٥١٦) برقم (١٢١١)

الإسلام مع الغير، وذلك أن يقول كلمة طيبة، دون عطاء، خيرٌ من أن يُعْطِي عطاءً مصحوباً بأذى، من أي نوع كان.

وفي هذه المقارنة تَعْلِيمٌ للمسلم بمنهجية التفاضل في الأعمال، ومنزلة الأدب والأخلاق في رفع مكانة الأعمال، وكذلك منزلة الكلمة الطيبة، ومنزلة العفو (ومغْفِرَةٌ) وخطورة الأذى، حتى في حالة اقترانه بالإنفاق، الذي يستقطعه المسلم مما يملك. مع ما فيه من المغالبة النفسية، إذ أن الاستقطاع مما يملك الإنسان، فيه مشقة شاقة على النفس، إلا من عافاه الله تعالى من ذلك، بأن جعل السخاء والكرم له سجية.

ثم تُخْتَم الآية الكريمة بموعظة، مبينة لصفتين من صفات الله تعالى (والله غني حليم) فهو غني عن خلقه، لا يحتاج لأحد من خلقه، وكذلك غني بفضله وقدرته المطلقة. وكذلك فإنه سبحانه وتعالى حليم على عباده، فلا يُعَجِّل لهم العقوبة، بل يغفر، ويصفح، ويتجاوز عنهم، وذلك لمغفرته وحلمه الواسع الكريم. وهذه الصفات الربانية إذا تأملها المؤمن، فإنها تَعِظُ قَلْبَهُ بالانقياد لربه عَزَّ وجل، وِفْقَ ما عَلِمَ من صفاته العظيمة، وأسمائه الكريمة، سبحانه وتعالى. فَتُوجِبُ له تلك المعرفة الإنفاق بسخاء، لأن من يُنْفِق في سبيله غني كريم، ويعطي للمنفق بسخاء سبحانه وتعالى، وتوجب له هذه المعرفة، الأمل فيما أنفق، لأن من أنفق في سبيله غني حليم، وتوجب له عدم التردد، لأن من أنفق في سبيله غني كريم، وتوجب له المسارعة في الإنفاق، لأن من أنفق في سبيله غني حليم كريم. وتوجب له عدم الخوف من القلة والفقر، لأن من أنفق في سبيله غني كريم.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦)

ثم يستمر السياق القرآني الكريم في بيان آداب وفضل الصدقة، والإنفاق في سبيل الله تعالى، وثوابها العظيم، وتأكيد ما يُفْسِدُهَا ويُبْطِلُهَا. قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صدقاتكم بالمن والأذى) وأول مطلع الآية العظيمة نداء من الله تعالى للمؤمنين. وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان من الخالق تبارك وتعالى رتبة عظيمة للمؤمنين، وتقرير إيمانهم به، منه تبارك وتعالى، فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذه المناداة المؤثرة في قلب من استشعر معناها ودلالتها. وهذا كله، ليلفت انتباههم، وليعلمهم ما ينفعهم. كما يُفيد هذا تربوياً: أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله.

ثم يَنْهَى اللهُ عَزَّ وجل المؤمنين للمرة الثالثة عن إبطال صدقاتهم بما يُفْسِدُهَا، حتى لا يُبْطِلُوا جُهْدَهُم بما يضرهم ولا ينفعهم، فَيُحْرَمُون ثوابها العظيم. وفي تكرار النهي ثلاث مرات، دليلٌ على خطورته الشديدة على المؤمن، فكان هذا تحذيرٌ شديدٌ وتعليمٌ لكل مؤمن، وهذا من رحمته تبارك وتعالى بعباده المؤمنين، سواء كان للمُعْطِي أو للمُعْطَى. فلا يُحْرَم المُعْطِي ثواب ما أعطى، ولا يحصل للمُعْطَى أذى فيما أخذ من عطاء. وإبقاءً للمودة بينهم، وحفظاً لأخوة الإسلام بين المسلمين.

وشبه سبحانه وتعالى من أَتْبَعَ صدقته بالمن والأذى بالمرائي (كالذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاء الناس ولا يؤمن باليوم الآخر) فمن أَتْبَعَ صدقته بالمن والأذى، كالذي جمع بين قُبْح الرياء، وقُبح عدم الإيمان باليوم الآخر. فأحدهما متعلق بالدنيا، وهو الرياء، والآخر متعلق بالآخرة، وهو عدم الإيمان باليوم الآخر. فَيُفْهَم من ذلك أن من اجتمعت فيه هاتين الخصلتين، فقد أحبط عمله بمماثلة فعله بالمرائي، الذي انعدم عنده الإخلاص لله تعالى، وكذلك مِثْلُ الذي انعدم إيمانه باليوم الآخر، فجعله لا يُبالي بالنفقة إلا من أجل السمعة والمباهاة بين الناس، دون أن يعير اهتماماً لليوم الآخر. في حين أن الإيمان

باليوم الآخر يوجب الخوف من الله تعالى، الذي يجعل عمل الإنسان لله عَزَّ وجل، تأهباً لذلك اليوم.

وهذا يُفيد تعليمياً وتربوياً ودعوياً، وإرشاداً وتوجيهاً أهمية ميزة التشبيه، وأهميته في توضيح المراد، وإيصال المقصود للمُتلَقي، بأيسر الأساليب التوضيحية.

ثم أكد سبحانه وتعالى خطورة المن والأذى في الصدقة بمثل آخر، تبياناً وتأكيداً لما نهى عنه عَزَّ وجل (فَمَثَلُهُ كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلداً. لا يقدرون على شيء مما كسبوا) فشبه الله تعالى هذه الصدقة التي اقترنت بالأذى كمثل (صفوان) أي صخرة ملساء، عليها تُراب، ثم أصاب هذا التراب (وابلٌ) أي مطرٌ شديدٌ، فترك هذا المطرُ تلك الصخرةَ صلدة ملساء، كأن لم يكن عليها تراب. فكذلك تلك الأعمال من الصدقة، تزول وتفسد وتضمحل عند الله تعالى، بسبب المن، وما يلتحق به من الرياء، والتعالي، والتكبر، ومُخْتَلَف أنواع الأذى، فتصبح كأنها لا شيء عند الله تعالى. فلا ثواب ولا أجر عليها، فلا ينتفع بها المتصدق والمنفق. ثم بين الله تعالى النتيجة للمُتصدق (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) أي مما تصدقوا به، فانتهى أمرهم، فلا يستطيعون الاستفادة مما تصدقوا به (والله لا يهدي القوم الكافرين) فإن الله تعالى لا يهدي الكافرين ولا يوفهم لما يحقق لهم الخير، بسبب كفرهم بالله تعالى. وفي هذا تحذير من الكفر وسُبُلِه.

ثم بين الله تبارك وتعالى الصنف والنوع الثاني، الذي أخلص لله تعالى، وتمسك بآداب الإنفاق، ابتغاء طاعة الله تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جَنَّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلَهَا ضعفين) فاستهلت الآية بلفظ المثل، الذي يشد انتباه المُخَاطَب لهذا المثل، وللمقصود منه، ولمضمونه ومحتواه. فهذا المثل يبين مراد الله تعالى بمضمونه ومحتواه، الذي يصور ويقرب المعنى للمُخَاطَب. فالذين يُنْفِقُون أموالهم طلباً لرضى الله تعالى (ابتغاء مرضات الله) وأيضاً (وتثبيتاً من أنفسهم) أي مُتَثَبِّتُون ومُتَحَقِّقُون من أن الله تعالى سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء[1] فكانت حيثياتهم ودوافعهم للإنفاق في أوجه الإنفاق محصورة في ذلك، بما يؤكد أنها قد خَلَت من كل رياء، أو أذى، لأن تلك الحيثيات يمتنع بها المؤمن عن المن والأذى والرياء، فهؤلاء المؤمنون في نفقاتهم بهذه الخصائص المتضمنة للإخلاص والثقة في الجزاء، كمثل بستان

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٦/١)

بربوة، وهو المكان المرتفع من الأرض (كمثل جَنَّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلَهَا ضعفين) فهذه الجنة أو البستان أصابها المطر فأرواها، فأثمرت ثمارها بضعفي ما يُثمر غيرها من البساتين والأشجار. وإن لم يُصبها المطر، فسيصيبها الطل، وهو رذاذ الندى (فإن لم يُصِبْها وابلٌ فطل) وهذا الطل أو الندى، سيكفيها حاجتها من السقيا التي تمكنها من الإثمار والإنتاج. وكذلك عمل المؤمن، لا يبور أبداً، بل يتقبله الله تعالى ويُكَثّره ويُنَمّيه لكل عامل بحسبه، ولهذا قال تعالى (والله بما تعملون بصير) أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.(١)

وفي قوله تعالى (كمثل جَنَّة بربوة) ما يبين أن هذا العمل من الإنفاق، يُشبه في علوه وارتفاع منزلته ومكانته على غيره، بالحديقة الغناء التي تربعت على ربوة قد ارتفعت على غيرها من الأرض. والمقام المرتفع بسلوكه ومقاصده وإيمانه لا ينزل إلى مقام الأذى بأنواعه. مما يدل على عظيم وفضل النفقة الخالية من الْمَنّ والأذى. وكذلك لما أن في الجنة جمال المنظر، وجمال الروائح وجمال الخضرة، فكذلك يكون جمال النفقة، كجمال هذه الجنة. ولما أن الجنة معطاءة بالخيرات: من الثمار والأطعمة المتنوعة، فكذلك أوجه النفقة متنوعة في أوجه عطائها، ومتنوعة في أوجه ثوابها، من دفع ضُر عن المنفق، وغفران ذنب، ورفع درجات وعظيم أجر وثواب. ولما أن الجنة تُعطي غيرها، فكذلك المنفق يعطي غيره من الناس والدواب، وفي جميع سُبُل الخير.

وفي ضرب المثل ما يفيد عناية نهج الإسلام بالأساليب الموصلة للمُتلقي ما يحتاجه من العلم، في أحسن وأدق الأساليب التعليمية والتربوية، بل وتُعَلِّم المؤمنين منهجية استخدام هذا الأسلوب في طريقته، ونهجه، ومقاصده، وانتقائه للمُمَثَّلِ به، في محتواه وصورته، وما يتضمنه من مقاصد وصور تُرَسِّخ معانيها السامية في ذهن المتلقي، وأيضاً ما تضمنه المثل من أخلاقيات وآداب، وصور ذهنية يتسع بها خيال المتعلم. فالقرآن الكريم مدرسة متكاملة.

ثم لا يزال السياق القرآني يعلم ويوجه المؤمنين بما يُرَسِّخ هذه المفاهيم الإيمانية في قلوبهم، بشتى وسائل التعليم والتقريب للمعنى، حرصاً على سلامة أعمالهم، حتى تكون في وجهها الصحيح، وعلى منهجه تبارك وتعالى القويم. فيقول الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين (أيودُ أَحَدُكُم أن تكون له جنةٌ من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار. له فيها من كل الثمرات. وأصابه الْكِبَرُ. وله ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ.

---

(١) المرجع السابق

فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت) ففي هذا توجيه وتعليم رباني لكل مُنفق من المؤمنين بما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالات عظيمة.

فابتدأ الخطاب التعليمي بسؤال استنكاري، يستثير ويستحث العقل والتفكير فيما يستبعده العقل السليم من أن يكون حال المُنْفِق كحال هذا المثل. واسْتُهِل المثل بسؤال. أيُحِبُ (أيود) أحدُكم أن تكون له مثل هذه الجنة التي احتوت على أحسن الثمار من النخيل والأعناب، بل ومن كل أنواع الثمار، وتجري المياه بين أشجارها، ولكن مع كل فضائل هذه الجنة الطيبة يعيش صاحبها حالة الهرم، وكِبَرِ السن، مع ذُرِّية ضعفاء (وله ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ) فقد جمع حالُهُ بين عجز الكبير، وضعف الذرية، مع هذا الخير الذي أصابه فيه إعصارٌ مُحْرِقٌ، فاحترقت (فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت) فإن تَحَسُّرَهُ في غاية الشدة والألم. قال الإمام الشوكاني: وهذا تمثيل من يعمل خيراً ويضم إليه ما يُحْبِطُهُ. فيجده لا يُسمن ولا يُغني من جوع يوم القيامة، عند شدة حاجته إليه، بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو مُتَّصِف بتلك الصفة.[١]

وهذا يُفيد أن العمل ليس بكثرته، ولكن باستيفائه لمنهج ومراد الله عَزَّ وجل. وأن من لم يتصف في إنفاقه بما أمر الله تعالى به، فإنه سيكون عَمَلُهُ حسرةٌ عليه، يوم تشدد الحاجة لأصغر عمل مقبول عند الله تبارك وتعالى. مما يؤكد أهمية الإخلاص لله تعالى، والبعد عن الرياء والمن والأذى، الذي يُحبط العمل.

وتكرار التوجيه والبيان، مع تعداد الأمثلة من الله تعالى يُفيد أهمية هذا الجانب، وأن على المسلم أن يعتني به أشد الاعتناء، فليس هناك تحسرٌ كالتحسر في هذا المثل، الذي اجتمعت فيه أوجه متعددة، جنة فارهة وغناء بما فيها من كل الثمار، مع عجز صاحبها، وضعف ذريته عن أن يقوموا بأمر إصلاحها، ثم تهب رياحٌ بنار فتحرقها. فكيف ستكون درجة التحسر والألم، والخوف على ذريته من الهلاك، والخوف على نفسه مما هو فيه، وصعوبة استعادة ما بذله، وما أنفق فيها من جهد ومال. فهكذا هو الإنفاق الذي لا يكون المنفق فيه على منهج الله تعالى، فإنفاقه حسرة عليه يوم القيامة، لأنه قد أحرقه بالرياء والمن والأذى، أو شيئاً من ذلك.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٨/١)

ثم يمتن الله تعالى على عباده بالبيان الكامل (كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم الآيات) فهكذا تبينت آيات الله تعالى ومراده ومنهجه الذي يريده من عباده، ثم يعقبه التوجيه بالمطلوب منهم، وهو قوله سبحانه وتعالى (لعلكم تتفكرون) وفي هذا توجيه للتفكر فيما أمر ونهى وبَيَّنَ سبحانه وتعالى، حتى يعمل الإنسان وفق مراد الله تعالى كما في شرعه الحكيم. وهذا يُفيد أهمية التفكر والتَّمَعُّن في آيات الله تعالى، التي تهدي إلى تطبيق شريعة الله تعالى، على الوجه الذي شرع وأراد تبارك وتعالى.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧)

ولا يزال السياق القرآني في تعليم المؤمنين متعلقات الإنفاق، ومنهجه وأخلاقه، ليزكو بهم وبأعمالهم إلى ما يُحقق لهم خير الدنيا والآخرة، فيقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض) فينطلق التوجيه الرباني بمناداة المؤمنين بخصيصة الإيمان، رفيعة المعاني والدلالات، وما تحمله من تشجيع، وما تحمله من معاني، فالرتبة العالية لا يليق بصاحبها إلا المعالي من الأمور. فالذي يليق بالمؤمنين، أن يكون إنفاقهم على مقتضى ما تضمنه هذا النداء، التوجيهي للمُخَاطَبين به من رب العالمين، وهم المؤمنون.

فيوجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى النفقة باختيار الطيب منها، والبُعد عن الرديء (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) وجاء التوجيه الكريم بصيغة الأمر (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) مما يُفيد وجوب اختيار الطيب. كما أن جملة (من طيبات ما كسبتم) تشمل العموم من الطيب، جُمْلَةً وتفصيلاً، وكذلك العموم من الكسب. ولتشمل أيضاً طيبات النوع، وطيبات المقدار، بل وكل طيب من الكسب، ويخرج من ذلك غير الطيب من الكسب. كما تشمل النفقة الخارج من الأرض، والذي هو مضمون قوله تعالى (ومما أخرجنا لكم من الأرض) ليشمل التوجيه جميع مصدري الكسب، الخارج من الأرض كالزروع والمعادن وغيرها، وكذلك ما يكسبه الإنسان من التجارة أو الإنتاج والتصنيع.

ومن الفوائد العظيمة: دقة التوجيه في الاستيعاب والشمولية الجامعة للمكاسب وما يخرج من الأرض بجهد وبغير جهد، مثل ما ينبته الله تعالى بالمطر. ومن فضله تعالى على عباده أن جعل

مقدار النفقة بما تطيب به النفس، حيث وردت (من) مُتقدِّمَةٌ على (الطيبات) بما يفيد التبعيض (من طيبات ما كسبتم) إلا الزكاة فقد حددتها نصوص الشريعة الغراء.

وفي قوله تعالى (ومما أخرجنا لكم من الأرض) قد نسب الله تعالى إخراج وإنبات الزرع له وحده عَزَّ وجل، لأن الزارع يحرث ويبذر البذور، وينتظر، والله تعالى هو الذي يجعل هذه البذرة تتحول بقدرته وكمال صنعه إلى مراحل من النمو، حتى تخرج من باطن الأرض، ثم تنمو فوق الأرض، ثم تكبر وتُثْمِر. وفي ذلك لفت الانتباه بأنه سبحانه وتعالى هو خالق النبات والزروع، ومخرجها من الأرض نعمة وفضلا وتفضلاً. فالفضل لله تعالى فيما هو عند المخلوق، كما بين ذلك الخلاق العليم في سورة الواقعة (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون). وقد نسب الله تعالى الكسب للعباد ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ ونسب ما يخرج من الأرض له سبحانه وتعالى ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليفيد تفضله المحض، وليفيد عجزهم عن إخراجه وتكوينه من الزروع وغيرها، وهذا من دقة البيان، وتعاظم كلام رب الأنام، فسبحان الله العظيم وبحمده.

ثم يبين الله تعالى أدب وأخلاق الاختيار من النفقة (ولا تيمموا الخبيث منه تُنْفِقُون) فلا تتحروا وتتخيروا وتتقصدوا الخبيث من الكسب. ولتشمل كلمة (تيمموا) عملية التحري والانتقاء والتَّقَصُّد المتعلق بالنية والتَّخَيُّر والانتقاء، وكذلك كلمة (الخبيث) لتشمل كل دلالةٍ على السيء من الاختيار. فنهت هذه اللفظة البيانية العظيمة عن كل حال ونوع ودرجة من رديء الكسب والإنتاج، فجمعت معاني ودلالات عديدة في لفظة واحدة، لتكون بياناً عظيماً من رب عظيم. وهذا يفيد أهمية ووجوب إخراج الكمال في النفقة، وعدم إخراج الرديء. الذي لو أُعطي للمُنْفِق لن يأخذه إلا بغض الطرف عما فيه من رداءة، حيث قال تعالى (ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه) وفي هذا التوجيه أعاد وردَّ اللهُ تعالى الإنسان المنفق لنفسه، في استشعار وتصور الموقف، من أنه لو أُعْطِيَ هذا المنفق مثل ما أعْطَى من الرديء لم يقبله إلا أن يغض الطرف عما فيه من الرداءة. فأعاد الله تعالى المنفق إلى حوزة النفس، حتى يكون ذلك دافعاً لفهم موقف النفقة من جميع أوجهها، وليستشعر أهمية وأثر الاختيار من النفقة، فإن كنت لا ترضى بذلك لنفسك، فلا ترضى

به لغيرك. ويفيد هذا تعليمياً وتربوياً أن يُعيد المعلم والموجه والداعية والمربي والْمُخَاطب عموماً إلى الحقيقة، بوضعه موضع حالة ما يراد التوجيه فيه وله. حتى تتضح له الصورة كاملة من جميع أبعادها وزواياها. وهذا مِثْلُ قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدُكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبه لنفسه)[١]

وفي هذا التوجيه الكريم، باختيار الأحسن والأنفس والأجود والأطيب من النفقة، ما يتوافق مع أنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيب، وليتعلم المؤمن كرم النفس، والسخاء، ومغالبة الدوافع النفسية، والتغلب عليها، بتقديم وإيثار ما يُحبه الله تعالى ويرضاه على شُح النفس. فإذا اعتادت وتربت النفس على ذلك، أصبح لها ذلك الْخُلُق سجية. وكذلك من الفوائد: أن في هذا الأدب حال الإنفاق ما يُدْخِلُ السُرُورَ على المُنْفَق عليه، بالعطاء الطيب الجميل، الذي ينشرح له صدره، ويُقبل عليه بالرضا وكمال الدعاء للمُعْطِي. ولتزداد اللحمة الاجتماعية والأخوية بين المتعاطين للصدقة في أوجهها المختلفة، وسواء أكانت زكاة، أم كانت صدقة عامة، فيكون انبعاثها رحمة وبراً وصلةً، ورغبة في طاعة الله تعالى.

وفي الآية الكريمة أمر بالمطلوب ونهي عن الممنوع. فالأمر بالمطلوب هو قوله تعالى (أنفقوا من طيبات) والنهي عن الممنوع هو قوله تعالى (ولا تيمموا الخبيث منه) وهذا الإفصاح دليلٌ على أهمية تحقيق البيان، وليفهم المُخَاطَب أهمية التطبيق والاجتهاد فيه.

ثم تنتهي الآية العظيمة بتوجيه كريم من رب العالمين (واعلموا أن الله غني حميد) فابتدأ التوجيه الرباني بصيغة الأمر بالعلم أنه غني وحميد سبحانه وتعالى. فهو غني عن عباده، وعما يكسبون، وعما ينفقون، غناً تاماً، بما يُفهم منه: أن هذا الإنفاق لكم ثوابه من الله تعالى، وإلا فإن الله تعالى غني عنكم، وقادرٌ على أن يُغني الفقير والمسكين والمحتاج، ولكن قضت كمال حكمته سبحانه وتعالى، أن يكون المجتمع فيه الأصناف والدرجات المختلفة في الرزق. كما أنه تبارك وتعالى متصف بالحميد، فهو المحمود في الأرض وفي السماء، وفي الأولى والآخرة، والمحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه، وفيما يُقَدِّره سبحانه وتعالى، وهو حميد في توجيهه، وحميد في أوصافه، وحميد في كل شيء سبحانه وتعالى. فإذا أدرك العبد صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، أوجبت له الطاعة

(١) البخاري (٢١/١) برقم (١٣) مجمع الزوائد (١٠٠/١)

والتوكل والاعتماد عليه تبارك وتعالى. ومن فوائد قوله تعالى (واعلموا) ما يفيد وجوب العلم بأسمائه وصفاته تبارك وتعالى، والتي منها ما ورد في هذه الآية العظيمة (واعلموا أن الله غني حميد)

(ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨)

ثم ينتقل التوجيه القرآني الكريم إلى بيان دوافع الطمع والجشع، وخوف الفقر من النفقة، حتى يعرف المؤمن أسباب ما يدفعه ويحرضه على الطمع والتقتير في النفقة، فيعالجه تبارك وتعالى بما بينه من الدوافع التي تدفع المؤمن إلى الإنفاق بأحسن وأنفس وأجود ما عنده، في طمأنينة عظيمة. فقال تعالى (الشيطانُ يَعِدُكُمْ الفقرَ ويأمركم بالفحشاء. والله يَعِدُكُمْ مغفرة منه وفَضْلا. والله واسعٌ عليم) فاستهلت الآية بدوافع الخوف المانعة من الإنفاق والعطاء، وذلك بما يوسوس به الشيطان للإنسان. (الشيطانُ يَعِدُكُمْ الفقرَ ويأمركم بالفحشاء) فهو يخوف بالفقر، من خلال ما يوسوس به للناس، حتى يمتنعوا عن النفقة في الطاعة لله تعالى. فيتردد في النفقة، ويتردد في اختيار الأجود والأطيب، وقد يمتنع عن النفقة، خشية أن يقل وينقص الخير، وإذا أخرج، اجتهد في إخراج الأردأ مما عنده، مُؤملاً الخير والربح في الجيد الطيب، فَيُبْقِيه لذلك، ثم يدفع بالرديء للصدقة، خشية من الفقر، مع أمل الغنى فيما استأثر به من الأجود والأنفس. فكان الشيطان سببٌ في ذلك بما يعد من الفقر (يَعِدُكُمُ الفقر)

وفيما يتعلق بالفواحش فإن الشيطان يأمر بها (ويأمُرُكُم بالفحشاء) فيدعو إلى ارتكابها بتزيينها، وتقوية الدوافع لإتيانها، ومن تلك الفواحش: البخل والشُّح، مع ما يُزَيّن من عوامل دفع النفس والمال في الفواحش والباطل. وفي وصفه بأنه (ويأمُرُكُم بالفحشاء) ما يدل على أنه يتسلط إلى درجة الأمر بها. وفي هذا تنبيه وتحذير للمسلم من درجة تأثير الشيطان، وكذلك درجة العداء، مما يوجب الاستعاذة منه في كل وقت وحين، وخاصة عند المواطن التي يظهر فيها.

وأما الله تعالى فيعد بالمغفرة والفضل (والله يَعِدُكُمْ مغفرة منه وفَضْلا. والله واسعٌ عليم) فالله تبارك وتعالى يَعِد ووعده حق، بالمغفرة منه سبحانه وتعالى، وكذلك بالرزق (وفضلا) ولفظة الفضل كما يقول الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فيوسع لهم في أرزاقهم،

ويُنعِم عليهم في الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل.(١) وأما وعد الله تعالى فيدفع المؤمن للخير والإنفاق والعطاء بسخاء، لأنه لا يخشى الفقر، بل يأمل الغنى والفضل من الله تعالى، وكذلك يختار لنفقته الطيبات من الرزق، لأنه يريد ثوابها من الكريم الرحمن.

ثم يتم اختتام الآية الكريمة بما يناسب المقام (والله واسع عليم) فهو واسع في هباته وعطائه وعلمه وقدرته، لا يُحصي سعته أحدٌ من خلقه، ولا يعرف كنه عظيم وسعه سبحانه وتعالى إلا هو. وهو عليم بما يفعل المؤمن، وبما يعطي، وكيف يعطي، ومما يعطي، ولما يعطي، ومما أعطى، فلا يخفى على علمه شيء، مما يوجب أن يعمل المؤمن بما يليق بمقام الله تعالى، وكريم عطائه الواسع العليم. وهذه المعاني تفيد أهمية الموعظة في نهاية كل توجيه، بما يناسب أسمائه وصفاته، لأن العلم بها يدفع المسلم نحو كل خير، ويجعله يقبض عن كل شر.

(يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩)

ثم يبين الله تعالى فضل الحكمة، وميزة من يحصل عليها، وأنه وحده المعطي لها (يؤتي الحكمة من يشاء. ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيرا) فابتدأت الآية الكريمة، ببيان أن الله تعالى هو الذي يعطي الحكمة، ولا يستطيع أحدٌ من خلقه أن يمنحها لأحد، حتى لنفسه، فإن الذي يُعطيها هو الله تعالى (يؤتي الحكمة) فانحصر المنح والعطاء لها منه سبحانه وتعالى، فلا أحد يستطيع أن يأخذها لنفسه، أو يمنحها أو يورثها لغيره. ولكن الذي يمنحها هو الله تعالى وحده بمشيئته (يؤتي الحكمة من يشاء) وهذا يفيد أن من رغب فيها، فليلتمسها ويطلبها من الله تعالى أولاً بالدعاء ولزوم الطاعة، ثم يأخذ بأسبابها.

ومعنى الحكمة ودلالتها: شاملة لمعاني عديد، هي: النبوة، والفهم في القرآن، والعلم والفقه، والإصابة في القول، والورع في دين الله تعالى، والخشية من الله تعالى، والعقل في الدين، والفهم، والعلم والعمل.(٢) والسنة: وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٠/١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٩/١)

تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة.[١] ومن فوائد هذا البيان المتنوع لدلالة الحكمة، أن استوعب لفظ الحكمة أنواعاً عظيمة من الفضائل والخصائص والمعاني، فليتأمل الإنسان البيان البلاغي في القرآن الكريم، بما استوعبت لفظة الحكمة لجميع أوجه الخير الكثير.

ثم بين الله تعالى منزلة من يُؤتَى الحكمة، بقوله عَزَّ وجل (ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيرا) وفي هذا بيان لمنزلة الحكمة، وأن من يحصل عليها فقد حصل على خيرٍ كثير، لأن الحكمة توصل إلى طاعة الله تعالى، والعمل بمراد الله تعالى. فيكون صاحبها من أهل الجنان، وبالحكمة تستنير الأفهام، وتتفتح بها العقول، وتنهض بها الهمم، وتُصان بها الذمم، وتعلوا بها المنازل، ويُزال بها الجهل، ويُرفع بها الخطأ، ويُوضع بها الحق موضعه، وترتقي بها الناس، وتظهر بها الآداب والأخلاق، ويكون صاحبها محبوباً مطلوباً من الناس، ومقدماً على كثيرٍ من غيره، لأنه يحمل الخير الكثير (ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيرا)

وهذا يتطلب البحث عن الحكمة والسعي للحصول عليها، من خلال سؤال الله تعالى، والاجتهاد في طاعته سبحانه وتعالى، والاجتهاد في تحصيلها بالأسباب الموصلة لها، وعلى رأسها علم الكتاب والسنة، ثم الاجتهاد في العمل بمقتضاها.

ثم تُخْتَمُ الآية الكريمة بموعظة تحمل غنيمة من الله تعالى لمن يتدبر ويتذكر (وما يَذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب) فما ينتفع بالموعظة والتذكير إلا من له عقل يعي ويعقل به ما يُقال له.

(وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١)

ثم تلي تلك الآيات السابقات، هذه الآية التي تبين للمخاطبين علم الله تعالى الواسع والشامل لما يقومون به من نفقة (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلَمُهُ) فتفيد الآية الكريمة علم الله تعالى الشامل بما يُنفق العبد من نفقة، قليلة أو كثيرة، وصغيرة أو كبيرة، وحقيرة أو نفيسة،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٢٩)

وطيبة أو خبيثة، فإن الله تعالى أحاط بها علماً. ومن فوائد إدراك المرء لإحاطة الله تعالى بما أنفق من نفقة، أنها تربي فيه، متابعته لنفسه، في نفقته من كل وجه.

كما بينت الآية كذلك علم الله تعالى بما ألزم أو يُلْزِمُ المرء نفسه من طاعة لم تكن واجبة ولا لازمة عليه كالنذور (أو نذرتم من نذر فإن الله يَعْلَمُهُ) فلا يخفى على الله تعالى شيء من ذلك، مما يوجب على المؤمن الابتعاد والحذر مما نهى الله تعالى عنه، كالنفقة غير الطيبة، فيظلم نفسه بما أنفق، لأنها على غير ما أراد الله تعالى. ثم بين الله تعالى محذراً من هذا الظلم (وما للظالمين من أنصار) فما لهؤلاء الظالمين من أنصار يمنعون عنهم عذاب الله تعالى. وفي هذا وعيد شديد للظالمين.

وأما في إخراج الطيب مع الإخلاص لله تعالى، من غير أذى ولا مَنٍّ ولا رياء خيرٌ عظيم للمنفق، وذلك بقبوله من الله تعالى، وبمضاعفة الأجر له، وبمحبة الناس له، ومحبة من أنفق عليهم، وذلك لما حصل من تطييب خاطرهم، وإكرامهم، ودعائهم له، ومحبتهم لمن أحسن إليهم، ومن زيادة اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

ثم يبين الله تعالى حُكْمَ ما يتعلق بالصدقة من إظهارٍ، أو إخفاءٍ لها، وما يترتب على ذلك من الأجر (إن تُبْدُوا الصدقات فَنِعِمَّاهي) وهذا مدح لها (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم) وهو ثناء زائد للإخفاء. ويقول العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى: قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.[١] فإن الله تعالى مدح الوجهين، الإبداء والإخفاء، كما أنه سبحانه وتعالى أعلم بنية من أظهرها، فقد يزيد بها خيراً، إن أراد بذلك دفع الناس للاقتداء به.

ومن الفوائد أنه اجتمع في الصدقة الثناء من الله تعالى (فَنِعِمَّاهي) وكذلك حصول الخير للمتصدق (فهو خير لكم) وكذلك تكفير السيئات (ويكفر عنكم من سيئاتكم) ثم تنتهي الآية بموعظة عظيمة (والله بما تعملون خبير) فهو خبير بما أنفقتم، وبنوعه، وكميته، وعدده، وجودته، وطيبه من رديئه، بل وعليم حتى بنية الإنفاق ودواعيه. فلا يخفى عليه شيء من أعمال العبد. وإذا أدرك الإنسان

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢١٥)

هذا، واستصحب يقينه بعلم الله تعالى له أثناء الإنفاق، قاده وأخذه ذلك للكمال الذي يريده الله تعالى.

(لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢)

ثم ينتقل السياق القرآني لمعالجة النفقة على غير المسلمين، وابتدأت الآية الكريمة بتقرير أمر الهداية، من أنه ليس بيد أحد من خلقه (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فهذا الخطاب مُتوجّه للرسول صلى الله عليه وسلم، من أن الهداية التوفيقية ليست لك، فتكون واجبة عليك، وإنما مهمتك أيها النبي هداية الإرشاد والبيان والتوجيه، وأما هداية التوفيق، فهي بيد الله تعالى. فلا يجب عليك هدايتهم. وفي هذا ما يُزيل عن النبي صلى الله عليه وسلم هم المسؤولية والرغبة في هدايتهم، لأنه حريص على ذلك، كما قال تعالى في آية أخرى (حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤفٌ رحيم) مما يفيد أنه من باب أولى أن لن يكون لأحد من خلقه هداية الغير بالإلحاح والأمر، وإنما بالدعاء والتوجيه والقدوة الصالحة التي تدفع غير المسلم للدخول في الإسلام. وهذه فائدة في مجال الدعوة عظيمة لكل داعية لله تعالى. وهذا يفيد أهمية دعاء وسؤال الله تعالى هداية الغير، مع الأخذ بأسباب هداية دلالة الناس على دين الله تعالى، وذلك ببيان منهج الإسلام ومحاسنه ومقاصده. وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر. فأصبح فغدا عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم)[٢]

وجاء في التفسير: أنه لما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم التَّصدُّق على المشركين من أجل أن يُسلموا نزلت هذه الآية.[٣] فكان صلى الله عليه وسلم يأمر أن لا يُتَصَدَّق إلا على أهل الإسلام،

---

(١) الترمذي (٥/٥٧٧) برقم (٣٦٣٨) وبرقم (٣٦٨١)

(٢) البخاري (٢/٣٤١) برقم (٢٩٣٧)

(٣) تفسير الجلالين، ص (٤٦)

حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين.[١] وهذا يفيد أن منهج الإسلام هو منهج رباني من الله تعالى، إذ لم يوافق اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم فيما اجتهد فيه عليه الصلاة والسلام، وأن هذا الدين رحمة على المسلم والكافر، وأن منهجه يدفع غير المسلم لابتغائه، لما يرى من سماحة هدي الإسلام وصدقه، ولن يكون هذا إلا من خالق الكون ومالكه.

ثم تتولى الآية العظيمة معالجة العديد مما قد يرد على النفس البشرية عن مردود هذا الإنفاق والبذل، فتعلم المؤمن أن ما يُنفقه على غيره فهو له (وما تُنْفِقُوا من خير فلأنفسكم) أي مردود ثوابه وأجره عليك، فما يقدمه الْمُنْفِق لغيره من نفقة في الدنيا، فإن ثوابه ومردوده عليه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالبركة ودفع الشرور وتكثير الرزق، وفي الآخرة بالمغفرة ورفيع الدرجات، وفضله وكرمه واسع لا حدود له سبحانه وتعالى. ثم حصرت الآية الإنفاق من الخير (من خير) ليستبعد منه كل رديء، لأنه ليس بخير. وفي هذا تشجيع للمؤمن على النفقة من أفضل ما عنده. ثم بين تبارك وتعالى نية الإنفاق (وما تُنْفِقُون إلا ابتغاء وجه الله) وهذا توجيه بياني، من أن ما تفقون هو لله تعالى، وليس لغير ذلك، لينتفي معه الرياء والسمعة، وكذلك يزول معه وجهٌ آخر، مثل: ما قد يرد على النفس، من أنه بعد أن أعطى تبين أن نفقته لم تكن في اليد التي أحب أن تكون. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إذا أعطيت لوجه الله تعالى، فلا عليك ماكان عمله. فالمتصدق إذا تصدق لوجه الله تعالى، فقد وقع أجره على الله تعالى، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب الْبَرَّ أو الفاجر، أو مستحق أو غيره، وهو مُثاب على قصده.[٢] وهذا من لطف شريعة الله تعالى، وعنايتها بدقائق النفس البشرية، وما قد يعتريها، بما يؤكد أنها شريعة الله تبارك وتعالى.

ثم يؤكد تبارك وتعالى محل النفقة، بأنه محل محفوظ عند الله تعالى، وبعيد عن أي مظلمة للمنفق (وما تُنْفِقُون من خيرٍ يوف إليكم وأنتم لا تُظْلَمُون) فلا يُظلم المنفق في نفقته عند الله تعالى، وهذا زيادة تأكيد على حفظ الله تعالى لنفقة المنفق من أي ضياع.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣١/١)

(٢) المرجع السابق (٣٣١/١)

(لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣)

ثم يبين الله تعالى صورة التعفف عند المؤمنين من رعيل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لتكون منهجاً في كل زمن، وفي كل مجتمع، فقال تبارك وتعالى (للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله) فتضمنت الآية العظيمة في صياغتها لفت الانتباه إلى العناية بأولئك الفقراء الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، ولم يتمكنوا من التكسب الذي يغنيهم، ويسد حاجتهم (لا يستطيعون ضرباً في الأرض) فنفى عنهم القدرة على الضرب في الأرض، فلا يستطيعون سفراً ليتكسبوا بتجارة أو عمل. لحبسهم أنفسهم في سبيل الله تعالى، وهذا يفيد حاجة الإنسان للتذكير، ولفت الانتباه إلى المتعففين المحتاجين، الذين لا يستطيعون ولا يُحسنون التكسب. كما يفيد هذا أن هناك صنفاً من الفقراء والمحتاجين لا ينتبه لهم أحد، ولا يلتفت لحالهم الجاهل بحالهم. وأيضاً يفيد هذا أن الفقير لا يُلام على فقره، فقد يعجز عجزاً نفسياً أو عجزاً فكرياً أو عجزاً معرفياً من أن يهتدي ويتوفق لعمل يسد حاجته، فيتنبه الغني لذلك، ولا يُظن به، ولا يُعاتبه عتاب المتكاسل الرافض للعمل، بل يرشده ويعينه إن أراد نقله مما هو عليه إلى حالة العمل والتكسب. وكذلك أهمية تنبيه الأغنياء للفقراء، ونعتهم وتنبيههم لهم.

ويُستفاد أيضاً أن الناس متباينون فيما يُحسنون ويُجِيدُون من العمل، فالبعض يجد نفسه في سبيل الله تعالى، كالعلم مثلاً، فلا يُشغل وقته إلا به، ولا يُحسن غيره، وقد لا يجد به ما يعينه على متطلبات الحياة، التي يستغني بها عن غيره. فالذي هدى الغني ووفقه للتكسب، ويسر له الرزق وأسبابه، هو الذي وفق هذا لتكون حياته في باب من أبوب سُبُل الله تعالى. ويكف عن غيره ثغرة من ثغور الإسلام.

ثم بين الله تعالى صفة أولئك الذين تضمنت الآيةُ الكريمةُ حالهم، ولفتت نظر المنفقين إليهم، من أنهم (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) فالجاهل بحالهم الحقيقي، يعتقد أنهم ميسورين مستغنين عن نفقات غيرهم لهم، وذلك بسبب عفتهم وانقباض نفوسهم عن السؤال، أو حتى إظهار ما يدل على حاجتهم وفقرهم. فإنها صورة عالية في كل شيء، فلا يفطن لهم إلا من يعرف حقيقتهم بدقة. وهذه الصورة تُعَلِّم الفقير والمسكين صورة من صور حال المسلمين الأوائل، لتكون منهجاً للتعلم.

ومن صفاتهم التي بينها الله تبارك وتعالى لمعرفتهم من بين الناس، قوله عَزَّ وجل (تعرفهم بسيماهم) فالعلامات الدالة على الفقر هي أوصاف الحاجة الظاهرة عليهم. فيا أيها المخاطب والمُطَالب بالنفقة، تعرف على هؤلاء بسيماهم، بتلك العلامات الدالة على فقرهم، كالجهد الجسدي، الذي يكشف الفقير والغني والمريض والسليم، وكذا التواضع الذي يظهر على أبدانهم وتعاملهم، وأما نفوسهم فلا توحي بذلك، كما سبق وصفهم (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) فصورتان عظيمتان لهم. صورة لا يفطن لهم بها أحد، غير العالم بحالهم (التعفف) وصورة يفطن لها العارفون (تعرفهم بسيماهم) فهذا تحليل عميق من رب العالمين، لتلك القامات والشخصيات التي نذرت نفسها في سبيل الله تعالى.

ثم يقول الله تبارك وتعالى عن حالهم (لا يسألون الناس إلحافاً) فلا يقع منهم سؤال الناس البتة، فلا يقع الإلحاح منهم. لأنهم متعففون، لا يمدون أيديهم لأحد، ولا يُشْعِرُونَ غيرهم بفقرهم وحاجتهم، فهي صفات يقف المرء عندها إكباراً وثناء. ومن الفوائد اللفظية أن الإلحاف هو الإلحاح. فمهما بلغت الحاجة بهم، فإنه لا يظهر منهم السؤال أبداً. فرضي الله تعالى عنهم.

ومن الفوائد جمال تراكيب الألفاظ في كتاب الله تعالى، ومنها ما تضمنته هذه الآية الكريمة (لا يستطيعون ضرباً في الأرض) (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) (تعرفهم بسيماهم) بل كل كلمة في موضعها بيانٌ يهز الألباب، وكل جملة تقف عندها العقول حائرة مذهولة من جمال تراكيبها، ودقة احتوائها لمراد الله تعالى، ثم كل آية تحتار ولا تجرؤ في تحبير مثلها الأقلام، وفي كل معنى يقف عند دلالتها الفقهاء والعلماء، فيغترفون منها مزيداً بعد مزيد، ويقرأ ويسمع نصوص الآيات كلُ إنسان من غير العلماء، فيعرفون منها عموم مراد العزيز الرحمن. فسبحان من خص كتابه بكل المعجزات.

ثم تنتهي الآية الكريمة بما يزيد طمأنينة المنفق (وما تُنْفِقُوا من خير فإن الله به عليم) فخص الله تعالى نفقة الخير لتنتفي بها كل نفقة على غير مراد الله تعالى (وما تُنْفِقُوا من خير) وبالتالي ينتفي بها كل نفقة ليست مشمولة بالخير. فالله تبارك وتعالى عالم بكل نفقة، صغيرة وكبيرة، وأُخِذَت من قليل أو كثير، ونسبتها مما أُعطيت منه، وإن كانت لله تعالى أو للرياء والسمعة. وبالتالي فإن من أحاط بها علماً سوف يُجازي المنفق على ما أنفق وقدم.

(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤)

ثم يؤكد الله تعالى مُجازاته ومكافأته وثوابه للمنفقين، بالأجر العظيم، وبنفي الخوف والحزن عنهم (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار. سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) فهذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته. في جميع الأوقات، من الليل أو النهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهار. لتشمل حتى النفقة على الأهل، فهي داخلة في ذلك، كما ثبت في الصحيحين[1] قال صلى الله عليه وسلم (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليه، حتى ما تجعل في في امرأتك)[2]

وفي قوله سبحانه وتعالى (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) كناية عن تعدد الإنفاق، وتنوع أوقاته، وتدفقه على المستحقين. وفي قوله تعالى (سراً وعلانية) بيانٌ لأحوال الإنفاق من حيث السرية والعلانية. بأن بعضها خفية، وبعضها علانية، مما يفيد أن الإنفاق علانية مباح وليس بمذموم، لأنه قد يكون دافعاً للغير بالاقتداء والتقليد. ما لم يقصد به الرياء والسمعة. ثم قوله تعالى (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) فهؤلاء المنفقون الموصوفون في هذه الآية، لهم أجرهم وثوابهم عند الله، وفي قوله تعالى (عند ربهم) ما يدل على المنزلة والشرف العظيم لهم. فلهم العطاء عند الله تعالى، وأيضاً (ولا خوفٌ عليهم) فيكون لهم الأمن والأمان عند الله تعالى فيما هو قادم من أمرهم، وأيضاً (ولا هم يحزنون) فينتفي الحزن عنهم عند الله سبحانه وتعالى على ما مضى منهم، لكرمه وجوده عَزَّ وجل. لأن هناك الخاسرون يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة مريم (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون)

وهذا يفيد تربوياً أهمية التشجيع وأهمية الإثابة، لمن اتصف بما يجب أن يقوم به، فإن ذلك يدفع ويُبْعِد عن المرء سوء الطوية، وخباثة النفس والفكر، ويدفعه للأداء بأحسن ما يكون. وكذلك يفيد هذا أهمية التربية على جمال النفقة وأطيبها، وتفقد أحوال الغير، وخاصة أهل التعفف من الفقراء.

(ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٣/١)

(2) البخاري (٣٥/١) برقم (٥٦) مسلم برقم (١٦٢٨)

مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ٢٧٦)

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى مسألة الربا، بعد أن تم استجلاء ما يتعلق بالنفقة في أوجه سُبُل الله تعالى. قال تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) فاستهلت الآية بتشنيع عملية الربا في أبشع صورة، لما هو عليه، ولما سيحصل عليه آكله يوم القيامة، بأنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً.[١] وكذلك حاله أيضاً في الدنيا، فليس هو عن ذلك ببعيد، فحرصه وطمعه وشجعه يدفعونه إلى استعجال المرابح والتكسب، فيقوم كما يقوم المصروع خوفاً وفزعاً من فوات المكاسب، فطمعه يستفز أعضاء جسمه وفكره بالعجلة المنكرة، التي تظهر على أعضائه، وكأن به مس من الجن.

وهذه الصورة البشعة تحذر المسلم من أن يكون حاله بسبب الربا، كهذه الحالة المخيفة، ويفهم منها، ما يلزم أن يكون عليه المسلم من العمل بضد ذلك، فيكون تكسبه وفق المكاسب التي أباحها الله تعالى، والابتعاد عما حرم الله عَزَّ وجل من الربا وغيره من البيوع المحرمة في عينها، أو في طرائق بيعها وشرائها. ولشناعة الربا، صَوَّرَتْهُ الآية الكريمة بأبشع الصور المماثلة له، حتى في مطلعها، إذ وصفت التعامل الربوي بالأكل، الذي هو الاستطعام، وما يحصل به. قال تعالى (يأكلون الربا) والمراد يكسبون الربا ويفعلونه. وخُص الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دال على الجشع، وهو أشد الحرص.[٢] والربا هو: الزيادة في المعاملة بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل.[٣] فاختيار كلمة (يأكلون) جاءت للدلالة على شناعته. مما يفيد وصفا وتحريراً أهمية اختيار اللفظ الذي يصور الأمر تصويراً مناسباً له، حتى يكون أثره في النفس أكثر عمقاً، بحسب مقاصد السياق اللفظي.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٤/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٩/٣)

(٣) السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٤٧)

ثم بين الله تعالى تعليلهم لإباحة الربا (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) فجعلوا الربا نظيراً للبيع، وليس تشبيهاً وقياساً له. إذ لو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع. ولكن (قالوا إنما البيع مثل الربا) ليخرجوا بعلة تؤيد مقصدهم، بأن الربا مثل البيع، فَلِمَا حُرِّم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على شرع الله تعالى.[١] فأجازوه باعتراضهم على أحكام الله تعالى. مما يبين أن المنحرف عن الطريق المستقيم، يستهل انحرافه بتحليل ما هو عليه من انحراف، حتى يلتمس لنفسه المعاذير التي تُبْعِدُه عن لائمة النفس أولاً: واستغفال المغفلين بأحكام الشريعة الغراء ثانياً، وكذلك لاستهواء الاخرين لما هو عليه ثالثاً. وهذا منهج المنحرفين في كل انحراف عن جادة الإسلام، إذ يضعون ويسوغون لأنفسهم مسوغات تتناسب مع الهوى والمراد، والعياذ بالله تعالى من غلبة الهوى والشيطان.

والمسلم يستسلم لمنهج الله تعالى، ولا يعترض عليه، ولا يفكر في الاعتراض عليه، ولا يجعل للشيطان والهوى مدخل في ذلك. فإن الله تعالى لا يُسأل عما يفعل. ولا يُعَقِّبَ على حكمه أحدٌ. فَحَكَمَ اللهُ تعالى بِحُكْمِهِ تحليلاً وتحريماً (وأحل الله البيع وحرَّم الربا)

ثم عالجت الآية الكريمة الواقع في الربا، وفتحت له باب التخلص منه، قال تبارك وتعالى (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف. وأمره إلى الله) فمن بلغه نهي الله تعالى عن الربا، فانتهى عنه حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة[٢] وسيكون أمره إلى الله تعالى في عفوه وعقابه. ومن الفوائد تعدد دلالات (وأَمْرُهُ إلى الله) لتستوعب أموراً متعددة، بسبب ضمير الهاء في قوله تعالى (وأمره) أحدها: أن الضمير عائد إلى الربا، بمعنى: وأَمْرُ الربا إلى الله في إمرار تحريمه أو غير ذلك. والآخر: أن يكون الضمير عائد على (ما سلف) أي أَمْرُهُ إلى الله تعالى في العفو عنه، وإسقاط التَّبِعَةَ فيه. والثالث: أن يكون الضمير عائداً على ذي الربا، بمعنى أمره إلى الله تعالى في أن يثبته على الانتهاء منه، أو يُعيده إلى المعصية في الربا.[٣] ومن فوائد هذه الدلالات أن تأويل القرآن الكريم لا يقوم به إلا العلماء الراسخون في العلم، الماهرون باللغة والعالمون بالأدلة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٤/١)

(٢) المرجع السابق

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٤/٣)

الراجحة من المرجوحة، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، فلا يتجرأ أحدٌ على تأويل كتاب الله تعالى أو على شيء منه إلا بعلم.

وأما من عاد إلى الربا بعد هذه الموعظة التي جاءته من ربه تبارك وتعالى، وسوغ لنفسه الإباحة بتشبيه الربا بالبيع في الحل، فقد توعده الله تعالى بالخلود في النار (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فمن عاد استوجب العقوبة بعد أن قامت عليه الحجة. وفي هذا زجر عظيم، وتخويفٌ ووعيد مهيب من التعامل بالربا. مما يوجب الحذر والبعد عنه. والتوبة من الربا قبل الموت، وقبل لقاء الله تعالى بشنيعة الربا. فاللهم أجرنا والمسلمين منه، ومن كل ما لا يُرضيك.

ثم بين الله تعالى صنيعه بالربا (يمحق الله الربا) فينقصه ويُذهب بركته سبحانه وتعالى، وإذا انتفت البركة منه، فلا قيمة حقيقية له، ولا سعادة به لصاحبه، مهما تحققت به ومنه المكاسب التي هي في أعين الناس كبيرة، لأنها محوقة البركة، فلا لذة ولا متعة لصاحبها فيها، وإنما عناء ومشقة. بينما الصدقات على النقيض من ذلك (ويُرْبِي الصدقات) فتكثر بركتها في الدنيا، ويتضاعف أجرها في الآخرة. وفي هذا مقارنة بين نقيضين، أحدهما زيادة في عين صاحبها، وهي الربا، ولكنها نقصان في حقيقتها، والنقيض الآخر، هي الصدقات، ظاهرها نقص من المال، وحقيقتها زيادة بركتها في الدنيا، ومضاعفة أجرها في الآخرة. والربا يمثله أهل الجشع، والصدقات يمثلها أهل السخاء. فهما أمران لا يستويان في الصورة ولا في الأثر والمردود. وفيهما اختبار للمؤمن، أمام هذين الأمرين المتناقضين. فالمؤمن الحقيقي يحقق أمر الصدقة في نفسه وفعله، ويبتعد عن أمر الربا في نفسه وفعله.

والمقارنة التناقضية، تُبين التمايز، وتُثير التفكير، وتزيد عوامل الاستفادة والتعلم، وتبين السقيم العليل من الصحيح السليم، وتحقق الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، والخير من الشر، وتُوقِف العاقل على ما يجب أن يختار ويسلك.

فهذه مقارنة تبين عظيم منهجية القرآن الكريم في استحثاث العقول بالتفكير والمقارنة، ليدرك التفاضل والتمايز في أحسن وأبلغ صوره في القرآن الكريم العظيم، الذي أنزله تبارك وتعالى على سيد المرسلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة تهز القلوب (والله لا يُحب كلَّ كَفَّارٍ أثيم) فينفي اللهُ تعالى محبته لكل كَفَّارٍ أثيم. بإثمه وفجوره. وفي وصفه بالأثيم للمبالغة، لأن دلالة كلمة (كَفَّار) شاملة للإثم. قال العلامة

ابن سعدي رحمه الله تعالى: وهو الذي كفر بنعمة الله تعالى، وجحد مِنَّةَ ربه، وأَثِمَ بإصراره على معاصيه.[١]

ونفي محبة الله تعالى تستجيش قلب المؤمن، وذلك لمحبته وشوقه أن يحبه الله تعالى. مع الخوف من كل صفة متعلقة بالكَفَّارِ الأثيم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي لا يُحب كفور القلب، أثيم القول والفعل... والمرابي لا يرضى بما قسم الله تعالى له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلومٌ آثمٌ، يأكل أموال الناس بالباطل.[٢] وفي هذه الاستثارة القلبية ما يدفع المؤمن للحذر من الربا، ومن كل ما يُدْخِلُ في هذا الصنف، الذي نفى الله تعالى محبته لهم.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧)

ثم ينتقل السياق القرآني إلى مدح عباده الذين أطاعوه، وفي هذا بيان المفارقة لمن يطيعه ولمن يعصيه، قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) فامتدح وأثنى تبارك وتعالى على عباده الذين آمنوا، وبدأ بالإيمان لأنه ركيزة كل عبادة، وهو منطلق الإسلام والاستسلام، وهو ركيزة لاجتناب ما نهى الله تعالى عنه، ومنه الربا، ثم ثَنَّى بالذين يعملون الصالحات، وكلمة (الصالحات) شاملة لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وهي مضادة لكل المفاسد التي تُغْضِبُ الله تعالى، ومنها الربا، ثم ذكر سبحانه وتعالى الصلاة والزكاة، وخصهما بالذكر، على الرغم من أنهما داخلتين في (الصالحات) وذلك تشريفاً لهما، وتنبيهاً لهما، ولِقَدْرِهِمَا ومنزلتِهِما، فكانت الثالثة الصلاة (وأقاموا الصلاة) والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أبرزها الربا. ثم الرابعة (وآتوا الزكاة) والزكاة إنفاق وسخاء، وهي عبادة مناوئة للربا، الذي هو جشع وإمساك. فهؤلاء ثوابهم كما قال تعالى (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) فهم مُثَابُون ومأجورون، وفي أمن من الله تعالى، فينتفي عنهم الخوف مما يروعهم يوم القيامة، وكذلك ينتفي عنهم التحسر على ما حصل من نقص فيما هو مطلوب منهم.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢١٨/١)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٨/١)

لأن تحسر العبد يجلب له الحزن يوم القيامة، إذ لا يستطيع أن يُقِيلَ عثراته ويصحح مساره. وهؤلاء الموصوفون في الآية الكريمة، ينتفي عنهم ذلك، لما قاموا به من الطاعة لله رب العالمين. وهذا البيان الرباني بعد عرض أمور الربا والمرابي، ليقارن العاقل الكيس بين مصيرين: أحدهما (والله لا يحب كل كفار أثيم) والثاني (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) ويستفاد من ذلك أهمية أسلوب المقارنة في التأثير والتصحيح، وتعديل الاعوجاج الفكري، من خلال قاعدته الإيمانية والتعبدية. كما هو النهج فيما سبق من آيات القرآن الحكيم.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم مرة أخرى إلى التوجيه العلاجي، بالنصح وتقديم الاختيار الصحيح. قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) وابتدأت الآية الكريمة بصيغة النداء (يا أيها) وهو للفت الانتباه، ولينصت المُخَاطَب لما بعدها من الكلام، حتى يستشعر أهمية ما سَيُقَالُ له من الكلام، أمراً وتحذيراً، ونهياً وتوجيهاً. ثم يخاطبهم الله تعالى بجليل الصفات، وهي صفة الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) ومَنْ يُخَاطب بجليل الصفات، يُفْتَرض أنه يُذْعِن لمن خاطبه وناداه، فَيُصْغِي إليه باهتمام وإذعان، فكيف والْمُخَاطِبُ هو الله تعالى. الذي ناداهم ووصَفَهُم بالصفة التي توجب عليهم ألا يحيدوا عن مضمون الخطاب، ثم يأتي التوجيه الرباني بامتثال التقوى (اتقوا الله) وهاتان الكلمتان العظيمتان تعني أموراً عظيمة، تعني خافوا الله، وخافوا سلطانه، وخافوا عقابه، وخافوا قدرته، وارجوا رحمته وارجوا ثوابه، وسارعوا في طاعته، وفي ترك ما نهى عنه. فهما كلمتان متضمنتان لعظيم الوعظ من الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا) انتهوا من الآن عن كل ما بقي من الربا. لتشمل كل ما بقي من الربا، حتى ما كان موعود به من زيادة، وما كان ناوياً عليه، فلا تأخذ شيئاً مما بقي من الربا. بل توقف وانتهي عنه. فهو أمرٌ قطعي منتهي (إن كنتم مؤمنين) فهذا شرط يؤكد حقيقة الإيمان، فالانتهاء والإقلاع عن الربا دليل على قوة الإيمان. وبالتالي فإن عدم الامتناع دليلٌ على أنه ضمن من قال تعالى فيهم (والله لا يُحب كلَّ كَفَّارٍ أثيم)

وفي قوله تعالى (إن كنتم مؤمنين) ما يدل على أن الإيمان ما نع للمعاصي، كما قال صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[١] وأن ضعف الإيمان يمتنع معه الامتناع عن المعاصي، وخاصة الكبائر. فلا يتوقف ضعيف الإيمان عن المعاصي، لغلبة الهوى والدوافع الطلبية الشهوانية للمعصية، ولا يمنع جماحُها إلا الإيمان. مما يفيد أهمية الإيمان وأهمية العناية بالتربية الإيمانية، والأخذ بأسباب كل ما يقوي الإيمان.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى بيان حال من لم يتعظ بهذه المواعظ والتوجيهات الربانية، قال تعالى (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فهذا تحذير شديد لمن يستمر ويتجرأ على حدود الله تعالى، من بعد ما جاء العلم من الله تعالى بحكم الربا. فهي حرب من الله تعالى، بما تتضمنه من النكال، والعذاب، ومحق البركة، فمن ذا الذي يستطيع أن يواجه حرب الله تعالى، وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على شناعة الربا، وأنه من أبغض المحرمات التي حرمها الله تبارك وتعالى. وكلمة (حرب) عامة. لتشمل جميع مفردات ومتنوعات الحرب، التي قد لا تخطر ببال الإنسان.

وأما إن حصلت التوبة، فيكون الأمر كما قال تعالى (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم) وهذا يفيد أن التوبة أولُ خطوات الإقلاع عن الربا، مما يدل على أهميتها، وذلك لما تضمنته من الأسف والندم على ما حصل، مع العزيمة الصادقة على عدم العودة للذنب، والتخلص مما هو فيه من الربا، والاكتفاء برأس المال، قال تعالى (وإن تُبتُم فلكم رؤوس أموالكم) فالمنهجية قائمة على أن لكم أصول أموالكم، وهي رؤوس الأموال فقط. وأما زيادة الربا فليس لكم أن تأخذوها، فلا تُظلمُون بهذا الحكم ولا تَظلِمُون غيركم ممن تعاملتم معهم (لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُون) فعدلٌ بين الطرفين المتعاملين. وفي حالة إعسار المدين تكون القاعدة في التعامل، هي قوله تعالى (وإن كان ذو عُسرة فنظرة إلى ميسرة) فرد اللهُ تبارك وتعالى الدائن إلى الرفق بالمدين، وذلك بانتظاره حتى يتيسر الأمر، فأرشد تبارك الرحمن إلى الرحمة بينهما، ثم أرشد إلى ما هو خير للدائن (وأن تصدقوا خيرٌ لكم) فله الخيار بين انتظاره إلى يُسر، أو التصدق عليه، بالتنازل عن الدين، فهذا خير للدائن، فبالرغم من أن ظاهره نقص لرأس المال، إلا أنه عند الله تعالى خيرٌ لهذا الذي تنازل، وعندما يقول الله تعالى

---

(١) البخاري (٢/٢٠١) برقم (٢٤٧٥)

(خيرٌ لكم) معناه حقيقة غير قابلة لغير ذلك، فهو خيرٌ بالبركة، وخيرٌ بالعوض من الله تعالى، وخيرٌ بمحبة المدين للدائن، وبدعائه له، وبتفريج كربته، فيحصل لهذا المتنازِل خيرٌ عظيم كثير، لا يعلمه إلا الله تعالى، الذي أرشد لهذا الطريق، وبين هذا التفضيل (وأن تصدقوا خيرٌ لكم)

فيتبين من ذلك المنهجية العلاجية من جميع جوانبها ومتعلقاتها وأساليبها، ومراميها على الدائن والمدين، إذ يتحقق بها خيرٌ عظيم.

ثم ينتهي موضوع الربا بموعظة عظيمة جليلة (واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله. ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون) فابتدأت الآية الكريمة بالتوجيه والتذكير بأمور تستثير الألباب، وتستجيش النفوس المؤمنة، وذلك بِتَذَكُّر العودة والرجوع إلى الله تعالى يوم الحساب والجزاء، حيث يستوفي كل أحدٍ ما له وما عليه، من دون ظلم لأحد. عدلٌ فيه الحساب والجزاء. فاللهم عاملنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين. وهذا يفيد أهمية الموعظة بالرجوع إلى الله تعالى، وبالحساب والجزاء، والأمر بالتقوى، فإنها مواعظ جليلة المقام وعظيمة الأثر والتأثير.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢)

بعد أن بين الله تبارك وتعالى في آيات عديدة، وعظيمة المقام والتأثير، فيما يتعلق بالصدقات والإنفاق في سبيله، ثم بيان ما يتعلق بالتحريم والنهي المخيف عن التعامل بالربا، توجه الخطاب بأطول آية في كتاب الله تعالى إلى مصالح العباد في التداين، وما يتعلق به من عقود ونحوه في البيع والشراء وغيره، فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) فابتدأت الآية الكريمة بنداء المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) وهو نداء من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين، ونداء الله تعالى لعباده ليس كمثل نداء الناس بينهم، بل هو نداء يستثير الانتباه والتوقف مع التأمل، والإنصات وتتبع كلام الرحمن، وفي تسميتهم ونعتهم بالإيمان مدحٌ وثناءٌ لهم، وتقرير منه عَزَّ وجل لهم بإيمانهم، وإنها لمنزلة عظيمة كريمة، تستوجب الشكر والثناء والإصغاء للنداء وللمنادي سبحانه وتعالى، بأدب واحترام، وإذا كان هذا الأسلوب من الله العلي القدير مع عباده، فإنه يفيد أهمية ذلك بين العباد أنفسهم، من حُسن وكرم المناداة، بأن تكون بأطيب الأسماء والألقاب، وكذلك الإحسان في افتتاح الكلام، وتهيئة السامع والمخاطب للمراد من الخطاب، فإنها عوامل مؤثرة في النفس بين العباد.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد النداء لهم بالمؤمنين (إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) فأرشد الله تبارك وتعالى إلى تدوين عملية التداين وتوثيقه، من حيث المقدار ووقت السداد، وكل ما يتعلق به. وقد أرشد تبارك وتعالى بصيغة التعميم، لتستوعب كل أنواع التداين (إذا تداينتم) فيدخل فيه الإقراض، وأثمان البضائع، والعقارات، كلها أو أجزاؤها من الأثمان المتبقية، وغير ذلك. فاستوعبت (إذا تداينتم) كل أوجه التداين، وكذلك (فاكتبوه) قد استوعبت جميع ما يتعلق بالمدة، والنوع، والعدد، والكمية، والوصف، وغير ذلك مما هو معلوم. وهذا من عظيم بلاغة القرآن المجيد

في استيعاب ألفاظه لجميع مراده سبحانه وتعالى. ومن الفوائد إرشاد الله تعالى لعباده ما يحفظ مصالحهم، وما يحول بينهم وبين تقاطعهم وتخاصمهم، بسبب عوامل النسيان، والخوف، والموت، وجميع الأسباب التي تتمزق بها العلاقات بعلة التداين. فإنها نعمة عظيمة من الله تعالى، أن أرشد عباده لمصالحهم العامة.

ثم بين محاور وعناصر المكاتبة، فقال تعالى (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) فأرشد تبارك وتعالى إلى أن يتولى كتابة كِتَابِ المداينة كاتب يكتب (بالعدل) أي بالحق في كتابته وتدوينه لعقد المداينة، بأن لا يزيد ولا ينقص في المال، ولا في الأجل. ويُستفاد من اشتراط (كاتب بالعدل) أهمية صفة العدل، وما تتضمنه من أمانة، وكذلك أهمية اختيار الموظفين الذين يتصفون بالعدل، لما يترتب على أدائهم من حفظ حقوق الآخرين، وأن اختيار من اتصف بالعدل واجب يلزم القيام به. ولما أن الكتابة علمٌ، ففي ذلك دلالة على أهمية العلم وفضله، وفضل من اتصف به، وأنه مع ذلك مسؤولية، يلزم صاحبها أن يكون متصفاً بما يحقق أداء عمله بكفاءة واقتدار.

وكذلك من المحاور والعناصر المتعلقة بالمكاتبة، قوله تعالى (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) فيلزم الكاتب ألا يمتنع عن الكتابة إذا طُلِبَ منه ذلك، فكما فَضَّله الله تعالى بهذه الخصيصة من العلم، فلا يبخل بها على غيره. وهذا يفيد أن العلم من الله تعالى (كما علمه الله) إذ خص عطاء العلم واكتسابه به سبحانه وتعالى. وهي نعمة تَفَضَّلَ اللهُ تبارك وتعالى بها على العبد، وكذلك يفيد هذا ألا يمتنع من لديه خصيصة فضل على غيره بتلك الخصيصة، بل يجب أن يستجيب، فكما أنعم الله تعالى عليه بها، فيلزمه ألا يبخل على غيره بها، وكذلك من طُلِبَ منه أداء عملٍ نافعٍ للأمة، ولا يَقْدِرُ عليه غيره، أن يستجيب لذلك، كما أنعم الله تعالى عليه بها (كما علمه الله) فتعليم الله تعالى له نعمة، فلا يبخل بما أنعم الله تعالى به على غيره. بل أكد الله سبحانه وتعالى ذلك على الكاتب، بقوله عَزَّ وجل (فليكتب) وهو أمر وتأكيد على وجوب القيام بهذه المهمة.

ثم بين الله عَزَّ وجل متعلقات دقيقة بمن يُملي الكاتبَ مضمون كتاب المداينة (ولِيُمْلِلِ الذي عليه الحق) فالذي يُملي الكاتب مضمون الكتاب، من حيث مقدار الدين، ومدة سداد الدين، هو الذي عليه الحق. وفي تعيينه محصلة كبيرة، وذلك حتى يكون ذلك إقرارٌ منه على نفسه بما كتبه الكاتب، وبما شهد عليه الشهود. ولأنه هو المشهود عليه، وهو الْمُلْزَم بمضمون الكتاب. وأيضاً هناك محصلة كبيرة، وهي حتى ينتفي التداخل بين الطرفين في تحديد من الذي يُمْلِي، وفي هذا تحديد

مسؤولية الإملاء، مما يُفيد إدارياً أهمية تحديد مسؤولية وصلاحية الموظف، بما يمنع تنازع السلطة، والنظر إليها أثناء التحديد من خلال المصالح المهنية، وما تحققه من فوائد وتنظيم، وألا يُنظر إليها من حيث قوة النفوذ الشخصية، فالدائن أكثر نفوذاً، ولكن لم يُعْطَ له الإملاء، لتتحقق بذلك المصلحة الأساسية، وكذلك لينتفع الدائن بما أقر به المدين، لأن مصلحته متقررة في إقرار المدين بالمديونية، كما أن في إقرار المدين إثبات لحق الدائن، ولا يتحقق انتفاع الدائن بإقراره المديونية على المدين، لإمكانية إنكاره، أو إعلاله بعلة، فلا ينتفع هو بذلك.

ثم تضمن التوجيه الرباني الأمر بالتقوى (وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربَّه) وهذا أمر للمدين بأن يتق الله تعالى فيما يُملي، من مدة سداد المدين، والمقدار أو النوع أو العدد، أو أي أمرٍ له علاقة بكتابة الدين. فكان وعْظُهُ بتقوى الله تعالى خير وأشمل موعظة له ولمثله، ولكل أحد من المسلمين. ثم عطف على الموعظة النهي عن البخس (ولا يبخس منه شيئاً) فلا يُنْقِص من الحق شيئاً، وذلك حفظاً لحق الدائن من أي نقص وبخس. وهذا يفيد أهمية التقوى في المعاملة، والحذر من بخس الحقوق، والتلاعب بالمكاتبات وحقوق الناس، ويمتد سلطان فائدة هذا التوجيه الرباني الكريم إلى التنظيم والتوظيف والعمل الإداري بعمومه، وبأهمية تحقيق مصالح الأطراف، من المستفيدين والمفيدين، أو القائمين بأعمال تحقيق مصالح الناس. وكذلك أهمية الموعظة، وأثرها البليغ في التوجيه الإداري، وأهمية استحضارها للمعنيين، من أصحاب القلم والقرارات، فإنها مسؤولية عظيمة.

ثم تعالج الآية القرآنية الكريمة مجال الاحتمالات، التي يمكن أن تكون في طرفي العقد، قال تعالى (فإن كان الذي عليه الحقُ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو) فأوردت الآية العظيمة احتمالات ما يمكن أن يكون عليه حال المدين، الذي عليه الحق، فقد يكون (سفيهاً) أي مبذراً، لا يُحسن مسك المال والتصرف بضبطه، أو (ضعيفاً) أي ضعيفٌ عن الإملاء، لصغر سنه أو لكبره، (أو لا يستطيع أن يُمِلَّ) فهذه الجملة شاملة عامة لأي عائق عن الإملاء، بعد تخصيص عائقين بالذكر، لأهمية التنصيص والبيان لهما. كما أن هذه الجملة الشاملة تستوعب الخرس والجهل باللغة، أو الجهل بمواضع الصواب من الخطأ. وهذه الاحترازات تُفيد كثيراً في المجال الإداري، ولا سيما عند بناء الأنظمة واللوائح، وذلك لأهمية الانتباه للاحتمالات المتوقعة، وأخذها بعين الاعتبار، حتى لا

تكون ثغرة، يختلف عليها أصحاب المصالح من الأفراد والهيئات، وهذا يدل على عمق المنهج الإسلامي في تدقيق مصالح العباد، واستيعابه لجميع مصالح الناس، بالتشريع الذي استوعب دقائق، لا يفطن لها المخلوق إلا بتوفيق الله تعالى، ومن الفوائد أن كفى الله تعالى عباده مؤنة التنظيم التشريعي، بأن وضع تفاصيلها، ووضع أصولها، لتستوعب حاجات العباد على مستوى الأفراد والمجموعات، وفي المهنة، وفي الأسرة، وفي قضايا البيوع، والتأجير، وغيرها من مناشط الحياة، فالحمد لله رب العالمين.

ثم أوجد تبارك وتعالى حلولاً لهذه الاحتمالات في موضوع كتابة العقد، فإن كان في المدين أي المديون شيئاً من تلك الموانع، فقد أرشد تبارك وتعالى إلى الإنابة، فقال تعالى (فَلْيُمْلل وليُه بالعدل) فيقوم مقامه المُتَوِلِّي لأمره من والد أو وصي أو مترجم، ليدرأ عنه ما نقص فيه، وما قد يلحقه من ضرر، وهذا يفيد عناية الشريعة بالعباد وشؤنهم، وحفظها، ودرء كل ما يمكن أن يمس الحقوق، من ظلم واستغلال لأي علة من العلل، مما يبين النهي عن استغلال الغافل والسفيه والضعيف ونحوه في كل أمر من الأمور التي تُلْحِق به ضرراً. وفيه ثبوت الولاية على القاصرين. مما يلزم الولي أن يجتهد في حفظ حقوق القاصرين ولا يفرط فيها، وأنه مسؤول عنها في الدنيا والآخرة. فهو مسؤول أمام القضاء في الدنيا، وأمام الله تبارك وتعالى في الآخرة. فلقد وَجَّهَ تبارك وتعالى أن يُملي بالعدل (فَلْيُمْلل وليُه بالعدل) وهو القسط، بحيث لا يُلحق بوليه ضرراً. ولا يُلحق بالدائن ضرراً كذلك. لأن مقتضى العدل يتطلب منع الضرر في كلا الوجهين.

ثم أرشد تبارك وتعالى إلى المزيد من التوثيق، وذلك بالشهادة على عقد المكاتبة (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) وفي لفظة (من رجالكم) ووصفهما برجلين، لينتفي بهذا الوصف غير البالغ من المسلمين الأحرار. وكذلك يفيد قوله تعالى (من رجالكم) أي اختيار رجلين منكم، فلا يكونا مجهولين، بل معروفين، بحيث يمكن احضارهما للشهادة إذا دُعوا، وفي هذا ضبط ودرء لما قد يحدث من اختيار رجلين مجهولين، يصعب استدعاؤهم للشهادة. وهذا يُفيد دقة الشريعة في الضبط، مما يفيد كذلك استصحاب هذا المنهج في تدوين الأنظمة، والانتباه، والوعي للتفاصيل الدقيقة، التي يمتنع بها الخلل، والضياع للحقوق والأداء في جميع صوره. وتعتبر هذه قاعدة في تحرير الأنظمة واللوائح الداخلة في المصالح المرسلة.

ثم يتم مزيد من الضبط والاحتراز في نوع الشهود، فيقول تعالى (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) وفي هذا احتراز لما قد يحصل، وتوسعة في الشهادة، بأنه إذا لم يأت برجلين، فليأت برجل وامرأتين، ممن تتفقون وترضون شهادتهم، وفي هذا اتاحة الفرصة للتوافق على الشهود، دراً لما يحدث في النفوس من المشاحنات، أو الشكوك في بعض الشهود، لأي علة من العلل، فيكون التراضي عليهم أساس. وفي هذا عدل بين طرفي الكتابة الدائن والمديون أو المدين. فجميع الاحتمالات التي قد لا يتنبه لها الإنسان إلا حال وقوع الأمر، نبهه لها سبحانه وتعالى، وضبط أمورها بدقة متناهية. وفي هذا من الفوائد العظيمة الجليلة لجانب السياسة الشرعية، بأن تراعى المصالح المحققة لمصالح الناس، والقائمة على العدل، ونفي الظلم، ووضع الاحترازات التي يمتنع بها الخطأ أو الظلم.

ثم بين تبارك وتعالى علة المرأتين مقابل الرجل الواحد (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) أن تضل عن الشهادة بالنسيان لها، أو لبعض بنودها، فتقوم الأخرى بتذكيرها بما غاب عنها. ولم يجعل الله تعالى التذكير من الرجل الشاهد للمرأة، بل جعل التذكير من المرأة للمرأة، لوجود القواسم المشتركة بينهما، حيث يمتنع بينهما حواجز المخاطبة وتداول الرأي والكلام، بينما يتعذر كمال ذلك من المرأة مع الرجال، فلا تمتنع الشاهدة من تبادل الحديث مع الأخرى، والمناقشة التي تؤدي بالذهن إلى التذكر. وكذلك لأن الغالب في المرأة، أنها لم تتعود ممارسة ما يمارسه الرجل من المداينات والبيع والشراء، الذي يقوي لديه بنود المفاهمات في هذا الباب، حتى تصبح لديه من بديهيات الأمور. فكان التذكير هو علة وجود المرأة الأخرى. وهذا ينفي أي تأويل ينتقص من المرأة في إيمانها أو عقلها أو غير ذلك.

ثم يبين الله تعالى ما يجب على الشهداء (ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا) وهذا توجيه للشهود بأنهم إذا تم استدعاؤهم للشهادة فلا يمتنعوا. قال الحسن جمعت هذه الآية أمرين: وهما ألا تأبى الشهادة إذا دُعيت لتحصيلها، ولا إذا دُعيت إلى أدائها.(١) فلا يمتنع إذا طُلب منه أن يشهد على الكتابة والمداينة، ولا يمتنع إذا طُلب منه الاستيثاق حال نشوب خلاف ونحوه.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٥٧)

ثم ينتقل السياق القرآني إلى محل العقد، من حيث كثرته وقلته، فيقول تبارك وتعالى (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله) فينهى تبارك وتعالى عن السأم، وهو الملل والسامة من كتابة وتوثيق المداينة، وفي تقديم الصغير على الكبير (صغيراً أو كبيراً) للفت الانتباه إلى أهمية التوثيق، حتى فيما يستهين به الإنسان ويستصغره، لأن المنازعة إن كانت في الكبير، فلا تمنع أيضاً أن تكون في الصغير، ولأن التهاون غالباً ما يكون في الصغير والقليل من المداينة، استخفافاً أو تبسطاً لقيمتها، ولكن بالرغم من ذلك، فقد يدخل عامل النسيان والأوهام، أو غيرها في حق ذلك الصغير، فتكون عاقبته بين الأطراف وخيمة، وفي هذا عناية القرآن الكريم ودقته، حتى فيما يُقَدَّم ويُؤَخَّر. لأنه من العالم بما خلق سبحانه وتعالى. كما تضمن التوجيه الرباني على تأكيد الأجل (إلى أجله) وذلك بضبطه بينكم اتفاقاً وكتابة. وهذا يفيد في المجال الإداري والمهني والعقاري، أهمية الضبط الكتابي للتوجيهات بين المرؤسين، وكذا بين العاملين، حتى لا يحصل الترامي بالمسؤولية بين المسؤولين عن أدائها، في درجات التكليف، وتسلسل المسؤولية، وكذلك حتى تُحفظ الحقوق، وتمنع المشاحنات الاجتماعية، ويتحقق التآلف الاجتماعي الذي هو مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية في كل اجتماع وتجمع بين المسلمين. وهذا يعني أهمية أن تولي الجهات المعنية بضبط العلاقات والصلاحيات والمسؤوليات ضبطاً كتابياً، لتحقيق المصالح ومنع المفاسد.

ثم يبين تبارك وتعالى علة كتابة المداينة في المديونية الصغيرة والكبيرة (ذلكم أقسط عند الله) فالقيام بكتابة المداينة الصغيرة والكبيرة أعدل عند الله تعالى، ويشهد عليه (وأقوم للشهادة) أي: أصح وأحفظ للشهادة، فليس المستفيد من توثيق المداينة المتداينين فقط، بل يمتد نفعها للشهادة، وللشهود، لأن في توثيقها حفظ للشهادة وأعدل للشهود، وينتفي الشك والريبة بالتدوين الكتابي (وأدنى ألا ترتابوا) فهذا التدوين أقرب للحفظ والإثبات، وأبعد للشك والريبة، فيكون احترازاً من أن تَشُكُّوا وترتابوا في بعضكم البعض. لأن في الشكك ما يؤدي للمنازعة. والشريعة الغراء حريصة كل الحرص على منع السُبُل التي تؤدي إلى المنازعة، ليتأكد بذلك تأكيد الشريعة الإسلامية على تحقيق التآلف، ومنع التنازع والمسارات التي تؤدي إليه. وكذا يفيد عنايتها بحفظ أدق الحقوق. كما يُفيد هذا أن المنهج الرباني يهتم ويولي العناية الكاملة بكل ما يحقق التآلف، ويمنع كل ما يؤدي إلى التنازع في صوره وحالاته المختلفة. وجاء أسلوب الحث عليه بترغيب المؤمن فيما يرغب فيه سبحانه وتعالى، وألا يحيد عنه ويهمله أحد (ذلكم أقسط عند الله)

ولما أن الأحوال قد تقتضي صعوبة تحقيق ذلك في التجارة السريعة بين الناس، فقد استثنى تبارك وتعالى ما نصت عليه الآية الحكيمة الكريمة (إلا أن تكون تجارة حاضرة تُدِيرُونها بينكم) أي إذا كان البيع يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة، لانتفاء المحذور في تركها.[١] (فليس عليكم جناحٌ ألا تكتبوها) فنفى سبحانه وتعالى الإثم في عدم كتابتها، لأن ليس فيها مداينة، بل هي مقابضة يداً بيد. ومعنى (تُدِيرُونها بينكم) أي تقبضونها يداً بيد.

ثم تتناول الآية الكريمة أمر البيع والإشهاد عليه (وأشهدوا إذا تبايعتم) فيأمر الله تعالى في باب البيع الإشهاد عليه. وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب.[٢] وهنا تأتي فائدة عن الجهود الفقهية، التي تفتقت عنها عقول العلماء، وذلك بالجمع بين النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، والتي منها أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، فخرجوا بهذا الحكم الفقهي، من أن الأمر ليس للوجوب بل للندب، لما في الحديث النبوي الشريف ما يدل على ذلك. ولا شك أن هذا الفقه فتق العقول، وأخرجها من العمومية في التفكير إلى العمق في التدبر والتفكير والإمعان، ومن يستطلع المضامين والأحكام الفقهية لهذه الآية، ينبهر من دقة فهم وتَفَهُم اللفظة من القرآن الكريم والسنة النبوية، بل وربط الضمير في الجملة بكل الأوجه المحتملة، وتقليب الدلالات واستيعابها، ومراميها ومرادها، ليخرج المتأمل من أن هذا القرآن الكريم نقل علماؤه من عموم الفهم إلى دقة الاستنتاج والاستنباط. كمثل فهمهم وتقليبهم لأوجه هذا النص من القرآن الكريم (ولا يُضار كاتبٌ ولا شهيد) فالمعنى الأول: لا يكتب الكاتب ما لم يملى عليه، ولا يزيد الشاهد في شهادته، ولا يُنقص منها. والمعنى الثاني: لا يمتنع الكاتب أن يكتب، ولا يمتنع الشاهد أن يشهد. والثالث: بأن يُدعى الشاهد إلى الشهادة، والكاتب إلى الكتابة، وهما مشغولان، فإذا اعتذرا، أخرجهما وآذاهما، بقوله: خالفتما أمر الله تعالى، ونحو هذا من القول. فيضر بهما.[٣] فهذه فائدة في كيفية تقليب أوجه الاحتمالات جميعها. بصور ودلالات معتبرة، وهذا يفيد

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/١)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦١/٣ ـ ٢٦٢)

أن النص القرآني قد يستوعب أكثر من مراد في كلمة أو جملة واحدة، لبلاغته العظيمة. وكلها تحقق مراداً دقيقاً متقارباً، وما أكثر ما مر ويمر من هذا.

ثم تنتهي الآية الحكيمة العظيمة بموعظة جليلة، قال تعالى (وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم) أي إن خالفتم ما أُمرتُم به، أو فعلتم ما نُهيتُم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم، لا تحيدون عنه، ولا تنفكون عنه.[1] والفسوق خروج عن الطاعة. وهذا بلا شك تحذير من مخالفة أمر الله تعالى ونهيه، وأنه يجب أخذه مأخذ الجد والاهتمام. (واتقوا الله) خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره، واتركوا ما زجر عنه ونهى. ثم يقول تبارك وتعالى (ويعلمكم الله) أي يعلمكم مصالح أموركم. مما يفيد أن الله تعالى هو الذي عَلَّمَ عباده هذا العلم المنصوص عليه، وكذلك هو الذي يُعَلِّمِ سائر العلوم النافعة، وهو الذي يُعَلِّمُ عباده ما يحتاجونه في مستقبلهم، بهدايتهم إليه، وتيسير وصولهم إليه كذلك، مما يستوجب الشكر له تبارك وتعالى، والتزام التقوى لما سبق من الفضل ولعلم، ولمزيد العطاء من فضل الله تعالى، وعلمه وبركاته وهدايته ورحمته. فإن التقوى وسيلةٌ وسببٌ في حصول العلم. ثم يقول تعالى (والله بكل شيء عليم) فهو عليم بعباده وبكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، وهو ما انتهت الآية العظيمة ببيانه (والله بكل شيء عليم)

(وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ٢٨٣)

ثم انتقل التوجيه الكريم من رب العالمين إلى حالة أخرى من أحوال ما يكون عليه البائع والمشتري، فقال تعالى (وإن كنتم على سفرٍ) وهذه حالة من الحالات التي يمكن أن يكون عليها المتبايعان، وهي السفر. وفي هذا من الفوائد استقصاء القرآن الكريم والتوجيهات الربانية للحالات والأوجه التي تؤكد أن هذا لا يمكن أن يكون بدقته إلا وحيٌ يُوحَى من رب العالمين، إذ استوعبت وشملت التوقع بما يمكن أن يكون عليه حال المتبايعان، وما يمكن أن يتعذر عليهم فيه (وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً) فهذا احتمال قد يقع، واسْتَوْعَبَهُ القرآنُ الكريم بتوجيه رب العالمين، وسواء حصلت المبايعة بالتداين في كله أو بعضه، مع تعذر الكاتب أو الأدوات التي يلزم بها الكتابة، كالورق والقلم.

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/١)

فأرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الرهن، فقال تعالى (فرهان مقبوضة) فعوضاً عن الكتابة، يكون الرهن، بأن يُعطى صاحب الحق ما يقبضه من الرهن. وهذا تضمين وضمان لصاحب الحق، بما أعطى من المبيع للمشتري، الذي هو المتدين أو المدين. وهذا يفيد دقة التشريع في معالجة قضايا البيع، لأهميته في حياة الناس، ولإمكانية وقوعه في أحوال الإقامة والسفر، وأيضاً حالة تعذر جميع الثمن أو بعضه، وافتقاد حالة التوثيق الكتابي لأي علة من العلل، التي يمكن أن تكون. فلا تتوقف مصلحة البائع والمشتري، بل تتحقق بما يضمن حقوق صاحب الحق.

ثم يوجه الله تعالى بالاستثناء من ذلك، بقوله سبحانه وتعالى (فإن أمن بعضُكم بعضا) وهنا وجود حالة الأمن والأمان بين الطرفين، ولمُتَعَزِّزةُ بالثقة، فأباح لطرفي البيع والشراء ألا يُكتب بينهما كتاب، ولا رهن يُرتهن، ووجَّه طرفي المبايعة للوفاء (فَلْيُؤَدِّي الذي أُؤتُمِنَ أمانته) فوجه المدين أن يؤدي الدين الذي عليه للدائن. وهنا سمى الله تعالى المشتري أي المدين أو المديون بالمؤتمن (الذي أُؤتُمِنَ) الذي استأمنه الْمُؤَمِّن، الذي هو البائع، صاحب الحق. وهو فعل مبني للمجهول. وسمى الله تبارك وتعالى الدين أمانة (أمانته) فليس هناك أبلغ من هذه التسمية التي تستحث دلالاتها على الأداء، مقابل استئمان المؤَمِّن لهذا الْمُؤتَمَن، فكأنه لا يليق بالمؤتمن إلا أداء ما استأمنه عليه الْمُؤَمِّن. ثم أمره بالتقوى (وليتق الله ربَّه) فليتق الله في أداء الدين. وجمع الله تعالى في أمره للمُخَاطَب بين لفظ الجلالة (الله) وأيضاً أنه (ربَّه) والرب هو المالك، فليتق الله الذي يملكه ويملك أمره وشأنه، وليحذر من ألا يكون كما أمره رَبُّه تبارك وتعالى. فإنها دقة بيانية ووعظية غاية في التأثير. فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، وعلم القرآن العظيم، ونعمة التعلم، وكل نعمة أنعم بها، ظاهرة وباطنة.

ثم يكتمل الوعظ في هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى (ولا تكتموا الشهادة) النهي عن كتمان الشاهد للشهادة، بإخفائها أو الامتناع عنها، ليكتم مضمونها، فإن من يكتمها موصوف ومحكوم عليه بما قاله تبارك وتعالى (ومن يكتُمْها فإنه آثمٌ قلبُه) قال السدي: يعني فاجرٌ قلبُه.(١) فهو موصوف بالفجور، وتخصيص القلب بذلك لأنه مُرتَكَز الأمانة، فهي نابعة منه، أو ضعيفة ومُختَفِيةٌ منه. وفي هذا دلالة على أن ضياع أمانة الشهادة وغيرها من القلب، دليل فجوره وعدم تقواه، وأن أداء أمانة الشهادة وغيرها، دليل تقوى القلب، الذي هو بيت الأمانة في الإنسان. ثم نوهت الموعظة إلى علم الله

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٥)

تعالى (والله بما تعملون عليم) فلا يخفى عليه شيء من عمل ابن آدم وغيره من خلقه، مما يوجب الحذر من أن يعلم الله تعالى عن الْمُخَاطَبِ شراً وإثماً. وهذا يُفيد أهمية استشعار المرءُ لعلم الله تعالى بحاله، وما هو عليه من خير أو شر، فإن ذلك يوجب له الطاعة، والبُعد عن المعصية، وإذا حَدَّثَتْهُ نفسه بمخالفة تذكر علم الله تعالى له.

وقول الحق تبارك وتعالى (والله بما تعملون عليم) قاعدة ضابطة للسلوك، فإن حَدَّثَته نفسُه بمعصية، قال لنفسه (والله بما تعملون عليم) وإن عزم على التقصير، قال لنفسه (والله بما تعملون عليم) وإن هَمَّ بخير استقوى على نفسه، وتشجع على إتمامه بقوله (والله بما تعملون عليم) وإن تردد في خير، تشجع بقوله لنفسه (والله بما تعملون عليم) فتكون قاعدة ضابطة ودافعة للخير، ومانعة من المعصية بإذن الله تعالى وتوفيقه.

وفي هذه العناية الربانية بقضية البيع والمداينة ما يدل على فضل البيع والشراء، والسعي في مناكب الأرض، والتشجيع عليها، لما فيها من المنافع والمصالح المتعدية بين العباد، وانتفاع بعضهم ببعض، بل ومجال للتعارف والصداقات والصدقات التي يحبها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكذا فيها ما يدل على أهمية العمل وذم البطالة، وأن منهج الإسلام يحقق توظيف القدرات البشرية في تحقيق المصالح، ويضبطها بتنظيمه وأحكامه الدقيقة الجليلة، الدالة على ذلك، إذ اشتملت أطول آية في أطول سورة في كتاب الله تعالى على قضايا البيع والشراء والمداينة والرهن في الحضر والسفر. فالحمد لله رب العالمين.

(لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦)

ينتقل السياق في هذه السورة المباركة إلى مُلك الله تعالى، وقضايا الإيمان والمغفرة والإنعام. فيقول الله تبارك وتعالى (لله ما في السماوات وما في الأرض) إثبات وبيان من الله تعالى أن له مُلْكُ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما خلقاً وملكاً وتصرفاً وعلماً وإحاطة، بل حتى ما يُبطن الإنسان وما يخفيه في قلبه، أو يُخفيه عن الناس، أو يُظهره علانية، فإنه يعلمه ويحيط به ويُحاسب عليه سبحانه وتعالى، قال العليم الحكيم (وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسِبْكُم به الله) وفي هذا إثبات علم الله تعالى، وإثبات الحساب، وبالتالي إثبات اليوم الآخر، وإثبات ملك الله تعالى، وأنه الخالق عَزَّ وجل، وأنه المتصرف، وأنه العالم الذي لا يخفى عليه سِرٌ من أسرار خلقه تبارك وتعالى. فيعلم ما يُبطن المنافق الذي يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر، ويعلم الله من كانت نيته سيئة في أداء عمل صالح، ويعلم من يعمل عملاً صالحاً وهو يريد به الرياء والسمعة، ومن نوى بقلبه طاعة وما استطاع أن يقوم بها، ومن نوى ألا يؤدي طاعة، وفوتها بالأسباب، كالذي ينام وهو مبيت النية أن لا نية له في أداء الصلاة في وقتها، وبالتالي لا يخفى على الله تعالى من أَسَرَّ في نفسه سريرة طيبة أو فاسدة. وبهذا يتأكد للمؤمن أنه عبدٌ ومُلكٌ لله تعالى، وأن ما يملكه من أشياء، وأمور، ما هي إلا مُلك تصرف، لأنه تاركها خلفه إن لم تتركه وتزول عنه، بل ويعجز عن تدبيرها كيفما يشاء، ليدفع عنها الجوائح والشرور والخسائر، إلا بتدبير مالكها الحقيقي سبحانه وتعالى، الحكيم العليم، وهذا يُثبت لكل أحدٍ أنه وما يملكه وينتفع به مفتقرٌ للمالك الحقيقي سبحانه وتعالى، مما يلزم طاعته والبعد عن معصيته، وسؤاله والاستعانة به، والتوكل عليه.

ثم تضمنت الآية الكريمة أن العفو والمغفرة مُلْكٌ لله تعالى (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) فله حق المغفرة لمن يشاء من عباده، وله حق العقاب لمن يشاء من عباده، فلا مُعَقِّب لحكمه، وأنه قادر على كل شيء (والله على كل شيء قدير) وفي هذا اثبات المغفرة من الله تعالى، وأن العبد

مهما كان منه من ذنب فإن الله تعالى يغفره إذا أراد ذلك، فهو على كل شيء قدير. مما يستدعي ويستثير المؤمن نحو طلب المغفرة من الله تعالى. وألا ييأس مهما بلغت به الذنوب والمعاصي، طالما أن الله تعالى يغفر لمن يشاء. وفي قوله تعالى (لمن يشاء) أن الاختيار له سبحانه وتعالى، مما يضبط سلوك العبد، لأنه لا يعلم أهو ممن شاء الله تعالى له المغفرة، أو ممن لم يغفر له ذنوبه، فيسعى حثيثاً للطاعة والاستغفار، والبعد عن المعاصي والسيئات. حتى لا يتمادى في عصيانه، ولكن يُغلب المغفرة والرحمة من الله تعالى، لما دلت عليه نصوص الشريعة الغراء، مثل ما جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني.)[١]

وكان لنزول هذه الآية الكريمة وقعٌ على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لما فيها من محاسبة الله تعالى على ما في النفس، يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله ما في السماوات وما في الأرض. وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله. فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم جثوا على الرُّكّب. وقالوا: كلفنا من الأعمال ما نطيق، والصلاة والصيام والزكاة والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نُطيقُها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا. بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما أقر بها القوم، وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في أثرها هاتين الآيتين (آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون...) وقوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[٢]

فكانت هاتين الآيتين طمأنينة، حيث قال الله تعالى فيها (آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون) فأثبت تبارك وتعالى مشاركة المؤمنين بما آمن وصدَّق به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا تشريف للمؤمنين في مشاركة نبيهم فيما آمن وصدَّق به. وفيه عناية من الله تبارك وتعالى بعباده المؤمنين، فأزاح عنهم غُمَّة ما كانوا يشعرون به. فقد آمنوا بكل ما أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم (كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله لا نفرق بين أحدٍ من رُسُله) وهذا

---

(١) البخاري (٣٨٤/٤) برقم (٧٤٠٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (٣٤٥/١ _ ٣٤٦)

إثبات لإيمانهم، ولما يجب أن يؤمن به كل مسلم، وكل من أراد أن يدخل في الإسلام. (وقالوا سمعنا وأطعنا) فهذا حال المؤمن السمع والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يُنازع أمراً أو نهياً لله تعالى برأي أو ذوق أو غير ذلك، بل يقول لكل شريعة الله تعالى (سمعنا وأطعنا)

فتكون (سمعنا وأطعنا) قاعدة للمسلم، فإن وسوسة نفسه بشيء في أوامر الله تعالى، قال (سمعنا وأطعنا) وإن وسوس له وسواس من الإنس والجان، قال (سمعنا وأطعنا) وإن سمع ما ينافي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، استعاذ، وقال (سمعنا وأطعنا) وإن تنازع أناس في شريعة الله تعالى، انتصر لله تعالى، بقوله (سمعنا وأطعنا) فتكون قوة يتقوى بها على كل ما يخالف شريعة الله تعالى.

وكذلك يقول المؤمن (غفرانك ربنا وإليك المصير) فيطلب من الله تعالى المغفرة على ما حصل من ذنب وتقصير، ومعترفاً ومؤمناً بأن المصير إلى الله تعالى، وهي قوة لمن يتذكرها. فكلما استشعر التقصير من نفسه، قال (غفرانك ربنا وإليك المصير) وإن حصل ذنب تذكر، فقال (غفرانك ربنا وإليك المصير)

ثم يقول تبارك وتعالى (لا يُكلف الله نفساً إلا وسعها) فمن رحمته سبحانه وتعالى أنه لم تكن في الشريعة ما يشق على النفس، ولا بما لا تتسع له القدرة البشرية، ومن رحمته أنه رَخَّص لكل حال من أحوال العبد، ما يتوافق وحاله، فرخص للمريض مثلاً: الإفطار في رمضان ثم القضاء، ورخص للعاجز عن الصلاة قائماً، أن يُصلي جالساً، وجعل ربع العشر للزكاة. وللساهي في الصلاة سجود السهو. فمن رحمته تبارك وتعالى لم يُكلف ولم يُلزم أحداً إلا بما تتسع له طاقته وقدرته. وهو عالم بسعة كل أحد من خلقه، فيعرف سعة وقدرة المريض على ما يمكن أن يقوم به، وكذلك صاحب المال والفقير، والخائف والآمن، فيعلم الله تعالى حال كل أحدٍ من عباده على ما يمكن أن يقوم به من أمر في طاعته، فيما افترضه أو ندب إليه، وكذلك يعلم على أي حال يمكن أن يقوم بها، فلا يخفى عليه شيء. ثم قال تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وهذا يفيد أن للإنسان ما كسب من الخير، ويُثاب عليه، وأيضاً عليه ما كسب من الإثم، ويُحاسب ويجازى عليه. فامتنع الظلم منه سبحانه وتعالى البتة. وإذا علم الإنسان بذلك استوجب عليه التحرز لنفسه من الإثم، والاجتهاد في فعل الخيرات.

ومن الفوائد أن الله تعالى لم يذكر في الكسب لفظة الخير أو الإثم (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) لأن الاكتساب إما أن يكون خيراً لصاحبه، فتكون النتيجة له. وإما أن يكون إثماً، فتكون نتيجته عليه، فلم يكن هناك داعياً لذكر الخير والإثم، بالتنصيص عليهما، وهذا من دقة وجمال البيان القرآني. إذ استغنى عَمَّا ليس له حاجة من الألفاظ.

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى الدعاء الجامع (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وهو طلب العفو عن إثم ما يقع، بسبب النسيان والخطأ، وهذا من لطفه تبارك وتعالى، لأن الإنسان لا يخلو من ارتكاب الأخطاء، والتَّعَرّض للنسيان الذي يُفَوّت عليه الطاعة، ويَقْصُرُ به عن السباق في الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فأرشده المولى عَزَّ وجل إلى طلب المغفرة منه جَلَّ جلاله. ثم سؤال الله تعالى التخفيف من إصر التكاليف (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) فلا تحمل علينا يا ربنا ما يَثْقُلُ ويصعب علينا، كما كان على الأمم الماضية فيما فُرض عليهم. (ربنا ولا تُحَمّلْنَا مالا طاقة لنا به) فلا تحمل علينا من التكاليف الشاقة، والمصائب والبلاء، فلا تبتلينا بما لا قِبَلَ لنا به، ولا طاقة لنا عليه. وهذا دعاء عظيم، بأن يدفع الله تعالى به كل بلاء ومصيبة.

وفي تعليم ربنا لعباده المؤمنين هذا الدعاء العظيم، ما يدل على رحمته، وأنه ما أراد بعباده مشقة، ولا بلاء ولا أذى، وأنه يحب الدعاء من عباده له سبحانه وتعالى، وكذلك سؤاله والتضرع إليه. (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) وفي قوله (واعف عنا) أي عن ذنوبنا، ولا تعاقبنا عليها[١] (واغفر لنا) والغفر أي: الستر. والمغفرة: ستر الذنوب[٢] والمغفرة من الله تعالى أن يصون العبد من أن يمسه العذاب[٣] وهي إزالة الذنب ومحوه عن المذنب (وارحمنا) أي أحسن وأنعم وتفضل علينا، وكذلك لا تجعلنا بتوفيقك نقع في ذنب آخر. (أنت مولانا) أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا (فانصرنا على القوم الكافرين) أي فانصرنا على الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٠٨/١)

(٢) المرجع السابق

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٦٢)

نبيك محمد صلى الله عليه وسلم. واجعل العاقبة لنا عليهم في الدنيا والآخرة[١] وفيه إثبات أن الله تعالى هو العفو، الذي يعفو، وأنه هو الذي يُطلب منه العفو لا من غيره، وهو الغفور، الذي يغفر فَتُطْلَب منه المغفرة، وهو الرحمن، الذي يرحم، وتُطلب منه الرحمة، وهو الذي ينصر، فيُطلب منه النصر في كل أمر.

وفي هذا من الفوائد تعليم جوامع الدعاء، وأن من رحمة الله تعالى بعباده أن علمهم كيف يدعون بجوامع وأحسن الدعاء وأكمله، لخير الدنيا والآخرة. ومن فوائد هاتين الآيتين قوله صلى الله عليه وسلم (الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأهما في ليلة كفتاه)[٢] وقال صلى الله عليه وسلم (أُعطيت خواتيم سورة البقرة، من بيت كنز من تحت العرش، لم يُعْطَهُنَّ نبي قبلي)[٣] وقال صلى الله عليه وسلم (ولا يُقْرَآنِ في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[٤]

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتوب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وبفضل الله تعالى تم الجزء الأول

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثاني

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥١/١)

(٢) البخاري (٩٣/٣) برقم (٤٠٠٨)

(٣) أحمد، المسند (٢٧٤/٣٥ – ٢٧٥) برقم (٢١٣٤٥)

(٤) الترمذي (١٤٧/٥) برقم (٢٨٨٢)

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكـريم.

ـ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

ـ الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة (د.ت)

ـ البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

ـ البيضاوي، ناصر الدين أبوسعيد عبدالله بن عمر الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤٠٨،١ هـ١٩٨٨م.

ـ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكة المكرمة: دار البار. (د.ت).

ـ ابن الجوزي، زاد المسير في عم التفسير، تحقيق محمد عبدالرحمن عبدالله، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧هـ

ـ الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

ـ جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، اعتنى به، محمد نعيم عرقسوسي، ومحمد رضوان عرقسوس. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

ـ الحاكم، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م

ـ ابن حنبل، أحمد الشيباني، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ،مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولي ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

ـ أبو داود سليمان بن الأشعث، السنن، إشراف صالح عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ، ضبطه وراجعه: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

ـ الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف، دار المعرفة، بيروت، (د.ط) (د.ت)

ـ السعدي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، جدة: دار المدني، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م.

ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الرياض، دار عالم الكتب. (د.ت)

ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

ـ ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: الحسين أيت سعيد، دار المعرفة، الدار البيضاء، (د.ط) ، (د.ت).

ـ ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، إشراف محمود الأرناؤوط، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

ـ ابن ماجه، أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (د.م)، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

ـ مالك بن أنس، الموطَّأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

ـ مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار الحديث، (د.ت)

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت). ـ

ـ النووي، محيي الدين أبو زكريا يحي بن شرف، شرح صحيح مسلم ، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

ـ النسائي، أبو عبد الحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام لسندي، ترقيم عبد الفتاح أبو غدة، ط١، بيروت: مكتب لمطبوعات الإسلامية بحلب، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٦
سورة الفاتحة	٩
سورة البقرة	١٤
الم ذلك الكتاب لا ريب فيه	١٤
إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم	١٧
وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض	٢٠
وإذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا	٢٢
أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى	٢٤
يا أيها الناس اعبدوا ربكم	٢٨
إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة	٣٢
كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم	٣٤
وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة	٣٧
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم	٣٩
يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم	٤٣
يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين	٤٧
وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة	٥٠
وإذ قال موسى لقومه يا قومي إنكم ظلمتم أنفسكم	٥١

وإذ قلنا ادخلوا القرية فكلوا منها حيث شئتم	٥٣
إن الذين امنوا والذين هادوا والنصارى و الصابئين	٥٧
وإذا اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور	٥٧
وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة	٥٩
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك	٦١
أفتطمعون ان يؤمنوا لكم	٦٣
ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب	٦٤
وإذ اخذنا ميثاق بني إسرائيل	٦٧
وإذ اخذنا ميثاقكم	٦٩
ولقد اتينا موسى الكتاب	٧٢
قل إن كانت لكم الدار الاخرة عند الله	٧٧
قل من كان عدوا لجبريل	٧٨
ولقد أنزلنا إليك آيات بينات	٨٠
يا أيها الذين امنوا لا تقولوا راعنا	٨٥
ما ننسخ من اية	٨٦
ود كثير من اهل الكتاب	٨٩
ومن أظلم ممن منع مساجد الله	٩٣
وقالوا اتخذ الله ولدا	٩٦
إنا ارسلناك بالحق	٩٨
وإذا ابتلى إبراهيم ربه	١٠٣
وإذ يرفع إبراهيم القواعد	١٠٧

وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا	١١٣
سيقول السفهاء من الناس	١١٨
قد نرى تقلب وجهك في السماء	١٢٣
الذين اتيناهم الكتاب	١٢٥
ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام	١٢٧
كما ارسلنا فيكم رسولا منكم	١٢٩
يا أيها الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلاة	١٣١
إن الصفا والمروة من شعائر الله	١٣٥
إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى	١٣٧
إنّ في خلق السماوات والأرض	١٤٠
ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا	١٤١
يا أيها الناس كلوا مما في الأرض	١٤٤
وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله	١٤٦
يا أيها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم	١٤٨
ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب	١٥٣
يا أيها الذين امنوا كتب عليكم القصاص في القتلى	١٥٦
كتب عليكم إذا حضر احدكم الموت	١٥٩
يا أيها الذين امنوا كتب عليكم الصيام	١٦١
وإذا سألك عبادي عني	١٦٥
أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم	١٦٧
ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل	١٦٩

ويسألونك عن الأهلة	١٧٠
وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم	١٧٢
وأتموا الحج والعمرة لله	١٧٦
الحج أشهر معلومات	١٨٠
ومن الناس من يعجبك قوله	١٨٧
يا أيها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة	١٨٩
سل بني إسرائيل	١٩١
كان الناس امة واحدة	١٩٤
ام حسبتم ان تدخلوا الجنة	١٩٧
يسألونك ماذا ينفقون	١٩٨
كتب عليكم القتال وهو كره لكم	١٩٩
يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه	٢٠٢
يسألونك عن الخمر والميسر	٢٠٦
ويسألونك عن اليتامى	٢٠٩
ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن	٢١٢
ويسألونك عن المحيض	٢١٣
ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	٢١٨
للذين يؤلون من نسائهم	٢٢٠
والمطلقات يتربصن بأنفسهن	٢٢٢
الطلاق مرتان	٢٢٥
وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فأمسكوهن	٢٢٨

وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن	٢٣١
والوالدات يرضعن اولادهن	٢٣٣
والذين يتوفون منكم	٢٣٨
ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء	٢٣٩
لا جناح عليكم إن طلقتم النساء	٢٤٢
وإن طلقتموهن من قبل ان تمسوهن	٢٤٤
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى	٢٤٥
والذين يتوفون منكم	٢٤٧
الم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف	٢٤٩
الم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى	٢٥٣
وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا	٢٥٥
وقال لهم نبيهم إن اية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة	٢٥٧
فلما فصل طالوت بالجنود	٢٥٨
ولما برزوا لجالوت وجنوده	٢٦١
فهزموهم بإذن الله	٢٦٢
تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض	٢٦٥
يا أيها الذين امنوا أنفقوا مما رزقناكم	٢٦٧
الله لا إله الا هو الحي القيوم	٢٦٩
لا إكراه في الدين	٢٧٢
الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه	٢٧٤

أو كالذي مر على قرية	٢٧٦
وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحي الموتى	٢٧٩
مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله	٢٨٠
الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله	٢٨٢
يا أيها الذين امنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى	٢٨٥
يا أيها الذين امنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم	٢٨٩
الشيطان يعدكم الفقر	٢٩٢
يؤتي الحكمة من يشاء	٢٩٣
وما انفقتم من نفقة	٢٩٤
ليس عليك هداهم	٢٩٦
للفقراء الذين احصروا في سبيل الله	٢٩٨
الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار	٣٠٠
الذين يأكلون الربا	٣٠١
إن الذين امنوا وعملوا الصالحات	٣٠٤
يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا	٣٠٥
يا أيها الذين امنوا إذا تداينتم بدين	٣٠٨
وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا	٣١٥
لله ما في السماوات وما في الأرض	٣١٨
قائمة المراجع	٣٢٣

للمؤلف

- فوائد القرآن الزكية
- الفوائد السنية من السيرة النبوية
- الموجز في السيرة النبوية
- أصول التربية الإسلامية
- أصول الأخلاق الإسلامية
- الآثار التربوية لدراسة اللغة العربية
- أصول علم التربية
- السبق التربوي: مفهومه ومنهجه ومعالمه
- مراحل النمو في ضوء التربية الإسلامية
- المشكلات التربوية والأسرية وأساليبها العلاجية
- مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة
- التربية الإبداعية في المنهج الإسلامي
- من أهداف التربية الإسلامية
- الهدف التعليمي والثقافي لتقنية المعلومات

@dr_khlid

dr_khalid_16@hotmail.com

مركز الاستشراف للدراسات والاستشارات
التربوية والتعليمية والإدارية
المدينة المنورة

alestshraaf@gmail.com www.alestshraaf.sa @alestshraaf

9 786030 249428

مطبعة الحميضي ت 4259825 الرياض

فوائد القرآن الزكية

أ.د. خالد بن حامد الحازمي
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً